# علم الإمام

بحوث في حقيقة ومراتب علم الأئمّة المعصومين

تقريراً لأبحاث

**السيد كمال الحيدري**

بقلم

الشيخ علي حمّود العبادي

مؤسسة الإمام الجواد (ع)

تأسست 1427 هـ

للفكر والثقافة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

يعدّ هذا البحث جزءًا من مجموعة أبحاث في الإمامة القرآنية، ألقيت كدروس على ثلّة من الفضلاء في حوزة قم المقدّسة، وقد حاول تلميذنا العلاّمة الحجّة الشيخ علي حمّود العبادي - دامت توفيقاته - أن يخرجها بصيغة كتاب بعد تدوينها وإبداء الملاحظات الفنّية والتوضيحية عليها؛ مما كان له الأثر المفيد في صياغتها بهذه الصورة.

وبعد ملاحظة ما قرّره وجدت أنها تستوعب جميع التفاصيل التي عرضتُ لها بدقة وعمق وحسن بيان؛ ومن ثمّ فهي تعبّر عن جهد فكريّ وعلميّ جليل للكاتب الفاضل بذله من أجل توضيح هذه الأفكار.

وإني إذ أشكر له هذا الجهد المبارك أدعو الله العليّ القدير أن يجعله علماً من أعلام هذه الأمّة راجياً أن يواصل الشوط الذي افتتحه بهذه الدراسة، لاسيّما مع ما تعيشه الأمّة من تساؤلات مختلفة في هذا المجال، آملاً أن تستجيب لبعض تلك المتطلّبات الفكرية والعقائدية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كمال الحيدري

٢٥ ربيع الثاني ١٤٢٩ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# المقدمة

تعدّ الإمامة من أهمّ الحقائق التي وقف عندها القرآن الكريم وأولاها عناية خاصّة، حيث بيّن أنّها المقام الإلهي الذي لم ينله إبراهيم الخليل عليه السلام إلاّ بعد مقام النبوّة والخلّة؛ قال الإمام الرضا عليه السلام: «إنّ الإمامة خصّ الله عزَّ وجلّ بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوّة والخلّة مرتبة ثالثة، وفضيلة شرّفه بها وأشاد بها ذكره فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٤)، فقال الخليل سروراً بها: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصفوة»[1].

وهذه الإمامة كما عرّفها القرآن وبيّنتها النصوص الروائيّة، هي غير الإمامة السياسيّة التي انطلقت منها المدرسة السنيّة، حيث قامت على أساس أنّ الإمام أو الخليفة هو الذي يتسنّم هرم السلطة السياسيّة في النظام الإسلامي، وهو المسؤول عن إدارة شؤون الأمّة على مختلف المستويات الدينيّة والدنيويّة.

---

(١) **الأصول من الكافي**، لثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني، دار صعب، دار التعارف للمطبوعات، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، الطبعة الرابعة، عام ١٤٠١ هـ : ج١ ص١٩٩، كتاب الحجّه، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته، الحديث: ١.

ومن أهم خصائص الإمامة أنّ القرآن كلّما تعرّض لمعناها تعرّض معها للهداية تعرّض التفسير؛ قال تعالى في قصص إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ * وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (الأنبياء: ٧٢ـ٧٣)، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤) فوصفها بالهداية وصف تعريف.

إلاّ أنّه قد يتساءل: ما المراد من الهداية التي تكون من اختصاصات الإمامة القرآنيّة؟ وهذا ما أجابت عنه الآيات المتقدِّمة حيث قيّدت الهداية أنّها «بأمرنا» ومعنى ذلك أنّ الهداية التي أُوكلت إلى الإمام ليست هي مطلق الهداية التي هي مجرّد إراءة الطريق الذي هو شأن مقام النبوّة والرسالة، ويقوم بها كلّ مؤمن يهدي إلى الله سبحانه بالنصح والموعظة والإرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (إبراهيم: ٤)، وقوله في مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (المؤمن: ٣٨).

وإنّما المراد منها نوع آخر من الهداية لا تقع إلاّ بأمر الله تعالى، وقد بيّن القرآن الكريم حقيقة هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس: ٨٢ ـ٨٣)، ولازم ذلك أنها هداية تكوينيّة يستحيل أن يتخلّف المراد عنها.

وببيان آخر: لا يمكن أن يكون المراد من الهداية في قوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ الذي وقع وصفاً لمقام الإمامة، الهداية بمعنى إراءة الطريق، وذلك لأنّ الله سبحانه جعل إبراهيم الخليل عليه السلام إماماً بعدما كان نبيّاً؛ قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة:

١٢٤)، ومن الواضح أنّ النبوّة لا تنفكّ عن الهداية بمعنى إراءة الطريق، فلا يبقى للإمامة إلاّ الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب، وهي نوع تصرّف تكويني في النفوس بتسييرها في سيرها التكاملي في درجات صعودها إلى الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (فاطر: ١٠) بنقلها من موقف معنوي ودرجة إيمانيّة إلى موقف معنوي ودرجة إيمانيّة أخرى.

على هذا يكون الإمام هو الرابط في نزول الفيوضات المعنوية والمقامات الباطنيّة التي يهتدي إليها المؤمنون بأعمالهم الصالحة ويتلبّسون بها رحمةً من ربّهم. وبهذا تتميّز هذه الهداية عن الهداية التشريعيّة التي هي من شؤون النبوّة والرسالة، بل كلّ مؤمن يهدي إلى الله سبحانه ـ كما تقدّم ـ.

والحاصل فكما أنّ النبيّ رابط بين الناس وبين ربّهم في أخذ الفيوضات الظاهريّة وهي الشرائع الإلهيّة التي تنزل بالوحي على النبيّ، وتنشر منه وبتوسّطه إلى الناس، فيكون دليلاً يهدي الناس إلى الاعتقادات الحقّة والأعمال الصالحة، كذا الإمام فإنّه الرابط بين الناس وبين ربّهم في إعطاء الفيوضات الباطنيّة الملكوتيّة وأخذها، فهو دليل هادٍ للنفوس إلى مقاماتها ودرجاتها المعنوية.

قال الطباطبائي: «فالإمام هادٍ يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم، وهدايتها إيصالها إيّاهم إلى المطلوب بأمر الله، دون مجرّد إراءة الطريق»[(١)].

ويدلّ ذلك دلالة واضحة: «على أنّ كلّ ما يتعلّق به أمر هذه الهداية الخاصّة ـ وهو القلوب والأعمال ـ فللإمام باطنه وحقيقته، ووجهه الأمري حاضر عنده

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، للعلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة ١٣٩٣: ج١ ص٢٧٢.

غير غائب عنه»[(١)].

وبهذا يتبيّن أنّ تعريف الإمامة بالسلطة والقيادة السياسيّة، هو تعريف لها بما هو ثمرة من ثمراتها الثابتة لتلك الشجرة الطيّبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥).

## مراتب الإمامة القرآنيّة

من الحقائق الأساسيّة التي تقوم عليها هذه الدراسة أنّها تعتقد أنّ الإمامة القرآنيّة لها درجات ومراتب متعدّدة ـ كما هو الحال في النبوّة العامّة التي تتفاضل مراتبها فيما بينها ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (الإسراء: ٥٥) ـ وأعلى مراتبها إنّما هي للخاتم صلّى الله عليه وآله وأوصيائه المعصومين من أهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

ومن الواضح أنّه لا يسعنا في هذه المقدّمة بيان هذه الحقيقة القرآنيّة، إلاّ أنّ ما نريد الإشارة إليه هو أنّ هذه الإمامة التي نعتقدها لم يكشف النقاب عنها كما بيّنه القرآن الكريم والسنّة الشريفة، فكانت النتيجة عدم وجود رؤية واضحة لكثير من المسائل المرتبطة بالإمامة، خصوصاً ما يتعلّق بعلم مقام الإمامة.

ومن الجدير بالذِّكر أنّ موضوع علم الإمام ـ بحسب الاصطلاح القرآني ـ لم يبحث عنه في كتاب بنحو مستقلّ، يبيّن فيه حيثيّة هذا العلم وآليّاته وأبعاده وحدوده ونحوها من المسائل المتعلّقة بذلك، ما عدا بعض الأبحاث الاستطراديّة التي جاءت في ثنايا بعض البحوث التي لم تشتمل على معالجة جميع ما يرتبط بموضوع علم الإمام.

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٢٧٣.

على هذا الأساس بادر سماحة السيّد كمال الحيدري بإلقاء مجموعة من الدروس ليعطي رؤية واضحة حول مسألة علم الإمام، خصوصاً تلك المرتبة الخاصّة بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

## منهج البحث

يتلخّص منهج البحث في النقاط التالية:

١ ـ الاعتماد في الاستدلال على النصوص القرآنيّة.

٢ ـ الاستناد في البرهنة والاستدلال على روايات أهل البيت عليهم السلام التي تبلغ حدّ الاستفاضة أو التواتر، ممّا يُغني عن الدخول في غمرة البحث السندي.

٣ ـ الاستناد على روايات أهل السنّة، في المواضع التي تتطلّب ذلك، وتصحيحها على وفق أشدّ مبانيهم في التصحيح.

٤ ـ الاستناد والرجوع إلى بعض البحوث الفلسفيّة والكلاميّة في الموارد التي تحتاج تغطيتها في الاستدلال والبرهنة إلى ذلك.

٥ ـ الاستئناس والاستشهاد بأقوال علماء الفريقين.

أمّا الخطوات التي اتبعت لتقرير البحث فهي:

١ ـ عرض الأبحاث وفق فهرسة متسلسلة بصورة منطقيّة، إذ إنّ أغلب الأبحاث جاءت مبثوثة ضمن أبحاث أخرى، بل قد تكون المسألة الواحدة مبثوثة في مواضع مختلفة ومتباعدة، كما تقتضيه طبيعة إلقاء الدروس.

٢ ـ تدوين الأبحاث وفتحها في ضوء مراجعة عدد من المصادر المعتبرة التي أحال إليها سماحة السيّد، وإخراجها عن صورة الدرس والمحاضرة.

٣ ـ حرصت على الإفادة من المصادر والمراجع القديمة لأصالتها.

٤ ـ تخريج أقوال علماء الفريقين من الكتب المعتبرة والموثّقة لدى كلّ طرف.

٥ ـ عنونة الأبحاث بعناوين متلائمة مع مضمونها وتسلسلها بشكل منطقي.

## خطّة البحث

انطلقت خطّة البحث بتقسيمه إلى فصول عشرة:

**الفصل الأوّل**: تضمّن البحث في بيان حدود وسعة علم الإمام من خلال حديث الثقلين، بعد إثبات تواتره بين الفريقين، مضافاً إلى بيان المراد من أهل البيت عليهم السلام في الحديث الشريف، وكذلك بيان مراتب القرآن الكريم ثمّ الاستدلال على كيفيّة دلالة حديث الثقلين على علم أهل البيت عليهم السلام بالكتاب بجميع مراتبه.

**الفصل الثاني**: اضطلع بالبحث عن الأدلّة على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته أعلم من جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

**الفصل الثالث**: كرّس للتعريف بحقيقة وماهيّة علم الإمام وأنّه ليس من سنخ العلوم الحصوليّة الحاصلة من طريق الألفاظ والمفاهيم، إنّما هو يقين قرآني يحصل من طريق مشاهدة الملكوت من خلال الرؤية والمشاهدة القلبيّة.

**الفصل الرابع**: عني ببيان وسائل تحقّق علم الإمام، وأنّه علمٌ لدنيّ حاصل من الله تعالى بواسطة روح القدس عبر آليّات ووسائل متعدّدة من قبيل تحديث الملائكة لهم عليهم السلام والإلهام والقذف والنقر في القلوب والأسماع.

**الفصل الخامس**: تناول البحث في علم أهل البيت عليهم السلام

بالغيب، مع معالجة الآيات الدالّة على انحصار علم الغيب بالله تعالى وبين الآيات الدالّة على علم غيره تعالى بالغيب، وكذلك التوفيق بين علمهم عليهم السلام بالغيب وبين سلوكهم الخارجي.

**الفصل السادس**: تضمّن الحديث عن حقيقة وكيفيّة ازدياد علمهم عليهم السلام، وبيان حقيقة العلم الذي يزدادون فيه، وفي هذا الفصل تمَّ البحث أيضاً حول عقيدة البداء عند الشيعة الإماميّة.

**الفصل السابع**: كُرِّس للبحث عن علم أهل البيت عليهم السلام بتأويل الكتاب، مع بيان حقيقة التأويل وفرقه عن التفسير.

**الفصل الثامن**: دارَ البحث فيه حول بيان أنّ علم أهل البيت عليهم السلام أ هو بالقوّة أم بالفعل؟ وتبيّن أنّ علمهم عليهم السلام بالفعل لا بالقوّة، مضافاً إلى معالجة بعض الروايات التي يظهر منها أنّ علمهم عليهم السلام بالقوّة.

**الفصل التاسع**: تناول البحث فيه عن بيان حقيقة اشتمال أحاديثهم عليهم السلام على الصعب المستصعب من خلال استعراض أنواع وأقسام المعارف التي توفّر عليها أهل البيت عليهم السلام، مضافاً إلى بيان التكليف إزاء الأحاديث الصعبة المستصعبة.

**الفصل العاشر والأخير**: عني بالبحث عن حقيقة الغلوّ وأقسامه، وبيان أنّ ما توفّر عليه أهل البيت عليهم السلام من مقامات وعلوم من قبيل علمهم بالغيب أو التفويض لهم في عالم التشريع والتكوين ونحوها من المقامات كلّها خارجة عن دائرة الغلوّ.

## إهداء

أسأله تعالى أن يتقبَّل منّي هذه البضاعة المزجاة بأفضل القبول، متضرِّعاً إليه تعالى أن يرفع أجر هذا العمل إلى الأرواح الطاهرة من أهل البيت عليهم السلام وأن تكون موضع رضاهم عليهم السلام.

## شكر و تقدير

ولا يفوتني أخيراً أن أتقدّم بالشكر الجزيل لسماحة السيّد جعفر الحكيم الذي بذل جهداً وافراً في تلخيص هذه الدروس وإبراز النقاط المهمّة فيها، وكذلك أشكر سماحة الشيخ خليل رزق على ما بذله من جهد مشكور في هذا المجال، والأخ عبد الرضا افتخاري الذي قام بالمراجعة اللغويّة للكتاب.

والحمد لله ربّ العالمين.

علي حمود عناد العبادي

١٥ ربيع الثاني ١٤٢٩هـ

# الفصل الأوّل

# سعة وحدود علم الإمام

من أهمّ الأدلّة التي يمكن الاستناد إليها للوقوف على حقيقة سعة علم الإمام وحدوده، حديث الثقلين، ولكي يتّضح ذلك لابدّ من التوفّر على عدّة مباحث:

## المبحث الأوّل: سند حديث الثقلين

من الواضح أنّ البحث في سند حديث الثقلين يعتبر نقطة منهجيّة بلحاظ الآثار والنتائج المترتّبة عليه، ذلك لأنّ هذا الحديث لو كان من الآحاد أو من الأخبار المستفيضة فإنّه يرسم لنا مساراً خاصّاً في البحث وفي ترتيب الآثار والنتائج تختلف عن تلك الآثار المترتّبة فيما لو كان من الأحاديث المتواترة القطعيّة، ومن أهمّ النتائج المترتّبة على الحديث القطعيّ السند هو سقوط معارضه عن الاعتبار إذا كان من أخبار الآحاد، بخلاف ما لو كان الحديث من أخبار الآحاد وعارضه خبر آحاد آخر، فعند ذلك يكون الحديثان متعارضين. ومن ثمّ لابدّ من اللجوء إلى موازين وقواعد باب التعارض لتقديم أحد الخبرين على الآخر. مضافاً إلى ترتّب آثار أخرى على الحديث القطعي سنداً، لا تترتّب على غيره من الأحاديث حتّى لو كانت صحيحة السند. على أساس ذلك تنبثق أهمّية البحث السندي.

من هنا قبل الولوج في الاستدلال لابدّ من الوقوف على سند هذا الحديث لمعرفة أنّه يمكن إثبات تواتره أم لا؟

في البدء لابدّ من الإشارة إلى أنّ هذا الحديث رواه كبار الصحابة والتابعين.

وهذا ما حقّقه السيّد حامد اللكهنوي صاحب عبقات الأنوار، حيث أثبت تواتر هذا الحديث عند الفريقين وفي جميع الطبقات، وأشار إلى أنّ من رواة الحديث أربعة وثلاثين من كبار الصحابة، منهم: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام والزهراء البتول عليها السلام والإمام الحسن عليه السلام، وسلمان الفارسي، وأبو ذرّ الغفاري، وابن عبّاس، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو الهيثم بن التيهان، وحذيفة بن اليمان، وأبو هريرة، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقّاص، وعمرو بن العاص، وعدي بن حاتم، وأبو أيّوب الأنصاري، وأُمّ سلمة. وبعد ذلك ذكر رواة الحديث عن كلّ واحد من هؤلاء الصحابة، ثمّ عطف الكلام على ذكر عدد كبير من أسماء رواة التابعين، وبعد ذلك انتقل إلى ذكر من روى هذا الحديث من العلماء والمشاهير والحفّاظ والمفسّرين، وأصحاب السِّير والتاريخ والمعاجم وكتب اللغة والفقه ونحوهم ممّن نقلوا الحديث، وقد أحصى في كلّ قرن قرن، ابتداءً من القرن الثاني إلى القرن الحادي عشر، وكانت هذه العمليّة مشفوعة بذكر ترجمة لكلّ من نقل الحديث على مباني الجمهور.

لذا قال الميلاني في «خلاصة عبقات الأنوار»: «رواه عن النبيّ أكثر من ثلاثين صحابيّاً، وما لا يقلّ عن ثلاثمائة عالم من كبار علماء أهل السنّة، في مختلف العلوم والفنون، وفي جميع الأعصار والقرون، بألفاظ مختلفة وأسانيد متعدّدة، وفيهم أرباب الصحاح والمسانيد وأئمّة الحديث والتفسير والتاريخ. فهو حديث صحيح متواتر بين المسلمين»[1].

(١) **نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار**، للعلَم الحجّة آية الله السيّد حامد حسين اللكهنوي، في الردّ على التحفة الاثني عشريّة، تأليف: السيّد علي الحسيني الميلاني، حديث الثقلين، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٤هـ : ج١ ص١٨٥.

وقال الحكيم: «وهذا الحديث يكاد يكون متواتراً، بل هو متواتر فعلاً، إذا لوحظ مجموع رواته من الشيعة والسنّة في مختلف الطبقات. وحسب الحديث لِأن يكون موضع اعتماد الباحثين أن يكون من رواته كلّ من صحيح مسلم، وسنن الدارمي، وخصائص النسائي، وسنن أبي داود، وابن ماجة، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم، وذخائر الطبري، وحلية الأولياء، وكنز العمّال وغيرهم، وأن تعنى بروايته كتب المفسّرين أمثال الرازي، والثعلبي، والنيسابوري، والخازن، وابن كثير وغيرهم، بالإضافة إلى الكثير من كتب التاريخ واللغة والسِّير والتراجم»[١].

وفي «غاية المرام» للبحراني، وصلت أحاديثه من طرق السنّة إلى «٣٩» حديثاً، ومن طرق الشيعة إلى «٨٢» حديثاً[٢].

وقال ابن حجر في «الصواعق»: «ثمّ اعلم أنّ لحديث التمسّك بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابيّاً، ومرّ له طرق مبسوطة، وفي بعض تلك الطرق أنّه قال ذلك بحجّة الوداع بعرفة، وفي أخرى أنّه قال بالمدينة في مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي أخرى أنّه قال ذلك بغدير خمّ، وفي أخرى أنّه قال ذلك لّما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف»، ثمّ قال: «ولا تنافي إذ لا مانع من أنّه كرّر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها، اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة»[٣].

---

(١) **الأصول العامّة للفقه المقارن**، مدخل إلى دراسة الفقه المقارن، العلاّمة محمّد تقي الحكيم، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٧٩: ص١٦٤.

(٢) انظر **غاية المرام وحجّة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاصّ والعامّ**، السيّد هاشم البحراني الموسوي، تحقيق: السيّد علي عاشور: ج٢ ص٣٠٤ وص٣٢١.

(٣) **الصواعق المحرقة في الردّ على أهل الرفض والضلالة والزندقة**، تأليف أبي العبّاس أحمد بن محمّد بن حجر الهيثمي، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي، وكامل=

وذكر السخاوي في «استجلاب ارتقاء الغرف» حديث الثقلين من حديث زيد بن أرقم وأبي سعيد الخدري عن مسلم والترمذي في صحيحيهما والدارمي والنسائي وأبي يعلى وابن خزيمة والطبراني والحاكم، والضياء المقدسي، أورده بالتفصيل عن أكثر من عشرين صحابيّاً(١).

وأمّا السمهودي فقال في «جواهر العقدين»: «وفي الباب عن زيادة على عشرين من الصحابة»(٢) حيث أخذ يعدّد المذكورين من الصحابة واحداً واحداً، ويورد حديثهم، ثمّ يذكر المصدر الذي روى حديثهم.

## إثارات حول حديث الثقلين

### الإثارة الأولى: النصّ الوارد بلفظ «سنّتي» أوثق من لفظ «عترتي»

**المناقشة:**

**أوّلاً**: إنّ النصّ الوارد بلفظ «سنّتي» هو خبر آحاد، إذ رواه عدد من علماء السنّة بأسانيد ضعيفة وبعضها مرسلة، ومجموع الروايات الواردة بهذه الصيغة هي:

• الرواية الأولى: رواية مالك بن أنس في «الموطأ»: أنه بلغه أن رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قال: «**تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما مسكتم بهما: كتاب الله وسنّة نبيّه**»(٣).

---

= محمّد الخرّاط، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، مؤسّسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤٢٠هـ: ج٢ ص٤٤٠.

(١) **ملحق سند حديث الثقلين**، للعلاّمة السيّد عبد العزيز الطباطبائي، كما ورد في **نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار**: ج٢ ص٨٧.

(٢) **جواهر العقدين**، السمهودي، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ: ص٢٣٤.

(٣) **الموطّأ**، لإمام الأئمّة وعالم المدينة، مالك بن أنس، صحّحه ورقّمه وخرّج أحاديثه =

ويكفي في ضعف هذه الرواية أنّها مرفوعة، ولم يذكر الكتاب رواتها، ممّا يدلّ على عدم اطمئنان صاحبها إليها ولسانها «عن مالك أنّه بلغه أنّ رسول الله...» لعلّ الموطأ هو أقدم مصادرها في كتب الحديث، كما أنّ ابن هشام هو أقدم رواتها في كتب السِّير فيما يبدو. وما عدا هذين الكتابين، فقد ذكرها ابن حجر في صواعقه مرسلة، وذكرها الطبراني فيما حكي عنه[(١)].

• الرواية الثانية: رواية أنس بن مالك الثانية، عن أحمد بن سعيد، قال حدّثنا عبد الواحد، قال حدّثنا هشام عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: «**لقد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا، كتاب الله وسنّة نبيّه**»[(٢)].

ومن الواضح أنّها ضعيفة بيزيد الرقاشي.

قال أبو طالب: سمعت أحمد بن حنبل يقول: لا يكتب حديث يزيد الرقاشي. قلت له: فلِمَ تُرك حديثه؟ لهوى كان فيه؟ قال: لا، ولكن كان منكر الحديث[(٣)].

---

= وعلّق عليه: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، سنة الطبع: ١٣٧٠هـ: ج٢ ص٨٩٩.

(١) **رسالة في حديث الثقلين**: ص١٨، دار التقريب، نقلاً عن **الأصول العامّة للفقه المقارن**، مصدر سابق: ص١٧٢.

(٢) **طبقات المحدّثين بأصبهان والواردين عليها**، ابن حيّان الأنصاري، تحقيق: عبد الغفور عبد الحقّ حسين البلوشي، مؤسّسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ : ج٤ ص٦٧.

(٣) **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، للحافظ المتقن جمال الدِّين أبي الحجّاج يوسف المزي (٦٥٤ ـ ٧٤٢هـ)، حقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه: الدكتور بشّار عوّاد معروف، مؤسّسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٩٩٢ : ج٣٢ ص٦٧.

وقال أبو جعفر العقيلي عن أبي يحيى زكريا بن يحيى الحلواني، سمعت سلمة بن شبيب يقول: سمعت يزيد بن هارون يقول: سمعت شعبة يقول: لأن أزني أحبّ إليَّ من أن أروي عن يزيد الرقاشي[١].

وقد ضعّفه كلّ من ابن معين والدارقطني[٢]، وقال النسائي والحاكم: متروك الحديث[٣]، وقال ابن حبان: «ويزيد ليس بشيء في الحديث»[٤].

• الرواية الثالثة، رواية عبد الله بن أبي نجيح، على ما أخرجه الطبري في تاريخه قال: «حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، قال: ثمّ مضى رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم على حجّه، فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجّهم، وخطب الناس خطبته التي بيَّن للناس فيها ما بيّن، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: **أيّها الناس اسمعوا قولي، فإنّي قد بلّغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً، كتاب الله وسنّة نبيّه**»[٥].

والرواية ضعيفة بعبد الله بن أبي نجيح، ضعّفه ابن حجر حيث قال: «عبد الله بن أبي نجيح المكّي المفسّر، أكثر عن مجاهد وكان يدلّس عنه»[٦].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) **تهذيب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م: ج١١ ص٢٧١.

(٣) المصدر السابق: ج١١ ص٢٧١.

(٤) **المجروحين**، أبو حاتم محمّد بن حبان السبتي، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب: ج١ ص٩٨.

(٥) **تاريخ الطبري**، تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، حجّة الوداع: ج٣ ص١٥١.

(٦) **طبقات المحدّثين**، ابن حجر العسقلاني الشافعي، تحقيق: دكتور عاصم بن عبد الله =

• الرواية الرابعة: رواية أبي هريرة، قال الحاكم في مستدركه: «أخبرنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه، أنبأ محمّد بن عيسى بن السكن الواسطي، حدّثنا داود بن عمرو الضبي، حدّثنا صالح بن موسى الطلحي، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّي قد تركت فيكم شيئين لن تضلّوا بعدهما: كتاب الله وسنّتي، ولن يتفرّقا حتّى يردا عليَّ الحوض**»[1].

والرواية ضعيفة بصالح بن موسى.

قال عبد الرحمان بن أبي حاتم: سألت أبي عنه فقال: ضعيف الحديث. منكر الحديث جدّاً، كثير المناكير عن الثقات»[2]، وعن يحيى بن معين: «ليس بشيء ولا يكتب حديثه، ليس بثقة»[3]. وقال النسائي: «لا يكتب حديثه، ضعيف»[4].

• الرواية الخامسة، رواية عبد الله بن عوف. رواها ابن عبد البر في التمهيد قال: «... حدّثنا الحنيني عن كثير بن عبد بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جدّه، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: «**تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسّكتم بهما، كتاب الله وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله**»[5].

---

= القريوني، مكتبة المنار، عمّان، الطبعة الأولى: ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م: ج١ ص٣٩.

(١) **المستدرك على الصحيحين في الحديث**، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ: ج١ ص١٧٢.

(٢) **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، مصدر سابق: ج١٣ ص٩٦، ص٩٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، ابن عبد البرّ النمري، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمّد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون =

وهي ضعيفة بكثير بن عبد الله.

قال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل عنه فقال: «منكر الحديث، ليس بشيء».

وعن محمّد بن الوزير المصري قال: سمعت الشافعي، وذكر كثير بن عبد بن عمرو بن عوف فقال: ذاك أحد الكذّابين أو أحد أركان الكذب». وقال النسائي والدارقطني: «متروك الحديث». وقال أبو حاتم بن حبان: روى عن أبيه عن جدّه نسخة موضوعة لا يحلّ ذكرها في الكتب ولا الرواية عنه إلاّ على وجه التعجّب»(١).

ممّا تقدّم يتّضح أنّ النصوص الواردة بلفظ «سنّتي» ضعيفة أو مرسلة. وعلى هذا فلا تكون رواية «وسنّتي» حجّة، لاسيما في المسائل العقائديّة التي لا يكفي فيها الخبر الصحيح فضلاً عن الضعيف.

**ثانياً**: لو سلّمنا صحّة الرواية، إلاّ أنّها لا تتخطّى كونها أخبار آحاد، ومن الواضح أنّ الخبر الواحد ـ ولو كان صحيحاً ـ يسقط عن الاعتبار فيما لو عارضه خبر قطعيّ، وقد تقدّم أنّ حديث التمسّك بالثقلين متواتر في جميع طبقاته، والكتب التي حفلت بالنصّ الذي ورد فيه «**وعترتي**» أكثر من أن تُحصى، وطرقه إلى الصحابة كثيرة، ورواته منهم كثيرون جدّاً، وفي رواياته عدّة روايات هي في أعلى درجات الصحّة كما شهد بذلك جمع من أعلام المدرستين.

**ثالثاً**: إنّ رواية «**وسنّتي**» لو صحّت لا تعارض رواية «**وعترتي**» وذلك لإمكان الجمع بينهما، لأنّ من سنّته صلّى الله عليه وآله التمسّك بالعترة الذي

---

= الإسلاميّة، المغرب، ١٣٨٧هـ: ج٢٤ ص٣٣٤.

(١) راجع هذه الكلمات في **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**: ج٢٤ ص١٣٨ ـ ١٣٩.

ثبتت قطعيّته، وعلى هذا الأساس يكون حديث «وسنّتي» يتضمّن الدلالة على وجوب التمسّك والأخذ بالعترة. لذا قال ابن حجر في صواعقه: «والحاصل أنّ الحثّ وقع على التمسّك بالكتاب والسنّة وبالعلماء بهما من أهل البيت، ويستفاد من مجموع ذلك بقاء الأمور الثلاثة إلى قيام الساعة»[1].

وإن شئت قلت: إنّ ذكر أهل البيت معناه ذكر للسنّة لأنّهم لا يأتون إلاّ بها، فكلّ ما عندهم مأخوذ بواسطة النبيّ؛ أي بواسطة السنّة، وقد طفحت بذلك أحاديثهم.

وبذلك يكون ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر، وكلتا الروايتين يمكن أن تكونا صحيحتين، ولا حاجة إلى تكذيب إحداهما وتعيين الصادرة منهما بالرجوع إلى المرجّحات.

**رابعاً**: لو فرضنا جدلاً استحكام التعارض، فلابدّ من الرجوع إلى قواعد التعارض، ومن جملتها العرْض على الكتاب، والأخذ بما وافق الكتاب وترك الآخر، ومن الواضح أنّ حديث «وعترتي» موافق للقرآن لتفسير العترة بأهل البيت عليهم السلام في جملة من النصوص الواردة في حديث الثقلين، كما في آية التطهير.

والحاصل أنّ مثل هذه الروايات وهي بهذه الدرجة من الضعف ـ لأنّها لا تزيد على كونها مرفوعة أو مرسلة، ولو قدّر صحّتها، فهي لا تزيد على كونها من أخبار الآحاد ـ هل يمكن أن تقف بوجه حديث الثقلين مع وفرة رواته في كتب السنّة، فضلاً عن كتب أتباع مدرسة أهل البيت، وتصحيح الكثير من رواياته، كما سبق بيانه؟

---

(١) **الصواعق المحرقة**، مصدر سابق: ج٢ ص٤٣٩.

هذا كلّه من حيث البحث السندي.

أمّا من حيث المضمون، فإنّه كيف يمكن أن تكون السنّة مرجعاً يطلب إلى المسلمين في جميع عصورهم أن يتمسّكوا بها إلى جنب الكتاب، وهي غير مجموعة على عهده صلّى الله عليه وآله وفيها الناسخ والمنسوخ والعامّ والخاصّ والمطلق والمقيّد.

والعمل بالعامّ أو المطلق لا يجوز قبل الفحص عن مخصّصه أو مقيّده، خصوصاً إذا علمنا أنّ من طريقته صلّى الله عليه وآله في التبليغ الاعتماد على القرائن المنفصلة، فالإرجاع إلى شيء مشتّت وغير مدوّن تعجيز للأمّة وتضييع للكثير من أحكامها.

«وإذا كانت هذه المشكلة قائمة بالنسبة إلى من أدرك الصحابة ـ وهم القلّة نسبيّاً ـ فما رأيكم بالمشكلة بعد تكثّر الفتوح وانتشار الإسلام، ومحاولة التعرّف على أحكامه من قبل غير الصحابة من رواتهم، وبخاصّة بعد انتشار الكذب والوضع في الحديث للأغراض السياسيّة أو الدينيّة أو النفسيّة»(١).

## الإثارة الثانية: حديث الثقلين من المناكير

هذه الإثارة ذكرها البخاري في التاريخ الصغير حيث قال: «قال أحمد في حديث عبد الملك عن عطية عن أبي سعيد (قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: **تركت فيكم الثقلين**) أحاديث الكوفيِّين هذه مناكير»(٢).

---

(١) **الأصول العامّة للفقه المقارن**، الطبعة الثانية، مؤسسة آل البيت عليهم السلام: ص١٧٣.

(٢) **التاريخ الصغير**، البخاري، تحقيق: إبراهيم محمود زايد، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ: ج١ ص٣٠٢.

**المناقشة: أوّلاً**: بناءً على ما تقدّم من قطعيّة الحديث عند أهل السنّة، وأنّ مصادرهم ممتلئة وطافحة بحديث الثقلين بشكل لا نظير له، مع إقرار كبار علمائهم وحفّاظهم بصحّة صدوره، كيف يمكن نسبة هذا الحديث إلى المناكير. حيث صحّحه الألباني في الجامع الصغير، وعلّق عليه الهيثمي بقوله: «إسناده جيّد»[(١)]. وقال الحاكم في مستدركه: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين»[(٢)].

ورواه ابن كثير في البداية والنهاية معلّقاً عليه بقوله: «قال شيخنا أبو عبد الله الذهبي: وهذا حديث صحيح»[(٣)].

**ثانياً**: إنّ هذا الكلام غريب جدّاً، إذ قد ثبت بحيث لا يشكّ المتتبّع فيه، أنّ أحمد قد روى هذا الحديث بطرق عديدة وأسانيد سديدة، وروايات متكثّرة في المسند عن زيد بن أرقم وزيد بن ثابت، وأبي سعيد الخدري.

فنسبة الجرح في هذا الحديث إلى الإمام أحمد غريبة جدّاً، ولا يمكن توجيهها أو تأويلها بنحو من الأنحاء، ورواية أحمد للحديث في المسند أكبر حجّة على بطلان هذه الشبهة، إذ لا يصحّ روايته إيّاه فيه مع إنكاره له، لأنّه يستلزم التدليس والتلبيس، مع العلم بأنّه يحتاط في رواياته ولاسيما في مسنده. فقد قال قاضي القضاة تاج الدين السبكي بترجمة أحمد:

«قلت: وألّف مسنده، وهو أصل من أصول هذه الأمّة، قال الإمام الحافظ أبو موسى محمّد بن أبي بكر المديني رحمه الله: هذا الكتاب ـ يعني

---

(١) **مجمع الزوائد** للهيثمي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨ : ج٩ ص٢٥٦.

(٢) **المستدرك على الصحيحين**، مصدر سابق: ج٥ ص٤٥.

(٣) **البداية والنهاية**، للإمام الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ : ج٥ ص٢٠٩.

مسند الإمام أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني قدّس الله روحه ـ أصل كبير ومرجع دقيق لأصحاب الحديث، انتقي من أحاديث كثيرة ومسموعات وافرة، فجعل إماماً ومعتمداً، وعند التنازع ملجأً ومستنداً».

وقد أخبر هو عن كتابه بقوله: «إنّ هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً، فما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم فارجعوا إليه، فإن كان فيه وإلاّ ليس بحجّة»(١).

وقال وليّ الله الدهلوي: «وجعل ـ أي أحمد ـ مسنده ميزاناً يُعرف به حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله. فما وجد فيه ولو بطريق واحد من طرقه فله أصل. وما لا، فلا أصل له»(٢).

فإذا كان الكتاب بهذه المتانة من الوثوق والاعتبار، كيف يعقل أن يتساهل مصنّفه ويخرج فيه حديثاً منكراً مع علمه بكونه كذلك.

وقال تقيّ الدِّين ابن الصلاح في علوم الحديث: «ثمّ إنّ الغريب ينقسم إلى صحيح كالأفراد المخرجة في الصحيح، وإلى غير صحيح وذلك هو الغالب على الغرائب، روينا عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنّه قال غير مرّة: لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائب فإنّها مناكير، وعامّتها من الضعفاء»(٣) فمن منع من كتابة المناكير فضلاً عن العمل بها، وحذّر من نقلها فضلاً عن الاستناد إليها، لا ينقل حديثاً مع علمه بكونه منكراً، ولا يجوز أن يخرجه في المسند العظيم وكتاب مناقب أمير المؤمنين، وإلاّ لتوجّه إليه الذمّ واللوم

(١) نقلاً عن **نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار**: ج٢ ص١٠.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص١٣.

(٣) **مقدّمة ابن الصلاح في علوم الحديث**، عثمان بن عبد الرحمن، تعليق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمّد بن عويضة: ص١٦٣.

والتوبيخ، وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢).

ممّا تقدّم يظهر عدم إمكان نسبة كون حديث الثقلين من المناكير إلى الإمام أحمد بن حنبل كما ذكره البخاري.

## الإثارة الثالثة: «حديث الثقلين» من الأحاديث الواهية

قال ابن الجوزي في كتابه «العلل المتناهية» ما نصّه: «حديث في الوصيّة لعترته. أنبأنا عبد الوهاب الأنماطي، قال أخبرنا محمّد بن المظفّر، قال أخبرنا أحمد بن محمّد العتيقي، قال حدّثنا يوسف بن الدخيل، قال حدّثنا أبو جعفر العقيلي، قال حدّثنا أحمد بن يحيى الحلواني، قال حدّثنا عبد الله بن داهر، قال حدّثنا عبد الله بن عبد القدوس، عن الأعمش، عن عطيّة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **إنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي، وإنّهما لن يفترقا جميعاً حتّى يراد عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما.**

قال المصنّف: هذا حديث لا يصحّ، أمّا عطيّة فقد ضعّفه أحمد ويحيى وغيرهما، وأمّا عبد القدّوس فقال يحيى: ليس بشيء، رافضيّ خبيث. وأمّا عبد الله بن داهر فقال أحمد ويحيى: ليس بشيء، ما يكتب منه إنسان فيه خير»(١).

**المناقشة:**

**أوّلاً:** إنّ هذا الحديث لم يرد بهذا السند فقط، بل هناك أسانيد صحيحة للحديث ذكرها أحمد في مسنده كما تقدّم.

---

(١) **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٣ : ج١ ص٢٦٩.

**ثانياً**: لو سلّمنا أنّ أحمد أخرجه بهذا السند الضعيف، إلاّ أنّ هذا لا يستلزم ضعف الحديث، لوروده في مصادر أخرى كصحيح مسلم الذي يعدّ من المصادر الأساسيّة عند أتباع الخلفاء.

قال الحافظ السيوطي: «قال مسلم: ليس كلّ شيء عندي صحيح وضعته هنا، وإنّما وضعت ما أجمعوا عليه»[١].

وقال أبو مهدي الثعالبي في «مقاليد الأسانيد» بترجمة مسلم: «وكان الحافظ أبو علي النيسابوري يقدّم صحيحه على سائر التصانيف، وقال: ما تحت أديم السماء أصحّ من كتاب مسلم»[٢].

وقال الدهلوي في «بستان المحدّثين»: «وبالجملة فإنّه قد انتخب صحيحه هذا من بين ثلاثين ألف حديث مسموع، محتاطاً متورّعاً فيه غاية الاحتياط والورع»[٣].

وعلى هذا فإدخال مسلم حديث الثقلين في صحيحه دليل واضح على إجماع العلماء على صحّته، فالقول بعدمها معارضة صريحة لرسول الله صلّى الله عليه وآله.

**ثالثاً**: إنّ ابن الجوزي نفسه صرّح بأنّ ما ورد في كتب القوم حجّة؛ قال ما نصّه في كتابه الموضوعات: «فمتى رأيت حديثاً خارجاً عن دواوين الإسلام كالموطأ ومسند أحمد والصحيحين وسنن أبي داود والترمذي ونحوها فانظر فيه، فإن كان له نظير في الصحاح والحسان قرب أمره، وإن ارتبت به فرأيته يباين الأصول فتأمّل رجال إسناده واعتبر أحوالهم من

---

(١) **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض: ج٢ ص١٨٢.

(٢) **نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار**، مصدر سابق: ج٢ ص٢٠.

(٣) المصدر السابق.

كتابنا المسمّى بالضعفاء والمتروكين، فإنّك تعرف وجه القدح فيه»[١].

وهذا يعني أنّ الحديث الوارد في دواوين القوم يكون حجّة بحسب الميزان الذي ذكره، بناءً على ذلك تتبيّن مناقضة ابن الجوزي لنفسه، لأنّ حديث الثقلين وارد في دواوين القوم وصحاحهم.

**رابعاً**: إنّ قدح ابن الجوزي لحديث الثقلين يرفضه جماعة من أكابر محقّقيهم وأعاظم محدّثيهم، منهم:

• سبط ابن الجوزي، حيث قال في التذكرة، بعد أن نقل الحديث عن مسند أحمد: «فإن قيل: فقد قال جدّك في كتاب الواهية: عطيّة ضعيف، وابن عبد القدّوس رافضيّ، وابن داهر ليس بشيء. قلت: الحديث الذي رويناه أخرجه أحمد في الفضائل، وليس في إسناده أحد ممّن ضعّفه جدّي، وقد أخرجه أبو داود في سننه، والترمذي أيضاً، وعامّة المحدّثين، وذكره رزين في الجمع بين الصحاح، والعجب كيف خفي عن جدّي ما روى مسلم في صحيحه من حديث زيد بن أرقم»[٢].

• السخاوي، حيث قال بعد إيراد الحديث وتأييده: «وتعجّبت من إيراد ابن الجوزي له في العلل المتناهية، بل أعجب من ذلك قوله: إنّه حديث لا يصحّ»[٣].

• السمهودي، قال بعد إثبات الحديث وروايته عن الصحاح والمسانيد: «ومن العجيب ذكر ابن الجوزي له في العلل المتناهية، فإيّاك أن تغترّ به»[٤].

---

(١) **الموضوعات، لابن الجوزي**، تحقيق: محمّد عبد الرحمان، المكتبة السلفيّة، المدينة المنوّرة، الطبعة الأولى: ١٣٨٦هـ : ج١ ص٩٩.

(٢) نقلاً عن **نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار**: ج٢ ص٥٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

• ابن حجر، حيث قال بعد أن روى الحديث عن عدد من المصادر المعتبرة: «وذكْر ابن الجوزي لذلك في العلل المتناهية وهم أو غفلة عن استحضار بقيّة طرقه، بل في مسلم عن زيد بن أرقم قال ذلك يوم غدير خمّ، وهو ماء بالجحفة كما مرّ، وزاد: **أذكّركم الله في أهل بيتي**»، ثمّ قال: «والحاصل أنّ الحثّ وقع على التمسّك بالكتاب وبالسنّة وبالعلماء بهما من أهل البيت، ويستفاد من مجموع ذلك بقاء الأمور الثلاثة إلى قيام الساعة»[1].

## المبحث الثاني: متن حديث الثقلين

اختلفت الصياغات التي ورد بها حديث الثقلين، فبعضها مطوّلة وبعضها متوسّطة، وبعضها مختصرة، والسبب في ذلك يعود إلى طبيعة الواقعة التي صدر فيها، ونقل بعضهم له بالمعنى، لذا قال ابن حجر: «ولا تنافي إذ لا مانع من أنّه كرّر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها، اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة».[2]

في ضوء هذه الحقيقة لابدّ من معرفة الألفاظ والمضامين المتواترة في هذه النصوص، وذلك لما ثبت في مظانّه أنّه لا يثبت بالتواتر إلاّ القدر المتيقّن من ألفاظ هذه الأحاديث، أي ما اتّفقت عليه ألفاظ هذه النصوص بصياغاتها المختلفة هو الذي يمكن القطع بصدوره منه صلّى الله عليه وآله.

من هنا لابدّ من إيراد بعض هذه الصياغات:

• ما أخرجه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يوماً فينا خطيباً بماء يُدعى خمّاً بين مكّة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكّر، ثمّ قال: «**أمّا بعد ألا أيُّها الناس فإنّما أنا**

---

(١) **الصواعق المحرقة**، مصدر سابق: ج٢ ص٤٣٩.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ٤٤٠.

**بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربّي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين، أوّلهما كتاب الله»** ورغّب فيه، ثمّ قال: «**وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي**»(١).

• ما رواه النسائي عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم، قال: «لمّا رجع رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ونزل غدير خمّ، أمر بدوحات فقممن ثمّ قال: **كأنّي دُعيت فأجبت، وإنّي قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض.**

ثمّ قال: **إنّ الله مولاي وأنا وليّ كلّ مؤمن.** ثمّ أخذ بيد عليّ رضي الله عنه فقال: **مَنْ كنتُ وليّه فهذا وليّه، اللّهُمَّ والِ من والاه وعادِ من عاداه.**

فقلت لزيد: سمعته من رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم؟ قال: نعم، وإنّه ما كان في الدوحات أحد إلاّ رآه بعينه وسمعه بأذنيه»(٢).

• ما أخرجه الترمذي في جامعه عن جابر بن عبد الله قال: «رأيت رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم في حجّته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: **أيّها الناس إنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي**»(٣).

---

(١) **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجّاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ج٤ ص١٨٧٣.

(٢) **سنن النسائي**، لأبي عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن علي النسائي، تحقيق: الدكتور عبد الغفّار سليمان البنداري، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

(٣) **جامع الترمذي**، تصنيف: أبي عيسى محمّد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: أحمد محمّد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، باب مناقب أهل بيت النبيّ: ج٦ ص٦٦٢.

• ما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن زيد بن أرقم قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **إنّي لكم فَرْطٌ، وإنّكم واردون عليَّ الحوض، عرضه ما بين صنعاء إلى بُصرى، فيه عدد الكواكب من قدحان الذهب والفضّة، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين.**

فقام رجل فقال: يا رسول الله وما الثقلان؟

فقال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **الأكبر كتاب الله، سببٌ طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسّكوا به، لن تزالوا ولا تضلّوا، والأصغر عترتي. وإنّهم لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، وسألت لهما ذاك ربّي، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تعلّموهما فإنّهما أعلم منكم**»(١).

عرضت هذه النصوص وعشرات غيرها عدّة نقاط:

**الأولى**: عدم الافتراق بين القرآن والعترة، وهذا مشترك بين جميع الصياغات.

**الثانية**: من الألفاظ التي تضمّنتها أغلب النصوص، وصف الكتاب أو الكتاب والعترة معاً، بأنّهما حبل أو سبب أحد طرفيه بيد الله والطرف الآخر بأيديكم، أو حبل الله الممدود.

**الثالثة**: إنّ التمسّك بهما يُنجي الإنسان من الضلالة والهلاك.

**الرابعة**: أحدهما أعظم من الآخر، فالكتاب هو الأكبر والعترة هي الأصغر.

وما يهمّنا في المقام هو الوقوف عند النقطة الأولى، وهو عدم الافتراق بين القرآن والعترة، حيث سنحاول من خلالها معرفة مقدار علم الإمام.

---

(١) **المعجم الكبير**، الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، حقّقه وأخرج أحاديثه أحمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٩٨٤هـ ـ ١٤٠٤ م: ج٣ ص٦٦، الحديث رقم: ٢٦٨١.

من هنا لابدّ من الكلام في أمرين:

**الأوّل**: مَن هم العترة ؟

**الثاني**: ما هي المعارف والعلوم التي يشتمل عليها الكتاب العزيز؟

# الأمر الأوّل: مَنْ هم العترة ؟

صرّحت النصوص الواردة في حديث الثقلين ـ بمختلف صياغاتها ـ أنّ المراد من العترة هم أهل البيت، حيث ورد في بعضها: **عترتي أهل بيتي**، وفي بعضها تصريح بأنّ الثقل الأصغر هم أهل البيت: **أُذكّركم الله بأهل بيتي**.

تواترت النصوص الروائيّة الواردة عن جمّ غفير من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وغيرهم، في ذيل عدد من الآيات التي ترتبط بأهل البيت، أنّ المراد هم: عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

من هنا نحاول الوقوف على بعض هذه الآيات:

## أهل البيت في آية التطهير

هناك مجموعة كبيرة من الروايات الواردة عن طرق الفريقين، بيّنت أنّ المراد بأهل البيت في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) هم: عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

• عن صفيّة بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم غداة وعليه مِرْط مرحّل (إزار خزّ فيه علم)[١] من شعر أسود،

---

(١) **الصحاح**، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م: ج٤ ص١٧٠٧.

فجاء الحسن بن عليّ فأدخله، ثمّ جاء الحسين فدخل معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمّ جاء عليّ فأدخله، ثمّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(١)].

• ما أخرجه الترمذي في سننه عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: «لمّا نزلت هذه الآية على النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ في بيت أُمّ سلمة، فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً فجلّلهم بكساء، وعليّ خلف ظهره فجلّله بكساء، ثمّ قال: **اللّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرِّجس وطهّرهم تطهيراً**. قالت أُمّ سلمة: وأنا معهم يا نبيّ الله؟ قال: **أنتِ على مكانك وأنتِ على خير**»[(٢)].

ولم يكتف الرسول صلّى الله عليه وآله بذلك، بل رفض دخول أزواجه تحت الكساء للانضمام لأهل البيت عليهم السلام.

• فعن أمّ سلمة قالت: «إنّ هذه الآية نزلت في بيتي ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالت: وأنا جالسة على باب البيت، فقلت: يا رسول الله ألستُ من أهل البيت؟ فقال صلّى الله عليه وآله: **إنّك إلى خير، أنتِ من أزواج النبيّ**»[(٣)].

• وأخرج الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال: «لمّا نظر رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى الرحمة هابطة، قال: **ادعوا لي، ادعوا لي.**

---

(١) **صحيح مسلم**، مصدر سابق: ج٤ ص١٨٨٣.

(٢) **سنن الترمذي**، مصدر سابق: ج٥ ص٣٥١.

(٣) **تفسير الطبري المسمّى جامع البيان في تأويل القرآن**، لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري، المتوفّى سنة ٣١٠هـ، مركز الكتاب العلمي، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ ١٩٩٧م: ج١٠ ص٢٩٧، الحديث رقم: ٢٨٤٩٧.

فقالت صفيّة: مَن يا رسول الله؟ قال: **أهل بيتي عليّاً وفاطمة والحسن والحسين**. فجيء بهم، فألقى عليهم النبيّ صلّى الله عليه وآله كساءه، ثمّ رفع يديه ثمّ قال: **اللّهُمَّ هؤلاء آلي، فصلِّ على محمّد وعلى آل محمّد**. وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

قال النيسابوري: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»[١].

• وأخرج أحمد في مسنده قال: حدّثنا شدّاد بن عمّار، قال: دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا عليّاً رضي الله عنه فشتموه، فشتمته معهم، فلمّا قاموا قال لي: شتمت هذا الرجل؟ قلت: قد شتموه فشتمته معهم، قال: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة رضي الله عنها، أسألها عن عليّ رضي الله عنه، فقالت: توجّه إلى رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، فجلست أنتظره حتّى جاء رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ومعه عليّ وحسن وحسين رضي الله عنهم، آخذ كلّ واحد منهما بيده حتّى دخل، فأدنى عليّاً وفاطمة رضي الله عنهما وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً رضي الله عنهما كلّ واحد منهما على فخذه، ثمّ لفَّ عليهم ثوبه ـ أو قال كساءه ـ ثمّ تلا صلّى الله عليه [وآله] وسلّم هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وقال: «**اللّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحقّ**»[٢].

• وأخرج الهيثمي عن أبي جميلة: أنّ الحسن بن علي حين قُتل علي

(١) **المستدرك على الصحيحين في الحديث**، للحاكم النيسابوري، وفي ذيله: تلخيص المستدرك للذهبي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

(٢) **مسند أحمد بن حنبل**: ج ٤، ص ١٠٧.

استخلف، فبينا هو يُصلّي بالناس إذ وثب إليه رجلٌ فطعنه بخنجر في وركه، فتمرّض منها شهراً، ثمّ قام فخطب على المنبر، فقال: **يا أهل العراق، اتّقوا الله فينا، فإنّا أمراؤكم وضيفانكم، ونحن أهل البيت الذين قال الله عزّ وجلّ:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فما زال يومئذ يتكلّم حتّى ما ترى في المسجد إلاّ باكياً.

رواه الطبراني ورجاله ثقات[1].

والحاصل أنّ حديث الكساء الذي كاد أن يتواتر مضمونه لتعدّد رواته لدى الفريقين في جميع الطبقات، حافل بتطبيقها عليهم بالخصوص.

قال الآلوسي في تفسيره: «وأخبار إدخاله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم عليّاً وفاطمة وابنيهما رضي الله تعالى عنهم تحت الكساء، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**اللّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي**» ودعائه لهم، وعدم إدخال أُمّ سلمة أكثر من أن تحصى، وهي مخصّصة لعموم أهل البيت بأيّ معنىً كان، فالمراد بهم من شملهم الكساء، ولا يدخل فيهم أزواجه»[2].

والذي يبدو أنّ الغرض من حصرهم تحت الكساء، وتطبيق الآية عليهم، ومنع حتّى أمّ سلمة من الدخول معهم ـ كما ورد في روايات كثيرة ـ هو التأكيد على اختصاصهم بالآية، وقطع الطريق على كلّ ادّعاء بشمولها لغيرهم.

من هنا نجد أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ مضافاً إلى ما تقدّم ـ حرص على عدم مشاركة الغير لهم فيها، وذلك من خلال تلاوة هذه الآية على مرأى

(١) **مجمع الزوائد** للهيثمي، مصدر سابق: ج٩ ص٢٧٣.

(٢) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، العلاّمة الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، دار الطباعة المنيريّة: ج٢٢ ص١٤.

ومسمع المسلمين كلّ يوم، بل كلّ وقت صلاة، أمام بيت عليّ وفاطمة عليهما السلام، لدرء كلّ المحاولات التي كانت تريد إدخال ما ليس منهم فيهم، وقد ورد هذا المعنى متظافراً في روايات كثيرة، منها:

• أخرج الحاكم عن أنس بن مالك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يمرّ بباب فاطمة رضي الله عنها ستّة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر يقول: «**الصلاة يا أهل البيت** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

ثمّ قال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»[1].

• عن أبي الحمراء خادم رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وآله، يجيء عند كلّ صلاة فجر فيأخذ بعضادة هذا الباب، ثمّ يقول: **السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته**، فيردّون عليه من البيت: **وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته**. فيقول: **الصلاة رحمكم الله** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

قال: فقلت: يا أبا الحمراء مَن كان في البيت؟

قال: عليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام»[2].

• ما ورد عن أبي الحمراء أيضاً قال: رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله؛ قال: «رأيت رسول الله إذا طلع الفجر جاء إلى

---

(١) **المستدرك على الصحيحين**، مصدر سابق: ج٣ ص١٥٨، **مسند أحمد**: ج٣ ص٢٥٩، **سنن الترمذي**: ج٥ ص٣١.

(٢) **شواهد التنزيل**، عبيد الله بن عبد الله بن أحمد الحذاء النيسابوري الحنفي المعروف بالحاكم الحسكاني، تحقيق: الشيخ محمّد باقر المحمودي، مؤسّسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الأوقاف والإرشاد الإسلامي، طهران ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩٠م: ج٢ ص٧٤.

باب عليّ وفاطمة رضي الله عنهما، فقال: **الصلاة الصلاة**: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾»(١).

والحاصل فقد اتّفقت كلمة أعلام الفريقين ـ إلاّ ما شذّ وندر ـ على أنّ المراد بأهل البيت في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ هم: عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

قال القرطبي: «وقراءة النبيّ صلّى الله عليه وآله هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ دليلٌ على أنّ أهل البيت المعنيّين في الآية هم المغطّون بذلك المرْط في ذلك الوقت»(٢).

وقال ابن تيميّة: «أفضل أهل بيته عليّ وفاطمة وحسن وحسين الذين أدار عليهم الكساء وخصّهم بالدُّعاء»(٣).

## أهل البيت في آية المباهلة

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (آل عمران: ٦١).

---

(١) **جامع البيان**، الطبري، مصدر سابق: ج٢٢ ص١٠، **تاريخ مدينة دمشق**، ابن عساكر: ج٤ ص٢٩٠، **تفسير ابن كثير**: ج٣ ص٤٩٢، **أُسد الغابة**، ابن الأثير: ج٥ ص٦٦، **فتح القدير**، الشوكاني: ج٤ ص٢٨٠، **شواهد التنزيل**، الحسكاني: ج٢ ص٧٥.

(٢) **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، دار ابن كثير، دمشق : ج٦ ص٣٠٢.

(٣) **الفتاوى الكبرى**، أحمد بن عبد الحليم بن تيميّة الحراني، تحقيق: حسنين محمّد مخلوف، الطبعة الأولى ١٣٨٦ : ج٥ ص٣٣١.

• أخرج مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص عن أبيه قال: «أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسبّ أبا التراب؟ فقال: أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالها له رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم فلن أسبّه، لأن تكون لي واحدةٌ منهنّ أحبُّ إليَّ من حُمر النّعم.

سمعت رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يقول له وقد خلّفه في بعض مغازيه، فقال له عليّ: يا رسول الله: خلّفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي.**

وسمعته يقول يوم خيبر: **لأعطينّ الراية رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله،** قال: فتطاولنا لها، فقال: **ادعوا لي عليّاً،** فأُتي به أرمد، فبصق في عينه ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه.

ولمّا نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ دعا رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: **اللّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي**»[1].

• وقال السيوطي في «الدر المنثور»: «أخرج الحاكم وصحّحه وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال: قدم على النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم العاقب والسيّد، فدعاهما إلى الإسلام فقالا: أسلمنا يا محمّد، قال: **كذبتما، إن شئتما أخبرتكما بما يمنعكما من الإسلام،** قالا: فهات، قال: **حبّ الصليب، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير.** قال جابر: فدعاهما إلى

(١) انظر **صحيح مسلم**، باب فضائل عليّ بن أبي طالب: ج٤ ص١٨٧٠، **سنن الترمذي**: ج٥ ص٦٢٥، **مسند أحمد**: ج١ ص١٨٥، **مستدرك الحاكم** (صحّحه على شرط الشيخين): ج٣ ص١٣٦، **أُسد الغابة**، لابن الأثير: ج٤ ص١١٤، **الإصابة**، ابن حجر: ج٤ ص٤٦٨، **تفسير القرطبي**: ج٤ ص١٠٤.

الملاعنة، فواعداه إلى الغد، فغدا رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم وأخذ بيد عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين، ثمّ أرسل إليهما فأبيا أن يُجيبا وأقرّا له، فقال: **والذي بعثني بالحقّ لو فعلا لأمطر الوادي عليهما ناراً**، قال جابر: فيهم نزلت ﴿**تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ** ...﴾ قال جابر: أنفسنا رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم وعليّ، وأبناءنا الحسن والحسين، ونساءنا فاطمة»(١).

وقال ابن طاوس في كتاب سعد السعود: رأيت في كتاب «تفسير ما نزل من القرآن في النبيّ وأهل بيته، تأليف محمّد بن العبّاس بن مروان، أنّه روى خبر المباهلة من أحد وخمسين طريقاً عمّن سمّاه من الصحابة وغيرهم، وعدَّ منهم الحسن بن عليّ عليهما السلام، وعثمان بن عفّان، وسعد بن أبي وقّاص، وبكر بن سمال، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عبّاس، وأبا رافع مولى النبيّ، وجابر بن عبدالله، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك، وغيرهم(٢).

## أهل البيت في آية المودّة

قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ (الشورى: ٢٣).

---

(١) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للإمام عبد الرحمن جلال الدّين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م: ج٢ ص٢٣٠.

(٢) انظر الأحاديث التي وردت عن هؤلاء وغيرهم من أعلام المفسِّرين والمحدّثين في كتاب: **إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل**، القاضي السيّد نور الله الحسيني المرعشي التستري، مع تعليقات نفيسة وهامّة للعلاّمة الحجّة آية الله العظمى السيّد شهاب الدِّين الحسيني المرعشي النجفي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم ـ إيران: ج٣ ص٤٦ ـ ص٦٢ و: ج٩ ص٧٠ ـ ص٩١، وكذلك: ج٢٠ ص٨٤.

• أخرج الحاكم في المستدرك: عن الحسين بن زيد، عن عمر بن علي، عن أبيه عليّ بن الحسين، قال: «خطب الحسن بن عليّ الناس حين قُتل عليّ، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: **لقد قُبض في هذه اللّيلة رجلٌ لا يسبقه الأوّلون بعمل ولا يُدركه الآخرون، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يعطيه رايته، فيقاتل وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتّى يفتح الله عليه، وما ترك على أهل الأرض صفراء ولا بيضاء إلاّ سبع مائة درهم فضلت عن عطاياه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله.**

ثمّ قال: **يا أيّها الناس مَنْ عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني، فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن النبيّ، وأنا ابن الوصيّ، وأنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذين كان جبريل ينزل إلينا ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذي أذهب الله عنه الرجس وطهّرهم تطهيراً، وأنا من أهل البيت الذي افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم، فقال تبارك وتعالى لنبيّه صلّى الله عليه وآله:** ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا﴾ **فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت**»[1].

• وقال الزمخشري في تفسيره في ذيل هذه الآية: «روي أنّه لمّا نزلت قيل: يا رسول الله: مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: **عليٌّ وفاطمة وابناهما.** ويدلّ عليه ما روي عن عليّ رضي الله عنه: شكوت إلى رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم حسد الناس لي، فقال: **أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أوّل من يدخل الجنّة، أنا وأنت والحسن والحسين**»[2].

(١) **المستدرك على الصحيحين**: ج٣ ص١٧٢، خطبة الحسن بعد شهادة عليّ عليهما السلام.
(٢) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، وهو تفسير =

• وقال الرازي في تفسيره بعد أن نقل كلام الزمخشري المتقدِّم: «وأنا أقول: آل محمّد صلّى الله عليه [وآله] وسلّم هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل، ولا شكّ أنّ فاطمة وعليّاً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم أشدّ التعلّقات. وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل.

وأيضاً اختلف الناس في الآل، فقيل هم الأقارب، وقيل هم أمّته، فإن حملناه على القرابة فهم الآل، وإن حملناه على الأمّة الذين قبلوا دعوته، فهم أيضاً آل. فثبت أنّ على جميع التقديرات هم الآل. وأمّا غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه»(١).

## النتيجة

مع هذه النصوص وكثير غيرها ـ لا مجال لاستقصائها ـ لا يبقى أدنى شكّ في المراد من أهل البيت، فهم الذين جمعهم بيت عليّ وفاطمة، وهم الذين جمعهم كساء رسول الله صلّى الله عليه وآله، وهم الذين ضمّهم رسول الله صلّى الله عليه وآله تحت ثوبه، وهم... وهم... إلى آخر ما تضمّنته الأحاديث المتقدّمة.

---

= القرآن الكريم للإمام جاد الله محمود بن عمر الزمخشري، المتوفّى سنة ٥٢٨هـ دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان: ج٤ ص٢١٩.

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، للإمام فخر الدِّين محمّد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، (٥٤٤ ـ ٦٠٤ هـ) منشورات: محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ: ج٢٧ ص١٤٣.
يمكن مراجعة مصادر النصوص الروائيّة الواردة في إثبات أنّ المراد من «القربى» هم أهل البيت: **إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل**، مصدر سابق: ج٣ ص٢ ـ ٢٣، وأيضاً: ج٩ ص٩٢ ـ ١٠١، وكذلك: ج١٤ ص١٠٦ ـ ١١٥، وكذلك: ج١٨ ص٣٣٦ ـ ٣٣٨.

وممّا يلفت النظر سكوت الأمّة عن استيضاح أمر أهل البيت من النبيّ صلّى الله عليه وآله، وهم يتلون في الكتاب العزيز آناء الليل وأطراف النهار ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، ويسمعون نبيّهم صلّى الله عليه وآله يوصي بالتمسّك بأهل بيته في نوب متفرّقة وأماكن مختلفة فيقول لهم: «**إنّي تاركٌ فيكم الثقلين: أوّلهما كتاب الله... وأهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل بيتي**». ويقول أيضاً: «**مَثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومَن تخلّف عنها هلك**»[1].

ويقول: «**النجوم أمانٌ لأهل السماء، فإذا ذهبت أتاهم ما يوعدون، وأنا أمان لأصحابي ما كنت، فإذا ذهبتُ أتاهم ما يوعدون، وأهل بيتي أمانٌ لأُمّتي، فإذا ذهب أهل بيتي أتاهم ما يُوعدون**»[2].

«أما كان فيهم من يقول له: إنّك عصمتنا من الضلالة بالرجوع إلى أهل بيتك، وجعلتهم قرناء للقرآن، فمَن هم أهل هذا البيت لنعتصم بهم؟ أترى أنّ عصمتهم عليهم السلام من الضلال من الأمور العاديّة التي لا تهمّ معرفتها والاستفسار عنها؟ أم ترى أنّهم كانوا معروفين لديهم، فما احتاجوا إلى استفسار وحديث؟

والذي يبدو أنّ الصحابة ما كانوا في حاجة إلى استفسار، وهم يشاهدون نبيّهم صلّى الله عليه وآله في كلّ يوم يقف على باب عليٍّ وفاطمة وهو يقرأ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وتسعة أشهر ـ وهي المدّة التي حدّث عنها ابن عبّاس ـ كافية

---

(١) **المستدرك على الصحيحين**، مصدر سابق: ج٣ ص١٥١.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٤٤٨.

لأن تعرف الأمّة مَن هم أهل البيت. ثمّ يشاهدونه وقد خرج إلى المباهلة، وليس معه غير عليّ وفاطمة وحسن وحسين وهو يقول: **اللّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي**. وهم من أعرف الناس بخصائص هذا الكلام وأكثرهم إدراكاً لما ينطوي عليه من قصر واختصاص»[1].

## عدد أهل البيت

هنالك حشدٌ وافر من الروايات، قد تصل إلى المئات، تصدّت لبيان عدد أهل البيت عليهم السلام وتشخيصهم بأسمائهم، ومن جملتها حديث الاثني عشر الذي نقله الفريقان في مصادرهم المعتبرة، وسوف نقدِّم لمحة إجماليّة عن هذا الحديث.

## حديث الاثني عشر

وهو من الأحاديث المتواترة بين الفريقين، وأخرجته جملة من المصادر المعتبرة بين الفريقين بصياغات متعدّدة منها:

### الصياغة الأولى: بلفظ الأمراء

١ ـ أخرج البخاري، عن جابر بن سمرة، قال: «سمعت النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلم يقول: **يكون اثنا عشر أميراً**. فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنّه قال: **كلّهم من قريش**»[2].

---

(١) **الأصول العامّة للفقه المقارن**، مصدر سابق: ص١٧٤.

(٢) **صحيح البخاري**، تصنيف الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى ٢٥٦ هـ، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية: كتاب الأحكام، باب٥١، ج٤ ص٣٧٥، ح٧٢٢٢ ـ ٧٢٢٣، **مسند أحمد**، مصدر سابق: ج٥، ص٨٧، ص٩٠ و ٩٦، **دلائل النبوّة**، للبيهقي، مصدر سابق: ج٦، ص٥١٩.

٢ ـ أخرج الترمذي، وأحمد، عن جابر بن سمرة، قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم: **يكون من بعدي اثنا عشر أميراً**. ثمّ تكلّم بشيء لم أفهمه، فسألت الذي يليني، فقال: قال: **كلّهم من قريش**»[(١)].

٣ ـ أخرج أحمد بن حنبل أيضاً عن جابر بن سمرة، قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم يقول في حجّة الوداع: **لا يزال هذا الدِّين ظاهراً على من ناواه، لا يضرّه مخالف، ولا مفارق، حتّى يمضي من أمّتي اثنا عشر أميراً كلّهم**، ثمّ خفي من قول رسول الله صلّى الله عليه[وآله] وسلم... قال: يقول: **كلّهم من قريش**»[(٢)].

## الصياغة الثانية: بلفظ الخلفاء

٤ ـ وهو ما أخرجه مسلم عن جابر بن سمرة، قال: «دخلت مع أبي على النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلم فسمعته يقول: **إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتّى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة**. قال: ثمّ تكلّم بكلام خفي عليَّ، قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: **كلّهم من قريش**»[(٣)].

٥ ـ أخرج مسلم أيضاً، عن جابر بن سمرة، قال: «سمعت النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلم يقول: **لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً**، ثمّ تكلّم النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلم بكلمة خفيت عليَّ، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله؟ فقال: **كلّهم من قريش**»[(٤)].

---

(١) **سنن الترمذي**: ج٣، ص٣٤٠، **مسند أحمد**، مصدر سابق: ج٥، ص٩٢، ٩٤، ٩٩، ١٠٨.

(٢) **مسند أحمد**: ج٥، ص٨٧ ـ ٨٨، **المستدرك على الصحيحين**، مصدر سابق: ج٣، ص٦١٨.

(٣) **صحيح مسلم**، مصدر سابق: ج٣، ص١٤٥٢.

(٤) **مسند أحمد**: ج٥، ص٩٨، ص١٠١.

٦ ـ أخرج مسلم أيضاً، وأحمد عن جابر بن سمرة قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم يقول: **لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثنى عشر خليفة،** ثمّ قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي: ما قال؟ فقال: **كلّهم من قريش**»[1].

٧ ـ أخرج مسلم عن جابر بن سمرة، قال: «انطلقت إلى رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم ومعي أبي، فسمعته يقول: **لا يزال هذا الدِّين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة،** فقال كلمة صمّنيها الناس، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: **كلّهم من قريش**»[2].

٨ ـ أخرج مسلم أيضاً عن جابر بن سمرة، قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم يوم جمعة، عشية رجم الأسلمي يقول: **لا يزال الدِّين قائماً حتّى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش**»[3].

٩ ـ أخرج أبو داود حديث الخلفاء الاثني عشر عن جابر بن سمرة قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم يقول: **لا يزال هذا الدِّين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة،** قال: فكبّر الناس وضجّوا، ثمّ قال كلمة خفيّة، قلت لأبي: يا أبه ما قال؟ قال: **كلّهم من قريش**»[4].

١٠ ـ أخرج أبو عوانة في مسنده، عن جابر بن سمرة، قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم: **لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيفاً لا يضرّه من ناوأه حتّى تقوم الساعة إلى اثني عشر خليفة، كلّهم من قريش**»[5].

---

(١) **صحيح مسلم**، مصدر سابق: ج٣، ص١٤٥٣.

(٢) **صحيح مسلم**: ج٣ ص١٤٥٣، **مسند أحمد**، مصدر سابق: ج٥، ص٩٨ ص١٠١.

(٣) **صحيح مسلم**: ج٣ ص١٤٥، **مسند أحمد**: ج٥، ص٨٨ ـ ٨٩، **سلسلة الأحاديث الصحيحة** للألباني: ج١ ق٢ ص٧٢٠.

(٤) **سنن أبي داود**، اعتنى به فريق بيت الأفكار الدولية: ج٤، ص٨٦، كتاب المهدي.

(٥) **مسند أبي عوانة**: ج٤ ص٣٦٩ ح٦٩٧٦.

١١ ـ أخرج ابن حجر القسطلاني، والخطيب البغدادي «أنّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم قال: **لا تهلك هذه الأمّة حتّى يكون فيها اثنا عشر خليفة، كلّهم يعمل بالهدى ودين الحقّ**»(١).

١٢ ـ أخرج أحمد، والحاكم في المستدرك أنّ النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلم قال: «**لا يزال أمر أمّتي صالحاً حتّى يمضي اثنا عشر خليفة...**» (٢).

## الصياغة الثالثة: بلفظ النقباء

١٣ ـ أخرج أحمد في مسنده، والهيثمي في مجمع الزوائد عن مسروق، قال: «أما سألت النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلم كم يملك هذه الأمّة من خليفة؟ قال: ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك. ثمّ قال: نعم ولقد سألناها، فقال: **اثنا عشر كعدّة نقباء بني إسرائيل**»(٣).

وغير ذلك من الصياغات.

هذا، فضلاً عمّا ورد من الأحاديث الكثيرة والمتواترة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله من طرق أهل البيت عليهم السلام التي تصدّت لتعيين المراد من الخلفاء الاثني عشر، كما سيأتي.

## من هم الخلفاء الاثنا عشر؟

قدّم علماء المسلمين ـ من أهل السنّة ـ وجوهاً متعدّدة لتفسير هذه الروايات تفسيراً ينسجم مع الخصوصيّات والمواصفات التي ذكرت لهؤلاء

(١) **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ هـ: ج١٣، ص١٧٤، **تاريخ بغداد** للخطيب البغدادي: ج٤، ص٢٥٨.

(٢) **المستدرك على الصحيحين**، للحاكم النيسابوري: ج٣، ص٦١٨، **مسند أحمد**: ج٥، ص٩٧، ص١٠٧.

(٣) **مسند أحمد**: ج١، ص٣٩٨، **مجمع الزوائد** للهيثمي: ج٥، ص١٩٠. (مصادر سابقة).

الخلفاء، لكنّها ـ في الأعمّ الأغلب ـ لم تستطع أن تعطي التفسير الذي يمكن انطباقه على هذه الروايات، وهذا ما نجده بشكل واضح في جملة من كلمات علماء السنّة، وكنموذج على ذلك نحاول الوقوف على بعض تلك الوجوه:

## الوجه الأول: لابن الجوزي

قال: «قد أطلت البحث عن معنى هذا الحديث وتطلّبت مظانّه، وسألت عنه، فلم أقع على المقصود به، لأنّ ألفاظه مختلفة، ولا أشكّ أنّ التخليط فيها من الرواة، ثمّ وقع لي فيه شيء...»[١].

من هنا عدل إلى تفسير آخر قال فيه: «وأوّل بني أميّة يزيد بن معاوية، وآخرهم مروان الحمار، وعدّتهم ثلاثة عشر، ولا يعدّ عثمان ومعاوية وابن الزبير لكونهم صحابة، فإذا أسقطنا منهم مروان بن الحكم ـ للاختلاف في صحبته، أو لأنّه كان متغلّباً بعد أن اجتمع الناس على عبدالله بن الزبير ـ صحّت العدّة»[١].

وعلّق ابن حجر على كلام ابن الجوزي بقوله: «وأمّا محاولة ابن الجوزي.. ظاهرة التكلّف»[٢].

## الوجه الثاني: للسيوطي

قال: «فقد وجد من الاثني عشر خليفة، الخلفاء الأربعة، والحسن، ومعاوية، وابن الزبير، وعمر بن عبد العزيز، هؤلاء ثمانية، ويحتمل أن يضمّ إليهم المهتدي من العبّاسيّين، لأنّه فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني أميّة، وكذلك الطاهر لما أوتيه من العدل، وبقي الاثنان المنتظران، أحدهما:

---

(١) **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، مصدر سابق: ج١٣ ص١٨٣.

(٢) المصدر السابق: ج١٣ ص١٨٥.

المهدي لأنّه من آل محمّد»[١].

قال أبو رية معلّقاً على هذا الكلام: «ولم يتبيّن المنتظر الثاني!! ورحم الله من قال في السيوطي إنّه حاطب ليل»[٢].

## الوجه الثالث: للبيهقي

قال: «وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بن يزيد بن عبد الملك. ثمّ وقع الهرج والفتنة العظيمة، ثمّ ظهر ملك العبّاسيّين، وإنّما يزيدون على العدد المذكور، إذا تركت الصفة المذكورة فيه، أو عدّ منهم من كان بعد الهرج المذكور فيه»[٣].

وأجابه ابن كثير بقوله: «فهذا الذي سلكه البيهقي، وقد وافقه عليه جماعة، من أنّ المراد بالخلفاء الاثني عشر المذكورين في هذا الحديث هم المتتابعون إلى زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق، الذي قدّمنا الحديث فيه بالذمّ والوعيد، فإنّه مسلك فيه نظر... وعلى كلّ تقدير فهم اثنا عشر قبل عمر بن عبد العزيز، فهذا الذي سلكه على هذا التقدير يدخل في الاثني عشر يزيد بن معاوية، ويخرج منهم عمر بن عبد العزيز الذي أطبق الأئمّة على شكره وعلى مدحه، وعدّوه من الخلفاء الراشدين»[٤].

---

(١) **تاريخ الخلفاء**، للإمام الحافظ جلال الدِّين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المتوفّى عام ٩١١ هـ، بتحقيق: محمّد محيي الدِّين عبد الحميد، ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م، مطبعة السعادة بمصر: ص١٢.

(٢) **أضواء على السنّة المحمّديّة**، تأليف: محمود أبو رية، دار الكتب العلميّة، قم ـ إيران، الطبعة الثالثة، مزيدة منقّحة: ص٢٣٥.

(٣) نقلاً عن ابن كثير في **البداية والنهاية**: ج٦ ص٢٧٩.

(٤) **البداية والنهاية**: ج٦ ص٢٨٠.

## الوجه الرابع: لابن المهلب

قال: «لم ألق أحداً يقطع في هذا الحديث ـ يعني بشيء معيّن ـ فقوم قالوا: يكونون بتوالي إمرتهم، وقوم قالوا: يكونون في زمن واحد كلّهم يدّعي الإمارة.

والذي يغلب على الظنّ أنّه عليه الصلاة والسلام أخبر بأعاجيب تكون بعده من الفتن، حتّى يفترق الناس في وقت واحد على اثني عشر أميراً. ولو أراد غير هذا لقال يكون اثنا عشر أميراً يفعلون كذا، فلمّا أعراهم من الخبر عرفنا أنّه أراد أنّهم يكونون في زمن واحد».

وعلّق ابن حجر على ذلك بقوله: «وهو كلام من لم يقف على شيء من طرق الحديث غير الرواية التي وقعت في البخاري هكذا مختصرة»(١).

## الوجه الخامس: لابن العربي

قال: «فعددنا بعد رسول الله اثني عشر أميراً، فوجدنا أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً والحسن، ومعاوية ويزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، ومروان، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، ومروان بن محمّد بن مروان، والسفّاح...».

إلى أن قال: «وإذا عددنا منهم اثني عشر انتهى العدد بالصورة إلى سليمان. وإذا عددناهم بالمعنى كان معنا منهم خمسة: الخلفاء الأربعة وعمر بن عبد العزيز، ولم أعلم للحديث معنى»(٢).

---

(١) **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، مصدر سابق: ج١٣ ص١٨٢.

(٢) **شرح صحيح الترمذي**، لابن العربي: ج٩ ص٦٨.

## الوجه السادس: لأبي الحسين المنادي

قال: «يحتمل في معنى حديث «**يكون اثنا عشر خليفة**» أن يكون هذا بعد المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، فقد وجدت في كتاب دانيال: إذا مات المهدي ملك بعده خمسة رجال من ولد سبط الأكبر، ثمّ خمسة من ولد سبط الأصغر، ثمّ يوصي آخرهم بالخلافة لرجل من ولد السبط الأكبر، ثمّ يملك بعده ولده، فيتمّ بذلك اثنا عشر ملكاً، كلّ واحد منهم إمامٌ مهديّ»(١).

وقد ردّه ابن حجر بقوله: «والوجه الذي ذكره ابن المنادي ليس بواضح»(٢).

والمتدبّر في هذه الكلمات وأمثالها، يحصل له القطع واليقين، أنّ هذه الروايات بعيدة تماماً عن مثل هذه التفسيرات، لأنّها جميعاً لا تنسجم مع المواصفات التي ذُكرت في هذه النصوص ـ كما سيأتي لاحقاً ـ وإنّما تقوم على نقطة منهجيّة واحدة؛ هي توجيه الواقع التاريخي الذي وُجد بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله.

## الوجه السابع: لابن تيميّة

من المحاولات الأساسيّة التي حاولت أن تجعل من هذه الأحاديث منطلقاً لإضفاء الشرعيّة على خلافة الخلفاء الذين جاءوا بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وحكّام بني أميّة، المحاولة التي قام بها ابن تيميّة في منهاجه حيث قال: «وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة: إنّ النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قال: **لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلّهم من**

---

(١) انظر **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، مصدر سابق: ج١٣ ص١٨٤.

(٢) المصدر السابق: ج١٣ ص١٨٥.

**قريش**، ولفظ البخاري: **اثني عشر أميراً**. وفي لفظ: **لا يزال أمر الناس ماضياً ولهم اثنا عشر رجلاً**. وفي لفظ: **لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة كلّهم من قريش**».

ثمّ قال: «وهكذا كان، فكان الخلفاء: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، ثمّ تولّى من اجتمع الناس عليه وصار له عزّ ومنعة، معاوية وابنه يزيد، ثمّ عبد الملك وأولاده الأربعة، وبينهم عمر بن عبد العزيز، وبعد ذلك حصل في دولة الإسلام من النقص ما هو باق إلى الآن. فإنّ بني أميّة تولّوا على جميع أرض الإسلام، وكانت الدولة في زمنهم عزيزة...».

ثمّ قال: «وأعظم ما نقمه الناس على بني أميّة شيئان:

أحدهما: تكلّمهم في عليّ. والثاني: تأخير الصلاة عن وقتها»[(١)].

«وهؤلاء الاثنا عشر خليفة هم المذكورون في التوراة، حيث قال في بشارته بإسماعيل، وسيلد اثني عشر عظيماً»[(٢)].

ولست بصدد مناقشة هذا الكلام، لأنّ هذه الدراسة ليست موضوعة لهذا الغرض، وإنّما هدفي من نقل هذه الكلمات هو بيان رأي ابن تيميّة في يزيد وأولاد عبد الملك بن مروان، حيث يعتقد أنّ أمثال هؤلاء هم الذين بشّر الله إسماعيل عليه السلام في التوراة، بأنّهم العظماء الذين سيولدون له!!!

---

(١) **منهاج السنّة النبويّة في نقض كلام الشيعة والقدريّة**، تصنيف: شيخ الإسلام أبي العبّاس تقيّ الدِّين أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة الحراني الدمشقي الحنبلي، المتوفّى سنة ٧٢٨هـ وضع حواشيه وخرّج آياته وأحاديثه: عبد الله محمود محمّد عمر، منشورات: محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م، فصل: قال الرافضي: الثاني عشر: الفضائل إمّا نفسانيّة أو بدنيّة أو خارجيّة: ج٤ ص٣١٩.

(٢) المصدر السابق: ج٤ ص٣٢٠.

أمّا أمثال الحسن والحسين عليهما السلام اللّذين هما سيّدا شباب أهل الجنّة، وريحانتا رسول الله ـ بنصّ الفريقين من علماء المسلمين ـ فليسوا من أولئك العظماء الذين بُشّر بهم إسماعيل عليه السلام.

بل حتّى أنّ الإمام عليّاً عليه السلام ليس من المقطوع به أنّه من الخلفاء الاثني عشر، كما يعتقد ابن تيميّة؛ قال: «وأمّا مروان وابن الزبير فلم يكن لأحد منهما ولاية عامّة، بل كان زمنه زمن فتنة لم يحصل فيها من عزّ الإسلام وجهاد أعدائه ما يتناوله الحديث، ولهذا جعل طائفة من الناس خلافة عليّ من هذا الباب، وقالوا لم تثبت بنصّ ولا إجماع»[(١)].

وقال في موضع آخر: «ومن ظنّ أنّ هؤلاء الاثني عشر هم الذين تعتقد الرافضة إمامتهم فهو في غاية الجهل، فإنّ هؤلاء ليس فيهم من كان له سيف إلاّ عليّ بن أبي طالب، ومع هذا فلم يتمكّن في خلافته من غزو الكفّار، ولا فتح مدينة، ولا قتل كافراً، بل كان المسلمون قد اشتغل بعضهم بقتال بعض حتّى طمع فيهم الكفّار بالشرق والتتار من المشركين وأهل الكتاب... فأيّ عزّ للإسلام في هذا، والسيف يعمل في المسلمين، وعدوّهم قد طمع فيهم ونال منهم. وأمّا سائر الأئمّة غير علي، فلم يكن لأحد منهم سيف لاسيما المنتظر...»[(٢)].

والحاصل أنّ ابن تيميّة يعتقد أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام ليسوا مصداقاً للعظماء الذين بُشِّر بهم إسماعيل عليه السلام، نعم ـ في رأيه ـ أنّ معاوية الذي سنّ سبّ الإمام عليّ عليه السلام على منابر المسلمين لعشرات الأعوام، هو المستحقّ لأن يكون أحد مصاديق خلفاء النبيّ صلّى الله عليه وآله

(١) **منهاج السنّة**: ج٤ ص٣٢١.

(٢) المصدر السابق: ج٤ ص٣٢٠.

الذين وصفهم بقوله: كلّهم يعمل بالهدى ودين الحقّ».

يحدّثنا المدائني في كتاب الأحداث أنّ معاوية كتب إلى عمّاله نسخة واحدة، أن برئت الذمّة ممّن روى في فضل أبي تراب وأهل بيته، وقام الخطباء بعد ذلك بالنيل من عليٍّ وأهل بيته، حتّى أدّت هذه الحالة في الشام كما يقول ابن عساكر: «أن تختم مجالس الوعظ بشتم عليّ»(١).

وقال ابن أبي الحديد في ذيل قول عليّ عليه السلام (**أما إنّه سيظهر عليكم بعدي رجلٌ رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد... ألا وأنّه سيأمركم بسبّي والبراءة منّي...**): «إنّ معاوية أمر الناس بالعراق والشام بسبّ عليّ عليه السلام والبراءة منه. وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ: أنّ معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: اللّهُمَّ إنّ أبا تراب ألحَدَ في دينك، وصدَّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذّبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر إلى خلافة عمر بن عبد العزيز.

وروى أبو عثمان أيضاً أنّ قوماً من بني أميّة قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين! إنّك قد بلغت ما أمّلت، لو كففت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتّى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً»(٢).

---

(١) **تاريخ ابن عساكر**: ج٣ ص٤٠٢، نقلاً عن: **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة**، أسد حيدر، دار الكتاب العربي: ج١ ص٣٢.

(٢) **شرح نهج البلاغة**، لعزّ الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد، المتوفّى سنة ٦٥٦ هـ تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م: ج٤ ص٤٤.

وكيفما كان فإنّه يرى أيضاً أنّ يزيد الذي قتل الحسين عليه السلام، وأباح المدينة، وهدم الكعبة، هو الذي يليق به أن يكون من العظماء الذين ذُكروا في التوراة.

ثمّ بعد هذا وذاك يرى ابن تيميّة أنّ أولاد عبد الملك بن مروان هم الذين كان الإسلام عزيزاً في زمنهم. ثمّ يشكر الله أنّ الخلافة وقعت بيد بني العبّاس ولم تقع بيد رافضيّ، يقول: «ثمّ كان من نِعَم الله سبحانه ورحمته بالإسلام، أنّ الدولة لمّا انتقلت إلى بني هاشم صارت في بني العبّاس... وإلاّ فلو تولّى ـ والعياذ بالله ـ رافضي يسبّ الخلفاء والسابقين الأوّلين لقلب الإسلام»(١).

والواقع أنّ الإنسان لتصيبه الحيرة وهو يقف على مثل هذه الأقوال! أمِنَ الإنصاف والعدل أن يكون أمثال معاوية ويزيد وعبد الملك بن مروان وأولاده من الخلفاء الاثني عشر الذين بُشِّر بهم إسماعيل عليه السلام، وأنّهم من العظماء الذين ذُكروا في التوراة، وأنّ صلاح الأمّة لا يكون إلاّ بهم كما قال صلّى الله عليه وآله: «**لا يزال أمر أمّتي صالحاً حتّى يمضي اثنا عشر خليفة**»، وأنّ الإسلام عزيز بهم، ولا يكون عليّ عليه السلام منهم؟!.

قد يقال: إنّ ابن تيميّة لم يصرّح بأنّ عليّاً ليس من هؤلاء الخلفاء الاثني عشر.

والجواب: إنّه وإن لم يصرّح بذلك، إلاّ أنّه نصّ على أنّ هؤلاء الخلفاء لابدّ أن يكونوا «قد استولوا على جميع المملكة الإسلاميّة، وقهروا جميع أعداء الدِّين... وكان الإسلام في زيادة وقوّة عزيزاً في جميع الأرض» لذا قال: «وهذا تصديق ما أخبر به النبيّ صلّى الله عليه وآله حيث قال: **لا يزال**

---

(١) **منهاج السنّة**، مصدر سابق: ج٤ ص٣٢٠.

**هذا الدِّين عزيزاً ما تولّى اثنا عشر خليفة»**[١].

وبعد ذلك بيّن «أنّ عليّاً لم يتمكّن في خلافته من غزو الكفّار، ولا فتح مدينة، ولا قتل كافراً، بل كان المسلمون قد اشتغل بعضهم بقتال بعض حتّى طمع فيهم الكفّار... فأيّ عزٍّ للإسلام هذا»[٢].

لذا نجد أنّه يتردّد في آخر كلامه في هذا الفصل بكون عليّ من الخلفاء الاثني عشر، فيقول: «والمقصود هنا أنّ الحديث الذي فيه ذكر الاثني عشر خليفة، سواء قدّر أنّ عليّاً دخل فيه، أو قدّر أنّه لم يدخل فيه...»[٣].

هذا مضافاً «لو سلّمنا بما ذكره ابن تيميّة في تعيين الاثني عشر، فإنّ الذين ذكرهم قد انتهى أمرهم في القرن الثاني، والأحاديث دلّت على بقاء خلافة هؤلاء الاثني عشر وإمارتهم حتّى قيام الساعة»[٤].

ولقد أجاد القندوزي الحنفي في معرض ردّه على أمثال هذه التفسيرات بقوله: «إنّ الأحاديث الدالّة على كون الخلفاء بعده صلّى الله عليه [وآله] وسلّم اثني عشر، قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان... عُلم أنّه لا يمكن أن تحمل على الخلفاء بعده من أصحابه، لقلّتهم عن اثني عشر، ولا يمكن أن تحمل على الملوك الأمويّة لزيادتهم على اثني عشر، ولظلمهم الفاحش إلاّ عمر بن عبد العزيز»[٥].

---

(١) **منهاج السنّة**، مصدر سابق: ج٤ ص٣٢٠.

(٢) المصدر السابق: ج٤ ص٣٢١.

(٣) المصدر السابق: ج٤ ص٣٢٢.

(٤) **دراسات في منهاج السنّة، مدخل لشرح منهاج الكرامة**، تأليف: السيّد علي الحسيني الميلاني، الطبعة الأولى: ١٤١٩ : ص٤٠١.

(٥) **ينابيع المودّة لذوي القربى**، سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، تحقيق: سيّد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ : الباب٧٧.

## تفسير مدرسة أهل البيت لأحاديث الخلفاء اثنا عشر

أمّا التفسير الذي قدّمته مدرسة أهل البيت في هذا المجال، فنجد أنّها لم تحتج إلى مزيد بحث وعناء في تفسير هذه النصوص النبويّة، وأنّ المراد بهم هم أئمّة أهل البيت عليهم السلام. ولكي يتّضح ذلك لابدّ من بيان جملة من الدلائل والخصوصيات التي أشار إليها الرسول صلى الله عليه وآله في حديث الاثني عشر، ومن هذه الخصوصيات:

### الخصوصيّة الأولى: أنّهم موجودون إلى قيام الساعة

افترضت هذه النصوص الروائية أنّ للخلفاء بقاءً ما بقي الدِّين الإسلامي، أو حتّى تقوم الساعة، كما هو مقتضى قوله صلّى الله عليه وآله: «**لا يزال الدِّين قائماً حتّى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة**» وأصرح من ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان**»(١).

فإذا ضممنا إلى ذلك ما ورد متواتراً عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ الأرض لا تخلو من قائم لله بحجّة**»(٢) يتّضح أنّ هذه الأحاديث تسجّل بمجموعها معنىً مشتركاً فيما بينها:

**أوّلاً**: لابدّ من دوام وجود هؤلاء الخلفاء إلى قيام الساعة.

---

(١) **صحيح مسلم**، الحديث: ١٨٢٠، ج٣ ص١٤٥٢، **مسند أحمد**: ج٢ ص٢٩، ص٩٣، **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، مصدر سابق: ج١٣ ص١٠٤، **الجامع الصغير**: ج٢ ص٧٥٦، الحديث: ٩٩٦٩، وغيرها من المصادر.

(٢) **ينابيع المودّة**: ج١ ص٨٩، **تاريخ مدينة دمشق**، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، تحقيق: علي بشري، نشر دار الفكر، بيروت، عام ١٤١٥هـ: ج ٥٠ ص٢٥٥، **المناقب** للخوارزمي: ص٣٦٦، **تاريخ اليعقوبي**: ج٢ ص٢٠٦.

**ثانياً**: إنّ ذلك لا يتحقّق إلاّ إذا كان أولئك الخلفاء الاثنا عشر بشكل متسلسل إلى قيام الساعة.

وهذه الحقيقة لم تتجسّد إلاّ في أئمّة أهل البيت الاثني عشر، ومن أوضح ما يثبت ذلك: حديث الثقلين؛ حيث اتّضح منه أنّ القرآن والعترة «**لن يفترقا حتّى يردا عليه الحوض**». والنفي التأبيدي للافتراق بين الكتاب والعترة لا يتحقّق إلاّ بديمومة أهل البيت وبقائهم إلى قيام الساعة، وإلاّ لو فرض انقطاع أهل البيت وعدم وجودهم في زمان معيّن، يلزم منه افتراق القرآن عن العترة، وهو ينافي نصّ هذا الحديث المتواتر.

يقول ابن حجر في الصواعق: «وفي أحاديث الحثّ على التمسّك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسّك به إلى يوم القيامة، كما أنّ الكتاب العزيز كذلك. ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض...»[1].

### الخصوصيّة الثانية: أنّ هؤلاء الخلفاء معيّنون بالنصّ

مقتضى تشبيه الرسول صلّى الله عليه وآله الخلفاء بنقباء بني إسرائيل، يدلّ على كون هؤلاء الخلفاء معيّنين بالنصّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ (المائدة: ١٢). وهذا التنصيب تكشف عنه مسؤولية النقيب في الآية المباركة وهو كونه أميناً ومديراً لقومه.

قال الرازي في ذيل هذه الآية: «يُقال نقيب القوم، لأنّه ينقّب عن أحوالهم، كما ينقّب الأسرار، ومنه المناقب وهي الفضائل، لأنّها لا تظهر إلاّ بالتنقيب عنها».

---

(١) **الصواعق المحرقة**، مصدر سابق: ج ٢، ص ٤٤٢.

ثمّ قال: «إذا عرفت هذا فنقول: النقيب: فعيل، والفعيل يحتمل الفاعل والمفعول...

وقال أبو مسلم: النقيب هاهنا فعيل بمعنى مفعول، يعني اختارهم على علم بهم».

ثمّ بيّن في المسألة الثالثة: «إنّ بني إسرائيل كانوا اثني عشر سبطاً، فاختار الله تعالى من كلّ سبط رجلاً يكون نقيباً لهم وحاكماً فيهم»[1].

وهذا ما ورد صريحاً عن ابن عبّاس عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في حديث قال: «**معاشر الناس، مَن أحبَّ أن يلقى الله وهو عنه راض، فليوال عدّة الأئمّة**». فقام جابر بن عبد الله، فقال: وما عدّة الأئمّة ؟

فقال: «**يا جابر سألتني ـ يرحمك الله ـ عن الإسلام بأجمعه، عدّتهم عدّة الشهور، وهي عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، وعدّتهم عدّة العيون التي انفجرت لموسى بن عمران عليه السلام حين ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشر عيناً، وعدّتهم عدّة نقباء بني إسرائيل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ والأئمّة ـ يا جابر ـ اثنا عشر...**»[2].

## الخصوصيّة الثالثة: عملهم بالهُدى والحقّ

بيّنت هذه الأحاديث أنّ هؤلاء الخلفاء الاثني عشر «كلّهم يعمل

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، مصدر سابق: ج١١ ص١٤٥.

(٢) **إرشاد القلوب**: ج٢ ص٢٦١، نقلاً عن **البرهان في تفسير القرآن**، تأليف: العلاّمة المحدّث السيّد هاشم البحراني، حقّقه وعلّق عليه: لجنة من العلماء والمحقّقين الأخصائيّين. منشورات: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩ : ج٢ ص٤١٦.

بالهدى ودين الحقّ» وقد أشار إلى هذا المعنى ابن كثير في تفسيره عندما قال: «ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحقّ، ويعدل فيهم»(١).

ومن هنا نجد الرسول صلّى الله عليه وآله قد أمر بالتمسّك بهما معاً، لا بواحد منهما، لكي ينجو الإنسان من الضلالة، كما تقدّم: «**ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً**»، وأوضح من ذلك دلالة ما ورد في رواية الطبراني في تتمّة حديث الثقلين: «**فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم**».

ومن هذا الحديث يتّضح أنّ التمسّك بأحدهما لا يُغني عن الآخر، والسرّ في ذلك أنّهما معاً يشكّلان حقيقة واحدة يتمثّل بها الإسلام على واقعه وبكامل أحكامه ووظائفه. وهذا ما روي عن عمر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: «**في كلّ خلوف من أمّتي، عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدِّين تحريف الضالّين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ألا وإنّ أئمّتكم وفدكم إلى الله عزّ وجلّ، فانظروا مَن توفدون**»(٢).

من هنا نعتقد أنّ صلاح الأمّة لا يكون إلاّ بهم، كما قال صلّى الله عليه وآله: «**لا يزال أمر أمّتي صالحاً حتّى يمضي اثنا عشر خليفة**».

### الخصوصيّة الرابعة: ثباتهم على الحقّ

وهذه الحقيقة تكشف عنها سيرتهم عليهم السلام، حيث نجد أنّ حياتهم مليئة بالمعاناة والظلامات والمصائب التي حلّت بهم عليهم السلام ابتداءً من الإمام أمير المؤمنين إلى أولاده المعصومين عليهم السلام الذين لاقوا ما لاقوا

(١) **تفسير ابن كثير**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٤.

(٢) **الصواعق المحرقة**: ص٢٣١، **ذخائر العقبى**: ص١٧، **ينابيع المودّة**: ج٢ ص١١٤.

من ظلامات من قبل السلطات الحاكمة، ومن الذين تعلّقوا وانشدّوا بأهداب الحياة، فغدوا عليهم السلام مشرّدين ما بين مَنْ قُتل مظلوماً وبين من قُتل مسموماً، فعلى الرغم من شدّة هذه المصائب والقمع التاريخي وخذلان الأمّة لهم، إلاّ أنّ ذلك لم يؤثّر في سعيهم عليهم السلام لهداية الأمّة والوصول بها إلى الكمال الذي خُلق الإنسان لأجله.

**الخصوصيّة الخامسة: أنّهم اثنا عشر خليفة**

ممّا تقدّم تبيّن أنّ كلّ المحاولات التي بُذلت لتوجيه حصر عدد الخلفاء في اثني عشر لم تفلح، إلاّ التفسير الذي قدّمته مدرسة أهل البيت، حيث نجد بوضوح أنّ الروايات ـ التي ستقف عليها لاحقاً ـ تثبت بما لا لبسَ فيه ولا غموض أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام هم مصداق هذه الأحاديث المتواترة بين الفريقين.

وبذلك تسقط تلك الدعوى التي يردّدها البعض، بأنّ متكلّمي الشيعة هم الذين وضعوا هذه الأحاديث واختلقوها لتثبيت مذهبهم؛ لورود هذه النصوص في أهمّ الصحاح والمسانيد السنّية قبل ذكرها في المصادر الشيعيّة.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة جملة من المحقّقين، منهم أستاذنا الشهيد محمّد باقر الصدر حيث قال: «قد أحصى بعض المؤلّفين روايات هذا الحديث النبوي الشريف عن الأئمّة أو الخلفاء أو الأمراء بعده، أنّهم اثنا عشر، فبلغت الروايات أكثر من (٢٧٠) رواية[١] مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسنّة.

---

(١) **منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر**، المحقّق آية الله الصافي الكلبايكاني، الطبعة الثالثة: ص١٠.

وليست الكثرة العدديّة لهذه الروايات هي الأساس الوحيد لقبولها، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحّتها، فالبخاري الذي نقل هذا الحديث كان معاصراً للإمام الجواد عليه السلام والإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام، وفي ذلك مغزىً كبير، لأنّه يبرهن على أنّ هذا الحديث قد سُجِّل عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قبل أن يتحقّق مضمونه، وتكتمل فكرة الأئمّة الاثني عشر فعلاً، وهذا يعني أنّه لا يوجد أيّ مجال للشكّ في أن يكون نقل الحديث متأثّراً بالواقع الإمامي الاثني عشري وانعكاساً له، لأنّ الأحاديث المزيّفة التي تُنسب إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله هي انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخّر زمنيّاً، لا تستبق في ظهورها وتسجيلها في كتب الحديث ذلك الواقع الذي يشكّل انعكاساً له.

فما دمنا قد ملكنا الدليل المادّي على أنّ الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخي للأئمّة الاثني عشر، وضبط في كتب الحديث قبل تكامل الواقع الإمامي الاثني عشري، أمكننا أن نتأكّد من أنّ هذا الحديث ليس انعكاساً لواقع، وإنّما هو تعبير عن حقيقة ربّانية نطق بها من لا ينطق عن الهوى، فقال: «**إنّ الخلفاء بعدي اثنا عشر**» وجاء الواقع الإمامي الاثنا عشري ابتداءً من الإمام عليّ عليه السلام وانتهاءً بالمهدي ـ عجّل الله فرجه الشريف ـ ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث النبوي الشريف»[1].

## أسماء خلفاء النبيّ في النصوص الروائيّة

قبل استعراض الروايات التي بيّنت أسماء خلفاء النبيّ صلّى الله عليه وآله، هناك تساؤل ملفت للنظر، هو أنّه بحسب الروايات التي وردت في

(١) **بحث حول المهدي**، السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، تحقيق: عبد الجبّار شرارة، نشر مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ : ص١٠٦.

الصحاح والمسانيد، أنّ الأمّة سكتت ولم تستوضح من النبيّ صلّى الله عليه وآله مَن هم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر؟ خصوصاً وأنّ النبيّ الأعظم كان في مواضع متفرِّقة وأماكن مختلفة يؤكّد هذه الحقيقة، بالنحو الذي لم يدع مجالاً للمحقّق المنصف أن يشكّك في مضمون هذه الروايات.

وفي مقام الجواب توجد عدّة احتمالات:

**الأوّل**: أنّ الأمّة لم تهتمّ بذلك رغم الاهتمام الخاصّ الذي أولاه الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله لبيان هذه الحقيقة، من خلال العشرات بل المئات من الروايات التي بيّنت أنّ الخلفاء من بعده اثنا عشر.

وهذا الاحتمال لا يمكن قبوله لأنّه طعن واضح في سيرة أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله حيث تؤكّد لنا الوقائع التاريخيّة أنّهم كانوا يهتمّون بكلّ صغيرة وكبيرة من أمر هذا الدِّين، بل كانوا يسألون عن أمور لا تهمّهم، لذا نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (المائدة: ١٠١).

**الثاني**: أنّهم سألوا رسول الله صلّى الله عليه وآله، لكن الرسول لم يهتمّ ببيان ذلك لهم.

وهذا أيضاً لا يمكن قبوله لأنّه خلاف ما صرّح به القرآن بالنسبة إلى رسوله الأمين، حيث قال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (التكوير: ٢٤)، بل هو مأمور ببيان ما نُزّل إليه من الأمر الإلهي: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤)، خصوصاً أنّ ذلك الأمر يرتبط بكمال الدِّين، بل أساسه؛ لقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ (المائدة: ٦٧).

**الثالث**: إنّ الأصحاب سألوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وبيّنه لهم، من خلال بيانات متعدّدة وفي مواقع مختلفة وبأساليب متنوّعة، لكن الأجهزة

الحاكمة حالت دون ذلك ومنعت من تدوين حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله، بل أمرت بإحراق كلّ ما كتب في هذا المجال، ونهت عن تدوين ما هو في صدور الأصحاب(١).

وليس غريباً أن تقف السلطات التي أرادت أن تتسلّط على رقاب الأمّة باسم خلافة رسول الله صلّى الله عليه وآله، وتمنع مَن هو منها كالقطب من الرّحى، دون نشر مثل هذه الأحاديث التي تثبت أحقّية الإمام عليّ وأولاده عليهم السلام بالخلافة والإمامة من بعده.

من هنا نستطيع الوقوف على جواب تساؤل طالما أشار إليه جملة من أعلام السنّة المتقدِّمين، وردّدته بعض الأقلام المعاصرة، وهو أنّه لو كانت

---

(١) ورد عن عائشة أنّها قالت: «جمع أبي الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم، وكانت خمسمئة حديث، فبات ليلته يتقلّب كثيراً. قالت: فغمّني، فقلت: أتتقلّب لشكوى أو لشيء بلغك؟ فلمّا أصبح قال: أي بنيّة، هلمّي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار فحرقها». **تذكرة الحفّاظ**، أبو عبد محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار إحياء التراث العربي: ج١ ص٥.

وعن القاسم بن محمّد بن أبي بكر: إنّ عمر بن الخطّاب بلغه أنّه قد ظهرت في أيدي الناس كتب، فاستنكرها وكرهها، وقال: أيّها الناس إنّه قد بلغني أنّه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبّها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يتبيّن أحدٌ عنده كتاباً إلاّ أتاني به، فأرى فيه رأيي.

قال: فظنّوا أنّه يريد أن ينظر فيها ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنار!!».

**حجّية السنّة**، للشيخ عبد الغني عبد الخالق، رئيس قسم أصول الدّين بجامعة الأزهر، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ودار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ : ص٣٩٥.

انظر تفصيل هذا البحث في: **منع تدوين الحديث؛ أسباب ونتائج**، تأليف: علي الشهرستاني.

الخلافة والإمامة لعليّ وأولاده من الأمور التي أكّدها وركّز عليها النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله، فلماذا أصيبت بمثل هذه الضبابيّة والإبهام، وصارت منشأً للنقض والإبرام؟

والجواب: أنّ السلطات الحاكمة وأجهزتها الإعلاميّة كانت تعمل بكلّ ما وسعها من أجل طمس الحقائق التي لا ترتضيها ولا تصبّ في مصالحها، كما نجد ذلك واضحاً بالنسبة إلى الإمام عليّ عليه السلام وهو أقرب الصحابة إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله علماً وعملاً[1]، حيث سُنّ لعنه وشتمه على منابر المسلمين ولعشرات السنين، ولم يمض على رحلة الرسول الأعظم إلاّ ثلاثون عاماً. قال ابن أبي الحديد في مقدّمة شرحه: «فقد علمت أنّه استولى بنو أميّة على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها، واجتهدوا بكلّ حيلة في إطفاء نوره والتحريض عليه، ووضع المعايب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعّدوا مادحيه، بل حبسوهم وقتلوهم، ومنعوا من رواية حديث يتضمّن له فضيلة أو يرفع له ذكراً، حتّى حظروا أن يسمّى أحد باسمه...»[2].

فإذا كان بمقدور هذه الأجهزة كتمان الحقيقة وتشويهها، وإيصال الأمّة إلى هذا المستوى من الجهل بأقرب الصحابة إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنّ بإمكانها أيضاً أن تخفي الحقيقة المتعلّقة بالأئمّة الأحد عشر بطريق أولى،

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**من يريد أن يحيى حياتي ويموت مماتي ويسكن جنّة الخُلد التي وعدني ربّي، فليتولّ علي بن أبي طالب، فإنّه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة**».

قال الحاكم: «هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه». **المستدرك على الصحيحين**، مصدر سابق: ج٣ ص١٢٨.

(٢) **شرح نهج البلاغة**، مصدر سابق: ج١ ص٤٢.

بحيث تصبح تلك الحقائق غير واضحة في أذهان المسلمين بصورة عامّة، فيقع الاختلاف بينهم لا محالة؛ وهذا ما ألمح إليه الشهيد الصدر بقوله: «ولو سلم بلوغ إمامة أهل البيت حدوثاً تلك الدرجة من الوضوح ـ بشكل تجعلها من الضروريّات ـ فلا شكّ في عدم استمرار وضوحها بهذه المثابة، لما اكتنفها من عوامل الغموض»(١).

والذي يثبت هذه الحقيقة أنّنا نجد بوضوح أنّ ذكر أسماء الخلفاء والأئمّة من أهل البيت إنّما جاء بعد ذكر النبيّ صلّى الله عليه وآله لخلفائه الاثني عشر وأنّهم كعدّة نقباء بني إسرائيل. وإليك نموذجاً لبعض هذه الروايات:

١ ـ عن عبد الله بن العبّاس قال: «دخلت على النبيّ صلّى الله عليه وآله، والحسن على عاتقه والحسين على فخذه يلثمهما ويقبّلهما ويقول: **اللّهُمَّ والِ مَن والاهما وعادِ مَن عاداهما**.

قال ابن عبّاس: قلت: يا رسول الله فكم الأئمّة بعدك؟

قال: **بعدد حواريّ عيسى وأسباط موسى ونقباء بني إسرائيل**.

قلت: يا رسول الله فكم كانوا ؟

قال: **كانوا اثني عشر، والأئمّة بعدي اثنا عشر، أوّلهم عليّ بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين، فإذا انقضى الحسين فابنه علي، فإذا انقضى عليّ فابنه محمّد، فإذا انقضى محمّد فابنه جعفر، فإذا انقضى جعفر فابنه موسى، فإذا انقضى موسى فابنه علي، فإذا انقضى علي فابنه محمّد، فإذا انقضى محمّد فابنه**

(١) **بحوث في شرح العروة الوثقى**، تأليف: سماحة آية الله العظمى الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر قدّس سرّه، المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، الطبعة المحقّقة الأولى، ١٤٢١هـ مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر: ج٣ ص٣٩٦.

**عليّ، فإذا انقضى عليّ فابنه الحسن، فإذا انقضى الحسن فابنه الحجّة»**[1].

٢ ـ عن سلمان الفارسي قال: «خطبنا رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: **معاشر الناس إنّي راحلٌ عن قريب ومنطلق إلى المغيب، أوصيكم في عترتي خيراً، وإيّاكم والبدع، فإنّ كلّ بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار. معاشر الناس من افتقد الشمس فليتمسّك بالقمر، ومن افتقد القمر فليتمسّك بالفرقدين، فإذا فقدتم الفرقدين فتمسّكوا بالنجوم الزاهرة بعدي، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.**

قال: فلمّا نزل عن المنبر تبعته حتّى دخل بيت عائشة، فدخلت إليه وقلت: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله فما الشمس والقمر وما الفرقدان وما النجوم الزاهرة؟

فقال صلّى الله عليه وآله: **أنا الشمس، وعليّ القمر، والحسن والحسين الفرقدان، فإذا افتقدتموني فتمسّكوا بعليّ بعدي، وإذا افتقدتموه فتمسّكوا بالحسن والحسين، وأمّا النجوم الزاهرة فهم الأئمّة التسعة من صلب الحسين، تاسعهم مهديّهم.**

ثمّ قال عليه الصلاة والسلام: **إنّهم هم الأوصياء والخلفاء بعدي، أئمّة أبرار، عدد أسباط يعقوب وحواريي عيسى.**

قلت: فسمّهم لي يا رسول الله؟

قال: **أوّلهم عليّ بن أبي طالب، وبعده سبطاي، وبعدهما علي زين**

---

(١) **كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر**، تأليف: أبي القاسم علي بن محمّد بن علي الخزّاز القمّي الرازي، من علماء القرن الرابع، حقّقه العَلَم الحجّة السيّد عبد اللطيف الحسيني الكوه كمري الخوئي، انتشارات بيدار، مطبعة خيام، قم، ١٤٠١هـ : ص١٦.

**العابدين، وبعده محمّد بن علي الباقر، والصادق جعفر بن محمّد، وابنه الكاظم سميّ موسى بن عمران، والذي يُقتل بأرض الغربة ابنه علي، ثمّ ابنه محمّد، والصادقان علي والحسن، والحجّة القائم المنتظر في غيبته، فإنّهم عترتي من دمي ولحمي، علمهم علمي وحكمهم حكمي، من آذاني فيهم فلا أناله الله شفاعتي**»(١).

٣ ـ عن أبي ذر قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: **مَنْ أحبّني وأهل بيتي كنّا نحن وهو كهاتين** ـ وأشار بالسبّابة والوسطى ـ.

ثمّ قال عليه الصلاة والسلام: **أخي خير الأوصياء، وسبطيّ خير الأسباط، وسوف يُخرج الله تبارك وتعالى من صلب الحسين أئمّةً أبراراً، ومنّا مهديّ هذه الأمّة**.

قلت: يا رسول الله وكم الأئمّة بعدك؟

قال: **عدد نقباء بني إسرائيل**»(٢).

٤ ـ وعن أبي ذر أيضاً قال: «دخلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله في مرضه الذي توفّي فيه، فقال: **يا أبا ذر: ايتني بابنتي فاطمة**.

قال: فقمت ودخلت عليها وقلت: يا سيّدة النسوان أجيبي أباك.

قال: فلبّت وخرجت حتّى دخلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله. فلمّا رأت رسول الله انكبّت عليه وبكت وبكى رسول الله صلّى الله عليه وآله لبكائها وضمّها إليه.

ثمّ قال: **يا فاطمة لا تبكين، فداك أبوك، فأنتِ أوّل مَن تلحقين بي، مظلومة مغصوبة**.

قال أبو ذر: فسكن قلبها.

---

(١) **كفاية الأثر**، مصدر سابق: ص٤٠.

(٢) المصدر السابق: ص٣٥.

ثمّ التفت إليَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: **يا أبا ذر إنّها بضعةٌ منّي، فمَن آذاها فقد آذاني، ألا إنّها سيّدة نساء العالمين، وبعلها سيّد الوصيّين، وابنيها الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، وإنّهما إمامان إن قاما أو قعدا، وأبوهما خيرٌ منهما، وسوف يُخرج الله من صلب الحسين تسعة من الأئمّة المعصومين، قوّامون بالقسط، ومنّا مهديّ هذه الأمّة.**

قال: قلت: يا رسول الله فكم الأئمّة بعدك؟ قال: **عدد نقباء بني إسرائيل**»[١].

٥ ـ عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «**الخلفاء بعدي اثنا عشر، تسعة من صلب الحسين، والتاسع مهديهم، فطوبى لمحبّيهم والويل لمبغضيهم**»[٢].

٦ ـ عن أبي سعيد الخدري أيضاً، قال: «صلّى بنا رسول الله صلّى الله عليه وآله صلاة الأولى، ثمّ أقبل بوجهه الكريم علينا فقال: **معاشر أصحابي إنّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح وباب حطّة في بني إسرائيل، فتمسّكوا بأهل بيتي بعدي والأئمّة الراشدين من ذرّيتي، فإنّكم لن تضلّوا بعدي أبداً.**

فقيل: يارسول الله كم الأئمّة بعدك ؟

فقال: **اثنا عشر من أهل بيتي**، أو قال: **من عترتي**»[٣].

٧ ـ عن سلمان الفارسي قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **الأئمّة من بعدي بعدد نقباء بني إسرائيل، وكانوا اثني عشر**. ثمّ وضع يده على صُلب الحسين عليه السلام وقال: **تسعة من صلبه، والتاسع مهديهم، يملأ**

---

(١) **كفاية الأثر**: ص٣٦.

(٢) المصدر السابق: ص٣٣.

(٣) المصدر السابق: ص٣٣.

**الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً، فالويل لمبغضيهم»**(١).

٨ ـ عن جابر بن يزيد الجعفي، قال: «سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: لمّا أنزل الله تبارك وتعالى على نبيّه صلّى الله عليه وآله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ (النساء: ٥٩)، قلت: يا رسول الله، قد عرفنا الله ورسوله، فمَن أولو الأمر منكم الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟

فقال صلّى الله عليه وآله: **خلفائي وأئمّة المسلمين بعدي، أوّلهم عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ عليّ بن الحسين، ثمّ محمّد بن علي المعروف بالتوراة بالباقر، وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فاقرأه منّي السلام، ثمّ الصادق جعفر بن محمّد، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ عليّ بن موسى، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ عليّ بن محمّد، ثمّ الحسن بن عليّ، ثمّ سميّي وكنيّي حجّة الله في أرضه وبقيّته في عباده ابن الحسن، ذلك الذي يفتح الله ـ تعالى ذكره ـ على يده مشارق الأرض ومغاربها، الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان.**

فقال جابر: فقلت: يا رسول الله فهل لشيعته الانتفاع به؟

فقال صلّى الله عليه وآله: **والذي بعثني بالنبوّة، إنّهم ليستضيئون بنوره وينتفعون بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس إذا سترها سحاب»**(٢).

٩ ـ عن محمّد بن أبي عمير، عن غياث بن إبراهيم، عن أبي عبد الله

---

(١) المصدر السابق: ص٤٧.

(٢) **إعلام الورى بأعلام الهدى**، أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، من أعلام القرن السادس، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م: ص٣٧٥.

الصادق، عن أبيه محمّد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين عليهم السلام قال: «سُئل أمير المؤمنين عن معنى قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: (**إنّي مخلّف فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي**) مَن العترة؟ قال عليه السلام: **أنا والحسن والحسين، والأئمّة التسعة من ولد الحسين، تاسعهم مهديّهم وقائمهم، لا يفارقون كتاب الله ولا يفارقهم، حتّى يردوا على رسول الله الحوض**»[(١)].

١٠ ـ عن أبي عبد الله الصادق، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **لمّا أُسري بي إلى السماء، أوحى الله إليَّ ربّي جلّ جلاله: فقال: يا محمّد، اطلعت على الأرض إطلاعة، فاخترتك منها، فجعلتك نبيّاً، وشققت لك من اسمي إسماً، فأنا المحمود وأنت محمّد.**

**ثمّ اطلعت الثانية، فاخترت منها عليّاً، وجعلته وصيّك وخليفتك وزوج ابنتك وأبا ذرّيتك، وشققتُ له إسماً من أسمائي، فأنا العليّ الأعلى وهو عليّ**[(٢)] **وخلقت فاطمة والحسن والحسين من نوركما، عرضت ولايتهم على الملائكة، فمن قبلها كان عندي من المقرّبين.**

**يا محمّد: تحبّ أن تراهم؟ قلت: نعم يا ربّ.**

---

(١) **معاني الأخبار**، تأليف: أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، الشيخ الصدوق، المتوفّى ٣٨١ هـ تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم ـ إيران: ص٩٠.

(٢) أخرج الحاكم في **المستدرك** عن أبي هريرة قال: قالت فاطمة رضي الله عنها: يا رسول الله زوّجتني من علي بن أبي طالب وهو فقير لا مال له، فقال: **يا فاطمة أما ترضين أنّ الله عزّ وجلّ اطّلع إلى أهل الأرض فاختار رجلين، أحدهما أبوك، والآخر بعلك**» **المستدرك على الصحيحين**: ج٣ ص١٢٩.

**فقال عزّ وجلّ: ارفع لرأسك، فرفعت رأسي وإذا أنا بأنوار عليّ وفاطمة والحسن والحسين، وعليّ بن الحسين، ومحمّد بن علي، وجعفر بن محمّد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمّد بن علي، وعلي بن محمّد، والحسن بن علي، ومحمّد بن الحسن القائم في وسطهم، كأنّه كوكبٌ درّي.**

**قلت: يا ربّ ومَن هؤلاء ؟**

**قال: هؤلاء الأئمّة، وهذا القائم الذي يحلّل حلالي ويُحرِّم حرامي، وبه أنتقم من أعدائي، وهو راحة لأوليائي...»**[1].

١١ ـ عن أنس بن مالك، قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: **أوصياء الأنبياء الذين بعدهم، بقضاء ديونهم وإنجاز عداتهم، ويقاتلون على سنّتهم.**

ثمّ التفت إلى عليّ عليه السلام فقال: **أنت وصيّي وأخي في الدُّنيا والآخرة، تقضي ديني وتنجز عداتي وتقاتل على سنّتي، تقاتل على التأويل كما قاتلت على التنزيل، فأنا خير الأنبياء وأنت خير الأوصياء، وسبطاي خير الأسباط، ومن صلبهما يخرج الأئمّة التسعة، مطهّرون معصومون قوّامون بالقسط، والأئمّة بعدي على عدد نقباء بني إسرائيل وحواريّ عيسى، هم عترتي من لحمي ودمي»**[2].

١٢ ـ عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة قال: «كنت عند النبيّ صلّى الله عليه وآله وأبو بكر وعمر والفضل بن العبّاس وزيد بن حارثة وعبد الله

---

(١) **كمال الدِّين وتمام النِّعمة**، تأليف: الشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (٣٨١ هـ) تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم: ج١ ص٢٥٢، الباب ٢٣، الحديث ٢.

(٢) **كفاية الأثر**، مصدر سابق: ص٧٥.

بن مسعود إذ دخل الحسين بن عليّ، فأخذه النبيّ صلّى الله عليه وآله وقبّله، ثمّ قال: **اللّهُمَّ إنّي أحبّه، فأحبّه وأحبّ من يحبّه، يا حسين أنت إمام ابن إمام أبو أئمّة تسعة من ولدك أئمّة أبرار.**

فقال له عبد الله بن مسعود: مَن هؤلاء الأئمّة الذين ذكرتهم يا رسول الله في صلب الحسين؟

فأطرق مليّاً ثمّ رفع رأسه وقال: **يا عبد الله سألت عظيماً ولكنّي أخبرك:**

**إنّ ابني هذا** ـ ووضع يده على كتف الحسين ـ **يخرج من صلبه ولدٌ مبارك، سميّ جدّه عليّ يسمّى العابد، ويخرج من صلب عليّ ولد اسمه اسمي وأشبه الناس بي، يبقر العلم بقراً وينطق بالحقّ، ويُخرج الله من صلبه كلمة الحقّ ولسان الصدق.**

فقال له ابن مسعود: فما اسمه يا نبيّ الله ؟

قال: فقال: **جعفر، صادق في قوله وفعله.**

ثمّ دخل حسّان بن ثابت وأنشد في رسول الله صلّى الله عليه وآله شعراً، وانقطع الحديث. فلمّا كان من الغد صلّى بنا رسول الله صلّى الله عليه وآله ثمّ دخل بيت عائشة ودخلنا معه أنا وعليّ بن أبي طالب وعبد الله بن العبّاس، وكان من دأبه إذا لم يُسأل ابتدأ.

فقلت له: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، ألا تخبرني بباقي الخلفاء من صلب الحسين؟

قال: **نعم يا أبا هريرة، ويُخرج الله من صلبه مولوداً طاهراً سميّ موسى بن عمران.**

ثمّ قال له ابن عبّاس: ثمّ مَن يا رسول الله؟

قال: **يَخرج من صلب موسى عليّ ابنه يدعى بالرضا، موضع العلم**

**ومعدن الحلم. ويخرج من صلب عليّ ابنه محمّد المحمود أطهر الناس خَلقاً وأحسنهم خُلقاً، ويخرج من صلب محمّد ابنه عليّ، صادق اللهجة، ويخرج من صلب علي الحسن الميمون التقي، الطاهر الناطق عن الله، وأبو حجّة الله، ويخرج من صلب الحسن قائمنا أهل البيت، يملؤها قسطاً وعدلاً، كما مُلئت جوراً وظلماً، له غيبة موسى وحكم داود وبهاء عيسى.** ثمّ تلا عليه الصلاة والسلام: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣٤).

فقال له عليّ بن أبي طالب: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، مَن هؤلاء الذين ذكرتهم؟ قال: **يا عليّ أسامي الأوصياء من بعدك والعترة الطاهرة والذرّية المباركة»**[١].

١٣ ـ ما جاء في فرائد السمطين للحمويني المصري[٢]: «عن مجاهد، عن ابن عبّاس قال: قدم يهودي على رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يُقال له: نعثل، فقال له: يا محمّد إنّي أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فإن أجبت عنها أسلمت على يدك. قال: **سَل يا أبا عمارة.** إلى أن قال: فأخبرني عن وصيّك مَن هو؟ فما من نبيّ إلاّ وله وصيّ، وإنّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون.

فقال: **نعم، إنّ وصيّي والخليفة من بعدي عليّ بن أبي طالب، وبعده سبطاي: الحسن والحسين، يتلوه تسعة من صلب الحسين أئمّة أبرار.**

قال: يا محمّد فسمّهم لي.

---

(١) **كفاية الأثر**، مصدر سابق: ص٨١.

(٢) قال الذهبي في تذكرة الحفّاظ: «الإمام المحدّث الأوحد الأكمل فخر الإسلام صدر الدِّين، إبراهيم بن محمّد بن المؤيّد بن حمويه الخراساني الجويني، شيخ الصوفيّة... كان شديد الاعتناء بالرواية، حسن القراءة، مليح الشكل، مهيباً ديّناً صالحاً».
**تذكرة الحفّاظ**: ج٤ ص١٥٠٦.

قال: **نعم، إذا مضى الحسين فابنه عليّ، فإذا مضى عليّ فابنه محمّد، فإذا مضى محمّد فابنه جعفر، فإذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمّد، ثمّ ابنه علي، ثمّ ابنه الحسن، ثمّ الحجّة بن الحسن، فهذه اثنا عشر أئمّة عدد نقباء بني إسرائيل.**

قال: فأين مكانهم في الجنّة ؟

قال: **معي في درجتي.**

قال: أشهدُ أن لا إله إلاّ الله، وأنّك رسول الله، وأشهد أنّهم الأوصياء من بعدك، ولقد وجدت هذا في الكتب المتقدمة، وفيما عهد إلينا موسى بن عمران أنّه إذا كان آخر الزمان، يخرج نبيّ يُقال له: أحمد، خاتم الأنبياء لا نبيّ بعده، فيخرج من صلبه أئمّة أبرار عدد الأسباط»[1].

١٤ ـ ونقل الحمويني في فرائده أيضاً «عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: **أيّها الناس إنّ الله أرسلني برسالة ضاق بها صدري، وظننت أنّ الناس مكذّبيّ**... ثمّ أمر فنودي بالصلاة جامعة ثمّ خطب فقال: **أيّها الناس أتعلمون أنّ الله عزّ وجلّ مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم؟** قالوا: بلى يا رسول الله. قال: **قُم يا عليّ**، فقام عليّ. فقال: **مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهُمَّ والِ من والاه وعادِ مَن عاداه.**

فقام سلمان فقال: يا رسول الله ولاء كماذا ؟

---

(١) **فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمّة من ذرّيتهم عليهم السلام** تأليف: شيخ الإسلام المحدِّث الكبير إبراهيم بن محمّد بن المؤيّد بن عبد الله بن علي بن محمّد الجويني الخراساني، من أعلام القرن السابع والثامن، حقّقه وعلّق عليه وتصدّى لنشره: الشيخ محمّد باقر المحمودي، مؤسّسة المحمودي للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م: ج٢ ص١٣٣، الباب الحادي والثلاثون، الحديث: ٤٣١.

**فقال: ولاء كولايتي، مَن كنت أولى به من نفسه فعليٌّ أولى به من نفسه.** فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

فقام أبو بكر وعمر فقالا: يا رسول الله هؤلاء الآيات خاصّة في عليّ؟

قال: **بلى فيه وفي أوصيائه إلى يوم القيامة.**

قالا: يا رسول الله، بيّنهم لنا.

قال: **عليّ أخي ووزيري ووارثي ووصيّي وخليفتي في أمّتي ووليّ كلّ مؤمن بعدي. ثمّ ابني الحسن والحسين، ثمّ تسعة من ولد ابني الحسين واحد بعد واحد. القرآن معهم، وهم مع القرآن، لا يفارقونه ولا يفارقهم حتّى يردا عليَّ الحوض**»[1].

وقد نقل الحمويني ذلك في مواطن عديدة، وبألسنة وطرق مختلفة، فراجع.

هذه نماذج من الروايات التي صرّحت بأسماء خلفاء النبيّ صلّى الله عليه وآله من بعده، وهناك العشرات بل المئات من النصوص الواردة عن طرق الفريقين، تشير إلى بعض أسماء هؤلاء الخلفاء الاثني عشر، ثمّ تصرّح أنّ باقي الخلفاء هم من صلب الإمام الحسين عليه السلام، خصوصاً ما ورد في ذيل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ (الزخرف: ٢٨).

هذا مضافاً إلى دليل آخر يمكن اعتماده في هذا المجال لتعيين مصاديق هؤلاء الخلفاء والأئمّة، وذلك من خلال المقياس الذي نصّ عليه حديث الثقلين، ألا وهو عدم الافتراق بين القرآن والعترة، فلنمسك بأيدينا هذا المقياس، ونسبر به الواقع السلوكي لجميع مَن تسمّوا بالخلفاء والأئمّة

(١) **فرائد السمطين**، مصدر سابق: ج١ ص٣١٥، الباب الثامن والخمسون، الحديث ٢٥٠.

والأُمراء لدى جميع الاتّجاهات والمدارس، ونختار أجدرهم بالانطباق عليه لنتمسّك بإمامته وخلافته للنبيّ صلّى الله عليه وآله.

وهنا عندما نستعرض تاريخ وتراجم أئمّة أهل البيت عليهم السلام، نجد أنّ «هؤلاء الأئمّة الاثني عشر قد ادّعوا لأنفسهم الإمامة في عرض السلطة الزمنيّة، واتّخذوا من أنفسهم كما اتّخذهم الملايين من أتباعهم قادة للمعارضة السلميّة للحكم القائم في زمنهم، وكانوا عرضة للسجون والمراقبة، وكثير منهم قُتل بالسمّ، وفيهم من استشهد في ميدان الجهاد على يد القائمين بالحكم.

وفي هؤلاء الأئمّة من تولّى الإمامة وهو ابن عشرين سنة كالإمام الحسن العسكري، بل فيهم من تولاها وهو ابن ثمان كالإمامين الجواد والهادي.

ومن المعروف عند الشيعة ادّعاؤهم العصمة لأئمّتهم، الملازمة لدعوى الإحاطة في شؤون الشريعة جميعها، بل ادّعوا الأعلميّة لهم في جميع الشؤون، وهم أنفسهم صرّحوا بذلك»[١].

ومن كلماتهم في ذلك: ما ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

- **«نحن شجرة النبوّة، ومحطّ الرسالة، ومختلَف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم»**[٢].
- **«هم موضع سرّه، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف**

---

(١) **الأصول العامّة للفقه المقارن**، مصدر سابق: ص١٨١.

(٢) **نهج البلاغة**، للإمام عليّ عليه السلام، ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلميّة: الدكتور صبحي الصالح، من منشورات دار الهجرة، إيران ـ قم: الخطبة ١٠٩، ص١٦٢.

**كتبه، وجبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره، وأذهب ارتعاد فرائصه»[1].**

• **«ألا إنّ مَثَل آل محمّد صلّى الله عليه وآله كمَثَل نجوم السماء، إذا خوى نجمٌ طلع نجم، فكأنّكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع، وأراكم ما كنتم تأملون»[2].**

• **«فأين تذهبون؟ وأنّى تؤفكون! والأعلام قائمة، والآيات واضحة، والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم! وكيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم، وهم أزمّة الحقّ، وأعلام الدِّين، وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، ورِدُوهم ورود الهِيم العطاش»[3].**

• **«لا يقاس بآل محمّد صلّى الله عليه وآله من هذه الأمّة أحد، ولا يستوي بهم من جَرَت نعمتُهم عليه أبداً، هم أساس الدِّين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة»[4].**

• **«هم عيش العلم، وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحقّ ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحقّ إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته»[5].**

• **«أين الذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحَرَمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى**

---

(١) المصدر السابق: الخطبة: ٢، ص٤٧.

(٢) المصدر السابق: الخطبة ١٠٠، ص١٤٦.

(٣) المصدر السابق: الخطبة ٨٧، ص١١٩.

(٤) المصدر السابق: الخطبة ٢، ص٤٧.

(٥) المصدر السابق: الخطبة ٢٣٩، ص٣٥٨.

**الهدى، ويُستجلى العمى. إنّ الأئمّة من قريش[(١)] غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم»[(٢)].**

• **«انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى. فإن لَبَدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخّروا عنهم فتهلكوا»[(٣)].**

وقال الإمام الرضا عليه السلام:

• **«إنّ الإمامة خلافة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول صلّى الله عليه وآله، ومقام أمير المؤمنين عليه السلام، وميراث الحسن والحسين عليهما السلام. إنّ الإمامة زمام الدِّين، ونظام المسلمين، وصلاح الدُّنيا، وعزّ المؤمنين، إنّ الإمامة أسّ الإسلام النامي، وفرعه السامي... الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا له مَثَل ولا نظير، مخصوص بالفضل كلّه من غير طلب منه له ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضل الوهّاب».**

ثمّ يقول: **«وإنّ العبد إذ اختاره الله عزّ وجلّ لأمور عباده، وشرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً، فلم يعْيِ بعده بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيّد موفّقٌ مسدّد، قد أَمِن الخطايا والزلل والعثار، يخصّه الله بذلك ليكون حجّته على عباده، وشاهده على خلقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[(٤)].**

---

(١) وهذا ما أكّدته جميع النصوص التي وردت في بيان أنّ الخلفاء اثنا عشر... كلّهم من قريش.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق: الخطبة ١٤٤، ص٢٠١.

(٣) المصدر السابق: الخطبة ٩٧، ص١٤٣.

(٤) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: كتاب الحجّة، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته، ج١ ص٢٠٠، الحديث ١.

ونظير هذه الأقوال كثير في كلمات أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

من هنا قد يُقال: «أما كان بوسع السلطة ـ وهي تملك ما تملك من وسائل القمع ـ أن تقضي على هذه الجبهة المعارضة ـ ذات الدعاوى العريضة، من أيسر طرقها، وذلك بتعريض أئمّتها لشيء من الامتحان العسير في بعض ما يملكه العصر من معارف، وبخاصّة ما يتّصل منها بغوامض الفقه والتشريع، ليسقط دعواها في الأعلميّة من الأساس، أو يعرّضهم إلى شيء من الامتحان في الأخلاق والسلوك ليسقط ادّعاؤهم العصمة.

وإذا كان في الكبار منهم عصمة وعلم، نتيجة دربة ومعاناة، فما هو الشأن في ابن عشرين عاماً أو ابن ثمان، فهل تملك الوسائل الطبيعيّة تعليلاً لتمثّلهم لذلك كلّه.

ولو كان هؤلاء الأئمّة في زوايا وتكايا، وكانوا محجوبين عن الرأي العام، كما هو الشأن في بعض الفرق الباطنيّة، لكان لإضفاء الغموض والمناقبيّة على سلوكهم من الأتباع مجال، ولكن ما نصنع وهم مصحِرون بأفكارهم وسلوكهم وواقعهم تجاه السلطة وغيرها من خصومهم في الفكر، والتاريخُ حافل بمواقف السلطة منهم ومحاربتها لأفكارهم وتعريضهم لمختلف وسائل الإغراء والاختبار، ومع ذلك فقد حفل التاريخ بنتائج اختباراتهم المشرّفة وسجّلها بإكبار.

ولقد حدّث المؤرّخون عن كثير من هذه المواقف المحرجة، وبخاصّة مع الإمام الجواد، مستغلّين صغر سنّه عند تولّي الإمامة. وحتّى لو افترضنا سكوت التاريخ عن هذه الظاهرة، فإنّ من غير الطبيعي أن لا تحدث أكثر من مرّة تبعاً لتكرّر الحاجة إليها، بخاصّة وأنّ المعارضة كانت على أشدّها في العصور العبّاسيّة.

وطريقة إعلان فضيحتهم بإحراج أئمّتهم فيما يدّعونه من علم واستقامة سلوك، وإبراز سخفهم لاحتضانهم أئمّة بهذا السنّ وهذا المستوى لو أمكن ذلك، أيسر بكثير من تعريض الأمّة إلى حروب قد يكون الخليفة نفسه من ضحاياها، أو تعريض هؤلاء الأئمّة إلى السجون والمراقبة أو المجاملة أحياناً.

وإذا كان للصدفة ـ وهي مستحيلة ـ مجالها في امتحان ما بالنسبة إلى شخص ما، فليس لها موقع بالنسبة إليه في مختلف المجالات، فضلاً عن تكرّرها بالنسبة إلى جميع الأئمّة صغارهم وكبارهم كما يحدث في ذلك التاريخ.

وأظنّ أنّ في هذه الاعتبارات التي ذكرناها مجتمعة ما يُغني عن استيعاب كلّ ما ذكر في تشخيص المراد من أهل البيت»[١].

ممّا تقدّم يتّضح أنّ هذه الأحاديث التي رُويت في مصادر الفريقين بشكل مكثّف، لا يمكن أن نجد لها تطبيقاً واقعيّاً منسجماً مع الخصائص والميزات التي ذكرت فيها، إلاّ على ما تذهب إليه مدرسة أهل البيت من القول بالأئمّة الاثني عشر، أوّلهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وآخرهم المهدي المنتظر، وهو حيٌّ يُرزق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لذا أورد أبو داود هذا الحديث في كتاب المهدي من سننه، جاعلاً إيّاه أوّل حديث من أحاديثه[٢].

وقد أجمعت الأمّة على أعلميّتهم وأهليتهم للخلافة، وأنّ لهم من الخصائص والمميّزات ما لم تكن لغيرهم، رغم ما عانوه من ظلم واضطهاد، فهم الذين تنطبق عليهم ـ وحدهم ـ خصوصيّات الاثني عشر التي بيّنها النبيّ صلّى الله عليه وآله في الأحاديث المتقدّمة.

---

(١) **الأصول العامّة للفقه المقارن**، مصدر سابق: ص١٨٢.

(٢) **سنن أبي داود**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٠٩، الحديث: ٤٢٧٩.

# الأمر الثاني

## المعارف والعلوم التي يشتمل عليها الكتاب الكريم

من أفضل الطرق وأتقنها للوقوف على المعارف والعلوم التي اشتمل عليها كتاب الله سبحانه، الرجوع إلى نفس القرآن الكريم، ليعرّف لنا نفسه. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل: ٨٩).

في فهم قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ اتّجاهان:

**الأوّل**: وهو المشهور بين المفسّرين من الفريقين، بيانه: أنّ القرآن لمّا كان كتاب هداية لعامّة الناس؛ لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥)، فيكون الظاهر من قوله: «كلّ شيء» أي كلّ ما يرجع إلى أمر الهداية ممّا يحتاج إليه الناس في اهتدائهم من المعارف الحقيقيّة المتعلّقة بالمبدأ والمعاد والأخلاق الفاضلة والشرائع الإلهيّة والقصص والمواعظ، فهو تبيان لذلك كلّه.

قال الآلوسي في تفسيره: «والمراد من (كلّ شيء) على ما ذهب إليه جمع، ما يتعلّق بأمور الدِّين، أي بياناً بليغاً لكلّ شيء يتعلّق بذلك... والدليل على تقدير الوصف المخصّص للشيء، المقام وأنّ بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنّما هي لبيان الدِّين»[1].

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، محمد الآلوسي أبو الفضل، مصدر سابق: ج١٤ ص٢١٤.

وقال ابن عاشور التونسي: «وكلّ شيء، يفيد العموم إلاّ أنّه عموم عرفيّ في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع، من إصلاح النفوس وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدني وتبيّن الحقوق، وما تتوقّف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانيّة وصدق الرسول صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، وما يأتي من خلال ذلك من الحقائق العلميّة والدقائق الكونيّة، ووصف أحوال الأمم وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلّل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم»(١).

وقال الطبرسي: «ومعنى العموم في قوله: (كلّ شيء) المراد به من أمور الدِّين، إمّا بالنصّ عليه، أو الإحالة على ما يوجب العلم من بيان النبيّ صلّى الله عليه وآله والحجج القائمين مقامه، أو إجماع الأمّة أو الاستدلال»(٢).

وهذا ما أشارت إليه جملة من الروايات، منها:

عن مرازم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كلّ شيء، حتّى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد، حتّى لا يستطيع عبدٌ يقول: لو كان هذا أُنزل في القرآن، إلاّ وقد أنزله الله فيه**»(٣).

---

(١) **التحرير والتنوير، المعروف بتفسير ابن عاشور التونسي**، تأليف: سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور، طبعة جديدة منقّحة ومصحّحة، مؤسّسة التاريخ، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م: ج١٣ ص٢٠٣.

(٢) **التبيان في تفسير القرآن**، تأليف: شيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ)، تعليق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي: ج٦ ص٤١٨.

(٣) **الأصول من الكافي**: باب الردّ إلى الكتاب والسنّة، وأنّه ليس شيء من الحلال والحرام إلاّ وفيه كتاب أو سنّة، ج١ ص٥٩، الحديث: ١.

**الثاني**: إنّ ما ذكر في الاتّجاه الأوّل وإن كان تامّاً بلحاظ ما هو المستفاد من طريق الدلالات اللفظيّة، إلاّ أنّ هناك اتّجاهاً آخر يعتقد أنّ علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، هو في الكتاب.

قال الآلوسي: «وذهب بعضهم إلى ما يقتضيه ظاهر الآية غير قائل بالتخصيص ولا بأنّ «كلّ» للتكثير، فقال: ما من شيء من أمر الدِّين والدُّنيا إلاّ ويمكن استخراجه من القرآن، وقد بيّن فيه كلّ شيء بياناً بليغاً» ثمّ نقل عن السيوطي: «أنّ فيه ـ أي القرآن ـ علم الأوّلين والآخرين».

ثمّ قال إلاّ أنّه: «لا يحيط بها علماً حقيقة إلاّ المتكلّم به ثمّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم خلا ما استأثر به سبحانه، ثمّ ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم... ثمّ ورث عنهم التابعون لهم بإحسان، ثمّ تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوّعوا علومه وقامت كلّ طائفة بفنّ من فنونه. وقيل: لا يخلو الزمان من عارف بجميع ذلك، وهو الوارث المحمّدي، ويسمّى قطب الأقطاب، والمظهر الأتمّ، ومظهر الاسم الأعظم إلى غير ذلك»(١).

وهذا المعنى هو الذي ركّزت عليه الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

• عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره، كأنّه في كفّي، فيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر ما كان، وخبر ما هو كائن، قال الله عزّ وجلّ**: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾»(٢).

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج١٤ ص٢١٥.

(٢) **الأصول من الكافي**، كتاب الحجّة، باب أنّه لم يجمع القرآن كلّه إلاّ الأئمّة عليهم =

• عن الحارث بن المغيرة وعدّة من أصحابنا منهم عبد الأعلى وأبو عبيدة وعبد الله بن بشير الخثعمي: «سمعوا أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **إنّي لأعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأعلم ما في الجنّة، وأعلم ما في النار، وأعلم ما كان وما يكون.**

قال: ثمّ مكث هُنيئةً، فرأى أنّ ذلك كبر على من سمعه منه فقال: **علِمنا ذلك من كتاب الله عزّ وجلّ، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: فيه تبيان كلّ شيء**»(١).

ومن الواضح أنّ الآية منقولة في الرواية بالمعنى.

• عن منصور، عن حمّاد اللحّام، قال: «قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **نحن والله نعلم ما في السماوات وما في الأرض، وما في الجنّة وما في النار، وما بين ذلك.**

قال: فبُهِتّ أنظر إليه.

فقال: **يا حمّاد إنّ ذلك في كتاب الله** ـ ثلاث مرّات ـ قال: ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩)، **إنّه من كتاب الله، فيه تبيان كلّ شيء**»(٢).

• عن محمّد بن سنان عن عبد الأعلى قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**وأنا امرؤٌ من قريش، وقد ولدني رسول الله صلّى الله عليه**

---

= السلام: ج١ ص٢٢٩، الحديث: ٤.

(١) المصدر السابق، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة يعلمون علم ما كان وما يكون: ج١ ص٢٦١، الحديث: ٢.

(٢) **تفسير العيّاشي**، تأليف: الشيخ أبي النضر محمّد بن مسعود العيّاشي، المتوفّى نحو ٣٢٠هـ تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ : ج٣ ص١٨، الحديث: ٢٤١٦.

**وآله، وعلمت كتاب الله وفيه تبيان كلّ شيء، والخلق وأمر السماء وأمر الأرض، وأمر الأوّلين وأمر الآخرين، وأمر ما كان وما يكون، كأنّي أنظر إلى ذلك نُصبَ عيني»**[١].

ومن الواضح أنّه لا يمكن أن يُقال أنّ هذه الروايات تريد أن تقول أنّ هذه العلوم والمعارف إنّما استُفيدت عن طريق الدلالات اللفظيّة المفادة من خلال ظواهر الآيات القرآنية، وإنّما لابدّ من وجود طريق آخر يمكن الاستناد إليه لاستكشاف هذه الأسرار والخبايا التي أشير إليها في النصوص المتقدّمة.

والواقع أنّنا لكي نُجيب على مثل هذا التساؤل، لابدّ أن نعرف أللقرآن مراتب وجوديّة أخرى غير هذه المرتبة التي هي بأيدينا أم لا؟ وهذا ما نحاول الوقوف عليه.

## المراتب الوجوديّة للقرآن الكريم

قبل الولوج في هذا البحث ينبغي تقديم مقدّمة تساهم في إيضاح المطلوب، حاصلها: أنّه ثبت في الأبحاث الفلسفيّة أنّ الوجود الإمكاني له عوالم كلّية ثلاثة: عالم التجرّد العقلي، وعالم المثال المنفصل، وعالم المادّة والماديّات.

- فالعالم العقلي، مجرّد تامّ ذاتاً وفعلاً عن المادّة وآثارها.
- وعالم المثال، مجرّد عن المادّة دون آثارها من الأشكال والأبعاد والأوضاع وغيرها.

---

(١) **تفسير نور الثقلين**، المحدّث الجليل العلاّمة الخبير الشيخ عبد علي بن جمعة الحويزي، مؤسّسة مطبوعاتي إسماعيليان، إيران ـ قم، صحّحه وعلّق عليه: السيّد هاشم الرسولي المحلاتي، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ: ج٣ ص٧٦.

• وعالم المادّة، لا يخلو ما فيها من الموجودات من تعلّق ما بالمادّة، وتستوعبه الحركة والتغيّر.

وتمتاز هذه العوالم الوجوديّة بخصائص أهمّها:

• السبق واللُّحوق، بمعنى أنّ بعضها سابق على البعض الآخر، وفق ترتيب وجوديّ لا يتغيّر، فالأوّل عالم العقل ثمّ عالم المثال ثمّ عالم المادّة.

• الترتيب العلّي بينها، بمعنى أنّ المتقدّم واسطة الفيض لما تحته.

وقد لخّص الطباطبائي هذه الخصائص بما يلي:

«أوّلاً: إنّ العوالم الثلاثة مترتّبة وجوداً بالسبق واللُّحوق، فعالم العقل قبل عالم المثال، وعالم المثال قبل عالم المادّة وجوداً؛ وذلك لأنّ الفعليّة المحضة التي لا يشوبها قوّة ولا يخالطها استعداد، أقوى وأشدّ وجوداً ممّا هو بالقوّة محضاً كالهيولى الأولى، أو يشوبه القوّة ويخالطه الاستعداد كالطبائع المادّية، فعالما العقل والمثال يسبقان عالم المادّة.

وثانياً: إنّ الترتيب المذكور بين العوالم الثلاثة ترتيب علّي لمكان السبق والتوقّف الذي بينها، فعالم العقل علّة لعالم المثال، وعالم المثال علّة مفيضة لعالم المادّة.

وثالثاً: إنّ العوالم الثلاثة متطابقة متوافقة نظاماً بما يليق بكلّ منها وجوداً؛ وذلك لما تقدّم أنّ كلّ علّة مشتملة على كمال معلولها بنحو أعلى وأشرف. ففي عالم المثال نظام مثاليّ يضاهي نظام عالم المادّة وهو أشرف منه، وفي عالم العقل ما يطابق نظام المثال، لكنّه موجود بنحو أبسط وأشرف وأجمل.

ورابعاً: إنّه ما من موجود ممكن ـ مادّي أو مجرّد، علويّ أو سفليّ ـ إلاّ وهو آية للواجب تعالى من جميع الوجوه يحكي ما عنده من الكمال

الوجودي كمال الواجب تعالى»[١].

ولا نريد هنا الوقوف على عدد هذه العوالم وخصائصها ومميّزاتها، بل ما نتوخّاه من ذلك، هو بيان أنّ هناك عوالم أخرى وراء عالم المادّة.

## القرآن وتعدّد عوالم الوجود الإمكاني

لعلّ أوضح نصّ قرآنيّ يدلّ على وجود عوالم متعدّدة قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر: ٢١)، ومعنى الخزائن كما جاء في مجمع البحرين: «خزائن الله: غيوب الله، سُمّيت خزائن لغيوبها واستتارها. وخَزَن المال: غيّبه، يُقال: خزنت المال واختزنته من باب قتل: كتمته، وجعلته في المخزن، وكذا خزنت السرّ إذا كتمته»[٢].

ومن أهمّ ما يستفاد من هذه الآية التي تعدّ من غرر الآيات القرآنية أمور:

**الأوّل**: ما من شيء في عالمنا المشهود إلاّ وله وجود في تلك الخزائن. وهذا ظاهر قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ حيث يفيد العموم بسبب وقوعه في سياق النفي مع تأكيده بـ «من» فيشمل كلّ ما يصدق عليه أنّه شيء، من دون أن يخرج منه إلاّ ما يخرجه نفس السياق، وهو ما تدلّ عليه لفظة «نا» و «عند» و «خزائن» وما عدا ذلك ممّا يُرى ولا يُرى مشمول لعموم نصّ

---

(١) **نهاية الحكمة**، لمؤلّفه الأستاذ العلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائي، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة ـ إيران: المرحلة الثانية عشرة، الفصل التاسع عشر ص٣١٤.

(٢) **مجمع البحرين**، للعالم المحدّث الفقيه الشيخ فخر الدِّين الطريحي، المتوفّى: ١٠٨٥هـ تحقيق: السيّد أحمد الحسيني، منشورات المكتبة المرتضويّة، إيران، الطبعة الثانية: ١٣٩٥هـ، مادّة «خزن»: ج٦ ص٢٤٣.

الآية.

لذا قال الرازي في ذيل هذه الآية، وهو يردّ على من فسّر مراد الآية بالمطر: «تخصيص قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ بالمطر تحكّم، لأنّ قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ يتناول جميع الأشياء إلاّ ما خصّه الدليل، وهو الموجود القديم الواجب لذاته»(١).

**الثاني**: إنّ هذه الخزائن متعدّدة؛ لقوله: ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ حيث ذكرت الخزائن بصيغة الجمع، وأقلّ الجمع اثنان. وهذا يفيد أنّ ما من شيء في عالمنا إلاّ ويعبّر عن مرتبة من الوجود، له فوقها خزائن، فيكون للشيء مراتب ثلاث، هي مرتبة هذا العالم ومرتبتان في تلك الخزائن وفق قاعدة أنّ أقلّ الجمع اثنان. كما يمكن أن تتنزّل إلى مرتبتين هما: مرتبة الوجود الظاهري التي في نشأتنا، والمرتبة التي عبّر عنها القرآن «خزائن». هذا على تقدير أن تكون الخزائن جميعاً في مرتبة واحدة، على هذا الاحتمال يكون لكلّ شيء مرتبتان من الوجود على أقلّ تقدير.

أمّا عدد تلك الخزائن التي تحوي هذه الوجودات جميعاً، فهو أمرٌ ينأى عن تحديده العقل، ويحتاج القول فيه إلى دليل قطعيّ من القرآن أو الرواية، يبيّن عدد تلك الخزائن «العوالم».

وأهمّ خصوصيّة في هذه الخزائن أنّه جعل القدر متأخّراً عنها ملازماً للشيء عند نزوله منها: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ فالشيء وهو في الخزائن وإن لم يكن مقدّراً بهذا القدر الذي يلازم نزوله منها، لكن مع ذلك ذكرت الخزائن بصيغة الجمع، ومن الواضح أنّ العدد لا يلحق إلاّ الشيء المحدود، وهذا معناه أنّ هذه الخزائن لو لم تكن محدودة متميّزة بعضها عن

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، مصدر سابق: ج١٩ ص١٣٩.

بعض، كانت واحدة لا كثيرة.

من هنا يتبيّن أنّ هذه الخزائن بعضها فوق بعض، وكلّ ما هو عالٍ منها غير محدود بحدٍّ ما هو دان، غير مقدّر بقدره الذي يلازمه عند نزوله، ومجموعها غير محدود بالحدّ الذي يلحق الشيء وهو في هذه النشأة. وباللغة الفلسفيّة: تنتظم تلك المراتب حسب قاعدة العلّة والمعلول، بحيث تكون المرتبة الدانية مقيّدة بقيد عدميّ فاقدة لكمال ما، على حين ليست المرتبة العالية التي علّتها مقيّدة بالقيد نفسه، وإلاّ لما كانت علّة والمرتبة الدانية معلولاً.

**الثالث**: إنّ تلك الخزائن ليست هي في عالمنا المادّي المشهود، بل هي من عالم آخر فوق عالمنا؛ لقوله: ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ حيث أضافت الخزائن إلى الله سبحانه بقرينة «عندنا»، وعند العودة إلى القرآن نراه يميّز بين «ما عندكم» وبين «ما عند الله» ويُعطي حكماً للموجودات والأشياء التي تدخل في دائرة «ما عندكم» مختلفاً عن الحكم الذي يعطيه للموجودات التي تدخل في دائرة «ما عند الله» حيث يقول سبحانه: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ (النحل: ٩٦). وبربط هذه الآية مع الآية مورد البحث ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا﴾ يتّضح أنّ تلك الخزائن أمور ثابتة غير زائلة ولا متغيّرة لأنّها عند الله، وما عند الله باق، إذن هي فوق عالمنا المشهود، لأنّ الأشياء في هذه النشأة المادّية وفي عالمنا المحسوس متغيّرة فانية لا تتّسم بالثبات ولا بالبقاء.

وبهذا يتّضح أنّ الخزائن الإلهيّة التي تذكرها الآية، هي جميعاً فوق عالمنا المشهود، بحكم انتسابها إلى ما عند الله، وما عند الله باق، ومن ثَمَّ فهي أمور ثابتة غير زائلة.

## نموذج تطبيقي: القرآن الكريم

يعدّ القرآن الكريم أحد أهمّ التطبيقات التي أشار إليها القرآن للأصل المتقدّم، قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٣ ـ ٤)، فإنّه يدلّ على أنّ القرآن النازل كان عند الله أمراً أعلى وأحكم من أن تناله العقول أو يعرضه التقطّع والتفصّل، لكنّه تعالى عنايةً بعباده جعله كتاباً مقروءاً وألبسه لباس العربيّة لعلّهم يعقلون ما لا سبيل لهم إلى تعقّله ومعرفته ما دام في أُمّ الكتاب.

وهذا معناه أنّ القرآن له مراتب وجوديّة متعدّدة، أدناها هذا الكتاب الذي بأيدينا. في هذا السياق يكتب صدر الدِّين الشيرازي: «وبالجملة: إنّ للقرآن درجات ومنازل كما للإنسان، وأدنى مراتب القرآن، وهو ما في الجلد والغلاف كأدنى مراتب الإنسان وهو ما في الإهاب والبشرة»[١].

وقال الطباطبائي في ذيل الآيات المتقدّمة: «هذا الجعل المذكور يشهد بأنّ القرآن له مرحلة من الكينونة والوجود لا ينالها عقول الناس، ومن شأن العقل أن ينال كلّ أمر فكريّ وإن بلغ من اللطافة والدقّة ما بلغ، فمفاد الآية أنّ الكتاب بحسب موطنه الذي له في نفسه أمر وراء الفكر، أجنبيّ عن العقول البشرية، وإنّما جعله الله قرآناً عربيّاً وألبسه هذا اللِّباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه، والرجاء في كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلِّم كما تقدّم غير مرّة»[٢].

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة**، لمؤلّفه الحكيم الإلهي صدر الدِّين محمّد الشيرازي، مجدّد الفلسفة الإسلاميّة، المتوفّى سنة ١٠٥٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة: ١٩٨١: ج٧ ص٣٩.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الثانية: ١٩٧٣م: ج١٨ ص٧٣.

ولعلّ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)، ما يشير إلى هذا المضمون أيضاً، فالإحكام كونه عند الله بحيث لا ثلمة فيه ولا فصل، والتفصيل هو جعله فصلاً فصلاً وآية آية وتنزيله على النبيّ صلّى الله عليه وآله.

ويدلّ على هذه المرتبة الدانية من القرآن التي تستند إلى العالية قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ (الإسراء: ١٠٦). قال الطبرسي في مجمع البيان: «معنى فرقناه فصّلناه ونزّلناه آية آية وسورة سورة، ويدلّ عليه قوله: ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾»[1].

## كيفيّة تنزّل القرآن

صرّحت الآيات الكريمة أنّ للقرآن نحو نزول إلى عالمنا هذا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢)، وقال: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ (القدر: ١)، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ...﴾ (الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤).

والنزول ـ كما ذكر في اللّغة ـ يستدعي علوّاً وسفلاً، قال الراغب في المفردات: «النزول في الأصل، هو انحطاط من علوٍّ، يقال نزل عن دابّته ونزل في مكان كذا: حطّ رحله فيه»[2].

(١) **مجمع البيان في تفسير القرآن**، تأليف الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت: المجلّد الرابع، ج١٥ ص١٠٩.

(٢) **المفردات في غريب القرآن**، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الأصفهاني: ٥٠٢ هـ دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، تحقيق وضبط: محمّد سيّد كيلاني: ص٤٨٨.

فهل معنى ذلك أنّ القرآن كان في مكان عالٍ وأنّ الله تعالى أنزله نزولاً مكانيّاً، كما لو كان عندنا شيء ذو قيمة في مكان عالٍ ثمّ ننزّله إلى مكان آخر؟

الواقع لكي نفهم هذه الحقيقة القرآنيّة لابدّ من التمييز بين نحوين من النزول والتنزّل، استعملهما القرآن، وكثيراً ما يقع الخلط بينهما، ويفضي إلى التباسات كبيرة، هما:

**الأوّل: النزول على نحو التجافي**

هذا النحو من التنزّل لا يمكن تصوّره إلاّ في عالم المادّة، ومن أهمّ خصائصه هو أنّ الشيء إذا كان في أعلى فهو غير موجود في الأسفل، وبالعكس، وقد استخدم القرآن الكريم هذا اللّون من النزول في قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ (السجدة: ١٦)، أي ترتفع جنوبهم عن الفراش، بنحو عندما ينهض هؤلاء لا تبقى جنوبهم في المضجع بل تتجافى عنه وتتباعد.

**الثاني: النزول على نحو التجلّي**

هذا النحو من التنزّل يتميّز بخصوصيّة، هي أنّ الشيء المتنزّل لا يفقد وجوده في مرتبته السابقة بعد التنزّل، على العكس من النزول بالنحو الأوّل، فإنّ الشيء إذا نزل من أعلى لم يبق له وجود في المرتبة التي نزل منها.

يمكن تقريب ذلك بمثال من النشاط العلمي للإنسان، فإذا ما كانت عند الإنسان فكرة في ذهنه، ثمّ عمد إلى كتابتها على الورق، فإنّ هذه الفكرة تنزّلت من مرتبة وجودها في عقل الإنسان وصارت مكتوبة على الورق، ومن الواضح أنّ الفكرة في الوجود الذهني شيء وهي في الوجود الكتبي شيءٌ

آخر، لكن الفكرة عندما تنزّلت من مرتبة إلى أخرى لم يفقد الإنسان علمه بها، بل هي ما تزال تحافظ على وجودها قبل التنزّل وبعده، غاية ما هناك أنّها ظهرت في مرتبة أخرى من مراتب الوجود دون أن تفقد مرتبتها السابقة.

طبيعي أنّ للفكرة في مرتبتها الوجوديّة الجديدة أحكامها الخاصّة بها، فإنّ الفكرة وهي في الذهن موجودٌ مجرّد غير قابل للنقل والسرقة مثلاً، لكنّها وهي على الورق تنطبق عليها أحكام المادّة، فهي قابلة للانتقال والسرقة وما إلى ذلك. فالفكرة هي هي، وهي غيرها. هي هي لأنّ المضمون واحد، فما هو موجود في الذهن وما هو على الورق واحد، بيدَ أنّهما يختلفان في المرتبة الوجوديّة، فللفكرة في الذهن درجة وجوديّة مجرّدة عن المادّة، أمّا على الورق فهي في درجة وجوديّة أخرى.

وهذا النحو من النزول هو الذي يصطلح عليه القرآن بالتجلّي كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ (الأعراف: ١٤٣).

وبهذا يتّضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ فإنّ المراد من التنزّل من الخزائن الإلهيّة هو ظهور الأشياء في الكون بعدما لم تكن. وهو الذي يفسّر لنا حقيقة العلم الفعلي للحقّ تعالى، وهو ظهور معلوم الحقّ سبحانه على ما علمه من علمه في مقام الذات. ولازمه أنّ علم الله سبحانه الذاتي لا يتحوّل ويتنزّل ليكون علماً فعليّاً عينيّاً في الخارج، لأنّه لو كان كذلك لفقد مرتبته.

هذا كلّه بحسب قوس النزول، كذلك الأمر في قوس الصعود من هذا العالم إلى العوالم الأخرى، يقول سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ (فاطر: ١٠)، فليس معناه أنّ الإنسان إذا صعد مرتبة وجوديّة، فَقَدَ مرتبته السابقة، بل هو صعود على نحو التجلّي، كما أنّ ذاك تنزّل على نحو التجلّي.

إذا اتّضح ذلك، يتبيّن أنّ نزول القرآن الكريم ليس هو على نحو التجافي ـ كما لا يخفى ـ وإنّما هو على نحو التجلّي، وفقاً للقاعدة التي تحدّثت عنها الآية المباركة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١).

## أسماء المرتبة العالية من القرآن

بعد أن اتّضح في البحث السابق أنّ القرآن الذي بأيدينا إنّما تنزّل من تلك المرتبة العينيّة التي هي الأصل، لابدّ من الوقوف على الأسماء التي سُمّيت بها تلك المرتبة العالية:

• فتارةً سُمّيت تلك المرتبة بأُمّ الكتاب: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤).

• وأخرى الكتاب المكنون: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (الواقعة: ٧٧ ـ ٧٨).

• وثالثة باللّوح المحفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢٢).

• ورابعة الكتاب المبين: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: ١ ـ ٣)، فإنّه ظاهر في أنّ هناك كتاباً مبيناً عَرَض عليه جعله مقروّاً عربيّاً، وإنّما أُلبس لباس القراءة والعربيّة ليعقله الناس، وإلاّ فإنّه ـ وهو في أُمّ الكتاب، والكتاب المكنون، واللّوح المحفوظ ـ عند الله، عليٌّ لا يصعد إليه العقول، حكيمٌ لا يوجد فيه فصل فصل. وفي الآية تعريف للكتاب المبين وأنّه أصل القرآن العربي المبين.

## قاعدة منهجيّة

قبل الخوض في بيان حقيقة الكتاب المبين الذي يعدّ المرتبة العالية من القرآن الذي بأيدينا، لابدّ من الإشارة إلى قاعدة منهجيّة في المقام، حاصلها:

إنّ المفاهيم التي استعملها القرآن الكريم، كالكتاب والعرش والكرسي واللّوح والقلم وغيرها، يمكن أن تكون مختلفة المصاديق من حيث التجرّد والمادّية، بمعنى أنّ المفهوم وإن كان واحداً إلاّ أنّ المصاديق يمكن أن تتنوّع لتشمل ـ بالإضافة إلى المصداق المتداول في حياتنا الحسّية ـ مصاديق أخرى فوق العالم المشهود، بنحو يكون الاستعمال فيها جميعاً حقيقيّاً.

قال صدر الدِّين الشيرازي: «اعلم أنّ أكثر الألفاظ الواردة في الكتاب الإلهي، كسائر الألفاظ الموضوعة للحقائق الكلّية، يُطلق تارةً ويُراد به الظاهر المحسوس، ويطلق تارةً ويُراد به سرّه وحقيقته وباطنه، وتارةً يُطلق ويُراد به سرّ سرّه وحقيقة حقيقته وباطن باطنه، وذلك لأنّ أصول العوالم والنشآت ثلاثة: الدُّنيا، والآخرة، وعالم الإلهيّة، وكلّها متطابقة، وكلّ ما يوجد في أحد من هذه العوالم يوجد في الأخيرين على وجه يناسب كلّ موجود لما في عالمه الخاصّ به»[1].

وقال الفيض الكاشاني في المقدّمة الرابعة من مقدّمات تفسيره: «إنّ لكلّ معنىً من المعاني حقيقة وروحاً، وله صورة وقالب، وقد تتعدّد الصور والقوالب لحقيقة واحدة، وإنّما وضعت الألفاظ للحقائق والأرواح، ولوجودهما في القوالب تستعمل الألفاظ فيهما على الحقيقة لاتّحاد ما بينهما.

مثلاً: لفظ القلم إنّما وضع لآلة نقش الصور في الألواح من دون اعتبار

---

(١) **تفسير القرآن الكريم**، صدر المتألّهين الشيرازي، حقّقه وضبطه وعلّق عليه الشيخ محمّد جعفر شمس الدِّين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٩٨: ج٨ ص٦٨.

أن تكون هذه الآلة من قصب أو حديد أو غير ذلك، بل ولا أن يكون القلم جسماً أو أن يكون النقش محسوساً أو معقولاً، ولا كون الألواح التي يكتب عليها من قرطاس أو خشب، بل مجرّد كونه منقوشاً فيه، وهذه وحدها حقيقة اللوح وروحه، فإن كان في الوجود شيء يسطّر بواسطة نفس العلوم في ألواح القلوب، فأخلق به أن يكون هو القلم، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٤ ـ ٥)، بل هو القلم الحقيقي حيث وجد فيه روح القلم وحقيقته وحدّه من دون أن يكون معه ما هو خارج عنه»[١].

في ضوء هذه القاعدة قدّمت هذه النظرية فهمها لكثير من الحقائق القرآنية؛ كاللّوح والقلم والكتاب والعرش والكرسيّ، ممّا يفيد أنّ لهذه المفاهيم جميعاً حقائق واقعيّة ومصاديق خارجيّة تتناسب وشأنها، لكن غاية ما هناك أنّ الإدراك الإنساني لم يألفها، لألفته بمصاديق عالم المادّة دون ما يقع وراءه. من هنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ لغة بعض الآيات والروايات وإن كانت تتحدّث عن هذه الحقائق بما يشبه المصداق المادّي، إلاّ أنّ ذلك من باب المثال ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣)، باعتبار أنّ الإنسان لا يستطيع أن يستوعب تلك الحقائق إلاّ من خلال هذا السبيل.

على أساس هذا المرتكز المنهجي الذي تبلور فيما سلف، نحاول الوقوف على بحث «الكتاب المبين» الذي يعدّه القرآن الأصل الذي تنزّل منه هذا القرآن العربي المبين.

---

(١) **تفسير الصافي**، تأليف: أستاذ عصره ووحيد دهره المولى محسن الملقّب بالفيض الكاشاني، المتوفّى سنة ١٠٩١هـ، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى: ١٩٧٩: ج١ ص٢٩.

## الكتاب المبين

توفّر القرآن على ذكر الكتاب المبين في عدد من الآيات:

• قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (هود: ٦).

• وقال: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل: ٧٥).

• وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٣).

• وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس: ٦١).

• وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩).

الكتاب بحسب ما يتبادر منه إلى أذهاننا هو الصحيفة أو الصحائف التي تضبط فيها طائفة من المعاني على طريق التخطيط بالقلم أو طابع أو غيرهما، لكن بتطبيق القاعدة المنهجيّة التي بانت بما مرّ من البحث، يتّضح أنّ هذا الكتاب ليس من سنخ الألواح والأوراق المادّية برغم أنّه يؤدّي وظيفة الكتاب، وبتعبير آخر: إنّ مفهوم الكتاب وإن كان واحداً، إلاّ أنّ مصداقه يختلف من نشأة لأخرى، ومن ثمّ لا معنى لحمله على الكتاب الذي نألفه في حياتنا.

تأسيساً على هذه الحقيقة لابدّ من البحث في عدّة أمور:

## الأمر الأوّل: خصائص الكتاب المبين

من خلال استعراض الآيات السالفة يتبيّن أنّ خصائص هذا الكتاب هي:

### الخصوصيّة الأولى: فيه كلّ شيء

تدلّ الآيات المتقدّمة أنّ هذا الكتاب يشتمل على دقائق حدود الأشياء، ويضبط جميع ما وقع في عالم الصنع والإيجاد، ممّا كان ويكون وما هو كائن، دون أن يشذّ عنه غائبة في الأرض والسماء.

وتوصيف الكتاب بالمبين «إن كان بمعنى المظهر، إنّما هو لكونه يُظهر لقارئه كلّ شيء على حقيقة ما هو عليه من غير أن يطرأ عليه إبهام التغيّر والتبدّل وسترة الخفاء في شيء من نعوته، وإن كان بمعنى الظاهر فهو ذلك أيضاً؛ لأنّ الكتاب في الحقيقة هو المكتوب، والمكتوب هو المحكي عنه، وإذا كان ـ المحكي عنه ـ ظاهراً لا سترة عليه ولا خفاء فيه، فالكتاب كذلك»[(١)].

### الخصوصيّة الثانية: ثابت لا يتغيّر

ومن خصائص هذا الكتاب أيضاً عدم تغيّره وتبدّله، كما أشارت لذلك جملة من الآيات المذكورة آنفاً مثل: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ و﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ و﴿كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ ونحوها من التعابير القرآنيّة التي توحي أنّ هذا الكتاب لا يناله التبدّل والتغيّر.

قال الطباطبائي: «والآيات ـ كما ترى ـ تدلّ على أنّ هذا الكتاب في عين أنّه يشتمل على جميع مشخّصات الحوادث وخصوصيّات الأشخاص المتغيّرة المتبدّلة، لا يتبدّل هو في نفسه ولا يتسرّب إليه أيّ تغيّر وفساد»[(٢)].

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٧ ص١٢٩.

(٢) المصدر السابق: ج٧ ص١٢٧.

وقال في ذيل قوله: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ (ق: ٤) «أي حافظ لكلّ شيء ولآثاره وأحواله، أو كتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير والتحريف، وهو اللوح المحفوظ الذي فيه كلّ ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة»[١].

فالكتاب المكنون موجود قبل الوجودات الإمكانيّة ومعها وبعدها، كما هو الحال في صورة العمارة المرسومة في ذهن المهندس، فهي موجودة قبل البناء ومعه وبعده، بل هي موجودة وإن انهدم البناء في الخارج.

وبذلك يتّضح أنّ الكتاب المبين ليس هو الكتاب التكويني، أي أعيان الأشياء ومادّتها، لأنّ هذه الأعيان متبدّلة متغيّرة تبعاً لقانون الحركة، أمّا ذلك الكتاب فهو نحو كتاب ثابت لا يناله التبدّل والتغيّر.

## الخصوصيّة الثالثة: لا يناله شيء من الخطأ والنسيان

وهذا ما تقتضيه وتؤكّده الآيات المتقدِّمة التي أشارت إلى أنّه محفوظ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ (طه: ٥٢)، فلا مجال فيه للنسيان أو الضلالة أو الخطأ والسهو.

قال الطباطبائي: «وقوله ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ ليؤكّد به أنّه مثبت محفوظ من غير أن يتغيّر عن حاله، وقد نكّر الكتاب ليدلّ به على فخامة أمره من جهة سعة إحاطته ودقّتها، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها»[٢].

## الخصوصيّة الرابعة: عدم استطاعة العقل البشري أن ينال ما في الكتاب المبين

وهذا واضح لأنّ العقل البشري لا ينال إلاّ ما كان من قبيل المفاهيم

(١) المصدر السابق: ج١٨ ص٣٣٩.

(٢) المصدر السابق: ج١٤ ص١٦٩.

والألفاظ، أمّا إذا كان الأمر وراء ذلك فلا يمكن للعقل أن يلامسه، لأنّه خارج عن حدوده ودائرته.

وهذه الحقيقة قرّرها صدر الدِّين الشيرازي بقوله: «وللقرآن في كلّ مرتبة ومقام حَمَلة يحفظونه ويكتبونه ولا يمسّونه إلاّ بشرط طهارتهم عن حدثهم أو عن حدوثهم، ونزاهتهم وانسلاخهم عن مكانهم أو عن إمكانهم، والقشر من الإنسان لا يدرك إلاّ القشور من القرآن، والإنسان القشري من الظاهريّة لا يدرك إلاّ المفهومات القشريّة والنكات البيانيّة والأحكام العمليّة والسياسات الشرعيّة، وأمّا روح القرآن وسرّه ولبّه فلا يدركه إلاّ أولو الألباب وذوو البصائر، إذ حقيقة الحكمة لا تنال إلاّ بموهبة الله ولا يبلغ الإنسان إلى مرتبة يسمّى حكيماً إلاّ بأن يفيض الله عليه من حكمته حكمةً ومن لدنه علماً، لأنّ العلم والحكمة من صفاته الكماليّة والعليم والحكيم من أسماء الله الحسنى، ولابدّ في من له نصيب منهما أن يكون ذلك بمجرّد موهبة الله إيّاه، ولذلك قال سبحانه بعد قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الجمعة: ٤)، وسمّى الحكمة خيراً كثيراً، وقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة: ٢٦٩)»[1].

وهذا المعنى هو الذي تحدّث عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩)، فقد حصرت الآية الكريمة مسّ الكتاب المكنون والوصول إليه بالمطهّرين خاصّة، أمّا من هم المطهّرون؟ فهذا ما ستأتي الإشارة إليه.

وأوضح الطباطبائي ذلك في ذيل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة**، مصدر سابق: ج٧ ص٣٩.

﴿لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤)، بقوله: «والمراد بكونه «عليّاً» ـ على ما يعطيه مفاد الآية ـ أنّه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول، وبكونه «حكيماً» أنّه هناك محكم غير مفصّل ولا مجزّأ إلى سور وآيات وجمل وكلمات، كما هو كذلك بعد جعله قرآناً عربيّاً وهو المستفاد من قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(هود: ١).

وهذان النعتان؛ أعني كونه «عليّاً حكيماً» هما الموجبان لكونه وراء العقول البشريّة فإنّ العقل في فكرته لا ينال إلاّ ما كان من قبيل المفاهيم والألفاظ أوّلاً، وكان مؤلّفاً من مقدّمات تصديقيّة يترتّب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنية، وأمّا إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ، وكان غير متّجز إلى أجزاء وفصول، فلا طريق للعقل إلى نيله.

فمحصّل معنى الآيتين: أنّ الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع وإحكام، لا تناله العقول لذينك الوصفين، وإنّما أنزلناه بجعله مقروّاً عربيّاً رجاء أن يعقله الناس»[1].

وممّا يعضد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٥ ـ ٧٩)، «فإنّه ظاهر في أنّ للقرآن موقعاً هو في الكتاب المكنون، لا يمسّه هناك أحد إلاّ المطهّرون من عباد الله، وأنّ التنزيل بعده، وأمّا قبل التنزيل فله موقع في كتاب مكنون عن الأغيار، وهو الذي عبّر عنه في آيات الزخرف بأُمّ الكتاب، وفي سورة البروج باللّوح المحفوظ، وهذا اللوح إنّما كان محفوظاً لحفظه من ورود التغيّر عليه، ومن المعلوم أنّ القرآن المنزّل تدريجاً لا يخلو من ناسخ ومنسوخ، وعن التدريج الذي هو

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٨ ص٨٤.

نحو من التبدّل. فالكتاب المبين الذي هو أصل القرآن وحكمه الخالي عن التفصيل، أمر وراء هذا المنزل، وإنّما هذا بمنزلة اللباس لذاك»[١].

## الأمر الثاني: الفارق بين الكتاب المبين والخزائن الإلهيّة

تقدّم في بحث سابق أنّ كلّ ما يطلق عليه شيء فله خزائن عنده تعالى، فهل الكتاب المبين ـ الذي يحصي كلّ شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات والأرض، لا أصغر من ذلك ولا أكبر ـ هو الخزائن ؟

للإجابة عن هذا التساؤل نقول: في ضوء الآيات القرآنيّة التي تعرّضت لكلّ من الخزائن والكتاب المبين، يتّضح أنّ من خصائص وصفات الخزائن أنّها لا حدّ ولا قدر لها، وإنّما الحدّ يبدأ بعد الإنزال من تلك الخزائن؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر: ٢١). فالآية دالّة بوضوح على عدم وجود الحدّ والقدر للأشياء قبل نزولها من الخزائن. وهذا يكشف عن أنّ وجود الأشياء في الخزائن بنحو آخر، وهو الوجود الإجمالي البسيط. وأمّا في الكتاب المبين، فهو يشتمل على تفاصيل الأشياء وحدودها وقدرها، كما هو ظاهر الآيات المتقدّمة.

وبهذا يتبيّن أنّ الخزائن غير الكتاب المبين، وهذا المعنى أشار إليه الطباطبائي حيث قال: «إنّ هذا الكتاب بوجهٍ غير مفاتح الغيب وخزائن الأشياء التي عند الله سبحانه، فإنّ الله تعالى وصف هذه المفاتح والخزائن بأنّها غير مقدّرة ولا محدودة، وأنّ القدر إنّما يلحق الأشياء عند نزولها من خزائن الغيب إلى هذا العالم الذي هو مستوى الشهادة، ووصَف هذا الكتاب بأنّه يشتمل على دقائق حدود الأشياء وحدود الحوادث، فيكون

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص١٧.

الكتاب المبين من هذه الجهة غير خزائن الغيب التي عند الله سبحانه، وإنّما هو شيء مصنوع لله سبحانه، يضبط سائر الأشياء ويحفظها بعد نزولها من الخزائن وقبل بلوغها منزل التحقّق، وبعد التحقّق والانقضاء.

ويشهد بذلك أنّ الله سبحانه إنّما ذكر هذا الكتاب في كلامه، لبيان إحاطة علمه بأعيان الأشياء والحوادث الجارية في العالم، سواء كانت غائبة عنّا أو مشهودة لنا.

والحاصل: ما من شيء ممّا خلقه الله سبحانه إلاّ وله في خزائن الغيب أصل يستمدّ منه، وما من شيء ممّا خلقه الله إلاّ والكتاب المبين يحصيه قبل وجوده وعنده وبعده، غير أنّ الكتاب أنزل درجة من الخزائن.

ومن هنا يتبيّن للمتدبّر الفطن أنّ الكتاب المبين ـ في عين أنّه كتاب محض ـ ليس من قبيل الألواح والأوراق الجسمانية، فإنّ الصحيفة الجسمانيّة أيّاً ما فُرضتْ وكيفما قُدّرت لا تحتمل أن يكتب فيها تاريخ نفسه فيما لا يزال، فضلاً عن غيره، فضلاً عن كلّ شيء في مدى الأبد»[1].

## الأمر الثالث: النسبة بين الكتاب المبين والحوادث الخارجيّة

دلّت الآيات السابقة أنّ الكتاب المبين يحصي كلّ شيء كما قاله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ (النبأ: ٢٩)، فماذا تعني هذه الحقيقة القرآنيّة، أنّ كلّ شيء في الكتاب المبين؟

أهو هذه الأشياء من جهة شهادتها وغيبها جميعاً، أم هي من جهة غيبها فقط؟ وبعبارة أخرى: الكتاب المبين أهو هذا الكون المشتمل على أعيان هذه الأشياء لا يغيب عنه شيء منها، وإن غاب بعضها عن بعض، أم هو

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٧ ص١٢٧.

أمرٌ وراء هذا الكون مكتوبة فيه هذه الأشياء نوعاً من الكتابة، مخزونة فيه نوعاً من الخزن، غائبة عن شهادة الشهداء من أهل العالم؟

وبلفظ آخر: الأشياء الواقعة في الكون المعدودة بنحو العموم في الآية، أهي واقعة بنفسها في الكتاب المبين كما تقع الخطوط بأنفسها في الكتب التي عندنا، أم هي واقعة بمعانيها فيه كما تقع المطالب الخارجيّة بمعانيها بنوع من الوقوع في ما نكتبه من الصحائف والرسائل، ثمّ تطابق الخارج مطابقة العلم العين؟

أجاب الطباطبائي على هذا التساؤل بقوله: «إنّ قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ (الحديد: ٢٢)، يدلّ على أنّ نسبة هذا الكتاب إلى الحوادث الخارجيّة، نسبة الكتاب الذي يكتب فيه برنامج العمل إلى العمل الخارجي».

ثمّ قال: «فالكتاب المبين ـ أيّاً ما كان هو ـ شيء غير هذه الخارجيّات من الأشياء بنحو من المغايرة، وهو يتقدّمها ثمّ يبقى بعد فنائها وانقضائها، كالبرامج المكتوبة للأعمال التي تشمل على مشخّصات الأعمال قبل وقوعها، ثمّ تحفظ المشخّصات المذكورة بعد الوقوع»[1].

والحاصل أنّه لا يمكن المصير إلى أنّ الكتاب المبين هو هذه الأعيان الخارجيّة الواقعة في متن الكون، وذلك لأنّ هذه الموجودات والحوادث التي في عالمنا متغيّرة متبدّلة، تجري عليها قوانين الحركة العامّة، وقد تقدّم أنّ الآيات دالّة على عدم جواز التغيير والفساد فيما يشتمل عليه هذا الكتاب كما في قوله: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ وقوله: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾. فهي ـ كما ترى ـ واضحة الدلالة على أنّ هذا الكتاب في عين أنّه يشتمل على جميع

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٧ ص١٢٦.

مشخّصات الحوادث وخصوصيّات الأشياء المتغيّرة المتبدّلة ـ لا يتبدّل هو في نفسه، ولا يتسرّب إليه أيّ تغيّر أو تحوّل.

إذن فهذا الكتاب المبين ـ الذي يحصي جميع ما وقع في عالم الصنع والإيجاد، ممّا كان وما يكون وما هو كائن من غير أن يشذّ عنه شاذّ ـ أمر نسبته إلى الأشياء جميعاً، نسبة الكتاب المشتمل على برنامج العمل إلى نفس العمل، ففيه نوع تعيين وتقدير للأشياء، إلاّ أنّه موجود قبل الأشياء ومعها وبعدها، وهو المشتمل على علمه تعالى بالأشياء علماً لا سبيل للضلال والنسيان إليه، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ (طه: ٥٢).

## الأمر الرابع: سبب تسمية الكتاب المبين بأمّ الكتاب

عبّر القرآن الكريم عن الكتاب المبين بأنّه أُمّ الكتاب ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤)، ومردّ ذلك إلى أنّ هذا الكتاب هو الأصل الذي تنشأ منه الأشياء وترجع إليه، فإذن هو أمّ، لأنّ الأمّ في اللغة، الأصل الذي يرجع إليه، وقد استبانت مرجعيّته للأشياء وأنّه يضبط صورها الثابتة على نحو دقيق لا يضلّ ولا ينسى، بعد نزولها من الخزائن الإلهيّة صوب عالم التحقّق والتنجّز، ويحفظ مشخّصاتها أثناء وجودها وبعده، فإذن هو أمّ الكتاب وأصل الأشياء.

بهذا الوصف يصير الكتاب المبين مصدراً لجميع الكتب الأخرى، تستنسخ منه باقي الكتب؛ قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٩).

وهذا ما أكّده عدد وافر من روايات الفريقين:

• في الدر المنثور في ذيل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أخرج ابن جرير وابن عبّاس قال: «**إنّ الله خلق النون وهو الدواة، وخلق القلم، فقال: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، من عمل معمول برٍّ أو فاجر أو رزق مقسوم حلال أو حرام. ثمّ ألزَم كلّ شيء من ذلك شأنه؛ دخوله في الدُّنيا، ومقامه فيها كَمْ، وخروجه منها كيف. ثمّ جعل على العباد حَفَظة وعلى الكتاب خزّاناً تحفظه، ينسخون كلّ يوم من الخزّان عمل ذلك اليوم، فإذا فني ذلك الرزق انقطع الأمر وانقضى الأجل، أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم، فيقول لهم الخزنة: ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً، فيرجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا.**

قال ابن عبّاس: **ألستم قوماً عرباً؟ تسمعون الحفظة يقولون:** ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ **وهل يكون الاستنساخ إلاّ من أصل**»[1].

• وفيه: أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس في الآية قال: «**يستنسخ الحفظة من أمّ الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنّما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من أمّ الكتاب**»[2].

• وفي تفسير القمّي عن ابن أبي عمير عن عبد الرحيم القصير عن الصادق عليه السلام في رواية طويلة قال في ذيلها: «**فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلّها، أوَلَستم عرباً؟ فكيف لا تعرفون معنى الكلام؟ وأحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب، أوليس إنّما ينسخ من كتاب آخر من الأصل**»[3].

---

(١) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، مصدر سابق: ج٧ ص٤٣٠.

(٢) المصدر السابق: ج ٧، ص ٤٣٠.

(٣) **تفسير القمّي**، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمّي، من أعلام القرنين الثالث والرابع الهجري، صحّحه وعلّق عليه وقدّم له: حجّة الإسلام العلاّمة السيّد طيّب الموسوي=

## الأمر الخامس: النون والقلم والكتاب المبين

في البدء لابدّ من الالتفات إلى أنّ النصوص الروائيّة التي سنتوفّر عليها، حاولت أن تستخدم المثال بصيغة مكثّفة تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣). إلاّ أنّ ذلك لا يعني إسقاط الحقائق الواقعيّة والمصاديق الخارجيّة لهذه المفاهيم ما وراء عالمنا المحسوس، فهي موجودة بحقائقها، ووظيفة المثال أنّه يساهم في تعقّلها على مستوى الفهم الإنساني.

ذلك لأنّ الناس يختلفون في تلقّيهم للنصوص الدينيّة بحسب اختلاف أفهامهم، فمن سامع لا حظَّ له منها إلاّ تلقّي ألفاظها وتصوّر مفاهيمها الساذجة من غير تعمّق فيها وسبر لأغوارها، ومن سامع يتلقّى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثمّ يغور في مقاصدها العميقة ويعقل حقائقها؛ قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ١٧).

في ضوء هذه الحقيقة، فإنّ عمليّة انتقاش العلوم والمعارف في الكتاب، تحتاج إلى شيئين هما القلم والدواة، وقد حاولت روايات الفريقين على نحو مشترك بيان ذلك.

• في المعاني بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوري عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير الحروف المقطّعة في القرآن، قال: «**وأمّا نون فهو نهرٌ في الجنّة، قال الله عزّ وجلّ: اجمد. فجمد فصار مداداً، ثمّ قال للقلم: اكتُب فسطّر القلم في اللّوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة. فالمداد مدادٌ من نور، والقلم قلمٌ من نور، واللوح لوحٌ من نور**».

---

= الجزائري، مطبعة النجف، ١٣٨٧هـ: ج٢ ص٣٨٠.

قال سفيان: فقلت له: يا ابن رسول الله بيِّن لي أمر اللّوح والقلم والمداد فضل بيان وعلّمني ممّا علّمك الله. فقال: «**يا ابن سعيد لولا أنّك أهلٌ للجواب ما أجبتك. فنون ملك يؤدّي إلى القلم وهو ملك، والقلم يؤدّي إلى اللّوح وهو ملك، واللّوح يؤدّي إلى إسرافيل، وإسرافيل يؤدّي إلى ميكائيل، وميكائيل يؤدّي إلى جبرائيل، وجبرائيل يؤدّي إلى الأنبياء والرُّسل**».

ثمّ قال لي: «**قُم يا سفيان، فلا آمن عليك**»[1].

والتعبير عن المداد والقلم واللوح أنّها نور، إشارة إلى ما قدّمناه من أنّ المفهوم الواحد قد يكون له مصاديق متعدّدة، منها ما يكون مادّياً ومنها ما يكون وراء عالمنا المشهود، ومن ثمّ لا معنى لصرف اللوح والقلم والمداد إلى مصاديقها المادّية.

• وفي تفسير القمّي عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سألته عن ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ قال: «**إنّ الله خلق القلم من شجرة في الجنّة يُقال لها الخُلد، ثمّ قال لنهر في الجنّة: كُنْ مداداً، فجمد النهر وكان أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد. ثمّ قال: اكتب. قال: يا ربّ ما أكتب؟ قال: اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة. فكتب القلم في رقٍّ أشدّ بياضاً من الفضّة وأصفى من الياقوت، ثمّ طواه فجعله في ركن العرش، ثمّ ختم على فم القلم فلم ينطق أبداً**»[2].

قال الطباطبائي معلّقاً على هذه الرواية:

«قوله عليه السلام: **فكتب القلم في رقّ**، تمثيل للّوح المكتوب فيه الحوادث بالرقّ، والرقّ ما يكتب فيه شبه الكاغد ـ على ما ذكره الراغب.

---

(١) **البرهان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٨ ص٨٤.

(٢) **تفسير القمّي**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٧٩.

وقوله: **فجعله في ركن من العرش** تمثيل للعرش بعرش الملك ذي الأركان والقوائم.

وقوله: **ثمّ ختم على فم القلم** كناية عن كون ما كتب في الرقّ قضاءً محتوماً لا يتغيّر ولا يتبدّل.(١)

والحاصل أنّ هذه النصوص وكثير غيرها، تفيد أنّ القلم موجود حيّ ناطق عاقل، فحينما قال له الحقّ تعالى: اكتب، ردَّ: ياربّ وما أكتب؟ فهذا يكشف أنّه ليس موجوداً جامداً كالأقلام المادّية التي نتداولها فيما بيننا. وهذا معنى ما ورد عن إبراهيم الكرخي قال: «سألت جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام عن اللوح والقلم، فقال: **هما ملكان**»(٢).

## الأمر السادس: بيان أن النبي وأهل بيته يعلمون ما في الكتاب المبين

في آخر فقرات بحث الكتاب المبين يواجهنا التساؤل التالي: هل لأحد من أولياء الله من النبيّين والأئمّة الأوصياء عليهم السلام سبيل لمعرفة محتوى الكتاب المبين، أم يدخل في الغيب المطلق الذي لا سبيل لأحد إليه إلاّ هو سبحانه؟

## الأدلة على أن النبي وأهل بيته يعلمون ما في الكتاب المبين

### الدليل الأول

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩)، وهذه الآيات واضحة الدلالة أنّ هناك سبيلاً إلى المسّ الذي هو العلم، غير أنّه يقتصر على المطهّرين، لأنّ ضمير «يمسّه» يرجع

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٨ ص١٨٢.

(٢) **البرهان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٨ ص٨٥ .

بحسب قواعد اللغة إلى أقرب المراجع، إلاّ إذا دلّ دليل على خلافه أو منع منه مانع، ومن ثمّ فهو عائد إلى الكتاب المكنون، وقد بانَ ممّا مرّ أنّ الكتاب المكنون هو اسمٌ للكتاب المبين، إذن بمقدور المطهّرين أن يقفوا على ما في الكتاب المبين.

لكن مَنْ هم المطهّرون؟ يُجيب القرآن عن ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣)، فالمطهّرون هم أهل البيت عليهم السلام، وهذا شاهدٌ آخر على أنّ هذا العنوان لا يمكن أن يمتدّ ليشمل نساء النبيّ صلّى الله عليه وآله وبقيّة قرابته، لأنّ أحداً من هؤلاء لم يدّع أنّه من أهل البيت، بل صرّحت بعض نساء النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّ الآية مختصّة بالنبيّ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم صلوات الله أجمعين.

هذا، مضافاً إلى أنّ هناك دليلاً تأريخيّاً على هذه الحقيقة، فلو أنّ أحداً غير هؤلاء كان من أهل البيت لكان من المطهّرين، ولو كان كذلك لكان ممّن يمكنه مسّ الكتاب المكنون وأمّ الكتاب واللّوح المحفوظ، وعندئذ كان بمقدوره أن ينطق بحقائق لا سبيل للآخرين إليها، وهذا ما لم نعهده في الحياة العلميّة والفكريّة لأيّ واحدة من نساء النبيّ صلّى الله عليه وآله وقرابته.

في ضوء ذلك ينكشف المدلول العظيم لنصّ عليّ أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. **فالقلم قلمٌ من نور، وكتاب من نور في لوح محفوظ، يشهده المقرّبون، وكفى بالله شهيداً»**[1].

---

(١) **الخصال**: للشيخ الجليل الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٨١ هـ صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ، ص٣٣٢، =

وقد تظافرت الروايات على أنّ المقرّبين في هذه الأمّة هم النبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام[١].

ولعلّ في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ (يس: ١٢) ما يدلّ على هذه الحقيقة القرآنيّة، فقد تظافرت النصوص الروائيّة في ظلال هذه الآية أنّ المقصود من ذلك هو الإمام عليّ عليه السلام.

• في معاني الأخبار بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال: «لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله صلّى الله عليه وآله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ قام رجلان فقالا: يا رسول الله هو التوراة؟ قال: لا. قالا: هو الإنجيل؟ قال: لا. قالا: فهو القرآن؟ قال: لا. قال: فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **هو هذا، إنّه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كلّ شيء**»[٢].

لكن لا يخفى أنّ هذه الروايات ليست بصدد تفسير الآية، بل مضمونها يعدّ من البطن ـ وسيأتي البحث عن ذلك لاحقاً ـ ولا مانع من أن يرزق الله عبداً ـ وحّده وأخلص العبادة له ـ العلم بها في الكتاب المبين، وهو عليه السلام سيِّد الموحّدين وإمام المتّقين بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله.

وإلاّ فمقتضى ظاهر الآية أنّ المراد من قوله: ﴿إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ هو اللوح المحفوظ من التغيير الذي يشتمل على تفصيل قضائه في خلقه فيحصي كلّ شيء، وقد تقدّم أنّ الكتاب المبين له أسماء مختلفة، كلّ منها بعناية وحيثيّة خاصّة، ومنها أنّه ﴿إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ ولعلّ العناية في هذه التسمية هو اشتماله على

---

= الحديث ٣٠.

(١) **البرهان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٧ ص٤٠٦، ج٨ ص٢٣٥.

(٢) المصدر السابق: ج٦ ص٣٨٦.

القضاء المحتوم، متبوع للخلق مقتدىً لهم، وكتب الأعمال ـ كما أسلفنا ـ مستنسخة منه.

**الدليل الثاني**

ثمّ لو تنزّلنا وقلنا إنّ أهل البيت عليهم السلام لا يعلمون ما في الكتاب المبين مباشرةً، فإنّه يمكن أن نثبت علمهم بكلّ ما في الكتاب المبين الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلاّ أحصاها، من خلال طريق آخر، ألا وهو أنّ هذا الكتاب الذي جُعل بلسان عربيٍّ مبين لما كان هو تنزّل على نحو التجلّي لما في الكتاب المبين واللوح المحفوظ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢)، وأنّ هذا المتنزّل متطابق تمام المطابقة مع ما في الكتاب المبين؛ بدليل: أنّ هذا الذي نقرؤه ونعقله، إمّا أن يكون مطابقاً لما في أُمّ الكتاب كلّ المطابقة أو لا؟ والثاني باطل قطعاً، كيف والله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ويقول: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ و﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾. فتعيّن الأوّل، ومع مطابقة القرآن لأمّ الكتاب كلّ المطابقة، لا معنى أن يكون في الكتاب المبين ما لا وجود له في القرآن الكريم، وإنّ كلٌّ بحسب مرتبته الوجوديّة.

ببيان آخر: إنّ هذا الكتاب الذي جُعل بلسان عربيٍّ مبين، متّحد مع ما في اللوح المحفوظ والكتاب المبين اتّحاد الرقيقة مع الحقيقة، والثابت في البحث الفلسفي أنّ الرقيقة (الوجود المفهومي واللفظي للقرآن) هي الحقيقة (وأعني ما في الكتاب المبين) بوجود أضعف، والحقيقة هي الرقيقة بوجود أعلى وأشرف، وذلك بمقتضى قانون تطابق العوالم وتوافقها بما يليق بكلّ منها وجوداً ومرتبةً، وهذا ما ألمحنا إليه فيما سلف.

## الدليل الثالث

قوله صلّى الله عليه وآله في حديث الثقلين: «**وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض**».

وتقريب الاستدلال أن يُقال: لو لم يكن لدى أهل البيت عليهم السلام علم الكتاب كلّه، للزم أحد احتمالين:

الأوّل: أن يكون إخباره صلّى الله عليه وآله «**بأنّهما لن يفترقا**» إخباراً مخالفاً للواقع، إمّا عمداً أو سهواً واشتباهاً.

الثاني: أن يكون القرآن الذي أخبر عن نفسه بأنّ فيه تبيان كلّ شيء، مخالفاً للواقع ونفس الأمر.

وكلا الاحتمالين باطل جزماً.

- أمّا الاحتمال الأوّل، فهو باطل عقلاً ونقلاً.

أمّا عقلاً فلأنّه لو لم يكن الرسول صلّى الله عليه وآله معصوماً ـ ولو في مجال التبليغ على الأقلّ ـ للزم نقض الغرض، ولذا أجمعت كلمة علماء المسلمين على عصمة النبيّ صلّى الله عليه وآله في مقام التبليغ، وحديث الثقلين إنّما صدر في مثل هذا السياق كما هو واضح من قوله صلّى الله عليه وآله للمسلمين: «**ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً**» وهو إبلاغ وإخبار بوجوب الرجوع إلى الكتاب والعترة.

ولقائل أن يقول ـ كما ذكر بعض علماء السنّة ـ: إنّ الثابت أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لا يتعمّد الكذب في مقام التبليغ، وأمّا في غير حال التعمّد فلا دليل على نفيه. قال الشوكاني: «وهكذا وقع الإجماع على عصمتهم بعد النبوّة من تعمّد الكذب في الأحكام الشرعيّة لدلالة المعجزة على صدقهم،

وأمّا الكذب غلطاً، فمنعه الجمهور وجوّزه القاضي أبو بكر»[(١)].

والجواب: أنّ هذا الكلام ـ لو سلّمنا به جدلاً ـ غير وارد في المقام؛ لأنّ نصوص حديث الثقلين لم تكن في واقعة واحدة حتّى يُقال بإمكان الاشتباه والغفلة فيها، بل كرّر النبيّ صلّى الله عليه وآله ذلك في مواطن متعدّدة اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة كما قال ابن حجر، ومن الواضح أنّ الغلط والاشتباه لا يتأتّى في مثل ذلك.

وأمّا بطلانه نقلاً، فلما صرّحت به عدد من الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم: ٣، ٤).

• وأمّا الاحتمال الثاني، وهو حصول الاشتباه في إخبار القرآن عن نفسه، فأيضاً باطل عقلاً ونقلاً.

**أمّا الأوّل** فلأنّه يلزم الكذب والاشتباه على الله تعالى، إذ إنّ القرآن هو كلام الذي أنزله على رسوله صلّى الله عليه وآله، ومن الواضح أنّه تعالى منزّه عن ذلك، كما هو محقّق في محلّه.

**وأمّا الثاني** فلأنّ القرآن أخبر عن نفسه أنّه كتابٌ ﴿ **لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ** ﴾ (فصّلت: ٤٢)، وقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا** ﴾ (النساء: ١٢٢)، وقال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا** ﴾ (النساء: ٨٧)، وغيرها من النصوص القرآنية التي أثبتت هذه الحقيقة.

وبهذا يتّضح مضمون تلك الروايات التي أشارت إلى أنّهم عليهم السلام يعلمون كتاب الله من أوّله إلى آخره ومن خلاله يعلمون خبر الأرض والسماء، وخبر ما كان وما هو كائن وما يكون إلى يوم القيامة، وخبر الجنّة والنار، وأمر الأوّلين والآخرين، وأنّ ذلك نصب أعينهم، وكأنّه في أكفّهم.

---

(١) **إرشاد الفحول**: ص٣٤، نقلاً عن **الأصول العامّة للفقه المقارن**: ص١٦٧.

## التأييد الروائي

هناك العشرات بل المئات من النصوص الروائيّة ذات المضامين المختلفة، أكّدت علم أهل البيت عليهم السلام بهذا الكتاب الذي فيه تبيان كلّ شيء. وهي على طوائف نشير لبعضها:

* منها: الروايات التي وردت في ذيل قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (العنكبوت: ٤٩).

• عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**هم الأئمّة خاصّة**»[١].

• وعن أبي بصير قال: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام في هذه الآية: «**أما والله ـ يا أبا محمّد ـ ما قال بين دفّتي المصحف**» قلت: مَن هم جعلت فداك؟ قال: «**مَن عسى أن يكونوا غيرنا**»[٢].

* ومنها: الروايات التي تحدّثت عن أنّ الأئمّة عليهم السلام هم خزنة علم الله وعيبة وحي الله:

• عن عبد الرحمان بن كثير قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**نحن ولاة أمر الله، وخزنة علم الله، وعيبة وحي الله**»[٣].

• وعن سدير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قلت له: جُعلت فداك ما أنتم؟ قال: **نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجّة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض**»[٤].

---

(١) **الأصول من الكافي**، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة قد أُوتوا العلم: ج١ ص٢١٤، الحديث: ٤.

(٢) المصدر السابق: الحديث ٣.

(٣) المصدر السابق: الحديث ١.

(٤) المصدر السابق: الحديث ٣.

• وعن سورة بن كليب قال: «قال لي أبو جعفر الباقر عليه السلام: **والله إنّا لخزّان الله في سمائه وأرضه، لا على ذهب ولا على فضّة، إلاّ على علمه**»[١].

قال المجلسي: «قوله عليه السلام: **لخزّان الله في سمائه وأرضه** أي خزنة العلوم المكتوبة في الألواح السماويّة والعلوم الكائنة في الأرض من الكتب المنزلة، وخزنة علوم حقائق الأجرام السماويّة والملائكة وأحوالهم، وحقائق ما في الأرض من الجمادات والنباتات وأحوالها، أو الموادّ، ونحن الخزنة من بين أهل السماء والأرض، أو نحن المعروفون بذلك عند أهلهما»[٢].

* ومنها: الروايات التي أثبتت أنّ الله لا يحجب علم السماء والأرض عن عبد فرض طاعته على الخلق.

• عن ضريس الكناسي قال: «سمعت أبا جعفر الباقر يقول ـ وعنده أُناس من أصحابه ـ **عجبت من قوم يتولّونا ويجعلونا أئمّة ويصفون أنّ طاعتنا مفترضة عليهم كطاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ يكسرون حجّتهم ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم، فينقصونا حقّنا ويعيبون ذلك على من أعطاه الله برهان حقّ معرفتنا والتسليم لأمرنا. أترون أنّ الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده، ثمّ يخفي عنهم أخبار السماوات والأرض، ويقطع عنهم موادّ العلم فيما يرد عليهم ممّا فيه قوام دينهم؟!**»[٣].

• وعن محمّد بن الفضيل عن أبي حمزة قال: «سمعت أبا جعفر الباقر

---

(١) المصدر السابق: الحديث ٢.

(٢) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، تأليف العلاّمة شيخ الإسلام المولى محمّد باقر المجلسي، شرح كتاب الكافي لثقة الإسلام الكليني، دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ: ج٢ ص٣٤٧.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٦١، الحديث: ٤، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة يعلمون علم ما كان وما يكون.

عليه السلام يقول: **لا والله لا يكون عالمٌ** (يعني العالم الذي افتُرض طاعته) **جاهلاً أبداً، عالماً بشيء جاهلاً بشيء**. ثمّ قال: **الله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يفرض طاعة عبد يحجب عنه علم سمائه وأرضه**. ثمّ قال: **لا يحجب ذلك عنه**»[1].

وبهذا يتّضح مضمون الروايات التي تحدّثت عن أنّ الأئمّة هم معدن العلم، وأنّ العلم لا يُستقى إلاّ منهم عليهم السلام.

* أمّا الطائفة الأولى، فهي نصوص كثيرة:

• عن إسماعيل بن أبي زياد، عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّا أهل البيت شجرة النبوّة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وبيت الرحمة، ومعدن العلم**»[2].

• وعن ربعي بن عبد الله بن الجارود عن جدّه الجارود قال: دخلت مع أبي على عليّ بن الحسين بن عليّ عليهم السلام، فقال عليّ بن الحسين: «**ما تنقم الناس منّا، نحن والله شجرة النبوّة وبيت الرحمة، وموضع الرسالة، ومعدن العلم، ومختلف الملائكة**»[3].

* وأمّا الطائفة الثانية، وهي نصوص كثيرة ومتظافرة:

• عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر البزنطي عن زرارة قال:

«كنت عند أبي جعفر الباقر عليه السلام فقال لي رجل من أهل الكوفة: سله عن قول أمير المؤمنين عليه السلام: (**سلوني عمّا شئتم ولا تسألوني عن شيء إلاّ أنبأتكم به**). قال: فسألته، فقال: **إنّه ليس أحد عنده علم شيء إلاّ خرج من عند أمير المؤمنين، فليذهب الناس حيث شاءوا، فوالله ليأتينّ الأمر**

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٢٦٢، الحديث: ٦.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمّد**: ص ٧٦.

(٣) المصدر السابق.

**هاهنا»**. وأشار بيده إلى صدره»[١].

• وعن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: **«أما إنّه ليس عند أحد علم ولا حقّ ولا فتيا إلاّ شيء أخذ عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعنّا أهل البيت. وما من قضاء يقضي به بحقّ وصواب إلاّ بدء ذلك ومفتاحه وسببه وعلمه من عليّ عليه السلام ومنّا. فإذا اختلف عليهم أمرهم قاسوا وعملوا بالرأي، وكان الخطأ من قِبلهم إذا قاسوا، وكان الصواب إذا اتّبعوا الآثار من قِبل عليّ عليه السلام»**[٢].

• عن ابن محبوب قال: «حدّثنا يحيى بن عبد الله أبي الحسن صاحب الديلم قال: سمعت جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام يقول ـ وعنده أُناس من أهل الكوفة ـ **عجباً للناس إنّهم أخذوا علمهم كلّه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله فعملوا به واهتدوا، ويرون أنّ أهل بيته لم يأخذوا علمه، ونحن أهل بيته وذرّيته في منازلنا نزل الوحي، ومن عندنا خرج العلم إليهم، أفيرون أنّهم علموا واهتدوا وجهلنا نحن وضللنا، إنّ هذا لمحال»**[٣].

من جميع هذه الروايات المستفيضة، نلمس التقاءها في تأكيد أعلميّة أهل البيت عليهم السلام بالكتاب، مضافاً إلى أنّها حرصت على رسم وبيان حدود علم أهل البيت بشكل واضح، وأنّه علم موازٍ لعلم الكتاب الذي

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، تأليف العلم العلاّمة الحجّة فخر الأمّة المولى الشيخ محمّد باقر المجلسي، مؤسّسة الوفاء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة المصحّحة، ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣: ج٢ ص٩٤، الحديث: ٣٤، كتاب العلم، باب ١٤، من يجوز أخذ العلم منه ومن لا يجوز.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٩٥، ح٣٧.

(٣) **الأصول من الكافي**، كتاب الحجّة، باب أنّ مستقى العلم من بيت آل محمّد: ج١ ص٣٩٨ ح١.

هو تبيان لكلّ شيء.

وهذه نتيجة مهمّة تعضد ما أثبته حديث الثقلين من أنّهم عليهم السلام عدْل القرآن الكريم وأنّهم لا يفارقونه ولا يفارقهم.

## الخلاصة

يمكن إجمال ما تقدّم لإثبات شموليّة علم أهل البيت عليهم السلام بالكتاب بمراتبه المختلفة، انطلاقاً من حديث الثقلين، بالنقاط التالية:

**الأولى**: إثبات تواتر حديث الثقلين بين الفريقين، لاسيما فقرة عدم الافتراق بين القرآن والعترة.

**الثانية**: الردّ على ما أُثير حول الحديث من إثارات، وهي:

* **الإثارة الأولى**: إنّ حديث الثقلين الوارد بلفظ «سنّتي» أوثق من الوارد بلفظ «عترتي».

**والجواب**:

• إنّ رواية «وسنّتي» خبر آحاد وضعيفة السند.

• ولو سلّمنا صحّة رواية «وسنّتي» على مباني الجمهور، إلاّ أنّها لا يمكن أن تكون حجّة على الشيعة، لمنافاة ذلك قواعد الحوار والاحتجاج.

• لو سلّمنا بصحّة الرواية على مباني كلا الفريقين، إلاّ أنّها لا تتخطّى كونها خبراً واحداً، ومن الواضح أنّ الخبر الواحد حتّى لو كان صحيحاً يسقط عن الاعتبار فيما لو عارضه خبر قطعيّ، وقد تقدّم أنّ خبر «**وعترتي**» قطعيّ السند.

• بالتأمّل في متن حديث «**وسنّتي**» نجد أنّه لا تنافي بينه وبين «**وعترتي**» لأنّ من سنّته صلّى الله عليه وآله هو حديث التمسّك بالعترة الذي ثبتت

قطعيّته، وعلى هذا الأساس يكون حديث «وسنّتي» يتضمّن الدلالة على لزوم التمسّك بالعترة.

* الإثارة الثانية: إنّ حديث الثقلين من المناكير.

**والجواب**: أنّه بناءً على ما تقدّم من قطعيّة الحديث عند أهل السنّة، وأنّ مصادرهم نقلت هذا الحديث بشكل لا نظير له، مع إقرار كبار علمائهم وحفّاظهم بصحّة صدوره، فكيف يمكن أن يكون مثل هذا الحديث من المناكير؟

وبهذا يتّضح الجواب عن الإثارة الثالثة أيضاً.

**الثالثة**: تشخيص وتعيين عدد أهل البيت عليهم السلام مع بيان أسمائهم.

**الرابعة**: أنّ القرآن فيه تبيان كلّ شيء.

**الخامسة**: أنّ القرآن له مراتب وجوديّة متعدّدة.

**السادسة**: انطلاقاً من هذه الجولة التحليليّة لإثبات مراتب القرآن الكريم، انعطف البحث للوقوف على خصوصيّات وامتيازات مرتبة الكتاب المبين.

وقد تبيّن أنّها تمتاز بخصوصيّات مهمّة، من قبيل أنّ فيها علم كلّ شيء، وأنّه لا يطاله التغيير ولا التبدّل ولا النسيان والاشتباه، مضافاً إلى خصوصيّة أخرى هي لا يمكن الوصول إلى علم الكتاب من خلال العقل البشري، وأن لا طريق للوصول إلى هذا العلم إلاّ من خلال الطهارة.

**السابعة**: أنّ جميع ما في الكتاب المبين موجود في القرآن الذي بأيدينا، لكن بحسب مرتبته الوجوديّة، ذلك لأنّ هذا القرآن تنزُّل ورقيقة ذلك الكتاب؛ فضلاً عمّا في دفّتي هذا المصحف، وأنّهم أحصوا علم كلّ شيء.

**الثامنة**: في ضوء ما سلف من أبحاث ومقدّمات، يتبيّن أنّ أهل البيت

عليهم السلام لديهم علم الكتاب بكلّ مراتبه؛ لعدم افتراق العترة عن الكتاب؛ بمقتضى حديث الثقلين. وعلى هذا الأساس انتهينا إلى أنّ حدود علم أهل البيت عليهم السلام هي عين حدود الكتاب الذي فيه تبيان كلّ شيء.

الفصل الثاني

# النبيّ وأهل بيته أعلم من جميع الأنبياء والمرسلين

## تمهيد

تساق عدّة أدلّة لإثبات أعلميّة النبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، ومن أبرز الأدلّة على ذلك الدليل الذي ينطلق من إثبات أفضليّة النبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته على جميع الأنبياء، وإذا ثبتت أفضليّته صلّى الله عليه وآله على جميع الأنبياء يتّضح أنّه صلّى الله عليه وآله أعلم الأنبياء؛ لأنّ الأعلميّة من أوضح مصاديق الأفضليّة. وعلى هذا الأساس نقول: إنّ من الحقائق الأساسيّة التي يسجّلها القرآن الكريم تفاضل الأنبياء والرُّسل فيما بينهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (الإسراء: ٥٥)، وقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

وثمَّة حقيقة أخرى يسجّلها القرآن أيضاً نالت اتّفاق المسلمين جميعاً، ألا وهي أنّ أفضل الأنبياء والمرسلين هم أولو العزم من الرسل كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥). ومن المعلوم أنّ القرآن لم يقتصر على إطلاق عنوان أولي العزم فحسب، بل حدّد لنا من همّ أولو العزم وشخّصهم بأسمائهم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ (الأحزاب: ٧)، وهذه الحقيقة هي أيضاً موضع إجماع واتّفاق المسلمين.

لكن السؤال: من هو أفضل الأنبياء مطلقاً؟

إنّ أفضلهم مطلقاً هو خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد صلّى الله عليه وآله، وهذا من الحقائق الإسلاميّة التي أجمع عليها المسلمون، بل لعلّنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إنّ هذه الحقيقة من الواضحات والضرورات الإسلاميّة

التي تعلو على البرهنة والاستدلال، إلاّ أنّنا مع ذلك نحاول الوقوف على بعض ما ذكره القرآن وأيّدتها الشواهد الروائيّة في هذا المجال.

**الأدلّة على أفضليّة النبيّ صلّى الله عليه وآله على جميع الأنبياء**

هناك عدّة من الأدلّة القرآنية لإثبات أفضليّة الخاتم صلّى الله عليه وآله على جميع الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله أجمعين:

**الدليل الأول**: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الزمر: ١١، ١٢).

ينطلق هذا الدليل من التأمّل في معنى الإسلام، فقد سجّل القرآن الكريم في مواضع متعدّدة أنّ الدِّين عند الله الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: ١٩)، فما من نبيّ إلاّ وكان مسلماً.

وقد حكى القرآن ذلك على لسان عدد من الأنبياء، فمثلاً عن نوح عليه السلام قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٧٢)، وعن إبراهيم عليه السلام: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١). وعن لوط عليه السلام: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات: ٣٦)، وعن ملكة سبأ في قولها: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤).

ومعنى الإسلام هنا عموماً هو الطاعة والخضوع والتسليم لله تعالى. قال الطباطبائي في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: «المعنى أنّ الدِّين عند الله سبحانه واحد لا اختلاف فيه لم يأمر عباده إلاّ به، ولم يبيّن لهم فيما أنزله من الكتاب على أنبيائه إلاّ إيّاه، ولم ينصب الآيات الدالّة إلاّ له، وهو الإسلام الذي هو التسليم للحقّ الذي هو حقّ الاعتقاد وحقّ العمل. وبعبارة أخرى: إنّه تسليم وإطاعة لله سبحانه فيما يريده من عباده على لسان رسله»[1].

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص١٢٠.

## مراتب الإسلام

وقد أشار القرآن إلى أنّ الإسلام له مراتب متعدّدة:

**الأولى**: مرتبة القبول لظواهر الأوامر والنواهي بتلقّي الشهادتين لساناً، سواء وافقه القلب أو خالفه؛ قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤)، ويتعقّب الإسلام بهذا المعنى أوّل مراتب الإيمان، وهو الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالاً، ويلزمه العمل في غالب الفروع.

**الثانية**: ما يلي الإيمان بالمرتبة الأولى، وهو التسليم والانقياد القلبي لجلّ الاعتقادات الحقّة التفصيليّة، وما يتبعها من الأعمال الصالحة، وإن أمكن التخطّي في بعض الموارد؛ قال الله تعالى في وصف المتّقين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ (الزخرف: ٦٩)، وهذه المرتبة من الإسلام متأخّرة عن الإيمان الذي كان في المرتبة السابقة، فهو غير المرتبة الأولى من الإسلام. ويتعقّب هذا الإسلام المرتبة الثانية من الإيمان، وهو الاعتقاد التفصيلي بالحقائق الدينيّة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ (الصف: ١٠، ١١)، وفيه إرشاد المؤمنين إلى الإيمان، فالإيمان غير الإيمان.

**الثالثة**: ما يلي الإيمان بالمرتبة الثانية، فإنّ النفس إذا آنست بالإيمان المذكور وتخلّقت بأخلاقه تمكّنت منها وانقادت لها سائر القوى البهيميّة والسبعيّة، وبالجملة القوى المائلة إلى هوسات الدنيا وزخارفها الفانية الداثرة، وصار الإنسان يعبد الله كأنّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنّ الله يراه، ولم يجد في باطنه وسرّه ما لا ينقاد إلى أمره ونهيه أو يسخط من قضائه وقدره؛ قال الله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ (النساء: ٦٥).

ويعقب هذه المرتبة من الإسلام المرتبة الثالثة من الإيمان، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١). والأخلاق الفاضلة من الرضا والتسليم والصبر في الله، وتمام الزهد والورع، والحبّ والبغض في الله، من لوازم هذه المرتبة.

**الرابعة**: ما يلي المرتبة الثالثة من الإيمان، فإنّ حال الإنسان وهو في المرتبة السابقة مع ربّه حال العبد المملوك مع مولاه، إذا كان قائماً بوظيفة عبوديّته حقّ القيام، وهو التسليم الصرف لما يريده المولى أو يحبّه ويرتضيه، والأمر في ملك ربّ العالمين لخلقه أعظم من ذلك وأعظم، لأنّه حقيقة الملك الذي لا استقلال دونه لشيء من الأشياء، لا ذاتاً ولا صفةً ولا فعلاً على ما يليق بكبريائه جلّت عظمته.

فالإنسان ـ وهو في المرتبة السابقة من التسليم ـ ربما أخذته العناية الربّانية، فشاهد عياناً أنّ الملك لله وحده لا يملك شيء سواه لنفسه شيئاً إلاّ به. ولعلّ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ (البقرة: ١٢٨) إشارة إلى هذه المرتبة من الإسلام، وإلاّ فليس من المعقول أن يكون المطلوب له عليه السلام هو الإسلام بمعناه المتبادر إلى أذهاننا الذي هو أوّل مراتب العبوديّة، وهو الأخذ بظاهر الاعتقادات والأعمال الدينيّة، وإبراهيم عليه السلام ـ وهو النبيّ الرسول أحد الخمسة أولي العزم، صاحب الملّة الحنيفيّة ـ أجلّ من أن يتصوّر في حقّه أن لا يكون قد نال هذه المرتبة إلى هذا الحين، وكذا ابنه إسماعيل رسول الله وذبيحه، أو يكونا قد نالاه ولكن لم يعلما بذلك، أو يكونا علما بذلك وأرادا البقاء عليه، وهما فيما هما فيه من القربى والزلفى، والمقام مقام الدعوة عند بناء البيت المحرّم، وهما أعلم

بمن يسألانه وأنّه من هو وما هو شأنه.

وليس المسؤول أيضاً ما ورد في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث بيّنت أنّه عليه السلام كان مسلماً وباختياره إجابةً لدعوة ربّه وامتثالاً لأمره، وقد كان هذا من الأوامر المتوجّهة إليه في بدء أمره، فسؤاله في أواخر عمره عليه السلام مع ابنه إسماعيل وهو في ذلك المقام، يكشف عن أنّه يريد أمراً غير حاصل له، وليس ذلك إلاّ درجة العبوديّة التامّة، التي أشرنا إليها في هذه المرتبة.

نعم، يبقى تساؤل: لماذا يسأل اللهَ سبحانه ما هو فعلٌ اختياريٌّ له؟

والجواب: إنّ هذه المرتبة من الإسلام وإن كانت أمراً اختياريّاً للإنسان من طريق مقدّماتها، إلاّ أنّها لعظم درجتها ومقامها كأنّها غير اختياريّة له، بمعنى كونها غير ممكنة النيل إلاّ بإفاضة إلهيّة وعناية خاصّة ربّانية، كسائر مقامات الولاية ومراحلها العالية وكسائر معارج الكمال البعيدة عن حال الإنسان بسبب مقدّماتها الشاقّة، ولذا يمكن أن يعدّ أمراً إلهيّاً خارجاً عن اختيار الإنسان، ويسأل الله تعالى أن يفيض بها عليه وأن يجعله متّصفاً بها.

ويتعقّب الإسلام بهذا المعنى المرتبة الرابعة من الإيمان، وهو استيعاب هذا الحال لجميع الأحوال والأفعال؛ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: ٦٢)، فإنّ هؤلاء المؤمنين المذكورين في الآية يجب أن يكونوا على يقين من أن لا استقلال لشيء دون الله، ولا تأثير لسبب إلاّ بإذن الله، حتّى لا يحزنوا من مكروه واقع ولا يخافوا محذوراً محتملاً، وإلاّ فلا معنى لكونهم بحيث لا يخوّفهم شيء ولا يحزنهم أمر، فهذا النوع من الإيمان بعد الإسلام المذكور(١).

---

(١) ينظر **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١ ص٢٨٣، ص٣٠١.

## النبيّ الأكرم أوّل المسلمين

إلاّ أنّ الشيء الذي يستدعي الالتفات، هو تلك الصيغة القرآنيّة الخاصّة التي نعتت الرسول صلّى الله عليه وآله بأنّه أوّل المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣)، وبالإمعان في هذه الصيغة نجد أنّها تختلف عن الصيغة التي استعملها القرآن الكريم في وصف الأنبياء السابقين، التي لم يستعمل فيها القرآن هذا الوصف حتّى بالنسبة لأنبياء أُولي العزم كما عرفت، ومن ثمّ يكون وصف «أوّل المسلمين» مختصّاً بخاتم الأنبياء والمرسلين محمّد صلّى الله عليه وآله.

من هنا يُطرح هذا التساؤل بإزاء هذه الحقيقة القرآنية، وهو ما هي طبيعة هذه الأوّليّة، وهل هي أوّلية زمانيّة أم أنّها رتبيّة؟

إن قيل: إنّ معناها هي الأوّليّة الزمانيّة، أي أنّ المقصود منها هي أنّ نبيّنا صلّى الله عليه وآله أوّل المسلمين في عصره وبالنسبة لأمّته، فالجواب أنّ بقيّة الأنبياء لاسيما أولي العزم عليهم أفضل الصلاة والسلام الذين سبقوا نبيّنا صلّى الله عليه وآله هم أولى بتسمية كلّ واحد منهم بـ «أوّل المسلمين» لأنّ كلّ واحد منهم هو كذلك بالنسبة إلى أمّته وعصره، ومع ذلك لم يستعمل القرآن هذه الصيغة بالنسبة لغير الخاتم صلّى الله عليه وآله من بقيّة الأنبياء.

إذن الاستعمال القرآني لصيغة «أوّل المسلمين» مختصّ به صلّى الله عليه وآله دون سواه، ممّا يكشف عن أنّ هذه الأوّليّة ليست هي الأوّليّة الزمانيّة، بل المراد منها هي الأوّليّة الرتبيّة، أي أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله أوّل الأنبياء رتبةً من حيث الانقياد والطاعة والعبوديّة له تعالى، فهو أوّل من

حاز أعلى مراتب العبوديّة والقُرب الإلهي.

وهذا ما أكّدته الآيات والنصوص الروائيّة:

منها: أنّ القرآن الكريم لم يستعمل لفظ «العبد» من دون تقييد إلاّ في الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)، وهذا بخلاف ما لو ذكر اسم «العبد» في غيره صلّى الله عليه وآله فإنّه يذكر ذلك مع ذكر اسم ذلك النبيّ أو أيّ قرينة تدلّ عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (ص: ٤٥)، وقوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ (النساء: ١٧٢)، فلو لم يذكر المسيح عليه السلام لم يعرف بأنّه هو المقصود، كذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ (ص: ١٧)، فبيّن مراده من العبد هنا وهو داود عليه السلام، وهكذا قال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ (ص: ٤١)، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ (القمر: ٩).

ومعنى ذلك أنّ القرآن كلّما استخدم لفظ «العبد» وأراد واحداً من الأنبياء غير الخاتم صلّى الله عليه وآله، فإنّه يذكر اسم ذلك النبيّ أو أيّ قرينة أخرى تدلّ على مراده، أمّا إذا جاء بلفظ «العبد» من دون تقييد فإنّه يدلّ على أنّ مراده من ذلك هو الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله، كما في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (الكهف: ١)، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، وقوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (النجم: ١٠)، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (الحديد: ٩)، وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى

عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣)، وليس ذلك إلاّ لأنّه هو صلّى الله عليه وآله الذي بلغ أعلى مراتب العبوديّة المحضة لله تعالى.

## أنواع العبوديّة لله تعالى

اتّضح ممّا سبق أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله حاز أعلى مراتب العبوديّة لله تعالى، لكن إلى جوار هذه الحقيقة يطرح تساؤل حاصله: أليس كلّ موجود ممكن هو عبداً لله تعالى؟

وكلّ مخلوق لا ينفكّ عن كونه عبداً له تعالى. فكيف تقولون إنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله حاز أعلى مراتب العبوديّة، مع أنّ كلّ المخلوقات لها عبوديّة لله تعالى ولا امتياز لأحدها على الآخر، لأنّها كلّها مصنوعة مخلوقة له تعالى؟

وفي مقام الإجابة نقول: إنّ العبوديّة لله على نحوين:

• العبوديّة العامّة: وهي عبوديّة تكوينيّة خارجة عن الاختيار، وهي عبوديّة عامّة لكلّ المخلوقات وغير مختصّة بأحد دون آخر، كما في الرحمة العامّة الشاملة لكلّ شيء؛ قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

وإلى هذه الحقيقة أشار الطباطبائي في تفسيره حيث قال: «واعلم أنّ اتّخاذه تعالى أحداً من الناس عبداً غير كونه في نفسه عبداً، فإنّ العبديّة من لوازم الإيجاد والخلقة لا ينفكّ عن مخلوق ذي فهم وشعور، ولا يقبل الجعل والاتّخاذ وهو كون الإنسان مثلاً مملوك الوجود لربّه مخلوقاً مصنوعاً له، سواء جرى في حياته على ما يستدعيه مملوكيّته الذاتيّة واستسلم لربوبيّة ربّه العزيز أو لم يجر على ذلك؛ قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ (مريم: ٩٣). وإن كان إذا لم يجر على رسوم العبوديّة وسنن الرقّية استكباراً في الأرض وعتوّاً، كان من الحريّ أن لا يسمّى عبداً بالنظر إلى الغايات، فإنّ العبد هو الذي أسلم وجهه لربّه، وأعطاه تدبير نفسه، فينبغي أن لا يسمّى بالعبد إلاّ من كان عبداً في نفسه وعبداً في عمله، فهو العبد حقيقةً، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ (الفرقان: ٦٣).

وعلى هذا فاتّخاذه تعالى إنساناً عبداً ـ وهو قبول كونه عبداً والإقبال عليه بالربوبيّة ـ هو الولاية، وهو تولّي أمره كما يتولّى الربّ أمر عبده، والعبوديّة مفتاح للولاية كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦)؛ أي اللائقين للولاية»[1].

• العبوديّة الخاصّة: وهي العبوديّة الاختياريّة التي امتاز بها بعض المخلوقين بمحض إرادتهم بالقُرب إلى الله تعالى.

بيان ذلك: أنّ الإنسان وإن كان مملوك الوجود لربّه مخلوقاً مصنوعاً له، سواء جرى في حياته على ما تستدعيه مملوكيّته الذاتيّة واستسلم أو لم يجر على ذلك، لكن هذا الإنسان قد يقوم بأدب المملوكيّة والعبوديّة لله تعالى، وقد لا يقوم بذلك. فإذا قام بأدب العبوديّة والمملوكيّة فهذه هي العبوديّة الخاصّة التي تختلف عن العبوديّة العامّة، لأنّه قد يطيع مولاه لكنّه يعيش في داخل نفسه الاستكبار على مولاه وإن أطاعه خوفاً أو طمعاً.

وعليه فإنّ جميع المخلوقات وإن كانت مملوكة له تعالى ولها عبوديّة عامّة تكوينيّة، لكنّ البعض منها قام بأدب العبوديّة بأرقى وأكمل ما يمكن، فعبدوا الله لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنّته، وإنّما عبدوا الله لأنّه أهل

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١ ص٢٧٧.

العبادة، بمعنى أنّ مقتضى مولويّته تعالى أن يخضع العبد لمولاه، سواء كانت هناك جنّة أو نار أم لم تكن. فالعبد هو الذي يسلّم وجهه لربّه كما تقدّم، عندئذ يدخل الإنسان في الولاية الإلهيّة، فيكون الله وليّه ومسدّده في كلّ شيء، وفي الحديث القدسي: «**لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل والعبادات حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يُبطش بها، ورجله التي يمشي بها**»(١).

بهذا يتّضح معنى الرواية الواردة عن زيد الشحّام قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**إنّ الله تبارك وتعالى اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً، وإنّ الله اتّخذه نبيّاً قبل إن يتّخذه رسولاً، وإنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وإنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. قال: فمن عِظمها في عين إبراهيم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**»(٢). فهذه العبوديّة ليست هي العبوديّة العامّة التكوينيّة الخارجة عن الاختيار، وإنّما هي عبوديّة خاصّة يتقرّب بها الإنسان إلى الله تعالى إلى أن يختاره ويتّخذه عبداً له. وهي التي لها مراتب متعدّدة كما مرّ.

إذن فرق بين أن تكون عبداً له تعالى، وبين أن يرضاك الله ويقبلك عبداً له، كما أنّه فرق بين أن تكون محبّاً لله وبين أن تكون محبوباً له سبحانه. فقد تودّ صديقاً من أصدقائك ولكنّه قد يقبل منك ويبادلك الحبّ والمودّة وقد

---

(١) **عوالي اللآلي العزيزيّة في الأحاديث الدينيّة**، للشيخ المحقّق المتتبّع محمّد بن علي بن إبراهيم الأحسائي المعروف بابن أبي جمهور، تحقيق: البحّاثة المتتبّع الحاج آقا مجتبى العراقي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ج٤ ص١٠٣.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص١٧٥، كتاب الحجّة، باب طبقات الأنبياء والرُّسل والأئمّة، الحديث: ٢.

لا يقبل ذلك، وفي المقام كذلك فإنّ الله تعالى إذا قبل عبوديّة عبد من عباده، فسوف يوليه عناية خاصّة وتوفيقاً خاصّاً ويتولّى أمره ويكون الله تعالى وليّه، وبذلك يدخل في الحصن الإلهي: «**كلمة لا إله إلاّ الله حصني فمن دخل حصني أمِنَ عذابي**»(١).

وكيفما كان فمقتضى العبوديّة الخاصّة الدخول في ولاية الله تعالى التي تستلزم التأييد من قبله سبحانه والتسديد والتوفيق الخاصّ، انظر للأب حينما يكون وليّاً على أطفاله، فإنّه يقدِّم لهم كلّ شيء ولا يسمح أن يصلهم أيّ أذىً، ويسعى جاهداً لإيصالهم إلى كمالهم اللائق، كذلك حينما يتولّى الله تعالى أمر عبد من عباده كما قال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، فإنّه يوفّقه بتوفيق خاصّ وعناية خاصّة لأجل إيصاله إلى كماله الذي خُلِقَ لأجله، ولا يعطي مجالاً لوصول الأذى إليه.

تأسيساً على ذلك يتبيّن أنّ مفتاح الولوج في ساحة الولاية الإلهيّة هي العبوديّة، فالعبوديّة له تعالى هي الطريق للدخول في حصن الولاية الإلهيّة، فكلّما كان الإنسان أكثر عبوديّة، كان قربه أكثر، وكلّما كان الإنسان أضعف عبوديّة كان أبعد عن ولاية الله تعالى.

وكما أنّ الإنسان إذا تسامى ووصل إلى مقام الولاية الإلهيّة، يكون الحقّ تعالى لسانه وبصره وأُذنه ويده ورجله، كذلك قد يتسافل وينحدر فيدخل في ولاية الشيطان فيكون الشيطان وليّه ويأتمر بأمره؛ قال تعالى حاكياً فعل الشيطان فيمن تولّى أمرهم: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٢)؛

(١) **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، تأليف: خاتمة المحدّثين الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي، المتوفّى سنة ١٣٢٠هـ، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ: ج٥ ص٣٦٤.

بمعنى أنّ الشيطان يأخذ بحنك الإنسان ويجرّه إلى ما يريد ولا يملكون الإفلات منه. في الرواية عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «**اتّخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتّخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، وربّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل وزيّن لهم الخطل، فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه ونطق الباطل على لسانه**»(١).

## الدليل الثاني: النبيّ أوّل من أخذ عليه الميثاق

من الأدلّة على أفضلية النبي صلى الله عليه وآله قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ (الأحزاب: ٧)، وهو دالّ على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله هو أفضل الأنبياء والمرسلين جميعاً، وذلك لأنّ نبيّنا صلّى الله عليه وآله وإن كان آخر النبيّين مبعثاً، إلاّ أنّ الآية قدّمت النبي صلى الله عليه وآله في أخذ الميثاق على نوح عليه السلام الذي هو أوّل الأنبياء من أُولي العزم، ثمّ يأتي من يليه من بقيّة أولي العزم. ومن الواضح أنّ هذا التقديم لم يأت جزافاً؛ إذ لا موضع للجزاف في القرآن ولا معنى له في كتاب الله وكلماته.

قال الآلوسي في ذيل هذه الآية: «تخصيصهم بالذِّكر مع اندراجهم في النبيّين اندراجاً بيّناً، للإيذان بمزيد مزيّتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع، واشتهر أنّهم أولو العزم من الرُّسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين.

أخرج البزاز عن أبي هريرة: **أنّهم خيار ولد آدم عليهم الصلاة والسلام** وتقديم نبيّنا صلّى الله تعالى عليه [وآله] وسلّم مع أنّه آخرهم بعثةً للإيذان بمزيد

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق: ج١، ص ٤٢.

خطره الجليل أو لتقدّمه في الخلق»[١].

وقال الطباطبائي: «ولم يخصّهم ـ أي هؤلاء الخمسة ـ بالذِّكر على هذا النمط إلاّ لعظمة شأنهم ورفعة مكانتهم، فإنّهم أولو عزم وأصحاب شرائع وكتب، وقد عدّهم على ترتيب زمانهم، لكن قد قدّم النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ وهو آخرهم زماناً ـ لفضله وشرفه وتقدّمه على الجميع»[٢].

وهذا ما أكّدته النصوص الروائيّة أيضاً.

عن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عن عليّ أمير المؤمنين عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **ما خلق الله خلقاً أفضل منّي ولا أكرم عليه منّي**. قال عليّ عليه السلام: فقلت يا رسول الله فأنت أفضل أم جبرئيل عليه السلام؟ فقال: **يا عليّ إنّ الله تبارك وتعالى فضّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقرّبين، وفضّلني على جميع النبيّين والمرسلين...**»[٣].

وقد بيّنت بعض الروايات نكتة هذا التقدّم وملاكه:

• عن صالح بن سهل عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

**إنّ بعض قريش قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله: بأيّ شيء سبقت الأنبياء وفُضّلت عليهم وأنت بُعثت آخرهم وخاتمهم؟**

**قال: إنّي كنت أوّل من أقرَّ بربّي جلّ جلاله وأوّل من أجاب حيث أخذ ميثاق النبيّين وأشهدهم على أنفسهم: ألستُ بربّكم؟ قالوا: بلى. فكنت أوّل**

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج٢ ص١٥٤.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٦ ص٢٧٨.

(٣) **نوادر الأخبار في ما يتعلّق بأصول الدّين**، تأليف: المحدِّث الكبير المولى محسن بن مرتضى الفيض الكاشاني، المتوفّى سنة ١٠٩١هـ تحقيق: مهدي الأنصاري القمّي، الطبعة الأولى: ص١٣٠.

**نبيّ قال: بلى، فسبقتُهم إلى الإقرار بالله عزّ وجلّ»**[(١)].

• وعن زرارة قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، قال: **كان محمّد عليه وآله السلام أوّل من قال: بلى»**[(٢)].

وبهذا يتبيّن المعنى الدقيق للخاتميّة وأنّ المراد منها ليست هي الخاتميّة الزمانيّة فقط وأنّه لا نبيّ بعده، بل المراد منها أيضاً الخاتميّة في درجات القُرب الإلهي، وبتعبير القرآن الكريم في درجات العبوديّة، فهو صلّى الله عليه وآله العبد الأوّل الذي ختم كلّ مراتب العبوديّة لله تعالى، فأعطاه ما لم يعط أحداً من العالمين.

وهذا ما يفسّر لنا السبب في سؤال إبراهيم عليه السلام اللحوق بالصالحين، مع أنّ القرآن يصرّح بأنّه عليه السلام كان نبيّاً مرسلاً وأحد أُولي العزم من الأنبياء، وأنّه إمام، وأنّه مقتدى عدّة ممّن بعده من الأنبياء والمرسلين، وأنّه من الصالحين بنصّ قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٢)، وهو مع ذلك كلّه يسأل اللحوق بالصالحين، وهذا يكشف عن أنّ هناك قوماً من الصالحين سبقوه، وهو يسأل اللحوق بهم فيما سبقوه إليه.

وقد أُجيب عليه السلام بذلك لكن في الآخرة كما يحكيه الله تعالى في ثلاثة مواضع من كلامه، حيث قال: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (البقرة: ١٣٠)، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج١٥ ص١٥.

(٢) المصدر السابق: ج١٥ ص١٧.

﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٧)، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (النحل: ١٢٢).

«فإذا تأمّلت ذلك حقّ التأمّل قضيت بأنّ الصلاح ذو مراتب بعضها فوق بعض، ولم تستبعد لو قرع سمعك أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام سأل اللحوق بمحمّد صلّى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، فأُجيب إلى ذلك في الآخرة لا في الدُّنيا، فإنّه عليه السلام يسأل اللحوق بالصالحين ومحمّد صلّى الله عليه وآله يدّعيه لنفسه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦)، فإنّ ظاهر الآية أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله يدّعي لنفسه الولاية، وهذا معناه أنّه صلّى الله عليه وآله هو المتحقّق بالصلاح الذي يدّعيه بموجب الآية لنفسه وإبراهيم عليه السلام كان يسأل الله اللحوق به»[1].

## الأعلميّة أوضح مصاديق الأفضليّة

بعد أن ثبت أنّ الخاتم صلّى الله عليه وآله هو الأفضل مطلقاً، فمن أوضح مصاديق ذلك هو أعلميّته على جميع الأوّلين والآخرين، وهذا ما بيّنته الآيات القرآنية وأكّدته النصوص الروائيّة.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨)، ومحلّ الشاهد قوله «مهيمناً».

قال الغزالي: «كلّ شرف على كنه الأمر مستولٍ عليه حافظ له فهو مهيمن عليه. من هنا أنّ كلّ من أشرف على أغوار شيء وأسراره، واستولى

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١ ص٣٠٥.

مع ذلك على تقويم أحواله وأوصافه، وقام بحفظه على الدوام على مقتضى تقويمه، فهو مهيمن عليه»[(١)].

وقال الطباطبائي: «هيمنة الشيء على الشيء ـ على ما يتحصّل من معناها ـ كون الشيء ذا سلطة على الشيء في حفظه ومراقبته وأنواع التصرّف فيه، وهذا حال القرآن الذي وصفه الله تعالى بأنّه تبيان كلّ شيء بالنسبة إلى ما بين يديه من الكتب السماويّة، يحفظ منها الأصول الثابتة غير المتغيّرة وينسخ منها ما ينبغي أن ينسخ من الفروع التي يمكن أن يتطرّق إليها التغيّر والتبدّل، حتّى يناسب حال الإنسان بحسب سلوكه صراط الترقّي والتكامل بمرور الزمان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩)، وقال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦).

فهذه الجملة ـ أعني قوله ﴿ومهيمناً عليه﴾ ـ متمّمة لقوله ﴿ومصدّقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ تتميم إيضاح، إذ لولاها لأمكن أن يتوهّم من تصديق القرآن للتوراة والإنجيل أنّه يصدّق ما فيهما من الشرائع والأحكام تصديق إبقاء من غير تغيير وتبديل، لكن توصيفه بالهيمنة يبيّن أنّ تصديقه لها تصديق أنّها معارف وشرائع حقّة من عند الله، ولله أن يتصرّف منها فيما يشاء بالنسخ والتكميل»[(٢)].

فالقرآن يحفظ جميع الشرائع السماويّة السابقة ويصونها من الانحراف، بل ويُكمل تلك الشرائع التي تلتقي جميعها في هدف واحد على الرغم من

---

(١) **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، لأبي حامد الغزالي، حقّقه وقدّم له: الدكتور فضله شحادة، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت ـ لبنان: ص٧٦.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٥ ص٣٤٨.

الفوارق الموجودة بينها، وذلك بمقتضى قانون التكامل التدريجي للإنسان، وحيث إنّ كلّ شريعة جديدة ترتقي بالإنسان إلى مرحلة أسمى من مراحل الرقيّ والكمال الإنساني، وتشتمل على خطط وبرامج أكثر شمولاً وتطوّراً.

وبهذا يتّضح بعض معاني هيمنة هذا الكتاب العظيم على جميع الكتب السابقة، فإنّه يحافظ على أصولها الثابتة التي لا تتغيّر مع أيّ شريعة، وينسخ منها ما يجب نسخه إلى خير منه، ليكون حكماً يناسب كلّ عصر وزمان. فالهيمنة معنويّة لا مادّية، والدليل على ذلك ما تقدّم من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)، لذا جاء في الرواية عن سعد الإسكاف قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**أُعطيت السور الطوال مكان التوراة، وأُعطيت المئين مكان الإنجيل، وأُعطيت المثاني مكان الزبور، وفُضّلت بالمفصّل ثمان وستّون سورة، وهو مهيمن على سائر الكتب...**»(١).

وكذلك ما ورد في الاحتجاج عن معمّر بن راشد قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **قال رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد ذكر الأنبياء صلوات الله عليهم: وإنّ الله عزّ وجلّ جعل كتابي المهيمن على كتبهم الناسخ لها...**»(٢).

وانطلاقاً من أنّ كتاب كلّ نبيّ يمثّل الدرجة العلميّة لذلك النبيّ، يتّضح أنّ نبيّنا صلّى الله عليه وآله أعلم الأنبياء جميعاً، لأنّ القرآن الذي أُنزل على النبيّ صلّى الله عليه وآله فيه تبيان كلّ شيء كما هو واضح، فالنبيّ صلّى الله

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٦٠١، كتاب فضل القرآن، الحديث: ١٠.

(٢) **الاحتجاج**، الشيخ الطبرسي، تحقيق: السيد محمد باقر الخرسان، طبعة سنة ٢٠٠٧م، دار النعمان، النجف الأشرف: ج١، ص٥٧.

عليه وآله أفضل الأنبياء على الإطلاق.

من هنا يتّضح أنّ الذي عُلّم الأسماء كلّها كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١)، ليس المراد منه آدم النبيّ الذي هو أبو البشر، إذ يوجد من هو أفضل وأعلم في الأنبياء والمرسلين وهو نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله الذي عُلّم الأسماء كلّها، لذا ورد في النصوص الروائيّة أنّ آدم أُعطي بعض حروف الاسم الأعظم ولم يُعطَ كلّ حروفها، والذي أُعطي جميعها هو الخاتم صلّى الله عليه وآله كما سيتّضح[1].

## أعلميّة أئمّة أهل البيت عليهم السلام

في الواقع هناك طرق متعدّدة للوصول إلى إثبات هذه الحقيقة، وهي أعلميّة أئمّة أهل البيت عليهم السلام من جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ـ عدا نبينا صلى الله عليه وآله ـ نحاول الوقوف على بعضها:

### الطريق الأوّل: علمهم بالقرآن

يمرّ هذا الطريق من خلال إثبات أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام يعلمون كلّ ما في الكتاب الكريم، وحيث إنّه قد ثبت أنّ القرآن فيه تبيان كلّ شيء بمقتضى قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل: ٨٩)، وبه صار مهيمناً على جميع الكتب السماويّة السابقة، إذن فمن علم به على ما هو عليه فهو أعلم من جميع أصحاب الكتب السماويّة السابقة فضلاً عن غيرهم.

ولإثبات أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام يعلمون كلّ صغيرة وكبيرة في

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٠، كتاب الحجّة، باب ما أُعطي الأئمّة من اسم الله الأعظم.

هذا الكتاب، يمكن أن نذكر الأدلّة التالية:

**الدليل الأوّل:** قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (فاطر: ٣٢).

«والمراد بالكتاب في الآية ـ على ما يعطيه السياق ـ هو القرآن الكريم، كيف وقوله في الآية السابقة: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ نصّ فيه، فاللام في الكتاب للعهد دون الجنس، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء ويقرب من معنى الاختيار، والفرق أنّ الاختيار أخذ الشيء من بين الأشياء بما أنّه خيرها، والاصطفاء أخذه من بينها بما أنّه صفوتها وخالصها»[1].

والمأثور في روايات كثيرة مستفيضة أنّ المراد بهم ذرّية النبيّ صلّى الله عليه وآله من أولاد فاطمة عليها السلام، وهم الداخلون في آل إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (آل عمران: ٣٣).

• عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام أنّه قال: «**وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسيّر به الجبال وتقطع به البلدان وتحيى به الموتى، ثمّ قال:** ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ **فنحن الذين اصطفانا الله عزّ وجلّ وأورثنا هذا الكتاب الذي فيه تبيان كلّ شيء**»[2].

• في كتاب سعد السعود لابن طاووس عن أبي إسحاق السبيعي قال: خرجت حاجّاً فلقيت محمّد بن علي الجواد عليهما السلام فسألته عن الآية:

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٧ ص٤٦.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: كتاب الحجّة، ج١ ص٢٢٦، باب أنّ الأئمّة ورثوا علم النبيّ وجميع الأنبياء والأوصياء، الحديث: ٧.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ فقال: **ما يقول فيها قومك يا أبا إسحاق** ـ يعني أهل الكوفة ـ قال: قلت: يقولون إنّها لهم. قال: **فما يخوّفهم إذا كانوا في الجنّة**؟ قال: فما تقول أنت جُعلت فداك؟ فقال عليه السلام: **هي لنا خاصّة...**»(١).

• عن أبي حمزة الثمالي قال: «كنت جالساً في المسجد الحرام مع أبي جعفر الباقر عليه السلام إذ أتاه رجلان من أهل البصرة فقالا له: يا ابن رسول الله إنّا نريد أن نسألك عن مسألة، فقال لهما: **سلا عمّا أحببتما**، قالا: أخبرنا عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال: **نزلت فينا أهل البيت**»(٢).

• عن سورة بن كليب عن أبي جعفر الباقر عليه السلام «قال في هذه الآية: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال: **السابق بالخيرات الإمام، فهي في ولد عليٍّ وفاطمة عليهما السلام**»(٣).

**الدليل الثاني**: قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨ ـ ٤٩).

استفاضت الروايات الواردة في ذيل هذه الآية أنّ المقصود بالذين أوتوا العلم، هم أئمّة أهل البيت خاصّة.

• عن بريد بن معاوية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قلت له: قول الله: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ قال: **إيّانا**

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٢٣، ص٢١٨.

(٢) **نور الثقلين**، مصدر سابق: ج٤ ص٣٦٣، الحديث: ٨٤ .

(٣) المصدر السابق: ج٤ ص٣٦٢، الحديث: ٧٩.

**عنى»**[١] .

• عن حمران وعبد الله بن عجلان عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ قال: «**نحن الأئمّة خاصّة وما يعقلها إلاّ العالمون...**»[٢] .

• عن أبي بصير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ «قال: **إيّانا عنى**، فقلت له: أنتم هم؟ فقال عليه السلام: **من عسى أن يكونوا، ونحن الراسخون في العلم**»[٣] .

• عن عبد العزيز العبدي قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ قال: **هم الأئمّة من آل محمّد**»[٤] .

**الدليل الثالث:** قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (الرعد: ٤٣).

قال الطباطبائي في ذيل هذه الآية: «إنّ المراد بالكتاب القرآن الكريم، والمعنى أنّ من تحمّل هذا الكتاب وتحقّق بعلمه واختصّ به، فإنّه يشهد على أنّه من عند الله وأنّي مرسلٌ به، فيعود مختتم السورة إلى مفتتحها من قوله: ﴿**تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ وينعطف آخرها على أوّلها وعلى ما في أواسطها من قوله: ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾ (الرعد: ١٩).

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٢٣ ص٢٠٠، كتاب الإمامة، باب أنّهم عليهم السلام أهل علم القرآن، الحديث: ٣٤.

(٢) المصدر السابق: ج٢٣ ص٢٠٢، الحديث: ٤٦.

(٣) المصدر السابق: ج٢٣ ص١٨٩، الحديث: ٣.

(٤) المصدر السابق: ج٢٣ ص١٩١، الحديث: ١٠.

وهذا في الحقيقة انتصار وتأييد منه تعالى لكتابه قِبال ما أزرى به واستهانه الذين كفروا حيث قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مرّة بعد مرّة و﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ فلم يعبؤوا بأمره ولم يبالوا به، وأجاب الله عن قولهم مرّة بعد مرّة، ولم يتعرّض لأمر القرآن ولم يذكر أنّه أعظم آية للرسالة، وكان من الواجب ذلك، فقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ استيفاء لهذا الغرض الواجب الذي لا يتمّ البيان دونه.

وبهذا يتأيّد ما ذكره جمعٌ ووردت به الروايات من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ الآية نزلت في عليّ عليه السلام. فلو انطبق قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾على أحد ممّن آمن بالنبيّ صلّى الله عليه وآله لكان هو، فقد كان أعلم الأمّة بكتاب الله، وتكاثرت الروايات الصحيحة على ذلك، ولو لم يرد فيه إلاّ قوله صلّى الله عليه وآله في حديث الثقلين المتواتر من طرق الفريقين، لكان فيه كفاية»[1].

• عن سليم بن قيس الهلالي قال: قال عليّ عليه السلام: «**وقد كنت أدخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله كلّ يوم دخلة وكلّ ليلة دخلة، فيخليني فيها أدور معه حيث دار، وقد علم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري، فربما كان في بيتي يأتيني رسول الله صلّى الله عليه وآله أكثر ذلك في بيتي، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عنّي نساءه، فلا يبقى عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عنّي فاطمة ولا أحد من بنيّ، وكنت إذا سألته أجابني، وإذا سكتّ عنه وفنيت مسائلي ابتدأني.**

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١١ ص٣٨٦.

**فما نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله آية من القرآن إلاّ أقرأنيها وأملاها عليَّ، فكتبتها بخطّي وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه عليَّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي، كان أو يكون، ولا كتاب منزّل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلاّ علّمنيه وحفظته، فلم أنس حرفاً واحداً. ثمّ وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً.**

**فقلت: يا نبيّ الله ـ بأبي أنت وأُمّي ـ منذ دعوتَ الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفُتني شيء لم أكتبه، أفتتخوّف عليَّ النسيان فيما بعد؟**

**فقال: لا، لست أتخوّف عليك النسيان والجهل**»[1].

• عن يعقوب بن جعفر قال: «كنت مع أبي الحسن عليه السلام بمكّة، فقال له رجل إنّك لتنشر من كتاب الله ما لم نسمع به، فقال أبو الحسن عليه السلام: **علينا نزل قبل الناس، ولنا فسّر قبل أن يفسّر في الناس، فنحن نعرف حلاله وحرامه وناسخه ومنسوخه وسفريه وحضريه وفي أيّ ليلة نزلت، وفيمن نزلت وفيما نزلت...**»[2].

### الطريق الثاني: علمهم علم رسول الله صلى الله عليه وآله

تعدّدت النصوص الروائيّة الصحيحة السند لبيان هذه الحقيقة، وهي أنّ علمهم عليهم السلام هو علم النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله، نحاول

---

(١) **أصول الكافي**، مصدر سابق: ج١ص٦٤، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث،١.

(٢) **بصائر الدرجات**، مصدر سابق: ص٢١٨.

الإشارة لبعضها:

• عن إبراهيم بن مهزم الأسدي عن أبيه عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ أهل بيتي الهُداة بعدي أعطاهم الله فهمي وعلمي، وخُلقوا من طينتي، فويلٌ للمنكرين حقّهم من بعدي القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي**»(١).

• عن العلاء بن رزين عن محمّد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**أما والله إنّ في أهل بيتي من عترتي لهداة مهتدين من بعدي يعطيهم الله علمي وفهمي وحلمي وخلقي وطينتهم من طينتي الطاهرة، وويلٌ للمنكرين لحقّهم والمكذّبين لهم من بعدي القاطعين فيهم صلتي المستولين عليه والآخذين منهم حقّهم، ألا فلا أنالهم الله شفاعتي**»(٢).

• عن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**من أراد أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويدخل جنّة عدن التي غرسها الله ربّي بيده، فليتولّ عليّ بن أبي طالب وليتولّ وليّه وليعاد عدوّه، وليسلّم للأوصياء من بعده، فإنّهم عترتي من لحمي ودمي، أعطاهم الله فهمي وعلمي...**»(٣).

• عن محمّد بن مسلم قال: «سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: **نزل جبرئيل على محمّد صلّى الله عليه وآله برمّانتين من الجنّة، فلقيه عليّ عليه السلام فقال: ما هاتان الرمّانتان اللّتان في يدك؟ فقال: أمّا هذه فالنبوّة ليس لك فيها نصيب، وأمّا هذه فالعلم، ثمّ فلقها رسول الله صلّى الله عليه وآله بنصفين،**

---

(١) **بصائر الدرجات**، مصدر سابق: ص٦٨.

(٢) **بصائر الدرجات**: ص ٧٠

(٣) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٠٩، كتاب الحجّة، باب ما فرض الله ورسوله مع الكون مع الأئمّة، الحديث ٥.

**فأعطاه نصفها وأخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله نصفها، ثمّ قال: أنت شريكي فيه وأنا شريكك فيه. قال: فلم يعلم والله رسول الله صلّى الله عليه وآله حرفاً ممّا علّمه الله عزّ وجلّ إلاّ وقد علّمه عليّاً، ثمّ انتهى العلم إلينا ثمّ** وضع يده على صدره»(١).

ومن الواضح أنّ تعبير الإمام بأنّ الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله فَلَقَ إحدى الرمّانتين إلى نصفين، فأكل نصفاً وأطعم عليّاً عليه السلام نصفاً، لا يعني أنّ العلم الذي عند رسول الله صلّى الله عليه وآله لا يوجد عند الإمام علي عليه السلام كما هو ظاهر التعبير بأكل كلّ منهما نصفاً، بل إنّ الإمام يريد الإشارة إلى نكتة مهمّة وهي مساواة عليّ أمير المؤمنين مع رسول الله صلّى الله عليه وآله في العلم، كما هو واضح من ذيل الرواية، ونصوص أخرى في المقام، حيث سأل السائل: أصلحك الله كيف كان يكون شريكه فيه؟ قال عليه السلام: «**لم يعلّم الله محمّداً صلّى الله عليه وآله علماً إلاّ أمره أن يعلّمه عليّاً عليه السلام**»(٢).

فإذا ضممنا إلى ذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أُعطي جميع ما أعطي النبيّون وزيادة، يثبت بنحو لا مجال للريب فيه أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام هم أعلم من جميع الأنبياء والمرسلين.

• عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال لي: «**يا أبا محمّد إنّ الله عزّ وجلّ لم يعط الأنبياء شيئاً إلاّ وقد أعطاه محمّداً صلّى الله عليه وآله**»(٣).

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٣، كتاب الحجّة، باب أنّ الله عزّ وجلّ لم يعلّم نبيّه علماً إلاّ أمره أن يعلّمه أمير المؤمنين وأنّه كان شريكه في العلم، الحديث: ٣.

(٢) المصدر السابق، الحديث: ١.

(٣) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٢٥، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة =

• عن محمّد بن حمّاد عن أخيه أحمد بن حمّاد، عن إبراهيم عن أبيه، عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك أخبرني عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ورث النبيّين كلّهم؟ قال: نعم. قلت: من لدن آدم حتّى انتهى إلى نفسه؟ قال: **ما بعث الله نبيّاً إلاّ ومحمّد صلّى الله عليه وآله أعلم منه...**»[1].

في ضوء هذه الحقيقة تكاثرت النصوص الروائية وبصياغات مختلفة وألسنة متعدّدة لتصرّح بأنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام هم الأعلم مطلقاً، وأنّهم ورثوا علم الأنبياء السابقين ويوجد عندهم جميع كتبهم وصحفهم، منها:

• عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ جمع لمحمّد صلّى الله عليه وآله سنن النبيّين من آدم وهلم جرّا إلى محمّد صلّى الله عليه وآله.** قيل له: وما تلك السنن؟ قال: **علم النبيّين بأسره، وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله صيّر ذلك كلّه عند أمير المؤمنين عليه السلام.**

فقال له رجل: يا ابن رسول الله فأمير المؤمنين أعلم أم بعض النبيّين؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: **اسمعوا ما يقول؟ إنّ الله يفتح مسامع من يشاء، إنّي حدّثته أنّ الله جمع لمحمّد صلّى الله عليه وآله علم النبيّين وأنّه جمع ذلك كلّه عند أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يسألني أهو أعلم أم بعض النبيّين**»[2].

• عن ضريس الكناسي قال: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام

---

= ورثوا علم النبيّ وجميع الأنبياء والأوصياء، الحديث: ٥.

(١) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٦، الحديث: ٧.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٢، الحديث: ٦.

وعنده أبو بصير فقال: «**ورث سليمان داود وإنّا ورثنا محمّداً صلّى الله عليه وآله وإنّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى...**»(١).

• عن الحسين بن علوان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله خلق أولي العزم من الرُّسل وفضّلهم بالعلم وأورثنا علمهم وفضلهم، وفضّلنا عليهم في علمهم، وعلّم رسول الله صلّى الله عليه وآله ما لم يعلموا، وعلمنا علم الرسول صلّى الله عليه وآله وعلمهم**»(٢).

• عن عبد الله بن الوليد قال: «قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **أيّ شيء يقول الشيعة في عيسى وموسى وأمير المؤمنين عليهم السلام؟**

قلت: يقولون إنّ عيسى وموسى أفضل من أمير المؤمنين.

قال: فقال: **أيزعمون أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد علم ما علم رسول الله صلّى الله عليه وآله؟**

قلت: نعم، ولكن لا يقدّمون على أولي العزم من الرّسل أحداً.

قال أبو عبد الله عليه السلام: **فخاصمهم بكتاب الله.**

قال قلت: وفي أيّ موضع منه أُخاصمهم؟

قال: **قال الله تعالى لموسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ فعلمنا أنّه لم يكتب لموسى الشيء كلّه، وقال الله لعيسى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، وقال الله لمحمّد صلّى الله عليه وآله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾**»(٣).

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٥، الحديث: ٤.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٤٤٤، باب في أمير المؤمنين وأولي العزم أيّهم أعلم، الحديث: ٨٣٤.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٤٤٢، الحديث: ٨٣٣ .

• عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال لي: «**يا أبا محمّد إنّ الله عزّ وجلّ لم يعط الأنبياء شيئاً إلاّ وقد أعطاه محمّداً صلّى الله عليه وآله، قال: وقد أعطى الله محمّداً جميع ما أعطى الأنبياء، وعندنا الصحف التي قال الله عزّ وجلّ:** ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ قلت: جعلت فداك هي الألواح؟ قال: نعم»[1].

• عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه سأل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ ما الزبور وما الذِّكر؟ قال: «**الذِّكر عند الله، والزبور الذي أُنزل على داود، وكلّ كتاب نزل فهو عند أهل العلم، ونحن هم**»[2].

• عن محمّد بن الفضيل عن الثمالي عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: «قلت له: جُعلت فداك، الأئمّة يعلمون ما يضمر؟ فقال: **علمتُ والله ما علمت الأنبياء والرّسل**، ثمّ قال لي: **أزيدك**؟ قلت: نعم، قال: **ونزاد ما لم تزد الأنبياء**»[3].

وبهذا يتّضح معنى الروايات التي وردت في بيان الاسم الأعظم، حيث نصّت على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام لهم النصيب الأوفر من حقيقة هذا الاسم، وأنّه لا يدانيهم في ذلك أحد من الأوّلين والآخرين.

• عن فضالة بن أيّوب عن عبد الصمد بن بشير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**كان مع عيسى بن مريم حرفان يعمل بهما، وكان**

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٢٥، باب الحجّة، باب أنّ الأئمّة ورثوا علم النبيّ وجميع الأنبياء والأوصياء الذين من قبلهم، الحديث: ٥.
(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٥، الحديث: ٦.
(٣) **بصائر الدرجات**، مصدر سابق: ص٢٦٢.

**مع موسى أربعة أحرف، وكان مع إبراهيم ستّة أحرف، وكان مع آدم خمسة وعشرون حرفاً، وكان مع نوح ثمانية، وجمع ذلك كلّه لرسول الله صلّى الله عليه وآله، إنّ اسم الله ثلاثة وسبعون حرفاً وحجب عنه واحد»**(١).

• جاء في تفسير القمّي في ذيل قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ عن ابن أبي عمير عن ابن أُذينة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**الذي عنده علم الكتاب هو أمير المؤمنين عليه السلام**». وسُئل عن الذي عنده علم من الكتاب أعلم أم الذي عنده علم الكتاب؟

فقال: «**ما كان علم الذي عنده علمٌ من الكتاب عند الذي عنده علم الكتاب إلاّ بقدر ما تأخذ البعوضة بجناحها من ماء البحر**».

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ألا إنّ العلم الذي هبط به آدم من السماء إلى الأرض وجميع ما فضّلت به النبيّون إلى خاتم النبيّين في عترة خاتم النبيّين صلّى الله عليه وآله**»(٢).

• وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنّ اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وإنّما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلّم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس، ثمّ تناول السرير بيده ثمّ عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين، وعندنا نحن من الاسم اثنان وسبعون حرفاً، وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده، ولا حول ولا وقوّة إلاّ بالله العليّ العظيم**»(٣).

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ص٢٢٩.

(٢) **تفسير القمّي**، مصدر سابق: ج١ ص٣٦٧.

(٣) **بصائر الدرجات**، مصدر سابق: ص٢٢٨.

في ضوء ما سلف يتبيّن أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام هم أعلم من جميع الأنبياء والمرسلين ـ ما عدا نبينا صلّى الله عليه وآله ـ بمن فيهم الأنبياء أُولو العزم عليهم صلوات الله أجمعين.

## الطريق الثالث: حديث الثقلين

وقد تقدّم الكلام عنه في الفصل الأوّل وثبت أنّ أهل البيت عليهم السلام لهم علم بالكتاب بشكل موازٍ لعلم الكتاب الذي هو تبيان كلّ شيء.

## الخلاصة

١ ـ ينطلق الاستدلال على إثبات أفضليّة النبي صلّى الله عليه وآله على جميع الأنبياء.

وقد استدلّ على أفضليّته صلّى الله عليه وآله على جميع الأنبياء بعدّة أدلّة؛ منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الزمر: ١١ و ١٢).

وقد انطلق هذا الدليل من معنى الإسلام وهو التسليم لله تعالى بأعلى مراتبه.

٢ ـ وصف القرآن الكريم النبيّ صلّى الله عليه وآله بأنّه أوّل المسلمين، كما في الآية المتقدِّمة وغيرها من النصوص القرآنيّة.

٣ ـ إنّ المراد بالأوّلية التي وصف بها النبيّ صلّى الله عليه وآله في القرآن الكريم بأنّه «أوّل المسلمين» ليست هي الأوّليّة الزمانيّة، وإنّما هي أوّليّة رتبيّة، أي أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله أوّل الأنبياء رتبةً من حيث الطاعة والانقياد والعبوديّة والقُرب الإلهي، ومن هنا نجد أنّ القرآن الكريم لم يستعمل لفظ «العبد» بصورة مطلقة ومن دون تقييد إلاّ في الرسول الأكرم

صلّى الله عليه وآله كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)، وهذا بخلاف استعمال لفظ العبد في وصف غيره من الأنبياء فإنّه يذكر لفظ العبد مع ذكر اسم ذلك النبيّ كما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (ص: ٤٥)، ونحوها من الآيات، وهذا يكشف عن حيازته صلّى الله عليه وآله لأعلى مراتب العبوديّة لله تعالى. وهذا يدلّ على أفضليّته على جميع الأنبياء عليهم السلام.

٤ ـ إنّ أفضليّة النبيّ صلّى الله عليه وآله على جميع الأنبياء يدلّ على أعلميّته عليهم عليهم السلام، إذ الأعلميّة من أوضح مصاديق الأفضليّة، ولذا نجد أنّ الله تعالى يصف الكتاب الذي أُنزل على الرسول بأنّه المهيمن على جميع الكتب السماويّة السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨). وحيث أنّ كتاب كلّ نبيّ يمثّل الدرجة العلميّة لذلك النبيّ، يتّضح أنّ نبيّنا صلّى الله عليه وآله أعلم الأنبياء جميعاً.

٥ ـ أمّا أعلميّة أهل البيت عليهم السلام، فيمكن إثباتها من ثلاثة طرق:

**الطريق الأوّل**: أعلميّة أهل البيت عليهم السلام بالقرآن.

**الطريق الثاني**: أنّ علمهم عليهم السلام علم رسول الله صلّى الله عليه وآله.

**الطريق الثالث**: حديث الثقلين الذي أثبت أعلميّة أهل البيت عليهم السلام بالكتاب وبشكل موازٍ لعلم الكتاب الذي هو تبيان لكلّ شيء.

# الفصل الثالث

# حقيقة وماهيّة علم الإمام

لكي تتّضح حقيقة وماهيّة علم الإمام ينبغي الوقوف على عدد من المقدّمات المنهجيّة:

## المقدّمة الأولى: أنّ للأشياء ظاهراً وباطناً

استفاضت الروايات الواردة من الفريقين الدالّة على أنّ للقرآن ظهراً وبطناً، نذكر فيما يلي شطراً منها:

• عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «**ليس من القرآن آية إلاّ ولها ظهر وبطن، وما من حرف إلاّ وله تأويل**»(١).

• عن السكوني عن أبي عبد الله الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «... **فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنّه شافعٌ مشفّع وماحل مصدّق**» إلى أن قال: «**وله ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق...**»(٢).

• عن جابر قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء في تفسير القرآن فأجابني، ثمّ سألته ثانيةً فأجابني بجواب آخر، فقلت: جُعلت فداك، كنتَ أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟

فقال عليه السلام لي: **يا جابر إنّ للقرآن بطناً، وللبطن بطن وظهر، وللظهر**

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٣٣ ص١٥٥.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٣٧٤، كتاب الحجّة، باب من ادّعى الإمامة وليس لها بأهل، الحديث: ١٠.

**ظهر...»**(١).

• ما أخرجه ابن حبّان في صحيحه عن ابن مسعود أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: «**أُنزل القرآن على سبعة أحرف لكلّ آية منها ظهرٌ وبطن**»(٢).

• وعن الحسن قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**لكلّ آية ظهرٌ وبطن، ولكلّ حرف حدّ، ولكلّ حدّ مطلع**»(٣).

• وأخرج الديلمي من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً: «**القرآن تحت العرش له ظهر وبطن محاجّ العباد**»(٤).

• ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحّاك عن ابن عبّاس قال: «**إنّ القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون**»(٥).

من هنا وقع الكلام بين الأعلام في المراد من هذه النصوص التي دلّت على أنّ للقرآن ظهراً وبطناً، وقد وجد في مقام فهمها اتّجاهان.

توضيح ذلك: إنّ هذه النصوص جميعاً اشتركت في وصف القرآن بأنّ له باطناً بل بطوناً متعدّدة، ومن الواضح أنّ لذلك دلالة قاطعة على عمق القرآن كما ورد في حديث الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله حيث قال: «**وله ظهر وبطن، فظاهره حكمٌ وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق**».

---

(١) **تفسير العيّاشي**، مصدر سابق: ج١ ص٨٧.

(٢) **صحيح ابن حبان**، محمد بن حبان بن أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ: ج١ ص٢٧٦.

(٣) **فضائل القرآن**، القاسم بن سلام: ص٤٢؛ **الإتقان في علوم القرآن**، الإمام السيوطي، ت: ٩١١هـ، دار الفكر، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦: ج٢ ص٤٥٩، النوع ٧٧.

(٤) **الإتقان في علوم القرآن**: ج٢ ص٤٥٩، النوع: ٧٧.

(٥) المصدر السابق: ج٢ ص٤٦٠.

بيدَ أنّ السؤال الأساسي: «هذا العمق أهو من سنخ المعاني الذهنية والمفاهيم النظرية والفكريّة المستمدّة من اللّفظ، أم هي حقائق وراء اللّفظ لها استقلالها السنخي عن الألفاظ، وإن كان يمكن أن تكون ثَمَّ علاقة تركيبيّة من نوع مّا ما بين الاثنين؟

بتعبير آخر: ما هو منشأ هذا العمق، وما هو سرّ اختصاص القرآن بالبطون وتوافره على شموليّة المعنى؟ أيعود ذلك إلى كينونة القرآن وأنّه يتألّف من حقائق ذات مراتب متعدّدة تكمن وراء اللفظ، ولا يكون اللّفظ إلاّ التعبير الأخير عن تلك الحقائق أو قشرة اللّبّ، على ما رسمت المدرسة الوجوديّة، أم أنّ الذي ينشئ عمق القرآن وغور معانيه وثراء مفاهيمه وتعدّدها هو اللّفظ وكيفيّة استعماله وتركيبه، ومن ثمّ فإنّ البطون والمعاني المترتّبة على بعضها هي من مقولة المفاهيم والتأويلات الذهنية التي تنبثق عن دلالة اللّفظ وطبيعة التركيب أو ممّا يحتمله اللفظ القرآنيّ ويكون أحد مدلولاته، وتخضع عمليّة نيلها ووضع اليد عليها إلى بذل الجهد العقلي والنشاط الذهني التأويلي والاتّصاف بحدّة الذكاء وعمق التفكير وما إلى ذلك؟

الحقيقة أنّ البطون مسألة ثابتة في ضوء الاتّجاهين كليهما المعرفي والوجودي، وأنّ ما يختلف بينهما هو التفسير. فالاتّجاه المعرفي وما يتضمّنه من مدارس ينحصر تعاملها مع القرآن كنصّ وحسب، فترى أنّ النصّ هو الذي يحوي عدداً من المعاني والبطون والأغوار. وأمّا الاتّجاه الوجودي فيتعامل مع البطون بوصفها حقيقة كائنة وراء النصّ وخارجة عنه تنطوي على مراتب، فهنا مراتب وبطون، وهناك مراتب وبطون أيضاً، لكنّها في الاتّجاه الوجودي من سنخ الحقائق، أمّا في الاتّجاه المعرفي فالبطون من مقولة

المفاهيم والتأويلات الذهنيّة، والاختلاف بينهما ناجم عن نظرتهما لحقيقة القرآن»(١)، وكونه له مرتبة وجوديّة واحدة أو أكثر كما هو مقتضى ما تقدّم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف: ٣ ـ ٤).

وقد اختار جملة من الأعلام الاتّجاه الثاني.

قال القنوجي في أبجد العلوم: «ومن جملة ما علم من الشرائع أنّ مراد الله سبحانه من القرآن لا ينحصر في هذا القدر؛ لما قد ثبت في الأحاديث أنّ لكلّ آية ظهراً وبطناً. وذلك المراد الآخر لما لم يطّلع عليه كلّ أحد، بل من أُعطي فهماً وعلماً من لدنه تعالى، يكون الضابط في صحّته أن لا يرفع ظاهر المعاني المنفهمة عن الألفاظ بالقوانين العربيّة وأن لا يخالف القواعد الشرعيّة ولا يباين إعجاز القرآن ولا يناقض النصوص الواقعة فيها، فإن وجد فيه هذه الشرائط فلا يطعن فيه وإلاّ....»(٢).

أمّا الغزالي فبعد أن ذكر: «أنّ كشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة، لا مفتاح لها إلاّ المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالكلّية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات، وهي رحمةٌ من الله عزّ وجلّ تفيض على من يتعرّض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرّض وبحسب قبول المحلّ وطهارة القلب، وذلك البحر الذي لا يُدرك غوره ولا يبلغ ساحله»...

---

(١) **فهم القرآن، دراسة في ضوء المدرسة السلوكيّة**، تأليف: جواد علي كسّار، الناشر: مؤسّسة العروج ١٤٢٤هـ: ص٣٨٩.

(٢) **أبجد العلوم**، صديق بن حسن القنوجي، تحقيق عبد الجبّار زكار، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٨: ج٢ ص١٨٤.

قال: «فإن قلت: هذا الكلام يشير إلى أنّ هذه العلوم لها ظواهر وأسرار، وبعضها جليّ يبدو أوّلاً وبعضها خفيّ يتّضح بالمجاهدة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسرّ الخالي عن كلّ شيء من أشغال الدُّنيا سوى المطلوب، وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع، إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسرّ وعلن، بل الظاهر والباطن والسرّ والعلن واحدٌ فيه؟

فاعلم أنّ انقسام هذه العلوم إلى خفيّة وجليّة لا ينكره ذو بصيرة، وإنّما ينكره القاصرون الذين تلقّفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه، فلم يكن لهم ترقٍّ إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء، وذلك ظاهر من أدلّة الشرع.

قال صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً وحدّاً ومطلعاً**، وقال عليّ رضي الله عنه ـ وأشار إلى صدره ـ: **إنّ هاهنا علوماً جمّة لو وجدتُ لها حَمَلة**، وقال صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **ما حدّث أحد قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم إلاّ كانت فتنة عليهم**، وقال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣). وقال صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: «**إنّ من العلوم كهيئة العلم المكنون لا يعلمه إلاّ العالمون**»(١).

ثمّ قال في موضع آخر: «ومن زعم أن لا معنى للقرآن إلاّ ما ترجمه ظاهر التفسير، فهو مخبر عن حدّ نفسه، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنّه مخطئ في الحكم بردّ الخلق كافّة إلى درجته التي هي حدّه ومحطّه، بل الأخبار والآثار تدلّ على أنّ في معاني القرآن متّسعاً لأرباب الفهم، قال علي رضي الله عنه: **إلاّ أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن**. فإن لم يكن سوى الترجمة

---

(١) **إحياء علوم الدّين**، تصنيف الإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، المتوفّى سنة ٥٠٥هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ: ج١ ص٩٩.

المنقولة، فما ذلك الفهم؟ وقال عليّ كرّم الله وجهه: **لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب**. فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار، وقال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل حتّى يجعل للقرآن وجوهاً. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليتدبّر القرآن، وذلك لا يحصل بمجرّد تفسير الظاهر»[١].

والحاصل: «فهذه الأمور تدلّ على أنّ في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتّسعاً بالغاً، وأنّ المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه»[٢].

وقال الشيرازي: «وبهذا يتّضح أنّ القرآن ينقسم إلى سرّ وعلن، ولكلّ منهما ظهرٌ وبطن، ولبطنه بطن آخر إلى أن يعلمه الله، ولعلانيّته علانية أخرى إلى أن يدركه الحواسّ وأهلها. أمّا ظاهر علنه فهو المصحف المحسوس الملموس والرقم المنقوش الممسوس. وأمّا باطن علنه فهو ما يدركه الحسّ الباطن ويستثبته القرّاء والحفّاظ في خزانة محفوظاتهم كالخيال ونحوه، وهاتان المرتبتان من القرآن أوّليتان دنيويّتان، ممّا يدركه كلّ إنسان. وأمّا باطنه وسرّه فهما مرتبتان أخرويّتان لكلّ منهما درجات»[٣] حيث يصير إلى تعداد بعضها وذكر تقسيمات لبطون القرآن هي تعبير عن حقائق وجوديّة.

وقال الجنابذي: «اعلم أنّ مصاديق القرآن المحسوسة الطبيعيّة ظهوره، ومصاديق القرآن الروحانيّة بطونه. وباعتبار تعدّد المراتب الروحانيّة كليّاتها وجزئيّاتها، ذكر تعدّد البطون في الأخبار إلى سبعين ألفاً. ولّما كان المنزّل فيه

(١) المصدر السابق: ج١ ص٢٨٩.
(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٩٠.
(٣) **تفسير القرآن الكريم**، مصدر سابق: ج٧ ص٩٣.

لكلّ آية وأمثال المنزّل فيه جميعاً مصاديقها، وكان المنزّل فيه أظهر مصاديقها ورد أنّ لكلّ ظهر ظهراً، ولّما كان كلّ مرتبة من الروحانيّات بالنسبة إلى ذاتيّتها بطناً ورد أنّ لكلّ بطن بطناً»[(١)].

من هنا قال الغزالي: «لكلّ آية ستّون ألف فهم، وما بقي من فهمها أكثر». وقال آخرون: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومئتي علم، إذ كلّ كلمة علم، ثمّ يتضاعف ذلك إلى أربعة أضعاف، إذ لكلّ كلمة ظاهر وباطن وحدّ ومطلع.

وبالجملة: فالعلوم كلّها داخلة في أفعال الله عزّ وجلّ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها»[(٢)]. نعم «إنّما لكلّ عبد بقدر رزقه، فلا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين، وأمّا الاستقصاء فلا مطمع فيه»[(٣)].

وبهذا يمكن أن نقف على ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «**كتاب الله عزّ وجلّ على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق. فالعبارة للعوامّ، والإشارة للخواصّ، واللّطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء**»[(٤)].

- فالعبارة: «هي العبارات والنقوش الدالّة على المفاهيم العرفيّة

---

(١) **بيان السعادة في مقامات العبادة**، تأليف: العارف الشهير الحاج سلطان محمّد الجنابذي الملقّب سلطان علي شاه (١٢٥١ ـ ١٣٢٧هـ) مطبعة جامعة طهران، الطبعة: ١٣٨٥هـ: ج١ ص١٣.

(٢) **إحياء علوم الدّين**، مصدر سابق: ج١ ص٢٨٩.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٢٨٣.

(٤) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٨٩ ص١٠٣، كتاب القرآن، باب أنّ للقرآن ظهراً وبطناً، الحديث: ٨١.

الصادقة على المصاديق الحسّية الطبيعيّة، وهذه المرتبة للعوام الذين لا يتجاوز إدراكهم المحسوسات، بمعنى أنّ العوامّ محصور إدراكهم في هذه المرتبة، أو هذه المرتبة بشرط عدم انضمام الإشارات إليها مختصّة بهم، وإلاّ فصاحبو المراتب الأخر يشاركونهم في إدراك هذه المرتبة، ويمتازون عنهم بإدراك المراتب الأخر.

• والإشارة: هي دلالة المصاديق الحسّية وإشاراتها إلى المصاديق الروحانيّة، واللطائف الحاصلة في وجود المدرك. ولا يدرك هذه المرتبة من القرآن إلاّ الخواصّ الذين توجّهوا إلى الآخرة واشتغلوا بأنفسهم، فتذكّروا النشأة الأخرى من النشأة الأولى، وموجودات العالم الصغير من العالم الكبير.

• واللطائف: عبارة عن الدقائق التي يجدها الإنسان في وجوده من أنموذجات مصاديق العالم الكبير، وهذه المرتبة لأولياء الله الذين كان لهم قلب من حيث ولايتهم.

• والحقائق: عبارة عن مصاديق القرآن تماماً. وهذه المرتبة لمن تحقّق بها أو شاهدها وعاينها وهم الأنبياء عليهم السلام من حيث نبوّتهم أو الأولياء من حيث خلافتهم للأنبياء. فإنّ الوليّ من حيث ولايته لا توجّه له إلى الكثرات حتّى يتحقّق بها أو يشاهدها، وأمّا من حيث خلافته فله شأن النبيّ في التوجّه إلى الكثرات والتحقّق بها ومشاهدتها.

وكلّ من له المرتبة العليا فله المرتبة الدانية دون العكس، فصاحب الحقائق كان صاحب اللطائف والإشارات والعبارات أوّلاً، ثمّ صار صاحب الحقائق ثانياً»(١).

---

(١) **بيان السعادة في مقامات العبادة**، مصدر سابق: ج١ ص١٣.

والحاصل من هذه الجولة في المقدّمة الأولى أنّ البطون مراتب وجوديّة، ومن ثمّ فهي ليست من مقولة المفاهيم والأفكار النظريّة، وما دامت البطون من مقولة الغيب داخلة في المستور الغائب عنّا فلا مجال لإدراكها بالجدالات الكلاميّة ولا حتى بالقياسات الفلسفيّة والبراهين العقليّة.

لكن إذا كان النشاط الذهني والفعّاليّة العقليّة قاصرين عن التعاطي مع بطون القرآن بواقعها الوجودي الكامل، فإنّ ذلك لا يعني انسداد الطريق مطلقاً، بقدر ما يملي على الإنسان الارتقاء من طور في المعرفة أداته العقل إلى طور آخر أداته القلب. والوسيلة إليه التزكية وفكّ أواصر الارتباط المادّي، كما سنقف عليه في المقدّمات اللاحقة.

## المقدّمة الثانية: أقسام العلم

لا يسعنا في هذا المجال استيفاء بحث العلم وأقسامه، إذ هو موكول إلى دراسات مخصّصة، لكن بنحو الإجمال يمكن أن يقال: العلم هو حضور المعلوم لدى العالم، وينقسم قسمة حاصرة إلى قسمين:

**الأوّل**: **العلم الحصولي**: وهو حضور المعلوم عند العالم به من خلال صورته، فهو لا يدركه من خلال ذاته؛ بل عبر صورته الحاكية والكاشفة عنه، وهذا يعني وجود وسيط بين العالم والمعلوم الخارجي، فهو لا يحضر بنفسه لدى العالم ولا يشهده، بل يشاهد صورته الحاكية عنه، وهذا هو المصطلح عليه بالعلم الحصولي.

**الثاني**: **العلم الحضوري**: وهو حضور المعلوم لدى النفس بنفس وجوده الخارجي لا بصورته، كعلم الإنسان بنفسه، وكذلك علمه بالمدركات الوجدانية كالجوع والعطش والألم والحزن والفرح والحبّ

والبغض والأمن وما إلى ذلك، فهي كلّها من سنخ العلم الحضوري، ومن الواضح أنّ العلم بها وإدراكها لا يحتاج فيه إلى واسطة حاكية وكاشفة عنها، بل بمجرّد وجود أحدها في النفس يحصل العلم به مباشرةً، ويدفع بالإنسان نحو آثاره.

وإلى هذا المعنى أشار عدد من العلماء والباحثين:

قال الشيرازي: «كما أنّ العلم بالشيء قد يكون صورة ذهنيّة كما في علمنا بالأشياء الخارجة عنّا علماً عقليّاً، وذلك العلم لا محالة أمرٌ كلّي وإن تخصّصت بألف تخصّص، فكذلك قد يكون أمراً عينيّاً وصورة خارجيّة كما في علمنا بنفسنا وبصفاتها اللازمة، فإنّا ندرك ذواتنا بعين صورتنا التي نحن بها لا بصورة زائدة عليها، فإنّ كلّ إنسان يدرك ذاته على الوجه الذي يمتنع فيه الشركة، ولو كان هذا الإدراك بصورة حاصلة في نفسنا فهي تكون كلّية وإن كانت مجموع كليّات، جملتها تختصّ بذات واحدة، إذ مع ذلك لا يخرج نفس تصوّره عن احتمال الصدق على كثيرين»[(١)].

وقال السبزواري: «العلم حصولي وحضوري: والحصولي هو الصورة الحاصلة من الشيء عند العقل، والحضوري هو العلم الذي هو عين المعلوم لا صورته ونقشه، كعلم المجرّد بذاته أو بمعلوله كعلم الحقّ تعالى بمعلولاته عند المحقّقين، وليس بتصوّر ولا بتصديق لأنّ مقسمهما العلم الحصولي»[(٢)].

---

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة**، لمؤلّفه الحكيم الإلهي والفيلسوف الربّاني صدر الدّين محمّد الشيرازي مجدّد الفلسفة الإسلاميّة، المتوفّى سنة ١٠٥٠هـ دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة: ١٤١٠هـ: ج٦ ص١٥٥.

(٢) **عيون مسائل النفس**، آية الله حسن حسن زاده آملي، مؤسّسة انتشارات أمير كبير، عين رقم ٣٥ : ص٥١٩.

## مراتب العلم في القرآن

تؤكّد النصوص القرآنيّة على أنّ العلم ذو مراتب:

### المرتبة الأولى: العلم الحاصل من التقوى

دلّت على ذلك عدّة من الآيات القرآنيّة، قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ (الأنفال: ٢٩)، حيث أناطت التمييز بين الحقّ والباطل بالتقوى.

قال الطباطبائي: «الفرقان ما يفرق به بين الشيء والشيء، وهو في الآية ـ بقرينة السياق وتفريعه على التقوى ـ الفرقان بين الحقّ والباطل، سواء كان ذلك في الاعتقاد بالتفرقة بين الإيمان والكفر وكلّ هدى وضلال، أو في العمل بالتمييز بين الطاعة والمعصية وكلّ ما يرضي الله أو يسخطه، أو في الرأي والنظر بالفصل بين الصواب والخطأ، فإنّ ذلك كلّه ممّا تثمره شجرة التقوى»[1].

فإن قلت: الاستدلال بالطرق المنطقيّة للتمييز بين الحقّ والباطل ممّا يقوى عليه الكافر والمؤمن ويتأتّى من الفاسق والمتّقي، فما معنى نفيه تعالى العلم الحقّ والمرضيّ عن غير أهل التقوى، وجعله التذكّر والوصول إلى الحقّ خاصّاً بالمتّقين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ (غافر: ١٣)، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجًا﴾ (الطلاق: ٢).

قلت: اعتبار الكتاب التقوى في جانب العلم ممّا لا ريب فيه، غير أنّ ذلك ليس لجعل التقوى أو التقوى الذي معه التذكّر طريقاً مستقلاًّ لنيل الحقائق وراء الطريق الفكري النظري الذي يتعاطاه الإنسان تعاطياً لا مخلص له منه، إذ لو كان الأمر كذلك لغت جميع الاحتجاجات الواردة في

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٩ ص٥٦.

الكتاب العزيز على الكفّار والمشركين وأهل الفسق والفجور ممّن لا يتّبع الحقّ، ولا يدري ما هو التقوى والتذكّر، فإنّهم لا سبيل لهم على هذا الفرض إلى إدراك الحقّ وحالهم هذا الحال.

بل اعتبار التقوى لردّ النفس الإنسانيّة المدركة إلى استقامتها الفطريّة، ولا يتحقّق ذلك إلاّ إذا عدّل الإنسان قواه المختلفة تعديلاً يورد كلاًّ منها وسط الطريق المشروع لها، ومَلَكة الاعتدال في كلّ واحدة من القوى هي التي نسمّيها الخلق الفاضل كالحكمة والشجاعة والعفّة وغيرها.

ومن هنا يحدس اللبيب أنّ توغّل الإنسان في طاعة قوّة من قواه المتضادّة وإسرافه في إجابة ما تقترح عليه، يوجب انحرافه في أفكاره ومعارفه بتحكيم جميع ما تصدّقه هذه القوّة على ما يعطيه غيرها من التصديقات والأفكار وغفلته عمّا يقتضيه غيرها.

والحاصل: فإنّ المعارف الحقّة والمعارف النافعة لا تتمّ للإنسان إلاّ إذا صلحت أخلاقه وتمّت له الفضائل الإنسانيّة القيّمة، وهو التقوى»[1].

### المرتبة الثانية: العلم الذي يورث اليقين

هناك عدد وافر من النصوص القرآنيّة والروائيّة التي سلّطت الضوء على هذه المرتبة من العلم وبيان آثاره وخواصّه، حيث بيّنت أنّ من أهمّ آثاره هو حصول اليقين القرآني، وهو غير اليقين الاصطلاحي كما سيتّضح من هذه النصوص:

• قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٥). ومن الواضح أنّ هذه الآية سجّلت خصوصيّة

---

(١) المصدر السابق: ج٥ ص٢٦٧.

مهمّة لليقين الذي حظي به إبراهيم الخليل عليه السلام وهي أنّه يقين حصل عن طريق المشاهدة القلبيّة لحقائق ملكوت السماوات والأرض، وليس من طريق العلم الحصولي وحضور صورة المعلوم لدى الذهن.

أمّا ما هو الملكوت، فهذا ما سيأتي الحديث عنه لاحقاً.

• عن الوشاء عن أبي الحسن عليه السلام قال: سمعته يقول: «**الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسّم في الناس شيءٌ أقلّ من اليقين**»[(١)].

• عن أبي بصير قال: «قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **يا أبا محمّد الإسلام درجة**، قال قلت: نعم، قال: **والإيمان على الإسلام درجة**، قال قلت: نعم. قال: **والتقوى على الإيمان درجة**، قال قلت: نعم. قال: **واليقين على التقوى درجة**. قال قلت: نعم. قال: **فما أُوتي الناس أقلّ من اليقين، وإنّما تمسّكتم بأدنى الإسلام، فإيّاكم أن ينفلت من أيديكم**»[(٢)].

• عن إسحاق بن عمّار قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شابّ في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه.

فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: **كيف أصبحت يا فلان؟**

قال: أصبحت يا رسول الله موقناً.

فعجب رسول الله صلّى الله عليه وآله من قوله، وقال: **إنّ لكلّ يقين**

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص٥١، كتاب الإيمان والكفر، باب فضل الإيمان على الإسلام، الحديث: ٢.

(٢) المصدر السابق.

**حقيقة، فما حقيقة يقينك؟**

فقال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدُّنيا وما فيها، حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون وعلى الأرائك متّكئون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها مُعذَّبون مصطرخون وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لأصحابه: **هذا عبدٌ نوّر الله قلبه بالإيمان،** ثمّ قال له: **الزم ما أنت عليه.**

فقال الشابّ: ادعُ الله لي يا رسول الله أن أُرزق الشهادة معك.

فدعا له رسول الله صلّى الله عليه وآله فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبيّ صلّى الله عليه وآله فاستُشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر»[(١)].

قال المازندراني في ذيل هذا الحديث: «وينبغي أن يعلم أنّ السالك العارف الموقن الزاهد وإن كان في الدُّنيا بجسده، فهو في مشاهدة بعين بصيرته لأحوال الجنّة ودرجاتها وسعاداتها وأهلها، وأحوال النار ودركاتها وشقاوتها وأهلها، كالذين شاهدوا الجنّة بعين حسّهم وتنعّم أهلها وكالذين شاهدوا النار وعذاب أهلها، وهي مرتبة عين اليقين أو حقّ اليقين أو مرتبة علم اليقين على احتمال بعيد.

والحقّ أنّ الجواب بمرتبة عين اليقين أنسب، فقال رسول الله صلّى الله

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص٥٣، كتاب الإيمان والكفر، باب حقيقة الإيمان واليقين، الحديث: ٢.

عليه وآله بعدما سمع منه هذه الآثار والأمارات التي هي شواهد صدق على وجود حقيقة اليقين وغاية كماله فيه: (**هذا عبدٌ نوّر الله قلبه بالإيمان**) أُريد بالإيمان الإيمان الكامل»[(١)].

وحاصل ما تقدّم أنّ ما يلحظ من التركيز على اليقين الوارد في هذه النصوص، أنّه ليس هو من سنخ اليقين الحاصل من المفاهيم الذهنية والبراهين العقليّة المسمّى بالعلم الحصولي الذي يكون عرضة للشكّ والشبهات.

## الفرق بين اليقين القرآني واليقين الاصطلاحي

عند التأمّل في النصوص القرآنيّة والروائية آنفة الذِّكر، نجد أنّها تسجِّل فوارق مهمّة بين اليقين القرآني واليقين الاصطلاحي؛ من هذه الفوارق:

١ ـ إنّ اليقين الاصطلاحي يحصل من طريق المقدّمات الفكريّة والاستدلالات العقليّة. أمّا اليقين القرآني فإنّه لا يحصل إلاّ من خلال مشاهدة الملكوت بالرؤية القلبيّة ـ كما سيأتي.

٢ ـ إنّ اليقين القرآني لا مجال فيه للغفلة عن النتائج المترتّبة عليه، لذا بادر النبيّ صلّى الله عليه وآله بالسؤال عن علامة وحقيقة ذلك اليقين عندما ادّعاه ذلك الشابّ، فأجاب: بأنّه هو الذي أحزنه وأسهر ليله... إلخ، فلو كان ذلك اليقين ينفكّ عن الآثار المترتّبة عليه لما سأله النبيّ صلّى الله عليه وآله عن ذلك.

---

(١) **شرح جامع لأصول الكافي**، للمولى محمّد صالح المازندراني المتوفّى سنة ١٠٨١هـ مع تعاليق علميّة للعالم المتبحّر الحاجّ الميرزا أبو الحسن الشعراني، من منشورات المكتبة الإسلاميّة بطهران، سنة ١٣٨٥هـ عني بتصحيحه وتخريجه علي أكبر الغفّاري: ج٨ ص١٦٦.

أمّا اليقين الاصطلاحي فلا ملازمة بينه وبين الآثار المترتّبة عليه غالباً، وهذا ما تقرّره الآية المباركة: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٤)، فعلى الرغم من حصولهم على اليقين الاصطلاحي إلاّ أنّهم لم يؤمنوا بذلك، ممّا يكشف عن عدم ملازمة مثل هذا اليقين للآثار المترتّبة عليه.

٣ ـ إنّ اليقين القرآني لا مجال فيه للشكّ والريب والتزلزل، لأنّه لم يحصل من طريق الاستدلالات العقليّة والفكريّة، وإنّما هو بالمشاهدة وحضور نفس المعلوم لدى العالم، وهذا بخلاف اليقين الاصطلاحي فإنّه بمجرّد حصول خلل في بعض المقدّمات يحصل شكّ في النتائج المترتّبة على تلك المقدّمات.

قال الطباطبائي في مجال التمييز بين هذين النحوين من اليقين: «إنّ النظر في الآيات الآفاقيّة والمعرفة الحاصلة من ذلك نظر فكريّ وعلم حصوليّ، بخلاف النظر في النفس وقواها وأطوار وجودها والمعرفة المتجلّية منها، فإنّه نظر شهوديّ وعلم حضوريّ. والتصديق الفكري يحتاج في تحقّقه إلى نظم الأقيسة واستعمال البرهان، وهو باقٍ ما دام الإنسان متوجّهاً إلى مقدّماته غير ذاهل عنها ولا مشتغل بغيرها، ولذلك يزول العلم بزوال الإشراف على دليله وتكثر فيه الشبهات ويثور فيه الاختلاف.

وهذا بخلاف العلم الشهودي بالنفس وقواها وأطوار وجودها فإنّه من العيان، فإذا اشتغل الإنسان بالنظر إلى آيات نفسه وشاهد فقرها إلى ربّها وحاجتها في جميع أطوار وجودها، وجد أمراً عجيباً، وجد نفسه متعلّقة بالعظمة والكبرياء متّصلة في وجودها وحياتها وعلمها وقدرتها وسمعها وبصرها وإرادتها وحبّها وسائر صفاتها وأفعالها بما لا يتناهى بهاءً وسناءً وجمالاً وجلالاً وكمالاً من الوجود والحياة والعلم والقدرة وغيرها من كلّ

كمال»[1].

وبهذا يتبيّن أنّ درجات العلم والمعرفة متعدّدة، حيث تبدأ بالعلم الحصولي الفكري المصطلح عليه بعلم اليقين، وتنتهي عند أعلى المراتب التي هي حقّ اليقين.

ولعلّ في الآيات التالية ما يشير إلى هذه المراتب:

• قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

• وقال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

• وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

قال الطباطبائي في ذيل هذه الآيات الثلاث: «إنّ الله سبحانه لمّا ذكر قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، حيث بيّن أنّه يهدي المؤمنين إلى الحقّ، ثمّ ذكر لذلك شواهد ثلاثة يبيّن بها أقسام هدايته تعالى، وهي مراتب ثلاث مترتّبة:

**الأولى**: الهداية إلى الحقّ بالبرهان والاستدلال كما في قصّة الذي حاجّ إبراهيم في ربّه.

**الثانية**: الهداية إلى الحقّ بالإراءة والإشهاد كما في قصّة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٦ ص١٧١.

**الثالثة**: الهداية إلى الحقّ وبيان الواقعة بإشهاد الحقيقة والعلّة التي تترشّح منه الحادثة. وبعبارة أخرى: بإراءة السبب والمسبّب معاً، وهذا هو أقوى مراتب الهداية والبيان وأعلاها وأسناها»[(١)].

وهذا ما أشار إليه المحقّق الطوسي بقوله: «إنّ مراتب المعرفة بالله تعرف بملاحظة مراتب معرفة النار مثلاً، فإنّ لمعرفتها مراتب:

• أدناها معرفة من سمع أنّ في الوجود شيئاً يعدم كلّ شيء يلاقيه ويظهر أثره في كلّ شيء يُحاذيه، ويسمّى ذلك الموجود ناراً، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله معرفة المقلّدين الذين صدّقوا بالدِّين من غير وقوف على الحجّة.

• وأعلى منها مرتبة معرفة من وصل إليه دخان النار وعلم أنّه لابدّ له من مؤثّر، فحكم بذات لها أثر هو الدخان، ونظير هذه المعرفة في معرفة الله معرفة أهل النظر والاستدلال الذين حكموا بالبراهين القاطعة على وجود الصانع.

• وأعلى منها مرتبة معرفة من أحسّ بالنار بسبب مجاورتها، وشاهد الموجودات بنورها وانتفع بذلك الأثر. ونظير هذه المرتبة في معرفة الله معرفة المؤمنين المخلصين الذين اطمأنّت قلوبهم بالله وتيقّنوا أنّ الله نور السماوات والأرض كما وصف به نفسه.

• وأعلى منها مرتبةً معرفة من احترق بالنار بكليّته وتلاشى فيها بجملته. ونظير هذه المرتبة في معرفة الله معرفة أهل الشهود والفناء في الله، وهي الدرجة العليا والمرتبة القصوى، رزقنا الله الوصول إليها والوقوف عليها بمنّه وكرمه...»[(٢)].

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٥٩.

(٢) نقلاً عن **اللمعة البيضاء**، للتبريزي الأنصاري، تحقيق: هاشم الأنصاري، الطبعة =

وبهذا يتبيّن واحد من أهمّ أسباب تفاضل الأنبياء والمرسلين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (الإسراء: ٥٥)، و﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، فجميع الأنبياء وإن وصلوا إلى مقام اليقين القرآني إلاّ أنّهم يتفاوتون في درجات ومراتب هذا اليقين.

## طريق الوصول إلى اليقين القرآني

هنالك عدد من النصوص القرآنية تلتقي في تأكيد أنّ الطريق والسبيل الوحيد لتحقّق اليقين القرآني هو المشاهد القلبيّة لملكوت الأشياء، ومن أهمّ هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥)، حيث ربطت حصول اليقين برؤية الملكوت؛ لأنّ ملكوت كلّ شيء إنّما هو وجوده من جهة انتسابه إلى الله سبحانه وقيامه به، وهذا أمرٌ لا يقبل الشركة ويختصّ به سبحانه وحده. من هنا كان مشاهدة الملكوت يهدي الإنسان إلى التوحيد هداية قطعيّة.

والحاصل: أنّ هناك تلازماً بين رؤية الملكوت وحصول اليقين القرآني، فمن لامسَ وشاهد ملكوت الأشياء فقد وصل إلى مقام اليقين.

## أدوات رؤية الملكوت

من المعلوم أنّ الله تعالى زوّد الإنسان بأدوات وحواسّ يمكنه من خلالها رؤية الأشياء الظاهرة، فبالعين والأذن والسمع والشمّ واللمس يمكن له التمييز بين ظاهر الأمور المادّية. أمّا باطن وملكوت الأشياء فهي خارجة عن دائرة وقدرة الأدوات والحواسّ الظاهرة، إذ لا يمكن بهذه

---

= الأولى: ١٤١٨، مؤسّسة الهادي، قم: ص٤٤٢.

الحواسّ الظاهرة الاطّلاع على ملكوت وباطن الأشياء. وهذه الحقيقة سجّلتها جملة وافرة من روايات أهل البيت عليهم السلام.

ولعلّ من أوضح الروايات في المقام ما ورد في الخبر الطويل في المعراج عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام... إلى أن قال: «**فإذا أنا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيّب ولحم خبيث، وهم يأكلون الخبيث ويَدَعون الطيّب.**

**فسألت جبرئيل: مَن هؤلاء ؟**

**فقال: الذين يأكلون الحرام ويدعون الحلال من أُمّتك.**

**قال: ثمّ مررتُ بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل، يُقرض اللحم من أجسامهم ويُلقى في أفواههم.**

**فقلت: مَن هؤلاء يا جبرئيل؟**

**فقال: هم الهمّازون اللمّازون.**

**ثمّ مررتُ بأقوام ترضخ وجوههم ورؤوسهم بالصخر، فقلت: مَن هؤلاء يا جبرئيل؟**

**فقال: الذين يتركون صلاة العشاء.**

**ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوام يُقذف بالنار في أفواههم فتخرج من أدبارهم، فقلت: مَن هؤلاء؟**

**قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلونَ سعيراً.**

**ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوام يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر من عظم بطنه، فقلت: مَن هؤلاء يا جبرئيل؟**

**قال: فهم الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ، وإنّهم لبسبيل آل فرعون يُعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً،**

**يقولون: ربّنا متى تقوم الساعة، ولا يعلمون أنّ الساعة أدهى وأمرّ.**

**ثمّ مررتُ بنساء معلّقات بثديهنّ، فقلت: مَن هؤلاء يا جبرئيل؟**

**فقال: هنّ اللّواتي يورثن أموال أزواجهنّ أولاد غيرهم...»**[1].

ونحوها من الروايات لاسيما تلك النصوص الواردة في باب معراج الرسول صلّى الله عليه وآله الذي رأى فيه بواطن وحقائق الأشياء.

ومن الواضح بالوجدان أنّ حواسّ الإنسان الظاهريّة لا يمكن لها أن ترى باطن الأشياء وحقيقتها، إذن فما هي أدوات رؤية ملكوت وباطن الأشياء؟

والجواب: إنّ الله تعالى كما أعطى للإنسان هذه الحواسّ الظاهرة من العين والأُذن... كذلك زوّده تعالى بأدوات باطنيّة لرؤية باطن وحقيقة الأشياء، فأعطاه عيناً باطنيّة لرؤية باطن الأشياء، وسمعاً باطنيّة به يسمع باطن الأشياء، وشمّاً كذلك، وهكذا.

وهذه الحقيقة نلمسها بالوجدان، فالإنسان في حالة نومه يرى ويسمع ويشمّ ويضحك ويبكي، كلّ ذلك مع كون الحواس الظاهرة نائمة، وهذا خيرُ شاهد على أنّ للنفس قوى وحواسّ باطنة بها ترى وتسمع وتشمّ.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة جملة من العلماء والباحثين؛ قال السيّد حيدر الآملي: «اعلم أنّ الله تعالى خلق الإنسان جامعاً للعالمين، عالم الغيب وعالم الشهادة أو الملك والملكوت أو الأمر والخلق، إذ لا مشاحّة في الألفاظ. وأعطاه لمشاهدة كلّ عالم عيناً مناسبة لذلك العالم؛ فالعين التي هي لمشاهدة عالم الغيب سمّاها بالبصيرة لقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: ١٠٨)، والقلب والفؤاد والصدر عبارة عنها لقوله:

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٦ ص٢٣٩.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)، والعين التي هي لمشاهدة عالم الشهادة سمّاها بالبصر لقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨).(١)

## النصوص الدالة على وجود أدوات رؤية الملكوت

دلّت عدّة من النصوص القرآنيّة والروائيّة لإثبات هذه الحقيقة، نحاول الوقوف عند بعضها، لكن قبل ذلك لابدّ من الإشارة إلى مقدّمة حاصلها:

إنّ للقلب إطلاقات واستعمالات متعدّدة:

- فتارةً: يُطلق القلب ويُراد منه القلب الصنوبري وهو مضخّة الدم.
- وأُخرى: يُطلق ويُراد منه مركز التعقّل والتفكير، وهذا ما جاء في كلمات الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام في ذيل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (النحل: ١٠٦)، حيث قال: «إنّ القلب ـ وهو أمير الجوارح ـ الذي به يعقل ويفهم ويصدر عن أمره ورأيه»(٢). وهذا ما ورد عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام حيث فسّر القلب في قوله

---

(١) **تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضمّ في تأويل كتاب الله العزيز المحكم**، للسيّد حيدر الآملي، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه السيّد محسن الموسوي التبريزي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، مؤسّسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي: ج١ ص٢٧٠.

(٢) **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، تأليف: الفقيه المحدِّث الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي المتوفّى سنة ١١٠٤هـ تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ : كتاب الجهاد، باب الفروض على الجوارح، الحديث: ٢٠٢٢٤ ج١٥ ص١٧٠.

تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ (ق: ٣٧) بالعقل[١]. وهذا ما يفسّر لنا ما نسب إلى الشيخ ابن سينا من أنّ الإدراك للقلب وأنّ دخالة الدماغ في ذلك إنّما هو بمنزلة الآلة والوساطة[٢].

• وثالثة: يُطلق ويُراد به مركز المعارف غير الحسّية وغير العقليّة كما في قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ (الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤)، فالقرآن الكريم نزل على قلب النبيّ صلّى الله عليه وآله لا بقوّة العقل والاستدلال العقلي، وإنّما حصلت هذه المعارف للنبيّ صلّى الله عليه وآله بمشاهدته القلبيّة لتلك الحقائق.

وهذا المعنى من القلب هو حقيقة النفس الإنسانيّة التي نسب إليها القرآن الرؤية.

أمّا النصوص القرآنيّة فهي:

• قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

ومن الواضح أنّ الجنّ والإنس لهم أعين وآذان ظاهريّة ينظرون ويسمعون بها، ومع ذلك نجد القرآن الكريم يستنكر عليهم ويقول لهم أعين وآذان لكن لا يبصرون ولا يسمعون بها، وهذا يكشف عن أنّ ثمّة رؤية وسمعاً غير الرؤية والسمع الظاهريين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٩٨)، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ (النجم: ١١).

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: كتاب العقل والجهل: ج١ ص١٦.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٢ ص٢٢٥.

إذن هناك رؤية أخرى غير الرؤية المادّية التي يشترك فيها جميع البشر بما فيهم الكافر والفاسق، وتلك الرؤية هي الميزان الحقيقي لتمييز الناس. وهذا ما أكّده جملة من المحقّقين في هذا المجال؛ قال الطباطبائي: «إنّه تعالى يثبت في كلامه قسماً من الرؤية والمشاهدة وراء الرؤية البصريّة الحسّية، وهي نوع شعور في الإنسان يشعر بالشيء بنفسه من غير استعمال آلة حسّية أو فكريّة»[1].

لذا نجد أنّ الله تعالى يمدح إبراهيم وذرّيته الذين اصطفاهم لتوفّرهم على هذه الرؤية الباطنيّة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (ص: ٤٥).

وهذا المعنى يلتقي مع ما ذهب إليه اللغويّون من إطلاق البصر على الرؤية الظاهريّة التي تختلف عن البصيرة التي تطلق على الرؤية القلبيّة؛ قال الراغب الأصفهاني: «البصر يُقال للجارحة الناظرة نحو قوله: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ ويُقال لقوّة القلب المدركة: بصيرة وبصر نحو قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢)، وجمع البصر أبصار، وجمع البصيرة بصائر، ولا يقال للجارحة بصيرة»[2].

وبهذا يتّضح السبب في نسبة العمى إلى القلب في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحجّ: ٤٦)، ممّا يعني توفّر القلوب على أعين باطنيّة، وإذا عميت سوف يحجب الإنسان عن رؤية حقيقة الأشياء وملكوتها.

ومنه يتبيّن معنى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ (النجم: ١١)، فإنّ

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٨ ص٢٤٠.

(٢) **المفردات في غريب القرآن**، مصدر سابق: ص٤٩. مادّة «بصر».

الكذب وإن كان بحسب الاستعمال الغالب لا يُطلق إلاّ في مورد يكون خلاف الصدق بحسب القول والحديث الذي يلفظه اللسان، إلاّ أنّه ـ في الواقع ـ قد يُطلق ويُراد منه أيضاً مطلق خطأ القوّة المدركة، سواء كان ذلك باللِّسان أو بغيره. والمراد من الرؤية هنا هي مشاهدة العيان، ولا بدع في نسبة هذه الرؤية إلى الفؤاد لما مرّ أنّ للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بإحدى الحواسّ الظاهرة والتخيّل والتفكّر بالقوى الباطنة، كما أنّنا نشاهد من أنفسنا أنّنا نرى، وليست هذه المشاهدة العيانيّة إبصاراً بالبصر ولا معلوماً بفكر.

• قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ (طه: ١٢٤ ـ ١٢٦)، وهو واضح الدلالة في نسبة الذِّكر إلى القلب لا إلى العين الظاهريّة، لأنّ الذِّكر والغفلة ليسا من وظائف العين الظاهريّة، وإنّما وظيفتها الرؤية البصريّة. وعلى هذا فهي تشير إلى أنّ القلب الذاكر هو القلب البصير، أمّا القلب الغافل فهو قلبٌ أعمى.

وممّا يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾، فلو كان المراد بالعمى هو عمى العين الظاهريّة لكان من المناسب أن يكون التعبير في الجواب: «أتتك آياتنا ولم ترها» وليس التعبير بـ ﴿أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ لأنّ النسيان لا يصحّ أن يُنسب إلى العين الظاهريّة إلاّ على وجه بعيد.

قال الآملي في ذيل هذه الآيات: «ومعلوم أنّ بين الذِّكر والعين الباصرة ليست مناسبة بوجه من الوجوه، فالمراد بها العين القلبيّة، وبالذِّكر المعرفة الحاصلة من المشاهدة كشفاً وشهوداً، وذلك لأنّ الإعراض عن ذكر الله لا يمكن بالعين الباصرة لعدم المناسبة، وكذلك النسيان المنسوب إليها، فإنّ

النسيان من عوارض القلب وعماه كما هو الذِّكر من خواصّه ولوازمه»[(١)].

وقال الطباطبائي معلِّقاً على قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾: يسبق إلى الذهن أنّ عمى يوم القيامة يتعلّق ببصر الحسّ، فإنّ الذي يسأل عنه هو ذهاب البصر الذي كان له في الدُّنيا وهو بصر الحسّ دون بصر القلب الذي هو البصيرة، فيشكل عليه ظاهر ما دلّ على أنّ المجرمين يبصرون يوم القيامة أهوال اليوم وآيات العظمة والقهر كقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ (الم السجدة: ١٢)[(٢)].

• قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧)، وهي واضحة الدلالة في أنّ الختم هو على السمع والبصر الباطني لا الظاهري، لأنّ الحواسّ الظاهريّة من السمع والبصر لا توجد فيها غشاوة وختم. وهذا يكشف عن وجود أدوات باطنيّة غير الأدوات الظاهريّة.

• قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، حيث أشارت إلى وجود نوعين من النور:

أحدهما: النور الظاهري المادّي الذي بواسطته يمكن الذي رؤية الأشياء المادّية.

والثاني: هو النور الباطني الذي يكون سبباً لإخراج الإنسان من

---

(١) **تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضمّ**، مصدر سابق: ج١ ص٢٧٤.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٤ ص٢٢٦.

الظلمات.

وعلى هذا فالآية ترمي إلى القول بأنّ الإنسان الكافر يعيش في ظلمات، لكن ليست الظلمات المادّية الظاهريّة، لأنّ الكافر في هذه الدُّنيا يستفيد وينتفع من هذه الأنوار المادّية كما هو واضح، إذن المراد بالظلمات التي يعيش فيها الإنسان الكافر هي ظلمات الباطن، أمّا الإنسان المؤمن الذي فتح الله بصيرته وقلبه، فهو يتمتّع بالنور الباطني المعنوي، وهي الحياة التي يريدها القرآن الكريم للإنسان في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال: ٢٤)؛ أي الحياة المعنويّة الباطنيّة لا الحياة الحيوانيّة التي يشترك فيها مع الأنعام.

وعلى هذا فقد يكون الإنسان حيّاً بالحياة الحيوانيّة إلاّ أنّه ميّت من جهة الحياة المعنويّة الباطنيّة. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧)، وهي دالّة على أنّ الله سبحانه يكرم المؤمن الذي يعمل صالحاً بحياة جديدة غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامّة، وليس المراد تغيير صفة الحياة فيه وتبديل الخبيثة من الطيّبة مع بقاء أصل الحياة على ما كانت عليه، ولو كان كذلك لقيل: فلنطيّبن حياته. فالآية نظيرة لقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ (الأنعام: ١٢٢)، وتفيد ما يفيده من تكوين حياة جديدة غير الحياة السابقة.

وليس ذلك «من التسمية المجازيّة لأنّ الآيات المتعرّضة لهذا الشأن ترتّب عليها آثار الحياة الحقيقيّة كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ (المجادلة: ٢٢)، وكقوله في الآية السابقة: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ

نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾، فإنّ المراد بهذا النور العلم الذي يهتدي به الإنسان إلى الحقّ في الاعتقاد والعمل معاً.

وكما أنّ له من العلم والإدراك ما ليس لغيره، كذلك له من موهبة القدرة على إحياء الحقّ وإماطة الباطل ما ليس لغيره. وهذا العلم والقدرة الحديثان يمهّدان له أن يرى الأشياء على ما هي عليها فيقسمها قسمين: حقّ باقٍ وباطل فانٍ، فيعرض بقلبه عن الباطل الفاني الذي هو الحياة الدُّنيا بزخارفها الغارّة الفتّانة، ويعتزّ بعزّة الله، فلا يستذلّه الشيطان بوساوسه ولا النفس بأهوائها وهوساتها ولا الدُّنيا بزهوتها لما يشاهد من بطلان أمتعتها وفناء نعمتها.

وليست هذه الحياة الجديدة المختصّة بمنفصلة عن الحياة القديمة المشتركة وإن كانت غيرها، فإنّما الاختلاف بالمراتب لا بالعدد، فلا يتعدّد بها الإنسان، كما أنّ الروح القدسيّة التي يذكرها الله سبحانه للأنبياء لا توجب لهم إلاّ ارتفاع الدرجة دون تعدّد الشخصيّة»[1].

وهذه الحقيقة سجّلها عليّ أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**وآخر قد تسمّى عالماً وليس به، فاقتبسَ جهائل من جهّال، وأضاليل من ضلاّل، ونصَب للناس شركاً من حبائل غرور وقول زور**».

إلى أن يقول عليه السلام: «**فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتّبعه ولا باب العمى فيصدّ عنه، وذلك ميّت الأحياء**»[2].

وهناك آيات أخرى تشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ العمى كما قد يصيب العين الظاهريّة فإنّه قد يصيب عين القلب التي هي البصيرة كقوله

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٢ ص٣٤٢.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق: الخطبة ٨٧ ـ في بيان صفات المتّقين وصفات الفسّاق.

تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ (الرعد: ١٦)، وقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ (الرعد: ١٩)، وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود: ٢٤)، ونحوها من الآيات.

والحاصل أنّ هذه الآيات وكثير غيرها تؤكّد هذه الحقيقة، وهي أنّه كما يوجد للإنسان بصر وسمع وشمّ ظاهري، كذلك يوجد عند الإنسان بصر وسمع وشمّ باطني.

أمّا على مستوى النصوص الروائيّة، فأيضاً هناك عدد وافر من الروايات أثبتت بصراحة وجود أدوات وحواسّ باطنيّة للإنسان لرؤية ملكوت وباطن الأشياء، منها:

• عن ابن أبي عمير عن حمّاد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**ما من قلب إلاّ وله أُذنان، على إحداهما مَلكٌ مرشد وعلى الآخر شيطانٌ مفتن، هذا يأمره وهذا يزجره. الشيطان يأمره بالمعاصي والملك يزجره عنها، وهو قول الله عزّ وجلّ:** ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٧، ١٨)».(١)

• عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**ما من مؤمن إلاّ ولقلبه أذنان في جوفه، أذن ينفث فيها الوسواس الخنّاس، وأذن ينفث فيها الملك، فيؤيّد الله المؤمن بالملك، فذلك قوله:** ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٢)».(٢)

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص٢٦٦، كتاب الإيمان والكفر، باب أنّ للقلب أذنين.. الحديث: ١.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٢٦٧، الحديث: ٣.

• عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال في حديث طويل: «**ألا أنّ للعبد أربع أعين: عينان يُبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يُبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللّتين في قلبه فأبصر بهما الغيب في أمر آخرته، وإذا أراد غير ذلك ترك القلب بما فيه**»(١).

• وأخرج أحمد بن حنبل في مسنده بإسناده عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **ليلة أُسري بي... فلمّا نزلت إلى السماء الدُّنيا نظرت أسفل منّي فإذا أنا برهج ودخان وأصوات. فقلت: ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكّروا في ملكوت السماوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب**»(٢).

• عن سلام بن المستنير قال: «قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: إنّ أصحاب محمّد صلّى الله عليه وآله قالوا: يا رسول الله نخاف علينا النفاق، قال: فقال: ولِمَ تخافون ذلك؟ قالوا: إذا كنّا عندك فذكّرتنا ورغّبتنا وجِلنا ونسينا الدُّنيا وزهدنا حتّى كأنّا نعاين الآخرة والجنّة والنار ونحن عندك، فإذا خرجنا من عندك ودخلنا هذه البيوت وشممنا الأولاد ورأينا العيال والأهل يكاد أن نحوّل عن الحال التي كنّا عليها عندك، وحتّى كأنّا لم نكن على شيء. أفتخاف علينا أن يكون ذلك نفاقاً؟ فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وآله: **كلاّ إنّ هذه خطوات الشيطان فيرغّبكم في الدُّنيا، والله لو تدومون على الحالة التي وصفتم أنفسكم بها لصافحتكم الملائكة ومشيتم على الماء**»(٣).

---

(١) **الخصال**، للصدوق، مصدر سابق: ص٢٤٠.

(٢) **مسند أحمد بن حنبل**: ج٢ ص٣٥٣، نقلاً عن **تفسير المحيط الأعظم**، مصدر سابق: ج١ ص٢٧٢، الحاشية رقم: ٤٩.

(٣) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص٤٢٣، كتاب الإيمان والكفر، باب في تنقّل أحوال القلب، الحديث: ١.

• عن إسحاق بن عمّار قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**يا إسحاق خف الله كأنّك تراه وإن كنت لا تراه فإنّه يراك. فإن كنت ترى أنّه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنّه يراك ثمّ برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك**»(١).

قال المجلسي توضيحاً لهذا الحديث: «اعلم أنّ الرؤية تُطلق على الرؤية بالبصر وعلى الرؤية القلبيّة، وهي كناية عن غاية الانكشاف والظهور. والمعنى الأوّل هنا أنسب أي خف الله خوف من يشاهده بعينه وإن كان محالاً، ويحتمل الثاني أيضاً فإنّ المخاطب لمّا لم يكن من أهل الرؤية القلبيّة ولم يرتق إلى تلك الدرجة العليّة فإنّها مخصوصة بالأنبياء والأوصياء عليهم السلام، قال: **كأنّك تراه**. وهذه مرتبة عين اليقين وأعلى مراتب السالكين»(٢).

• عن ثابت بن دينار قال: سألت زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام عن الله جلّ جلاله، هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى عن ذلك.

قلت: فلمّا أسرى بنبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله إلى السماء؟ قال: **ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعه وبدايع خلقه.**

قلت: فقول الله عزّ وجلّ: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾ (النجم: ٨، ٩)؟

قال: **ذاك رسول الله صلّى الله عليه وآله دنا من حُجب النور فرأى ملكوت السماوات، ثمّ تدلّى صلّى الله عليه وآله فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض...**»(٣).

---

(١) **أصول الكافي**: ج٢ ص٦٨، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، الحديث: ٢.

(٢) **مرآة العقول**، مصدر سابق: ج٨ ص٣٢.

(٣) **علل الشرائع**، أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي، المكتبة =

• ما روي مكرّراً بألفاظ مختلفة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في حديث الإسراء أنّه قال: «**فكان توفيقاً من ربّي عزّ وجلّ أن غمضت عيني وكلّ بصري وغشي عنّي النظر، فجعلت أبصر بقلبي كما أبصر بعيني، بل أبعد وأبلغ، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾** (النجم: ١٧ـ١٨)».(١)

وغير ذلك من الروايات المتضافرة التي تؤكّد هذه الحقيقة التي انتهينا إليها في البحث القرآني، وهي توفّر الإنسان على أدوات وحواسّ باطنيّة لرؤية باطن وملكوت الأشياء.

## المقدّمة الثالثة: شرائط وموانع رؤية الملكوت

بعد أن تبيّن أنّ الملكوت هو الوجه الآخر لعالم الشهادة، وهو الجانب الغيبي للعالم الذي هو بيده سبحانه؛ لقوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس: ٨٣)، وهو المعبَّر عنه بغيب السماوات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٣٣). واتّضح أيضاً أنّ رؤية الملكوت ليست رؤية بصريّة بالعين المادّية، بل هي رؤية البصيرة والفؤاد والقلب...

نقول إن هذا النوع من الرؤية وإن اختلف عن الرؤية المتحقّقة بالعين المادّية من جهة، إلاّ أنّه يتّفق معها في جهة أخرى، وهي أنّه كما يجب في تحقّق الرؤية البصريّة توفّر شروطها من صحّة العين وسلامتها وقابليّتها على

= الحيدريّة، النجف الأشرف: ج١ ص١٣١.

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج١٨ ص٣٩٥، تاريخ نبيّنا، باب إثبات المعراج، الحديث: ١٠٠.

الإبصار، مضافاً إلى عدم وجود الموانع الخارجيّة والحواجز المانعة للبصر من رؤية الشيء، فكذلك رؤية البصيرة لابدّ من توفر تلك الشروط فيها أيضاً، كوجود القابليّة على الرؤية وعدم وجود الموانع منها.

لكن ينبغي أن لا نغفل عن فارق أساسي بين الرؤيتين، هو أنّ شروط الرؤية المادّية ومقوّماتها وكذلك موانعها وحجبها مادّية، أمّا الرؤية غير المادّية فشروطها ومقوّماتها غير مادّية أيضاً، وهكذا غير الرؤية من السمع والنطق والشمّ ونحوها، لوجوب المسانخة والمجانسة والمشاكلة بين الأشياء.

قال الآملي: «فكما أنّ العين التي هي لمشاهدة الشهادة وشأنها الرؤية والمشاهدة، لم يتمكّن من رؤيتها ومشاهدتها إلاّ إزالة الموانع ورفع الحجاب بينها وبين مرئيّاتها، وحصول نور آخر مضافاً إليها كنور الشمس أو نور القمر أو الكواكب أو النار وأمثال ذلك؛ فكذلك العين التي هي لمشاهدة عالم الغيب، فإنّها وإن كانت من شأنها رؤية ذلك العالم ومشاهدته، لكن لم يمكن منها إلاّ بعد إزالة الموانع ورفع الحجاب بينها وبين ذلك العالم، وحصول نور آخر مضافاً إليها كنور الحقّ أو نور القدس أو الروح الأعظم أو العقل الكلّي، لقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥)، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠)».[(١)]

من هنا لابدّ من الوقوف ـ ولو بالقدر الذي يلامس بحثنا ـ على أهمّ الشرائط والموانع التي أشار إليها القرآن الكريم في هذا المجال.

---

(١) **تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم**، مصدر سابق: ج١ ص٢٧١.

## موانع رؤية الملكوت

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤)، حيث أشارت الآية إلى أنّ المعاصي والذنوب لها تأثير في النفس بنحو تؤدّي إلى إيجاد الرَّين والصدأ، فيكون مانعاً لها عن أن تدرك حقائق الأشياء كما هي عليها. وهذا ما أكّدته النصوص الروائيّة في ذيل هذه الآية المباركة.

عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال قال: «**ما من عبد إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد حتّى يغطّي البياض، فإذا تغطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**»[1].

ثمّ أشار القرآن إلى بعض المصاديق التي تؤدّي إلى عمى القلب والبصيرة:

• منها: الكفر بالله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿... مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (النحل: ١٠٦ ـ ١٠٨)، حيث وصفت الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم بأنّهم «الغافلون» ومنه يتّضح بأنّ الغفلة عن الله سبحانه وآياته وأحكامه يوجب العمى القلبي. وهذا ما تقدّمت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ (الأعراف: ١٧٩).

• ومنها: متابعة الهوى، قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ**

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص٢٧٣، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، الحديث: ٢٠.

عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ (الجاثية: ٢٣).

• ومنها: الفساد في الأرض وقطيعة الرّحم، قال عزّ اسمه: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (محمّد: ٢٢ ـ ٢٣)، يستفاد من هذه الآية المباركة أيضاً أنّ سبب العمى ليس هو قطيعة الرحم والفساد في الأرض فحسب، بل إنّ عمى الأبصار متفرّع على لعنة الله تعالى، فكلّ من لعنه الله تعالى فقد أعمى بصره وأصمّ سمعه، والملعونون في القرآن الكريم كُثر لا يسعنا استقصاؤهم في هذه العجالة.

## شرطيّة الطهارة لرؤية الملكوت

بيّن القرآن الكريم معنى الطهارة بشكل واضح، منطلقاً من خلال مقابلتها للرجس كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وفي الوقت ذاته سلّط القرآن الضوء على معنى الرجس ومراتبه الشاملة للرجس المادّي والمعنوي، على هذا الأساس فإنّه لكي نقف على الطهارة ومراتبها لابدّ من الإشارة إلى معنى الرجس ومراتبه في القرآن.

## الرجس لغة

الرجس في اللغة: الشيء القذر؛ جاء في القاموس: «الرجس ـ بالكسر ـ: القذر، ويحرّك ـ وتفتح الراء وتكسر الجيم ـ والمأثم وكلّ ما استقذر من العمل، والعمل المؤدّي إلى العذاب والشكّ والعقاب والغضب...»[1].

(١) **القاموس المحيط**، مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ: ج٢ ص٣١٨.

ونحو ذلك في لسان العرب[١]. ومثله ما ورد في تاج العروس[٢].

وقال الآلوسي في «روح المعاني»: «والرجس في الأصل الشيء القذر، وقيل: يقع على الإثم، وعلى العذاب، وعلى النجاسة، وعلى النقائص. والمراد هنا ما يعمّ ذلك»[٣].

وقال الطباطبائي في «الميزان»: «فالرجس: الشيء القذر ـ على ما ذكره الراغب في مفرداته ـ فالرجاسة ـ بالفتح ـ كالنجاسة، والقذارة هو الوصف الذي يبتعد ويُتنزّه عن الشيء بسببه لتنفّر الطبع عنه»[٤].

وقال ابن عاشور في «التحرير والتنوير»: «والرجس: الخبث المستقذر والمكروه من الأمور الظاهرة، ويطلق على المذمّات الباطنة»[٥].

## مراتب الرجس في القرآن

هناك عدد من النصوص القرآنيّة كشفت النقاب عن أنّ الرجس له مراتب متعدّدة؛ مادّية ومعنويّة.

أمّا المادّية فهو ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ (الأنعام: ١٤٥)، وهي واضحة الدلالة على المرتبة المادّية من الرجس.

---

(١) **لسان العرب**، للعلاّمة ابن منظور، ٦٣٠ ـ ٧١١ هـ دار إحياء التراث العربي، بيروت، نسّقه وعلّق عليه ووضع فهارسه: علي شيري، الطبعة الأولى ١٩٨٨ : ج٥ ص١٤٧.

(٢) **تاج العروس من جواهر القاموس**، تأليف: السيّد محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: محمود محمّد الطناحي، راجعه: مصطفى حجازي وعبد الستار أحمد فراج، ١٩٧٦ : ج١٦ ص١١٤.

(٣) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج٢٢ ص١٢.

(٤) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٦ ص١٢٠.

(٥) **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور التونسي**، مصدر سابق: ج٥ ص١٩٧.

وأمّا المعنويّة، فقد بيّن القرآن أنّ هناك مصاديق كثيرة للرجس المعنوي:

• قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، فهي ونظائرها تشير إلى المرتبة الباطنيّة المعنويّة للرجس؛ لأنّ الضلال ونتائجه وأسبابه أمور باطنيّة معنويّة.

• وقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ (الحج: ٣٠)، وواضح أنّ الأوثان بنفسها لا رجس فيها، وإنّما الرجس والقذارة في عبادتها دون الله تعالى، وهي من الأمور الباطنيّة المعنويّة أيضاً.

• وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٠٠)؛ حيث جعلت الشكّ والرّيب المؤدّيين إلى الضلال وعدم الإيمان بالله تعالى رجساً يجعله على الذين لا يعقلون.

• وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ (التوبة: ١٢٥)؛ حيث أشارت إلى حقيقة أخرى عدا كون الشكّ والنفاق رجساً، وهي أنّ الرجس ليس كلّه بمرتبة واحدة، بل هو من الأمور المتفاوتة ذي المراتب المختلفة بالزيادة والنقصان، بحسب القبائح والنقائص التي يتلبّس بها الإنسان.

• وقال: ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ (الأنفال: ١١)؛ حيث جعلت المنافق نفسه رجساً وذلك لما تلبّس به من النفاق.

وغير ذلك من النصوص القرآنيّة التي تشاركها في المضمون ذاته، والتي تؤكّد أنّ الرجس شامل للأمور المادّية والمعنويّة من الملكات والاعتقادات الباطلة والأخلاق ونحوها.

## مراتب الطهارة في القرآن

بعد هذه الجولة السريعة التي استعرضنا فيها مراتب الرِّجس في القرآن، نعطف الكلام للوقوف على مراتب الطهارة وحقيقتها من خلال أنّها وقعت في قِبال الرِّجس، من هنا سيكون للطهارة مراتب متعدّدة مادّية ومعنويّة أيضاً بحكم قانون المقابلة والضدّية بينهما.

وهذا ما أشارت إليه الآيات بشكل واضح:

• قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ (المائدة: ٦)، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ (المائدة: ٦)، حيث يشير بوضوح إلى المرتبة الظاهريّة من الطهارة.

• وقال: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ (المائدة: ٦). ومن الواضح أنّ المراد بالطهارة من خلال المسح بالتراب هي الطهارة المعنويّة، لأنّ الطهارة الظاهريّة لا تتحقّق بالمسح بالتراب.

• وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٤)، وهي مرتبة من الطهارة المعنويّة، لأنّ التعلّق بالأموال هو مرتبة من مراتب الرِّجس؛ لذا قال تعالى: ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ (المجادلة: ١٢).

وغير ذلك من الآيات التي تشاركها في بيان مراتب الطهارة.

## الطهارة القلبيّة أعلى مراتب الطهارة

والمقصود من ذلك هو طهارة القلب من التوجّه عن كلّ ما سوى الله تعالى، وقد وصف الله تعالى قلب إبراهيم الخليل عليه السلام بهذه المرتبة من الطهارة حيث قال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

(الصافّات: ٨٣ ـ ٨٤).

• عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٩) قال: «**القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحدٌ سواه**»(١).

• وكذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام في ذيل قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: ٢١)، حيث قال: «**يطهّرهم عن كلّ شيء سوى الله**»(٢).

وهذه المرتبة من الطهارة لا تنطبق إلاّ على الصنف الثالث من العباد الذين يعبدون الله تعالى لا خوفاً ولا طمعاً، وإنّما لأنّه أهلٌ للعبادة، كما في الحديث المشهور: «**إنّ الناس يعبدون الله عزّ وجلّ على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبةً في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء، وهو الطمع، وآخرون يعبدونه فَرَقاً من النار فتلك عبادة العبيد، وهي رهبة، ولكنّي أعبده حبّاً له عزّ وجلّ، فتلك عبادة الكرام وهو الأمن؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾** (النمل: ٨٩)، **ولقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾** (آل عمران: ٣١)**؛ فمن أحبَّ الله عزّ وجلّ أحبّه الله، ومن أحبّه الله كان من الآمنين**»(٣).

بعد أن اتّضح معنى الطهارة وأنّها ممتدّة لتشمل ضروب الطهارة المادّية

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص١٦، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، الحديث: ٥.

(٢) **تفسير الصافي**، الفيض الكاشاني، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ مؤسسة الهادي، قم المقدسة: ج٥ ص٢٦٥.

(٣) **تسنيم: تفسير القرآن الكريم**، المفسّر الحكيم آية الله جوادي آملي (بالفارسيّة) : ج١ ص٤٥.

والمعنويّة بمراتبها المختلفة بما فيها الطهارة القلبيّة، نتساءل عن الدليل الذي يشترط تحقّق الطهارة المعنويّة بمراتبها لرؤية ملكوت وباطن الأشياء.

لعلّ أوضح النصوص القرآنيّة التي تتضمّن الدلالة على شرطيّة الطهارة في الرؤية والمشاهدة القلبيّة هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩).

توضيحه: تقدّم أنّ المراد من «المكنون» هو المحفوظ والمصون عن التغيير والتبديل، وهذا الكتاب هو باطن وملكوت القرآن الكريم الذي فيه تبيان كلّ شيء. واتّضح أيضاً أنّ من خصائص هذا الكتاب أنّه لا يمكن أن ينال من خلال العقل والفكر والمفاهيم، وإنّما تنحصر المعرفة به من خلال المشاهدة القلبيّة.

أمّا قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ ففيه احتمالان:

الأوّل: أن يرجع الضمير إلى القرآن في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾.

الثاني: عود الضمير إلى الكتاب المكنون في قوله: ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾.

ومقتضى قواعد اللّغة العربيّة عود الضمير إلى أقرب المراجع إلاّ إذا دلّت قرينة على خلاف ذلك أو وجد مانع عقليّ يمنع من إرجاع الضمير إلى الأقرب، وحيث إنّه لا قرينة على الخلاف ولا مانع عقليّ لذلك، إذن لابدّ أن يرجع الضمير إلى الكتاب المكنون.

في ضوء هذه الحقيقة تدلّ الآية على أنّ الكتاب المكنون لا يمسّه أحد إلاّ المطهّرون؛ أي لا يعلمه علماً حضوريّاً شهوديّاً إلاّ المطهّرون، ولعلّنا لا نجانب الصواب إذا ما قلنا إنّ السبب في تعبير القرآن «لا يمسّه» بدلاً عن التعبير بـ «لا يعلمه» لأجل أن لا ينصرف الذهن إلى العلم المتعارف الذي يمكن تحصيله من خلال العلم الحصولي بالمفاهيم والألفاظ. وقد تقدّم

الكلام في بيان حقيقة اليقين القرآني وأنّه لا يحصل إلاّ من خلال مسّ ومشاهدة حقائق وملكوت العالم، كالذي يقع في النار ويحترق فيها، فعلمه بالنار من خلال مسّه لحقيقة النار.

قال الآلوسي: «المطهّرون هم المنزّهون عن كدر الطبيعة ودنس الحظوظ النفسيّة، وقيل: عن كدر الأجسام ودنس الهيولى، والطهارة عليهما طهارة معنويّة، ونفي مسّه كنايةً عن لازمه وهو نوع الاطّلاع عليه وعلى ما فيه»[١].

من هنا لا يكون مفاد «لا» في قوله «لا يمسّه» النهي عن مسّ الكتاب إلاّ عن طهارة؛ لأنّ لازمه أن تكون الطهارة منحصرة بالمادّية فقط، بمعنى أنّ الإنسان إذا لم يكن متطهّراً من الخبث والحدث لا يجوز له مسّ القرآن ولمسه. وإنّما تكون «لا» نافية وليست ناهية، ومن ثمّ تكون الآية بصدد الإخبار ـ معنىً كما هو لفظاً ـ عن هذه الحقيقة، وهي أنّ الذي يقف ويشاهد الكتاب المكنون هم المطهّرون فقط، الواجدون لجميع مراتب الطهارة بما فيها الطهارة القلبيّة.

قال الرازي: «لا يمسّه، الضمير عائد إلى الكتاب المكنون على الصحيح، ويحتمل أن يُقال هو عائد إلى ما عاد إليه المضمر من قوله ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ ومعناه: لا يمسّ القرآن إلاّ المطهّرون. والصيغة إخبار، لكن الخلاف في أنّه هل هو بمعنى النهي؟ فمن قال المراد من الكتاب «اللوح المحفوظ» وهو الأصحّ على ما بيّنا، قال: هو إخبار معنىً كما هو إخبار لفظاً، إذا قلنا إنّ المضمر في «يمسّه» للكتاب»[٢].

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، الآلوسي، مصدر سابق: ج٢٧، ص١٥٤.

(٢) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، مصدر سابق: ج٢٩ ص١٦٨.

وقال الطباطبائي: «والمعنى: لا يمسّ الكتاب المكنون الذي فيه القرآن إلاّ المطهّرون، أو لا يمسّ القرآن الذي في الكتاب إلاّ المطهّرون، والكلام على أيّ حال مسوق لتعظيم أمر القرآن وتجليله، فمسّه هو العلم به وهو في الكتاب المكنون.

والمطهّرون ـ اسم مفعول من التطهير ـ هم الذين طهّر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذنوب أو ممّا هو أعظم من ذلك وأدقّ، وهو تطهير قلوبهم من التعلّق بغيره تعالى، وهذا المعنى من التطهير هو المناسب للمسّ الذي هو العلم دون الطهارة من الحدث أو الخبث كما هو ظاهر»[1].

وقال في موضع آخر: «إنّ المطهّرين من عباد الله هم يمسّون القرآن الكريم الذي في الكتاب المكنون والمحفوظ من التغيّر، ومن التغيّر تصرّف الأذهان بالورود عليه والصدور منه، وليس هذا المسّ إلاّ نيل الفهم والعلم. ومن المعلوم أيضاً أنّ الكتاب المكنون هذا هو أمّ الكتاب المدلول عليه بقوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرعد: ٣٩)، وهو المذكور في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤).

وهؤلاء قوم نزلت الطهارة في قلوبهم، وليس ينزلها إلاّ الله سبحانه، فإنّه تعالى لم يذكرها إلاّ كذلك أي منسوبة إلى نفسه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣)، وما في القرآن شيء من الطهارة المعنويّة إلاّ منسوبة إلى الله أو بإذنه. وليست الطهارة إلاّ زوال الرِّجس من القلب، وليس القلب من الإنسان إلاّ ما يدرك به ويريد به، فطهارة القلب ـ في الواقع ـ طهارة نفس الإنسان في

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٩ ص١٣٧.

اعتقادها وإرادتها، وزوال الرِّجس عن هاتين الجهتين يرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحقّة من غير ميلان إلى الشكّ ونوسان بين الحقّ والباطل»[(١)].

## المقدّمة الرابعة: أهل البيت لهم علمٌ بالملكوت

الواقع أنّ هناك طريقين لإثبات أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام يعلمون ملكوت السماوات والأرض:

**الأوّل**: يتمّ من خلال العودة إلى ما تقدّم إثباته في الفصل الأوّل، حيث تبيّن أنّ المقصود من أهل البيت في آية التطهير هم عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين، والتسعة من ذرّية الحسين عليهم السلام. وعلى هذا فالمطهّرون في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ هم الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم وقلوبهم كالملائكة الكرام أو الذين طهّرهم الله من البشر كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾. ولا وجه لتخصيص المطهّرين بالملائكة كما عن جلّ المفسّرين لكونه تقييداً من غير مقيّد.

**الثاني**: استفاضت النصوص الروائيّة التي صرّحت أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام يعلمون ملكوت السماوات والأرض، نشير إلى بعضها:

• عن عبد الله بن مسكان قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ قال: **كشط لإبراهيم السماوات السبع حتّى نظر إلى ما فوق العرش، وكشط له الأرض حتّى رأى ما في الهواء، وفعل بمحمّد صلّى الله عليه وآله مثل ذلك،**

---

(١) المصدر السابق: ج٣ ص٥٤.

**وإنّي لأرى صاحبكم والأئمّة من بعده قد فعل بهم مثل ذلك»**[(١)].

• عن بريدة قال: «كنت جالساً مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وعليّ معه، إذ قال: **يا عليّ ألم أشهدك معي سبع مواطن** حتّى ذكر الموطن الرابع، **أريت ملكوت السماوات والأرض، فرفعت لي حتّى نظرت إلى ما فيها فاشتقت إليك، فدعوت الله فإذا أنت معي، فلم أرَ من ذلك شيئاً إلاّ وقد رأيت»**[(٢)].

• عن بريدة الأسلمي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «قال رسول الله: **يا عليّ إنّ الله أشهدك معي سبع مواطن** حتّى ذكر الموطن الثاني، **أتاني جبرئيل فأسرى بي إلى السماء فقال: أين أخوك؟ فقلت: ودعته خلفي،** قال فقال: **فادع الله يأتيك به،** قال: **فدعوت فإذا أنت معي، فكشط لي عن السماوات السبع والأرضين السبع حتّى رأيت سكّانها وعمّارها وموضع كلّ ملك منها، فلم أرَ من ذلك شيئاً إلاّ وقد رأيتَه كما رأيتُه»**[(٣)].

## نتيجة البحث في حقيقة علم الإمام

من مجموع ما تقدّم اتّضح أنّ حقيقة علم أهل البيت عليهم السلام إنّما هو علمٌ حضوريّ شهوديّ، وليس من سنخ العلوم الحصوليّة التي تحصل من خلال الألفاظ والمفاهيم، وممّا يؤكّد ذلك وصفهم عليهم السلام بأنّهم خزنة علم الله تعالى، وأنّهم يعلمون بما في الأرض والسماء، وأنّهم ورثة علم النبيّ صلّى الله عليه وآله، وأنّهم يعلمون كلّ شيء وغير ذلك من الروايات الدالّة على سعة علمهم عليهم السلام كما تقدّم في الفصل الأوّل.

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمّد**: ج١ ص٢٢٥، باب: ٢١، في أنّ الأئمّة عرض عليهم ملكوت السماوات والأرض، الحديث: ٤٢٠.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٨، الحديث: ٤٣١.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٥، الحديث: ٤٢١.

قال صدر المتألّهين: «اعلم أنّ العلم بالأشياء الجزئيّة على وجهين:

أحدهما: أن تعلم الأشياء من الأشياء بحسّ أو تجربة أو سماع أو خبر أو شهادة أو اجتهاد، ومثل هذا العلم لا يكون إلاّ متغيّراً فاسداً محصوراً متناهياً غير محيط، فإنّه يلزم أن يعلم في زمان وجودها علماً وقبل وجودها علماً آخر ثمّ بعده علماً آخر. فإذا سئل العالم بهذا العلم عن حادث ما كالكسوف مثلاً حين وجوده، يُجيب بجواب فيقول مثلاً: انكسف الشمس. وإذا سُئل عنه قبل حدوثه، يُجيب بجواب آخر فيقول: سيكون الكسوف. ثمّ إذا سُئِلَ بعد فيقول: قد كان الكسوف. فعلمه بشيء واحد تارةً كان وتارةً كائن وتارةً سيكون، فيتغيّر علمه. ومثل هذا العلم الانفعالي متغيّر فاسد ليس بيقين، إذ العلم اليقيني ما لا يتغيّر أصلاً.

وثانيهما: أن لا يعلم الأشياء من الأشياء، بل بمباديها وأسبابها، فيعلم أوائل الوجود وثوانيها وهكذا إلى أن ينتهي إلى الجزئيّات علماً واحداً وعقلاً بسيطاً محيطاً بكليّات الأشياء وجزئيّاتها على وجه عقليّ غير متغيّر. فمن عرف المبدأ الأوّل بصفاته اللازمة وعرف أنّه مبدأ كلّ وجود وفاعل كلّ فيض وجود، عرف أوائل الموجودات عنه وما يتولّد عنها على الترتيب السببي والمسبّبي، كما يتولّد العدد من الواحد على الترتيب. وهذا النحو من العلم إنّما يحصل لإنسان فارقت نفسه الأوطان والموادّ والتعلّقات وهاجر إلى الله تعالى. فإذا ارتقى إلى عالم الربوبيّة وأفاض عليه من نوره، صار عقله للأشياء عقلاً بسيطاً يعقل الأشياء بعلم الله الفائض عليه، فيكون مدركاً للأمور الجزئيّة من حيث هي كلّية ومن حيث لا كثرة ولا تغيّر فيها.

والحاصل: من عرف كيفيّة علم الله تعالى وعلم مقرّبيه من الملائكة بالأشياء الجزئيّة الكائنة الفاسدة المتعاقبة في الكون علماً كليّاً ثابتاً دائماً من

غير تغيّر وزوال ولا استحالة ولا انتقال، وإن كانت المعلومات جزئيّة كائنة مستحيلة زمانيّة متجدّدة في أنفسها وبقياس بعضها إلى بعض، أمكنه أن يعلم حينئذ كيفيّة علم الأنبياء والأولياء الكاملين عليهم السلام بأحوال الموجودات الماضية والمستقبلة وعلم ما سيكون إلى يوم القيامة، علماً كليّاً ثابتاً غير متجدّد بتجدّد المعلومات، ولا متكثّر بتكثّرها، وعند ذلك يعرف معنى قوله تعالى: ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ ويصدّق بأنّ جميع العلوم والمعاني في القرآن الكريم عرفاناً حقيقيّاً وتصديقيّاً يقينيّاً على بصيرة لا على وجه تقليد أو سماع أو ما يجري مجراها»[1].

من هنا قال في موضع آخر: «إنّ العلم الحصولي الكسبي علم بظواهر الأشياء وجزئيّاتها من طريق نفس الأشياء بتغيّر لا يفيد اليقين. وهذا النحو من العلم يتنزّه عنه الأولياء فضلاً عن آل محمّد عليهم السلام، وإنّ العلم الشهودي الحضوري علم بواقع الأشياء وأسبابها ـ والذي يغني عن العلم بجزئيّاتها ـ هو علم الأولياء فضلاً عن أولي الأمر من آل محمّد عليهم السلام.

وآثار هذا العلم إضافة إلى أنّها شهوديّة لعين الواقع وصقع الأمر، أنّه يؤهّل العالم به أن يطّلع على أسرار الكون والملكوت، ويعطيه الأهليّة لقدرة التصرّف فيه، منتظراً منح القدرة من الله العزيز المتعال».

وهذا ما أشار إليه الفيض الكاشاني أيضاً بقوله: «وليعلم أنّ علوم الأئمّة عليهم السلام ليست اجتهاديّة ولا سمعيّة أخذوها من جهة الحواسّ، بل لدنّية أخذوها من الله سبحانه ببركة متابعة النبيّ صلّى الله عليه وآله»[2].

---

(١) **شرح أصول الكافي**، لمؤلّفه: صدر الدّين محمّد بن إبراهيم الشيرازي، عنى بتصحيحه محمّد خواجوي، كتاب فضل العلم وكتاب الحجّة: ج٢ ص٣٥٠.

(٢) **الأصول الأصيلة**، الفيض الكاشاني، مطبعة الجامعة، إيران، ١٣٩٠هـ : ص٣٠.

## الخلاصة

لبيان حقيقة وماهيّة علم الإمام، لابدّ من الوقوف على المقدّمات التالية:

١ ـ المقدّمة الأولى: إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً.

٢ ـ المقدّمة الثانية: إنّ للعلم أقساماً، وهي العلم الحضوري والحصولي، ومن مراتب العلم الحضوري في القرآن الكريم مرتبة اليقين.

٣ ـ من خصائص ومميّزات اليقين القرآني، أنّه يقين حاصل من مشاهدة الملكوت من خلال الرؤية القلبية وأنّه يقين لا مجال فيه للغفلة والشكّ والريب.

٤ ـ الطريق للوصول إلى اليقين القرآني هو مشاهدة الملكوت، وقد أشارت جملة من النصوص القرآنيّة والروائيّة على توفّر الإنسان على أدوات لرؤية الملكوت.

٥ ـ المقدّمة الثالثة: تبيّن أنّ هناك عدّة من الشرائط والموانع لرؤية الملكوت، ومن تلك الشرائط هي الطهارة بأعلى مراتبها التي هي الطهارة القلبيّة.

٦ ـ المقدّمة الرابعة: إنّ أهل البيت عليهم السلام توفّروا على العلم بالملكوت.

النتيجة: إنّ حقيقة وماهيّة علم أهل البيت عليهم السلام هي أنّ علمهم عليهم السلام علمٌ حضوريّ شهوديّ وليس من سنخ العلوم الحصوليّة التي تحصل من خلال الألفاظ والمفاهيم، وممّا يشهد لذلك أنّهم عليهم السلام يعلمون ما في الأرض وما في السماء وأنّهم يعلمون كلّ شيء، ونحوها من الأوصاف التي لا تنسجم مع العلم الحصولي.

# الفصل الرابع

# وسائل تحقّق علم الإمام

بعد أن وقفنا في الفصل السابق على حقيقة علم الإمام، وتبيّن أنّه علمٌ حضوريّ لا يحصل إلاّ من طريق المشاهدة القلبيّة لملكوت وباطن الأشياء، نحاول في هذا الفصل أن نُجيب عن هذا التساؤل، وهو ما هي وسائل وآليّات حصول هذا النحو من العلم للإمام ؟

الواقع هناك عدد وافر من النصوص الروائيّة حاولت أن تُجيب على هذا التساؤل من خلال تعبيرات مختلفة وألسن متنوّعة، إلاّ أنّ الملفت في هذه النصوص أنّها تحدّثت عن تلك الوسائل والآليّات بلغة الرمز والإشارة والتمثيل، دون إعطاء تفصيل واضح عن حقيقتها.

ولعلّ السبب وراء ذلك بات واضحاً، بعد أن ثبت أنّ ماهيّة وحقيقة علم الإمام إنّما هو علمٌ حضوريّ يحصل من رؤية الملكوت، وهو من الأمور الغيبيّة الباطنيّة التي لا يمكن أن تكون في متناول كلّ أحد، وغير قابل للكسب والتعليم بالطرق المتعارفة، وإنّما هو علم لدنيّ لا يحصل إلاّ بتعليم إلهيّ.

ولكي تتّضح حقيقة الوسائل والآليّات التي من خلالها يحصل هذا النحو من العلم، لابدّ من مقدمة لبيان كيفية حصول العلوم عند الإنسان.

### مقدمة في بيان كيفية حصول العلم عند الإنسان

إنّ العلوم الحاصلة لدى الإنسان، إنّما تحصل بأحد طريقين:

**الطريق الأوّل**: طريق التعلّم الإنساني، وهو الطريق المتعارف لدى الإنسان، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا

تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨).

**الطريق الثاني**: التعلّم الربّاني، وهو ما يطلق عليه بالعلم اللدنيّ، وقد أشار جملة من المحقّقين إلى هذه الحقيقة.

قال الغزالي: «اعلم أنّ العلم يحصل من طريقين: أحدهما: التعلّم الإنساني. والثاني: التعلّم الربّاني. ويمكن من خلال إلقاء الوحي. وتوضيحه: أنّ النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والآمال الفانية، وتُقبل بوجهها على بارئها ومنشئها، وتتمسّك بجود مبدعها وتعتمد على إفادته وفيض نوره، والله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كليّاً، وينظر إليها نظراً إلهيّاً ويتّخذ منها لوحاً، ومن النفس الكلّي قلماً وينقش فيها جميع علومه، ويصير العقل الكلّي كالمعلِّم، والنفس القدسيّة كالمتعلِّم، فيحصل جميع العلوم لتلك النفس وينتقش فيها جميع الصور من غير تعلّم وتفكّر، ومصداق هذا قوله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وآله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾ (النساء: ١١٣)».

وقد أشار النصّ القرآني إلى الطريق الثاني من خلال قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ (الكهف: ٦٥).

علّق الرازي على هذه الآية بقوله: «وأقول تحقيق الكلام في هذا الباب أن نقول: إذا أدركنا أمراً من الأمور وتصوّرنا حقيقة من الحقائق، فإمّا أن نحكم عليه بحكم وهو التصديق، أو لا نحكم وهو التصوّر. وكلّ واحد من هذين القسمين فإمّا أن يكون نظريّاً حاصلاً من غير كسب وطلب، وإمّا أن يكون كسبيّاً.

أمّا العلوم النظريّة (البديهيّة) فهي تحصل في النفس والعقل من غير كسب وطلب، مثل تصوّرنا الألم واللذّة والوجود والعدم، ومثل تصديقنا بأنّ النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان وأنّ الواحد نصف الاثنين.

أمّا العلوم الكسبيّة فهي التي لا تكون حاصلة في جوهر النفس ابتداءً بل لابدّ من طريق يُتوصّل به إلى اكتساب تلك العلوم، وهذا الطريق على قسمين:

أحدهما: أن يتكلّف الإنسان تركّب تلك العلوم البديهيّة النظريّة، حتّى يتوصّل بتركّبها إلى استعلام المجهولات. وهذا الطريق هو المسمّى بالنظر والتفكّر والتدبّر والتأمّل والتروّي والاستدلال، وهذا النوع من تحصيل العلوم هو الطريق الذي لا يتمّ إلاّ بالجهد والطلب.

والنوع الثاني: أن يسعى الإنسان بواسطة الرياضات والمجاهدات في أن تصير القوى الحسّية والخياليّة ضعيفة، فإذا ضعفت قويت القوّة العقليّة وأشرقت الأنوار الإلهيّة في جوهر العقل، وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التفكّر والتأمّل، وهذا هو المسمّى بالعلوم اللدنيّة.

إذا عرفت هذا فنقول: جواهر النفس الناطقة مختلفة بالماهيّة، فقد تكون النفس نفساً مشرقة نورانيّة إلهيّة علويّة قليلة التعلّق بالجواذب البدنيّة والنوازع الجسمانيّة، فلا جرم كانت أبداً شديدة الاستعداد لقبول الجلايا القدسيّة والأنوار الإلهيّة، فلا جرم فاضت عليها من عالم الغيب تلك الأنوار على سبيل الكمال والتمام، وهذا هو المراد بالعلم اللدنّي»[1].

وفي الحقيقة أنّ العلم الحاصل للإنسان تارةً تتوسّط فيه الأسباب

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، مصدر سابق: ج٢١ ص١٢٧.

المتعارفة كالحسّ والفكر، وهذا هو العلم الاكتسابي، وأخرى لا يكون كذلك فلا تتوسّط هذه الآليّات لتحصيل العلم، وهو المصطلح عليه بالعلم الوهبي واللدنّي.

لذا قال الآلوسي: «وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي علماً لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره، وهو علم الغيوب وأسرار العلوم الخفيّة» ثمّ بيَّن أنّ تقديم «لدنا» على قوله «علماً» لبيان «اختصاص ذلك العلم بالله تعالى، كأنّه قيل علماً يختصّ بنا ولا يعلم إلاّ بتوفيقنا».

ثمّ قال: «والآية عندهم أصل في إثبات العلم اللدنّي، وشاع إطلاق علم الحقيقة والعلم الباطن عليه، ووجهه أنّه غير ظاهر على أكثر الناس ويتوقّف حصوله على القوّة القدسيّة دون المقدّمات الفكريّة»(١).

وهذا العلم اللدني هو الذي يصطلح عليه في النصوص القرآنية والروائية بالعلم الإرثي والوراثي أيضاً، كما أشار إليه السيّد حيدر الآملي قائلاً: «اعلم أنّ العلوم كلّها تنقسم إلى قسمين: رسميّ اكتسابيّ، وإرثيّ إلهيّ. فالعلم الرسمي الاكتسابي يكون بالتعليم الإنساني على التدريج مع نصَب قويّ وتعب شديد في مدّة طويلة، والعلم الإرثي الإلهي يكون تحصيله بالتعليم الرّباني بالتدريج وغير التدريج ومع روح وراحة في مدّة يسيرة. وكلّ واحد منهما يحصل بدون الآخر، وإليهما أشار النبيّ صلّى الله عليه وآله بقوله: **العلم علمان: علم اللّسان فذلك حجّة على ابن آدم، وعلمٌ في القلب وذلك هو العلم النافع**(٢). وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام في قوله:

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج١٥ ص٣٣٠.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٢ ص٢٣، كتاب العلم، باب استعمال العلم والإخلاص له، الحديث: ٣٣.

**العلم علمان: مطبوعٌ ومسموع، ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع**[١].

والقسمان بأسرهما يمكن تحصيلهما والجمع بينهما كما كانا حاصلين لكثير من الأنبياء والأولياء والكمّل، ومع تقديرهما الأصلح والأنفع منهما لا يكون إلاّ العلم الثاني أي الذي هو في القلب»[٢].

## أقسام العلم اللدنّي

العلم اللدنّي تارةً يحصل من غير واسطة وإنّما يكون من الله مباشرةً، وأخرى مع الواسطة، وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ (الشورى: ٥١)، حيث بيّنت أنّ الارتباط بينه تعالى وبين عباده المصطفين يكون على أنحاء ثلاثة: إمّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً.

قال الآلوسي: «ظاهر الآية حصر التكليم على ثلاثة أقسام:

الأوّل: الوحي، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ وفسّره بعضهم بالإلقاء في القلب، سواء كان في اليقظة أو في المنام.

والثاني: إسماع الكلام من غير أن يبصر السامع من يكلّمه كما كان لموسى، وكذا الملائكة الذين كلّمهم الله تعالى في قضيّة خلق آدم عليه السلام ونحوهم، وهو المراد بقوله سبحانه: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ فإنّه تمثيل له سبحانه بحال الملك المحتجب الذي يكلّم بعض خواصّه من وراء حجاب

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٢١٨، كتاب العلم، باب العلوم التي أمر الناس بتحصيلها، الحديث: ٤٤.

(٢) **جامع الأسرار ومنبع الأنوار مع رسالة نقد النقود في معرفة الوجود**، السيّد حيدر الآملي، تصحيح وتقديم: هنري كربان وعثمان إسماعيل يحيى، شركة المنشورات العلميّة الثقافيّة: ص٤٧٢.

يسمع صوته ولا يرى شخصه.

والثالث: إرسال الملك كالغالب من حال نبيّنا صلّى الله عليه [وآله] وسلّم وهو حال كثير من الأنبياء عليهم السلام، وهو المراد بقوله: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ أي ملكاً ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ أي بأمره تعالى ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أن يوحيه.

وهذا يدلّ على أنّ المراد من الأوّل الوحي من الله بلا واسطة؛ لأنّ إرسال الرسول جعل فيه إيحاء ذلك الرسول»[1].

وقال الطباطبائي: «إنّ ظاهر الترديد في الآية بـ (أو) هو التقسيم، وهو يدلّ على مغايرة بين الأقسام، وقد قُيّد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب والرسول الذي يوحي إلى النبيّ، ولم يقيَّد القسم الأوّل بشيء، فظاهر المقابلة يفيد أنّ المراد به التكليم الخفيّ من دون أن يتوسّط واسطة بينه تعالى وبين النبيّ أصلاً، وأمّا القسمان الآخران ففيهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحي، وكلّ منهما واسطة غير أنّ الفارق أنّ الواسطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبيّ بنفسه والحجاب واسطة ليس بموحٍ وإنّما الوحي من ورائه.

فتحصّل أنّ القسم الثالث ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ وحي بتوسّط الرسول الذي هو ملك الوحي، فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه؛ قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ (الشعراء: ١٩٣ـ١٩٤)، وقال: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٩٧)، والموحي مع ذلك هو الله سبحانه كما قال: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ (يوسف: ٣).

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج٢٥ ص٥٤.

وأنّ القسم الثاني ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ وحي مع الواسطة هو الحجاب، غير أنّ الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث، وإنّما يبتدئ الوحي ممّا وراءه؛ لمكان «من» وليس «وراء» بمعنى خلف وإنّما هو الخارج عن الشيء المحيط به كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ (البروج: ٢٠)، وهذا كتكليم موسى عليه السلام في الطور؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ (القصص: ٣٠)، ومن هذا الباب ما أوحي إلى الأنبياء في مناماتهم.

وأنّ القسم الأوّل تكليم إلهيّ للنبيّ من غير واسطة بينه وبين ربّه من رسول أو أيّ حجاب مفروض.

ولمّا كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة إليه تعالى على اختلافها، صحّ إسناد مطلق الوحي إليه بأيّ قسم من الأقسام تحقّق، وبهذه العناية أسند جميع الوحي إليه في كلامه كما قال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ (النساء: ١٦٣)، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ (النحل: ٤٣).[١]

وهذا ما أكّدته المدرسة العرفانيّة في هذا المجال؛ جاء في كتاب «تفسير القرآن الكريم» في ذيل هذه الآية: «أي بثلاثة أوجه:

• إمّا بوصوله إلى مقام الوحدة والفناء فيه، ثمّ التحقّق بوجوده في مقام البقاء، فيوحى إليه بلا واسطة كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ * فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ (النجم: ٨ ـ ١٠).

• ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ بكونه في حجاب القلب ومقام تجلّيات الصفات، فيكلّمه على سبيل المناجاة والمكالمة والمكاشفة والمحادثة دون

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٨ ص٧٣.

الرؤية، لاحتجابه بحجاب الصفات كما هو حال موسى عليه السلام.

• ﴿**أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا**﴾ من الملائكة فيوحي على سبيل الإلقاء، والنفث في الروع والإلهام أو الهتاف أو المقام، كما قال عليه السلام: **إنّ روح القدس نفث في روعي أنّ نفساً لن تموت حتّى تستكمل رزقها»**(١).

## الروايات الواردة في بيان وسائل حصول علم الإمام

اتّضح إذن أنّ تحصيل العلم يمكن أن يكون بنحوين:

أحدهما: العلوم التي يمكن تحصيلها بالطرق المألوفة والمتعارفة، وهو ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨) حيث أشارت الآية إلى أمرين:

**الأوّل**: أنّ الإنسان حين تولّده خالٍ عن جميع العلوم التي يمكن تحصيلها بعد ذلك عن طريق الحسّ والفكر والتعقّل ونحو ذلك.

**الثاني**: أنّ مبادئ وآليّات تحصيل هذا النحو من العلم، هي السمع والبصر التي هي المبدأ في تحصيل التصوّرات عند الإنسان، وإن كان هناك غيرهما من اللّمس والذوق والشمّ، وإن كان السمع والبصر هما العمدة في ذلك، والفؤاد هو المبدأ في تحصيل التصديقات.

وثانيهما: العلم اللدنّي، وهو علم لا يمكن تحصيله من خلال الألفاظ والمفاهيم، لأنّه نحو خاصّ من العلم خارج عن دائرة الإدراك الذهني الحصولي.

---

(١) **تفسير القرآن الكريم**، للشيخ الأكبر العارف بالله العلاّمة محيي الدّين بن عربي، المتوفّى ٦٣٨هـ تحقيق وتقديم: الدكتور مصطفى غالب، انتشارات ناصر خسرو، إيران، الطبعة الأولى: ج٢ ص٤٣٧.

وتبيّن أيضاً أنّ العلم اللدنّي ينقسم إلى ما يحصل بلا واسطة، وما يحصل مع الواسطة.

من هنا تطرح تساؤلات في هذا المجال:

**الأوّل**: حصول العلم عند أئمّة أهل البيت عليهم السلام من النحو الأوّل أم الثاني؟

**الثاني**: وإذا كان من الثاني ـ أي العلم اللدنيّ ـ فهل هو مع الواسطة؟

**الثالث**: وإذا كان مع الواسطة، فما هي تلك الواسطة التي من خلالها تفاض هذه العلوم والمعارف على قلوبهم عليهم السلام؟

وقد أجابت الروايات عن هذه التساؤلات بشكل واضح وصريح.

## علم أهل البيت عليهم السلام علمٌ لدنيّ

عند التأمّل في الروايات الواردة عنهم عليهم السلام نجد أنّها تجيب وبشكل واضح وصريح على أنّ علم أهل البيت عليهم السلام علم لدني، يتحقّق بواسطة، وهي روح القدس. ومن هذه الروايات:

• عن أبي حمزة الثمالي قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن العلم، أهو علم يتعلّمه العالم من أفواه الرجال، أم في الكتاب عندكم تقرؤونه فتعلمون منه؟

قال: **الأمر أعظم من ذلك وأوجب، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾** (الشورى: ٥٢).

ثمّ قال: **أيّ شيء يقول أصحابكم في هذه الآية؟ أيقرّون أنّه كان في حال ما يدري ما الكتاب ولا الإيمان؟** فقلت: لا أدري ـ جُعلت فداك ـ ما

يقولون.

فقال لي: **بلى قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، حتّى بعث الله تعالى الروح التي ذكر في الكتاب، فلمّا أوحاها إليه علم بها العلم والفهم، وهي الروح التي يعطيها الله تعالى من شاء، فإذا أعطاها عبداً علّمه الفهم**»[١].

• عن إبراهيم بن عمر قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أخبرني عن العلم الذي تعلمونه، أهو شيءٌ تعلمونه من أفواه الرجال بعضكم من بعض، أو شيء مكتوب عندكم من رسول الله صلّى الله عليه وآله؟

قال: فقال: **الأمر أعظم من ذلك، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾**؟

قال: قلت: بلى.

قال: **فلمّا أعطاه الله تلك الروح علم بها، وكذلك هي إذا انتهت إلى عبد علم بها العلم والفهم**. يعرّض بنفسه عليه السلام»[٢].

• عن عبد الله بن طلحة قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أخبرني يابن رسول الله عن العلم الذي تحدّثونا به، أمن صحف عندكم أو من رواية يرويها بعضكم عن بعض أو كيف حال العلم عندكم؟

قال أبو عبد الله عليه السلام: **الأمر أعظم من ذلك وأجلّ، أما تقرأ كتاب الله**؟ قال: قلت: بلى. قال: **أما تقرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أفترون أنّه كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا**

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٧٣، كتاب الحجّة، باب الروح التي يسدّد الله بها الأئمّة، الحديث: ٥.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمّد**، مصدر سابق، باب ما يُسأل العالم عن العلم الذي يحدّث به، الحديث: ١٦٢٣: ج٢ ص٣٧٠.

**الإيمان؟**

قال: قلت: هكذا نقرؤها.

قال: **نعم، قد كان في حال لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، حتّى بعث الله تلك الروح فعلّمه بها العلم والفهم»**(١).

قال المجلسي تعليقاً على قوله عليه السلام: «**الأمر أعظم من ذلك وأوجب**»: إنّما كان الأمر أوجب من ذلك، لأنّ الأمرين المذكورين ممّا يشترك فيه سائر الناس، فلابدّ في الحجّة من أمر يمتاز به عن سائر الناس لا يحتمل الخطأ والشكّ»(٢).

أمّا ما هي تلك الحقيقة التي بها يمتاز حجّة الله في أرضه عن الناس، فهذا ما أشار إليه الشعراني بقوله: «لم يعهد من علماء سائر فرق المسلمين في عصر الأئمّة عليهم السلام البحث عن القوى النفسانيّة التي يتفاضل الناس فيها فضلاً عن القوّة القدسيّة وروح الولاية المختصّة بأولياء الله تعالى، وكان علماء العامّة يظنّون أفراد الإنسان سواء النبيّ صلّى الله عليه وآله والأوصياء وسائر الناس في طبقة واحدة، لا يعلمون شيئاً إلاّ بالسماع والنقل والحفظ والقراءة في الكتب، ولم يكونوا يتعقّلون إفاضة روح ومبدأ قوّة من الله تعالى على أوليائه، بها يعرفون ما يجب من غير سماع تفاصيل الأمور واحداً بعد واحد كما تعقّله الحكماء وبيّنوه في كتبهم في علم النفس.

فمراد الإمام عليه السلام من «**أصحابكم**» في قوله: «**أيّ شيء يقول أصحابكم**» هو عامّة الناس من مجالسيه ومخالطيه، سواء كانوا من المخالفين أو من عوامّ الشيعة غير العارفين بأحاديث الأئمّة عليهم السلام.

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٣٧٠، الحديث: ١٦٢٢.

(٢) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، مصدر سابق: ج٣ ص١٧٣.

وللعاقل المنصف أن يجعل نفس هذه الأحاديث دليلاً على إمامة الأئمّة عليهم السلام وكونهم مؤيّدين بروح القدس الذي ذكره في هذه الأحاديث، ولولا ذلك كانوا يعتقدون اعتقاد سائر علماء العامّة ولم يعرفوا أسرار النفوس ودرجاتها في الفضائل ومراتب ارتقائها إلى قُرب ربّ العالمين، كما لم يكن يعرف ذلك سائر منتحلي العلم»[1].

## حقيقة الروح التي هي مع أئمّة أهل البيت

استفاضت النصوص الروائيّة التي تحدّثت عن الروح، مبيّنة حقيقتها ودورها ومراتبها، لذا سنحاول الوقوف على أهمّ الروايات الواردة في هذا المجال.

• عن ابن مسكان عن أبي بصير قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ (الإسراء: ٨٥).

قال: **خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل... وهو من الملكوت**»[2].

والرواية تشير إلى أمرين أساسيّين:

الأوّل: أنّ الروح من عالم الملكوت، وهو المراد من الأمر في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ والمقصود بالأمر هنا هو عالم الأمر الذي هو عالم المجرّدات في قبال عالم الخلق الذي هو عالم الجسمانيّات، كما قال المازندراني[3].

(١) **حاشية الشعراني على شرح أصول الكافي**، للمازندراني: ج٦ ص٦٨.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٧٣، كتاب الحجّة، باب الروح التي يسدّد الله بها الأئمّة، الحديث: ٣.

(٣) **شرح أصول الكافي والروضة**، مصدر سابق: ج٦ ص٦٥.

والسبب في تسمية عالم المجرّدات بعالم الأمر، مع أنّ الجسمانيّات أيضاً بأمر الله تعالى، فهو لأنّ حدوث الجسمانيّات إنّما هو بعد استعداد الموادّ بأسباب معدّة هي في الظاهر علل وجودها كالحرارة لذوبان الجسم ونور الشمس لنموّ النبات، فينسب في الظاهر إلى تلك الأسباب المعدّة، وأمّا عالم المجرّدات فليس ما فيه لسبب ظاهر يعدّ له، فينسب إلى أمر الله محضاً، والروح من أمر الله إذ ليس له سبب جسماني ظاهر، وإلاّ فالحقيقة أنّ كلّ شيء بأمر الله تعالى.

وهذا معنى ما ذكره الطباطبائي في ذيل هذه الآية حيث بيّن أنّ لكلّ شيء نحوين من الارتباط به تعالى:

«الأوّل: من جهة نسبته إليه تعالى مع إلغاء الأسباب الوجوديّة الأخر، وهي المشار إليها بقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ (القمر: ٥٠)، حيث شبّه أمره بلمح بالبصر، وهذا النوع من التشبيه لنفي التدريج، وبه يعلم أنّ في الأشياء المكوّنة تدريجاً الحاصلة بتوسّط الأسباب الكونيّة المنطبقة على الزمان والمكان جهة معرّاة عن التدريج خارجة عن حيطة الزمان والمكان، هي من تلك الجهة أمره تعالى.

الثاني: الجهة التي هي بها تدريجيّة مرتبطة بالأسباب الكونيّة، منطبقة على الزمان والمكان، فهي بها من الخلق، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤)، فالأمر هو وجود الشيء من جهة استناده إليه تعالى وحده، والخلق هو ذلك من جهة استناده إليه مع توسّط الأسباب الكونيّة فيه»[(١)].

الثاني: أنّ الروح أعظم من جبرئيل وميكائيل، كما نصّت على ذلك مجموعة من النصوص الواردة في هذا المجال كما ستأتي الإشارة.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٣ ص١٩٧.

قال المازندراني في بيان وجه أعظميّة الروح من جبرئيل وميكائيل: «إنّه أعظم منهما بحسب الرتبة والعلم، ولم يثبت أنّ أحداً من الملائكة أعظم منهما، ولأنّ الملائكة لم يعلموا جميع الأشياء كما اعترفوا به حيث قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ (البقرة: ٣٢)، وهذا الخلق ـ أي الروح ـ عالم بجميعها»[(١)].

من هنا أكّدت بعض النصوص أنّ الروح ليس من الملائكة، كما في رواية سعد الإسكاف، قال: «أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام يسأله عن الروح أليس هو جبرئيل؟

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: **جبرئيل من الملائكة، والروح غير جبرئيل**. فكرّر ذلك على الرجل.

فقال له: لقد قلت عظيماً من القول، ما أحد يزعم أنّ الروح غير جبرئيل.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: **إنّك ضالّ تروي عن أهل الضلال، يقول الله لنبيّه صلّى الله عليه وآله:** ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ (النحل: ١ ـ ٢)، **والروح غير الملائكة صلوات الله عليهم**»[(٢)].

قال الشعراني: إنّ زعم ذلك الرجل إنّما كان «مبنيّاً على ما ذكرنا من أنّ سائر علماء العامّة لم يكن لهم معرفة بمراتب النفوس الإنسانيّة وقواها وتفاضلها في الدرجة بما يمنحها الله تعالى من الأرواح والقوى، والروح هنا

(١) **شرح أصول الكافي والروضة**، مصدر سابق: ج٦ ص٦٦.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٧٤، كتاب الحجّة، باب الروح التي يسدّد الله بها الأئمّة، الحديث: ٦.

خلق آخر معه قوّة قدسيّة أفاضها الله تعالى على أوليائه وجعلها معهم، وهي مبدأ استكشاف العلوم حتّى لا يحتاجوا إلى السماع من الشيوخ والقراءة من الكتب.

وأمّا جبرئيل عليه السلام فملك يطلق عليه الروح أيضاً، ولكن ليس المراد من الروح في كلّ موضع هو جبرئيل»[١].

• عن جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «سألته عن علم العالم.

فقال: **يا جابر إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس وروح الإيمان وروح الحياة وروح القوّة وروح الشهوة، فبروح القدس ـ يا جابر ـ عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى.** ثمّ قال: **يا جابر إنّ هذه الأرواح يصيبها الحدثان، إلاّ أنّ روح القدس لا يلهو ولا يلعب**»[٢].

• عن الحسن بن إبراهيم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح البدن وروح القدس وروح القوّة وروح الشهوة وروح الإيمان. وفي المؤمنين أربعة أرواح؛ أفقدها روح القدس: روح البدن وروح القوّة وروح الشهوة وروح الإيمان. وفي الكفّار ثلاثة أرواح: روح البدن وروح القوّة وروح الشهوة.**

ثمّ قال: **روح الإيمان يلازم الجسد ما لم يعمل بكبيرة، فإذا عمل بكبيرة فارقه الروح، وروح القدس من سكن فيه فإنّه لا يعمل بكبيرة أبداً**»[٣].

---

(١) **حاشية الشعراني على شرح الأصول والروضة**، مصدر سابق: ج٦ ص٦٩.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٥٣، باب ما جعل الله في الأنبياء والأوصياء والمؤمنين وسائر الناس، الحديث: ١٥٩٠.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٣٥٢، الحديث ١٥٨٩.

• عن جابر الجعفي قال: سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الروح.

قال: **يا جابر إنّ الله خلق الخلق على ثلاث طبقات وأنزلهم ثلاث منازل، وبيّن ذلك في كتابه حيث قال:** ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨ ـ ١١).

**فأمّا ما ذكر من السابقين فهم أنبياء مرسلون وغير مرسلين، جعل فيهم خمسة أرواح: روح القدس وروح الإيمان وروح القوّة وروح الشهوة وروح البدن. وبيّن ذلك في كتابه حيث قال:** ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، **ثمّ قال في جميعهم:** ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٢)، **فبروح القدس بعثوا أنبياء مرسلين وغير مرسلين، وبروح القدس علموا جميع الأنبياء، وبروح الإيمان عبدوا الله ولم يشركوا به شيئاً، وبروح القوّة جاهدوا عدوّهم وعالجوا معيشتهم، وبروح الشهوة أصابوا لذّة الطعام ونكحوا الحلال من النساء، وبروح البدن يدبّ ويدرج.**

**وأمّا ما ذكرت من أصحاب الميمنة فهم المؤمنون حقّاً، جعل فيهم أربعة أرواح: روح الإيمان وروح القوّة وروح الشهوة وروح البدن. ولا يزال العبد مستكملاً بهذه الأرواح الأربعة حتّى يهمّ بالخطيئة، فإذا همَّ بالخطيئة زيّن له روح الشهوة وشجّعه روح القوّة وقاده روح البدن حتّى يوقعه في تلك الخطيئة، فإذا لامسَ الخطيئة انتقص من الإيمان وانتقص الإيمان منه، فإن تاب تاب الله عليه.**

**وأمّا ما ذكرت من أصحاب المشأمة فهم أهل الكتاب، قال الله تبارك وتعالى:** ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ

**﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾** (البقرة: ١٤٦ـ ١٤٧)، **عرفوا رسول الله صلّى الله عليه وآله والوصيّ من بعده وكتموا ما عرفوا من الحقّ بغياً وحسداً، فسلبهم الله روح الإيمان، وجعل لهم ثلاثة أرواح: روح القوّة وروح الشهوة وروح البدن، ثمّ أضافهم إلى الأنعام فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾** (الفرقان: ٤٤)؛ **لأنّ الدابّة يا جابر إنّما تحمل بروح القوّة وتعتلف بروح الشهوة وتسير بروح البدن»**[1].

• عن محمّد بن سنان عن المفضّل بن عمر، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته مرخى عليه ستره؟

**فقال: يا مفضّل إنّ الله تبارك وتعالى جعل في النبيّ صلّى الله عليه وآله خمسة أرواح: روح الحياة فبه دبّ ودرج، وروح القوّة فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه آمن وعدل، وروح القدس فبه حمل النبوّة. فإذا قُبض النبيّ صلّى الله عليه وآله انتقل روح القدس فصار إلى الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو، وروح القدس كان يرى به»**[2].

• عن عليّ بن أسباط عن أسباط بن سالم قال: «سأله رجل من أهل هيت[3] ـ وأنا حاضر ـ عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فقال: **منذ أنزل الله عزّ وجلّ ذلك الروح على محمّد صلّى الله عليه وآله**

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٣٥٣، الحديث: ١٥٩١.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٧٢، كتاب الحجّة، باب فيه ذكر الأرواح التي في الأئمّة، الحديث: ٣.

(٣) بلد في العراق.

**ما صعد إلى السماء وإنّه لفينا»**[١].

• عن أبي أيّوب الخزّاز عن أبي بصير قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ قال: **خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، لم يكن مع أحد ممّن مضى غير محمّد صلّى الله عليه وآله، وهو مع الأئمّة يسدّدهم، وليس كلّ ما طلب وجد»**[٢].

• عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ فقال: «**خلْقٌ من خلق الله، أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلّى الله عليه وآله يخبره ويسدّده، وهو مع الأئمّة من بعده»**[٣].

هذه النصوص وعشرات مثلها[٤] تشتمل على الحقائق التالية:

١ ـ إنّ الأنبياء والأوصياء جعل فيهم خمسة أرواح.

٢ ـ إنّ الأنبياء والأوصياء جميعاً مؤيّدون مسدّدون بروح القدس.

٣ ـ إنّ روح القدس خلقٌ من خلق الله تعالى أعظم من جبرئيل وميكائيل.

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٧٣، كتاب الحجّة، باب الروح التي يسدّد الله بها الأئمّة، الحديث: ٢.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٧٣، الحديث: ٤.

(٣) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٢٥ ص٦١، كتاب الإمامة، باب الأرواح التي فيهم وأنّهم مؤيّدون بروح القدس، الحديث: ٣٤.

(٤) نكتفي بهذا القدر من النصوص الروائيّة التي تحدّثت عن حقيقة الروح والدور الذي يقوم به بالنسبة إلى الأنبياء والأوصياء، وهناك العشرات من النصوص في هذا المجال، يمكن الوقوف عليها في المجامع الحديثيّة. ينظر: **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٥٠ ـ ص٣٧٨.

٤ ـ إنّ هذه الروح من عالم الملكوت.

٥ ـ إنّه سبب علمهم بكلّ شيء ومنه ملكوت السماوات والأرض.

٦ ـ إنّه كان مع رسول الله صلّى الله عليه وآله خاصّة، وهو مع الأئمّة عليهم السلام من بعده.

## تساؤلات وإجابات

هنا تُطرح بعض التساؤلات نحاول الإجابة عنها:

**السؤال الأوّل**: ما هو المراد من الأرواح التي جُعلت في الأنبياء والأوصياء؟

**والجواب**: إنّ الروح تُطلق تارةً ويُراد بها النفس الناطقة. قال الشيخ البهائي في الأربعين: «المراد بالروح ما يشير إليه الإنسان بقوله «أنا» أعني النفس الناطقة، وهو المعني بالروح في القرآن والحديث. والذي عليه المحقّقون أنّها غير داخلة في البدن بالجزئيّة والحلول، بل هي بريئة عن صفات الجسميّة منزّهة عن العوارض المادّية متعلّقة به ـ أي البدن ـ تعلّق التدبير والتصرّف فقط، وهو مختار أعاظم الحكماء الإلهيّين وأكابر الصوفيّة والإشراقيّين، وعليه استقرّ رأي أكثر متكلّمي الإماميّة كالشيخ المفيد والمحقّق الطوسي والعلاّمة الحلّي، ومن الأشاعرة الراغب الأصفهاني وأبي حامد الغزالي والفخر الرازي، وهو المذهب المنصور الذي أشارت إليه الكتب السماويّة وانطوت عليه الأنباء النبويّة وعضدته الدلائل العقليّة وأيّدته الأمارات الحسّية والمكاشفات الذوقيّة»[1].

وقد تُطلق ويُراد بها قوى النفس المختلفة من حيث إنّ النفس في

(١) نقلاً عن **شرح أصول الكافي والروضة** للمازندراني، مصدر سابق: ج٦ ص٦١.

وحدتها وتشخّصها واجدة لجميع هذه القوى، وهذا ما أشار إليه المتأخّرون من الحكماء في علم النفس الفلسفي من أنّ النفس في وحدتها كلّ القوى.

قال المازندراني: «اعلم كما أنّ الروح أي النفس الناطقة تسمّى مطمئنة ولوّامة وأمّارة بالسوء باعتبارات مختلفة، كذلك تسمّى روح المدرج باعتبار أنّها مصدر للذهاب والمجيء وسبب للحركة في الحوائج، وتسمّى روح الشهوة باعتبار أنّها مع القوّة الشهويّة تشتهي طاعة الله والإتيان بالحلال من النساء وغير ذلك، وتسمّى روح القوّة باعتبار أنّها تقدّر بسبب القدرة المعدّة لها على الإتيان بما تشتهيه، وتسمّى روح الإيمان باعتبار أنّ الإيمان والعدل والخوف من الله يتحقّق بها، وتسمّى روح القدس باعتبار اتّصافها بالقوّة القدسيّة التي تتجلّى فيها لوايح الغيب وأسرار الملكوت المختصّة بالأنبياء والأوصياء، وهم بسببها عرفوا الأشياء كلّها كما هي وصاروا من أهل التعليم والإرشاد. وإنّما سمّيت هذه القوّة «روحاً» لأنّها مبدأ كلّ فيض وراحة وحياة حقيقة، فهي الروح التي بها قوام حقيقة النبوّة. وكلّ واحدة من هذه الأرواح فيهم على غاية الكمال والسداد، وأمّا الموجودة في أصحاب الميمنة وهي ما سوى الأخيرة، فالغالب فيها السداد والاستقامة...»(١).

وهذه القوّة التي اختصّ بها الأنبياء والأولياء هي المصطلح عليها بالقوّة القدسيّة في كلمات الحكماء والعرفاء؛ قال الفارابي في فصوص الحكم: «الروح القدسيّة لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق، ولا يستغرق حسّها الظاهر حسّها الباطن، ويتعدّى تأثيرها عن بدنها إلى أجسام العالم وما فيه، وتقبل المعقولات من الروح الملكيّة بلا تعليم من الناس»(٢).

---

(١) **شرح أصول الكافي والروضة**، مصدر سابق: ج٦ ص٦٢.

(٢) **نصوص الحكم في شرح فصوص الحكم**، آية الله حسن حسن زادة آملي: النصّ=

وقال الرازي في المباحث المشرقيّة: «إنّ الإنسان يمكنه أن يتعلّم من نفسه، وكلّ ما كان كذلك فإنّه يسمّى حدساً، وهذا الاستعداد يتفاوت في الناس، فربّ إنسان لو أكبّ طول عمره على تعلّم مسألة، تعذّر عليه ذلك وانصرف عنه بدون مطلوبه، وربّ إنسان يكون بالعكس حتّى أنّه لو التفت ذهنه إليه أدنى لفتة حصل له ذلك، ولما رأينا أنّ الدرجات فيه متفاوتة والمراتب مختلفة بالقوّة والضعف والأقلّ والأكثر، فلا يبعد وجود نفس بالغة إلى الدرجة القصوى في القوّة وسرعة الاستعداد لإدراك الحقائق، حتّى كان ذلك الإنسان يحيط علماً بحقائق الأشياء من غير طلب منه وشوق، بل ذهنه ينساق إلى النتائج من غير مزاولة منه لذلك، ثمّ من تلك النتائج إلى غيرها حتّى يحيط بغايات المطلب الإنسانيّة ونهايات الدرجات البشريّة، وتلك القوّة تسمّى قدسيّة، ومخالفتها لسائر النفوس بالكمّ والكيف»(١).

**السؤال الثاني**: قد يُقال إنّ الظاهر من أغلب النصوص المتقدِّمة أنّ هذه الروح حقيقة غيبيّة مستقلّة في وجودها، فكيف ينسجم ذلك مع البيان المتقدِّم من أنّها قوّة من قوى نفس النبيّ والوصيّ؟

**الجواب**: أنّه لا تنافي بين الاحتمالين، فلا محذور من أن يكون الشيء الواحد خلقاً من خلق الله تعالى مستقلاً في نفسه، وله مظهر وتجلٍّ في الإنسان بنحو يمثّل قوّة من قواه، تنبعث منها آثار معيّنة. ولا أوضح من العقل الذي هو مخلوق لله تعالى مستقلّ كبقيّة المخلوقات، كما ورد عن محمّد

---

= رقم ٥١، ص٣٠٢.

(١) **المباحث المشرقيّة في علم الإلهيّات والطبيعيّات**، للإمام فخر الدِّين محمّد بن عمر الرازي، مكتبة الأسدي بطهران، ١٩٦٦م: ج١ ص٣٥٣.

بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**لمّا خلق الله العقل استنطقه ثمّ قال له: أقبِل فأقبل، ثمّ قال له: أدبِر فأدبر. ثمّ قال: وعزّتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً هو أحبُّ إليَّ منك ولا أكملتك إلاّ فيمن أحبّ، أما إنّي إيّاك آمر وإيّاك أنهى وإيّاك أُعاقب وإيّاك أثيب**»[1].

وفي الوقت ذاته نجد العقل واحداً من أهمّ قوى الإنسان، وبه يمتاز عن غيره، وهو القوّة الفاعلة في التمييز بين الحقّ والباطل والخير من الشرّ وبه بلغ الإنسان ما بلغ من الرقيّ والتقدّم.

عن الحسن بن عمّار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في حديث طويل: «**إنّ أوّل الأمور ومبدأها وقوّتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء إلاّ به، العقل الذي جعله الله زينةً لخلقه ونوراً لهم. فبالعقل عَرف العباد خالقهم وأنّهم مخلوقون وأنّه المدبِّر لهم وأنّهم المدبَّرون وأنّه الباقي وهم الفانون، واستدلّوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه وشمسه وقمره وليله ونهاره، وبأنّ له ولهم خالقاً مدبِّراً لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وأنّ الظلمة في الجهل وأنّ النور في العلم، فهذا ما دلّهم عليه العقل**»[2].

وهذا معناه أنّ العقل الذي يتمتّع به الإنسان الذي به يؤمر وينهى ويثاب ويعاقب، ما هو إلاّ مظهر وتجلٍّ لتلك الحقيقة المستقلّة المسمّاة بالعقل، وأنّه أوّل ما خلق الله كما في رواية سماعة بن مهران عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ خلق العقل ـ وهو أوّل خلق من الروحانيّين ـ عن يمين العرش من نوره...**»[3].

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص١٠، كتاب العقل والجهل، الحديث: ١.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٨، كتاب العقل والجهل، الحديث: ٢٨.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٢٠، الحديث: ١٤.

وهكذا بالنسبة إلى الروح، فإلى جانب كونه خلقاً من خلق الله تعالى أعظم من جبرئيل وميكائيل كما نطقت به النصوص المتقدّمة، يكون مظهره وتجلّيه في شخصيّة النبيّ والوصيّ، فهو قوّة قدسيّة فيه كواحدة من قواه تمنحه العلم والفهم وتعصمه من الضلال في العلم والعمل والسلوك.

وهذا ما دلّت عليه شواهد متعدّدة في النصوص المشار إليها، منها:

- التعبير الوارد في بعضها «**وإنّه لفينا**».
- التعبير بأنّه «**جعل في الأنبياء خمسة أرواح**».
- الرواية الواردة عن محمّد الحلبي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى أحدٌ صمد** ـ والصمد الشيء الذي ليس له جوف ـ **وإنّما الروح خلقٌ من خلقه له بصرٌ وقوّة وتأييد، يجعله الله في قلوب الرُّسل والمؤمنين**»(١).

فهذه الشواهد تشير بشكل واضح إلى أنّ هذه الروح الخامسة هي تعبير آخر عن قوّة قدسيّة تختصّ بالأنبياء والأوصياء، وتكون شأناً من شؤونهم التي تميّزهم عن غيرهم، وهذا لا ينافي أنّ هذه القوّة في حقيقتها مخلوق مستقل كسائر المخلوقات الأخرى.

ولعلّ خير دليل على ذلك ما أشارت إليه هذه النصوص من تقسيم الأرواح إلى روح الحياة وروح القوّة وروح الشهوة، ومن الواضح أنّ هذه الأرواح ليست وجودات مستقلّة بعضها عن بعض، بل هي شؤون النفس الإنسانيّة التي هي مبدأ آثار مختلفة ومتنوّعة.

والحاصل أنّ نسبة هذه الروح إلى نفس النبيّ والوصيّ هي كنسبة روح

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٢٥ ص٧٠، كتاب الإمامة، باب الأرواح التي فيهم، الحديث: ٥٧.

الإيمان إلى نفس المؤمن، وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ (المجادلة: ٢٢)، حيث تفيد أنّ للمؤمنين وراء الروح البشريّة التي يشترك فيها المؤمن والكافر روحاً أخرى تفيض عليهم حياة أخرى وتصاحبها قدرة وشعور جديدان، وإلى ذلك يشير قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢)، فإنّها ـ الآية ـ دالّة على ما يخصّ الله تعالى به الإيمان في مقابل الكفر من الآثار، وهو النور الذي يسري في أفعال العبد، فيرى به الخير ويفرّقه من الشرّ ويميّز به النفع من الضرّ، والدليل على أنّ هذا النور لغاية الإبصار قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١)، ومن الواضح أنّ هذا النور الذي هو نور الإبصار والإدراك من خواصّ الحياة، كما أنّ نور الإدراك الحسّي في الإنسان وسائر أنواع الحيوان لا يتحقّق إلاّ بعد تحقّق الحياة.

لهذا نجد أنّ النصوص الروائيّة تؤكّد أنّ روح الإيمان قد تصاب بنوع من الضعف، وربما تصل إلى درجة من الاضمحلال ومفارقة المؤمن، وذلك عندما يمارس معصية من المعاصي.

- عن ابن بكير قال: «قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: **إذا زنى الرجل فارقه روح الإيمان؟** قال هو قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ **ذاك الذي يفارقه**»[1].
- عن أبي خديجة قال: «دخلت على أبي الحسن عليه السلام فقال لي: **إنّ**

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص٢٨٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الكبائر، الحديث: ١١.

**الله تبارك وتعالى أيّد المؤمن بروح منه تحضره في كلّ وقت يُحسن فيه ويتّقي، وتغيب عنه في كلّ وقت يذنب فيه ويعتدي، فهي معه تهتزّ سروراً عند إحسانه، وتسيخ في الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقيناً وتربحوا نفيساً ثميناً...»**[1].

من هنا يمكن للمتدبّر أن يحدس أنّ هذه الحياة التي أثبتها تعالى للمؤمن حياة خاصّة زائدة على الحياة العامّة التي يشترك فيها المؤمن والكافر، فإنّ خاصّة الحياة إنّما تترشّح من الروح، واختلاف الخواصّ يؤدّي إلى اختلاف المبادئ.

نعم، هذه الروح الخاصّة ليست مغايرة للروح العامّة بالعدد، بل هي مغايرة لها بحسب المرتبة، كما وقع نظيره في الرواية حيث عدّت روح الحركة مغايرة لروح الشهوة، مع أنّ المغايرة بينهما إنّما هي بحسب المرتبة دون العدد.

وهذا هو حال الروح الخاصّة بالأنبياء والأوصياء بالنسبة إلى نفوسهم الشريفة. ومنه يتّضح السبب في اختلاف النصوص في التعبير عن الروح القدسيّة تارةً بأنّها معهم تسدّدهم وتخبرهم، وأخرى بأنّها فيهم.

**السؤال الثالث**: كيف يمكن التوفيق بين النصوص الدالّة على اختصاص روح القدس بالرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام من بعده، وبين النصوص الدالّة على أنّ هذه الروح القدسيّة هي عند الأنبياء والأوصياء جميعاً؟

أُجيب عن هذا التساؤل في كلمات الأعلام بعدّة وجوه، إلاّ أنّ أفضلها ما ذكره المجلسي في هذا المجال: «أن يكون روح القدس نوعاً تحته أفراد

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٦٨، كتاب الإيمان والكفر، باب الروح الذي أيّد به المؤمن.

كثيرة، فالفرد الذي في النبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام أو الصنف الذي فيهم لم يكن مع من مضى. وعلى القول بالصنف يرتفع التنافي بين ما دلّ على كون نقل الروح إلى الإمام بعد فوت النبيّ صلّى الله عليه وآله، وبين ما دلّ على كون الروح مع الإمام من عند ولادته، فلا تغفل»[1].

إلاّ أنّه يمكن أن يقال: إنّ الاختلاف ليس فرديّاً أو صنفيّاً وإنّما هو على أساس المراتب التشكيكيّة والمتفاوتة لحقيقة الروح عند الأنبياء وعند رسول الله صلّى الله عليه وآله من حيث تجلّياتها ومظاهرها في هذا العالم، فهي حقيقة واحدة والفارق في الشدّة والضعف، فما يتمتّع به النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله هو أكمل مراتب الروح القدسيّة، وتتفاوت في الأنبياء والأولياء بحسب مقاماتهم ودرجاتهم، وعلى أساس ذلك يتفاضل الأنبياء فيما بينهم، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (الإسراء: ٥٥).

وما تقدّم سابقاً من تناقض روح الإيمان عند صدور المعصية من المؤمن، خيرُ شاهد على أنّ الحقيقة الواحدة تقوى وتضعف، وهذا هو حال الملكات العلميّة والعمليّة جميعاً، فليست ملكة الاجتهاد مثلاً بمرتبة واحدة عند جميع المجتهدين، ولا ملكة العدالة متساوية النسبة بين العدول، بل هي متفاوتة شدّةً وضعفاً مع كون الحقيقة التي يتجلّى بها الجميع واحدة.

ومنه يتّضح لنا التوفيق بين ما دلّ من النصوص على أنّ روح القدس تنتقل إلى الإمام بعد رحلة الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله أو الإمام السابق وبين ما تصرّح نصوص أخرى بأنّ هذه الروح تصاحب المعصوم

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٢٥ ص٦٧، كتاب الإمامة، باب الأرواح التي فيهم وأنّهم مؤيّدون بروح القدس.

من حين ولادته ـ كما ستأتي الإشارة إليها ـ فإنّ التي تنتقل في لحظة ارتحال المعصوم السابق إنّما هي المرتبة العالية منها، أمّا التي كانت عنده يوم ولادته فهي أضعف من هذه كما أشار إليه المجلسي في كلامه المتقدّم.

**السؤال الرابع**: قد يُقال إنّ هناك مجموعة من النصوص أشارت إلى أنّ علمهم إنّما هو بواسطة عمود من نور، من قبيل ما يلي:

• عن محمّد بن مروان قال: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**إذا دخل أحدكم على الإمام فلينظر ما يتكلّم به، فإنّ الإمام يسمع الكلام في بطن أُمّه، فإذا هي وضعته سطع له نور ساطع إلى السماء وسقط وفي عضده الأيمن مكتوبٌ:** ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: ١١٥)، **فإذا هو تكلّم رفع الله له عموداً يشرف به على أهل الأرض يعلم به أعمالهم**»[(١)].

• عن محمّد بن مروان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الإمام يسمع الصوت في بطن أُمّه، فإذا بلغ أربعة أشهر كتب على عضده الأيمن:** ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ **فإذا وضعته سطع له نورٌ ما بين السماء والأرض، فإذا درج رفع له عمود من نور يرى به ما بين المشرق والمغرب**»[(٢)].

• عن يونس بن ظبيان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الإمام يسمع الصوت في بطن أُمّه، فإذا وُلد خط على منكبيه خطّ ـ ثمّ قال**

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٢٩، باب في أمر العمود الذي يرفع للأئمّة، الحديث: ١٥٤٢.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٣٣٣، باب في أنّ الإمام يرى ما بين المشرق والمغرب بالنور، الحديث: ١٥٥٢.

**هكذا بيده ـ وذلك قول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وجُعل له في كلّ قرية عمودٌ من نور يرى به ما يعمل أهلها فيها»**[1].

فكيف يمكن التوفيق بين هذه الطائفة من النصوص ـ وهي كثيرة ـ وبين ما تقدّم من أنّ علمهم إنّما هو بواسطة الروح التي جعلت فيهم؟

**والجواب**: إنّ العمود من النور الذي تحدّثت عنه هذه الروايات هو تعبير آخر عن الروح التي أشارت إليها النصوص السابقة، وذلك بشهادة ما أشار إليه الإمام الرضا عليه السلام حيث قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ أيّدنا بروح منه مقدّسة مطهّرة ليست بملك. لم تكن مع أحد ممّن مضى إلاّ مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، وهي مع الأئمّة منّا تسدّدهم وتوفّقهم، وهو عمود من نور بيننا وبين الله عزّ وجلّ**»[2].

## وسائل وآليّات إفاضة العلم على قلوب الأنبياء والأوصياء

بعد أن اتّضح أنّ روح القدس الذي هو أعظم من جبرئيل وميكائيل، هو واسطة الفيض لإيصال المعارف والعلوم إلى قلوب الأنبياء والأوصياء، نتساءل ما هي الآليّات التي من خلالها يحصل ذلك؟

والجواب: عرضت النصوص الروائيّة لمجموعة من الوسائل والآليّات لتحقيق ذلك:

• عن أبي بصير قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول:

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٣٣٥، باب في أنّ الإمام يرفع له في كلّ بلد منار، الحديث: ١٥٥٦.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٢٥ ص٤٨، كتاب الإمامة، باب الأرواح التي فيهم، الحديث: ٧.

**إنّا لنزاد في الليل والنهار ولو لم نزد لنفد ما عندنا.**

قال أبو بصير: جُعلت فداك من يأتيكم به؟

قال عليه السلام: **إنّ منّا من يعاين، وإنّ منّا لمن ينقر في قلبه كيت وكيت، ومنّا من يسمع بأذنه وقعاً كوقع السلسلة في الطشت.**

فقلت له: من الذي يأتيكم بذلك؟

قال: **خلقٌ لله أعظم من جبرئيل وميكائيل**»[1].

فهذا النصّ واضح الدلالة أنّ روح القدس إنّما يفيض العلوم والمعارف من خلال آليّات محدّدة. من هنا لابدّ من الوقوف على تلك الآليّات والطرق التي تحقّق ذلك.

## الطريق الأوّل: أنّهم محدّثون

• عن محمّد بن إسماعيل قال: «سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: **الأئمّة علماء صادقون مفهّمون محدّثون**»[2].

• عن أبي جعفر الثاني عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال لابن عبّاس: «**إنّ ليلة القدر في كلّ سنة، وإنّه ينزل في تلك الليلة أمر السنة، ولذلك الأمر ولاة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله**، فقال ابن عبّاس: مَن هم؟ قال: **أنا وأحد عشر من صلبي أئمّة محدّثون**»[3].

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج١٨ ص٢٧٠، كتاب تاريخ نبيّنا، باب آخر في كيفيّة صدور الوحي ونزول جبرئيل، الحديث: ٣٣.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٧١، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة محدّثون مفهمون، الحديث: ٣.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٥٣٢، كتاب الحجّة، باب ما جاء في الاثني عشر والنصّ عليهم، الحديث: ١١.

• عن ابن أذينة عن زرارة قال: «سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: **الاثنا عشر الإمام من آل محمّد كلّهم محدّث من ولد رسول الله صلّى الله عليه وآله وولد عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فرسول الله وعليّ هما الوالدان**»[(١)].

• عن شعيب بن واقد عن إسحاق بن جعفر بن محمّد بن عيسى بن زيد بن علي قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **إنّما سُمّيت فاطمة محدَّثة لأنّ الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها كما تنادي مريم بنت عمران فتقول: يا فاطمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يا فاطمة ﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾** (آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣)، **فتحدّثهم ويحدّثونها. فقالت لهم ذات ليلة: أليست المفضّلة على نساء العالمين مريم بنت عمران؟**

**فقالوا: إنّ مريم كانت سيّدة نساء عالمها وإنّ الله عزّ وجلّ جعلك سيّدة نساء عالمك وعالمها وسيّدة نساء الأوّلين والآخرين**»[(٢)].

قال العلاّمة الأميني في الغدير: «أصفقت الأمّة الإسلاميّة على أنّ في هذه الأمّة كما في الأمم السابقة محدَّثين ـ على صيغة المفعول ـ وقد أخبر بذلك النبيّ الأعظم كما ورد في الصحاح والمسانيد من طرق الفريقين[(٣)]

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٥٣٣، الحديث: ١٤.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٤٣ ص٧٨، تاريخ سيّدة النساء فاطمة الزهراء، باب مناقبها وأحوالها، الحديث: ٦٥.

(٣) في **صحيح البخاري**: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلّم: «**لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدّثون، فإن يك في أمّتي أحدٌ فإنّه عمر**».

زاد زكريا بن أبي زائدة، عن سعد، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال النبيّ صلّى الله عليه (وآله) وسلّم: «**لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكلّمون**=

(العامّة والخاصّة).

بيدَ أنّ الخلاف في تشخيصه، فالشيعة ترى عليّاً أمير المؤمنين وأولاده الأئمّة صلوات الله عليهم من المحدّثين، وأهل السنّة يرون غير ذلك. وهذا الوصف ليس من خاصّة منصبهم ولا ينحصر بهم، بل كانت الصدِّيقة ـ كريمة النبيّ الأعظم ـ محدّثة، وسلمان الفارسي محدّثاً، نعم كلّ الأئمّة من العترة الطاهرة محدَّثون، وليس كلّ محدَّث بإمام»[1].

ثمّ بيّنت الروايات معنى المحدّث وما يمتاز به عن النبيّ والرسول وهي كثيرة جدّاً؛ منها:

• عن الحسن بن محبوب عن الأحول قال: «سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الرسول والنبيّ والمحدّث، قال: **الرسول الذي يأتيه جبرئيل قُبُلاً** (بضمّتين كصُرُد أي عياناً ومقابلة) **فيراه ويكلّمه، فهذا الرسول. وأمّا النبيّ فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم ونحو ما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله من أسباب النبوّة قبل الوحي، حتّى أتاه جبرئيل عليه السلام من عند الله بالرسالة، وكان محمّد صلّى الله عليه وآله حين جمع له النبوّة وجاءته الرسالة من عند الله يجيئه بها جبرئيل ويكلّمه بها قُبُلاً، ومن الأنبياء من جمع له النبوّة ويرى في منامه ويأتيه الروح ويكلّمه ويحدّثه من غير أن يكون يرى ما في اليقظة. وأمّا المحدّث فهو الذي يحدَّث فيسمع ولا يعاين ولا يرى في منامه**»[2].

---

= **من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أُمّتي منهم أحدٌ فعمرٌ**». **صحيح البخاري**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطّاب، الحديث: ٣٦٨٩.

(١) **الغدير في الكتاب والسنّة والأدب**، العلاّمة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، تحقيق: مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، الطبعة الأولى المحقّقة ١٤١٦هـ الناشر: مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة: ج٥ ص٦٧ و ص٧٧.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص١٧٦، كتاب الحجّة، باب الفرق بين=

• عن عبد الله بن بكير عن زرارة قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الرسول وعن النبيّ وعن المحدّث؟

فقال: **الرسول الذي يعاين الملك يأتيه بالرسالة من ربِّه، يقول: يأمرك كذا وكذا، والرسول يكون نبيّاً مع الرسالة. والنبيّ لا يعاين الملك ينزل عليه النبأ على قلبه فيكون كالمغمى عليه فيرى في منامه.**

قلت: فما علّمه أنّ الذي رأى في منامه حقّ؟

قال: **يثبّته الله حتّى يعلم أنّ ذلك حقّ ولا يعاين الملك.**

**والمحدّث الذي يسمع الصوت ولا يرى شاهداً**»[(١)].

• عن مروان بن مسلم عن بريد عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام في قوله عزّ وجلّ ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ**﴾: **ولا محدّث.**

قلت: جعلت فداك ليست هذه قراءتنا، فما الرسول والنبيّ والمحدّث؟

قال: **الرسول الذي يظهر له الملك فيكلّمه، والنبيّ هو الذي يرى في منامه، وربما اجتمعت النبوّة والرسالة لواحد. والمحدّث الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة.**

قلت: أصلحك الله كيف يعلم أنّ الذي رأى في النوم حقّ وأنّه من الملك؟

قال: **يوفّق لذلك حتّى يعرفه، لقد ختم الله بكتابكم الكتب وختم بنبيّكم الأنبياء**»[(٢)].

---

= الرسول والنبيّ والمحدّث، الحديث: ٣.

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٢١٥، باب الفرق بين الأنبياء والرسل والأئمّة، الحديث: ١٣٢٥.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج١ ص١٧٧، كتاب الحجّة، باب الفرق بين الرسول والنبيّ والمحدّث، الحديث: ٤.

• عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: «قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **بينا أبي عليه السلام يطوف بالكعبة إذا رجلٌ معتجرٌ** (الاعتجار التنقّب ببعض العمامة) **قد قيّض له فقطع عليه أسبوعه** فقال: يا أبا جعفر أخبرني عن العلم الذي ليس فيه اختلاف، من يعلمه؟

قال: **أمّا جملة العلم فعند الله جلّ ذكره، وأمّا ما لابدّ للعباد منه فعند الأوصياء؟**

قال: ففتح الرجل عجيرته واستوى جالساً وتهلّل وجهه وقال: هذا أردت ولها أتيت، زعمتَ أنّ علم ما لا اختلاف فيه من العلم عند الأوصياء، فكيف يعلمونه؟

قال: **كما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يعلمه، إلاّ أنّهم لا يرون ما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يرى، لأنّه كان نبيّاً وهم محدَّثون...**»[1].

تعرّضت هذه النصوص للفرق بين النبيّ والرسول من جهة، والفرق بين الوحي والتحديث من جهة أخرى، وهذا ما سنحاول الوقوف عليه:

«أمّا الوحي ـ بمعنى تكليم الله سبحانه لعبده ـ فهو يوجب العلم اليقيني بنفس ذاته من غير حاجة إلى حجّة، فمَثَلَه في الإلقاءات الإلهيّة مثل العلوم البديهيّة التي لا تحتاج في حصولها للإنسان إلى سبب تصديقيّ كالقياس ونحوه.

وأمّا المنام فالروايات ـ كما ترى ـ تفسّره بمعنىً غير المعهود منه، أعني الرؤيا يراها الإنسان في النوم العادي العارض له في يومه وليلته، بل هو حال يُشبه الإغماء، تسكن فيه حواسّ الإنسان فيشاهد عند ذلك نظير ما

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٤٢، كتاب الحجّة، باب في شأن إنّا أنزلناه في ليلة القدر، الحديث: ١.

نشاهده في اليقظة ثمّ يسدّده الله سبحانه بإفاضته على نفسه اليقين بأنّه من جانب الله سبحانه لا من تصرّف الشيطان.

وأمّا التحديث فهو سماع صوت الملك غير أنّه بسمع القلب دون سمع الحسّ، وليس من قبيل الخطور الذهني الذي لا يسمّى سمع صوت إلاّ بنحو من المجاز البعيد، ولذلك ترى أنّ الروايات تجمع فيه بين سماع الصوت والنكت في القلب؛ عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**كان عليّ محدَّثاً، وكان سلمان محدَّثاً**» قال قلت: فما آية المحدَّث؟ قال: **يأتيه المَلك فينكت في قلبه كيت كيت**»[1] وتسمّيه مع ذلك تحديثاً وتكليماً، فالمحدّث يسمع صوت الملك في تحديثه ويعيه بسمعه نظير ما نسمعه ويسمعه من الكلام المعتاد والأصوات المسموعة في عالم المادّة، غير أنّه لا يشاركه في ما يسمعه من كلام المَلك غيره، ولذا كان أمراً قلبيّاً»[2].

وأمّا علم المحدَّث بأنّ ما حُدِّث به هو من كلام الملك لا من نزغة الشيطان، فهذا ما أشارت إليه بعض النصوص من قبيل ما ورد عن محمّد بن مسلم قال: «ذكر المحدّث عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقال: **إنّه يسمع الصوت ولا يرى الشخص،** فقلت له: جعلت فداك كيف يعلم أنّه كلام الملك؟ قال: **إنّه يعطى السكينة والوقار حتّى يعلم أنّه كلام ملك**»[3].

فإذا حصل للإنسان سكينة وطمأنينة عند إلقاء حديث أو خاطر فإنّه يدلّ على كون تلك الإلقاءات رحمانيّة؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ

---

(١) **بصائر الدرجات**، مصدر سابق: ج٢ ص١١٤، باب أنّ المحدّث كيف صفته، الحديث: ١١٥٣.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص٢٢٠.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٧١، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة محدّثون مفهمون، الحديث: ٤.

ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، كما أنّ الاضطراب والقلق دليل كونه إلقاءً شيطانيّاً.

نعم، يبقى هناك تساؤل يطرح من خلال ما أشارت إليه النصوص المتقدِّمة، وهو ما معنى أنّ المحدّث يسمع ولا يرى، فهل المقصود أنّ المحدَّث لا يرى مطلقاً، أو أنّه لا يرى من جهة كونه محدَّثاً وإن كان يمكن أن يرى المَلك ويعاينه لا من تلك الجهة؟

**والجواب:** إنّ ذلك محمول على الجهة دون التمانع بين المعنيين، بمعنى أنّ الملاك في كون الإنسان محدّثاً أن يسمع الصوت من غير لزوم الرؤية، فإن اتّفق أنّ شاهد المَلك حينما يسمع الصوت فليس ذلك لأنّه محدَّث؛ وذلك لأنّ الآيات صريحة في رؤية بعض المحدّثين للملائكة حين التحديث كقوله تعالى في مريم عليها السلام: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ (مريم: ١٧ـ١٩)، وقوله تعالى ـ في زوجة إبراهيم عليه السلام في قصّة البشارة ـ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (هود: ٦٩ـ٧٣).

وهذا ما صرّحت به النصوص الروائيّة بشكل واضح، منها:

• عن عبد الله بن النجاشي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال قال: «**فينا والله من ينقر في أذنه وينكت في قلبه وتصافحه الملائكة**»(١).

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص١٠٦، باب ما يفعل بالإمام من =

• عن أبان بن عثمان عن زرارة قال: قال أبو عبد الله الصادق: «**بينما أنا في الدار مع جارية لي إذ أقبل رجلٌ قاطب بوجهه، فلمّا رأيته علمت أنّه ملك الموت، فاستقبله رجلٌ آخر أطلق منه وجهاً وأطلق منه بشراً فقال له: ليس بذا أمرت، فبينما أنا أُحدّث الجارية إذ قبضت**»[١].

• عن أبي بصير قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **إنّ منّا من يعاين، وإنّ منّا لمن ينقر في قلبه**... فقلت له: من الذي يأتيكم بذلك؟ قال: **خلقٌ لله أعظم من جبرئيل وميكائيل**»[٢].

## الطريق الثاني: أنّهم ملهمون

استفاضت النصوص الروائيّة لبيان أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام ملهمون، منها:

• عن عبد العزيز بن مسلم عن علي بن موسى الرضا عليه السلام في حديث طويل قال فيه: «**وإنّ العبد إذا اختاره الله عزّ وجلّ لأمور عباده، شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً، فلم يعي بعده بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب**...»[٣].

• عن الحسن بن العبّاس بن حريش عن أبي جعفر الباقر عليه السلام

= النكت والقذف والنقر في قلوبهم، الحديث: ١١٣٦.

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٥٩ ص٢٥٣، كتاب السماء والعالم، باب آخر في وصف الملائكة المقرّبين، الحديث: ١٤.

(٢) **بحار الأنوار**: ج١٨ ص٢٧٠، كتاب تاريخ نبيّنا، باب آخر في كيفيّة صدور الوحي، الحديث: ٣٣.

(٣) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٠٢، كتاب الحجّة، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته، الحديث: ١.

قال: «**إنّ لنا في ليالي الجمعة لشأناً من الشأن**» إلى أن يقول: «**ويصبح الأوصياء قد أُلهموا إلهاماً من العلم علماً جمّاً مثل جمّ الغفير**»[١].

• عن ابن عبّاس قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «**أعطاني الله تبارك وتعالى خمساً وأعطى عليّاً خمساً: أعطاني جوامع الكلم وأعطى عليّاً جوامع العلم، وجعلني نبيّاً وجعله وصيّاً، وأعطاني الكوثر وأعطاه السلسبيل، وأعطاني الوحي وأعطاه الإلهام، وأسرى بي إليه وفتح له أبواب السماوات والحجب حتّى نظر إلى ما نظرت إليه**»[٢].

• عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**كان علي يعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه، فإذا ورد عليه الشيء الحادث الذي ليس في الكتاب ولا في السنّة، ألهمه الله الحقّ فيه إلهاماً...**»[٣].

• عن الحسن بن يحيى المدائني عن أبي عبد الله الصادق قال: «قلت له: أخبرني عن الإمام إذا سُئِلَ كيف يُجيب؟ فقال: **إلهام وسماع وربما كانا جميعاً**»[٤].

• عن علي بن يقطين قال: «قلت لأبي الحسن عليه السلام: عِلْم عالِمكم أسماعٌ أم إلهام؟ قال: **يكون سماعاً ويكون إلهاماً ويكونان معاً**»[٥].

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٨، باب ما يزاد الأئمّة في ليلة الجمعة، الحديث: ٥٠٤.

(٢) **الخصال للصدوق**، مصدر سابق: ص٢٩٣، باب الخمسة، الحديث: ٥٧.

(٣) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٤٥٦، باب ما يلهم الإمام ممّا ليس في الكتاب والسنّة من المعضلات، الحديث: ٨٥٥.

(٤) المصدر السابق: ج٢ ص١٠٤، باب ما يفعل بالإمام من النكت والقذف والنقر، الحديث: ١١٢٩.

(٥) المصدر السابق: ج٢ ص١٠٥، الحديث: ١١٣٢.

والإلهام: مصدر «ألهم» وهو فعل متعدّ بالهمزة، والإلهام اسم قليل الورود في كلام العرب، ولم يذكر أهل اللغة شاهداً له من كلام العرب.

قال ابن عاشور التونسي: «ويطلق الإلهام إطلاقاً خاصّاً على حدوث علم في النفس بدون تعليم ولا تجربة ولا تفكير، فهو علمٌ يحصل من غير دليل سواء ما كان منه وجدانيّاً كالانسياق إلى المعلومات الضروريّة والوجدانيّة، وما كان منه عن دليل كالتجريبيّات والأمور الفكريّة والنظريّة»(١).

وقال الطباطبائي معقّباً على قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ (النساء: ١١٣) «ليس هو الذي علّمه بوحي الكتاب والحكمة فقط، فإنّ مورد الآية قضاء النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ في الحوادث الواقعة والدعاوى التي ترفع إليه ـ برأيه الخاصّ، وليس ذلك من الكتاب والحكمة بشيء وإن كان متوقّفاً عليهما بل رأيه ونظره الخاصّ به.

من هنا يظهر أنّ المراد بالإنزال والتعليم في قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ نوعان اثنان من العلم؛ أحدهما: التعليم بالوحي ونزول الروح الأمين على النبيّ صلّى الله عليه وآله، والآخر: التعليم بنوع من الإلقاء في القلب والإلهام الخفيّ الإلهي من غير إنزال الملك، وهذا هو الذي تؤيّده الروايات في علم النبيّ صلّى الله عليه وآله»(٢).

أمّا السيّد حيدر الآملي فبعد أن بيّن أنّ الإلهام مختصّ بالأولياء والأوصياء، كما أنّ الوحي الخاصّ لا العامّ مختصّ بالأنبياء والرسل قال: «وأمّا الإلهام فيكون خاصّاً ويكون عامّاً، فالخاصّ هو مخصوص بالأولياء

---

(١) **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور التونسي**، مصدر سابق: ج٣٠ ص٣٢٦.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٥ ص٧٩.

والأوصياء، وهو يكون أيضاً بواسطة وغير واسطة، فالذي يكون بالواسطة هو يكون بصوت خارج عن الشخص يسمعه ويفهم منه المعنى المقصود، والإلهام الذي يكون بغير الواسطة يكون بقذف المعاني والحقائق في قلوب الأولياء من عالم الغيب دفعةً أو تدريجاً كشعاع الشمس مثلاً بالنسبة إلى بيوت المدينة وأهلها.

وأمّا الإلهام العامّ فيكون بسبب وغير سبب ويكون حقيقيّاً وغير حقيقيّ، فالذي يكون بالسبب ويكون حقيقيّاً، فهو بتسوية النفس وتجليتها وتهذيبها بالأخلاق المرضيّة والأوصاف الحميدة، موافقاً للشرع ومطابقاً للإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٧ ـ ٨) »[١].

**الطريق الثالث: إنّ علمهم بواسطة القذف والنقر في القلوب والأسماع**

• عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: «الذي يُسأل الإمام عنه وليس عنده فيه شيء، من أين يعلمه؟ قال: **يُنكت في القلب نكتاً أو يُنقر في الأذن نقراً**»[٢].

• عن عيسى بن حمزة الثقفي قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: إنّا نسألك أحياناً فتسرع في الجواب وأحياناً تطرق ثمّ تُجيبنا. قال: **نعم إنّه ينقر وينكت في آذاننا وقلوبنا، فإذا نكت أو نقر نطقنا، وإذا أمسك عنّا أمسكنا**»[٣].

---

(١) **جامع الأسرار ومنبع الأنوار**، مصدر سابق: ص٤٥٣.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص١٠٣، باب ما يفعل بالإمام من النكت والقذف والنقر في قلوبهم وأذنهم، الحديث: ١١٢٦.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص١٠٤، الحديث: ١١٢٧.

إلاّ أنّ ما ذكر في الواقع في هذين النصّين وما يناظرهما من القذف في القلوب والنقر في الأسماع ليس طريقاً آخر وراء التحديث والإلهام المتقدّمين في الطريق الأوّل والثاني كما هو واضح، ويشهد لذلك عدد من النصوص في هذا المجال، منها: عن أبي الحسن عليه السلام قال: «... **وأمّا النكت في القلوب فإلهام، وأمّا النقر في الأسماع فأمر المَلك**»[1]

## الخلاصة

١ ـ مقدّمة في أنّ حصول العلوم لدى الإنسان، يتحقّق بطريقين:

الطريق الأوّل: التعلّم الإنساني.

الطريق الثاني: التعلّم الربّاني (العلم اللدني).

٢ ـ أقسام العلم اللدني:

أ ـ العلم اللدني الحاصل من الله تعالى مباشرةً.

ب ـ العلم اللدني الحاصل من الله تعالى بواسطة.

٣ ـ إنّ علم أهل البيت عليهم السلام من العلم اللدني الحاصل من الله تعالى بواسطة روح القدس.

٤ ـ من طرق آليّات ووسائل تحقّق العلم اللدني لدى أهل البيت عليهم السلام:

الطريق الأوّل: تحديث الملائكة لهم.

الطريق الثاني: الإلهام.

الطريق الثالث: القذف والنقر في القلوب والأسماع.

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٤، كتاب الحجّة، باب جهات علوم الأئمّة، الحديث: ٣.

# الفصل الخامس

# علم أئمّة أهل البيت بالغيب

يشتمل هذا الفصل على عدّة مباحث نحاول الوقوف عليها:

## ١: الغيب والشهادة لغةً واصطلاحاً والنسبة بينهما

لا يختلف معنى الغيب والشهادة في الاصطلاح القرآني والروائي عمّا هو في المفاهيم اللغويّة. قال الراغب الأصفهاني: «الغيب مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، يُقال غاب عنّي كذا، قال تعالى: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ (النمل: ٢٠)، واستعمل في كلّ غائب عن الحاسّة وعمّا يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب»[١]. وقال ابن منظور: «الغيب: كلّ ما غاب عنك»[٢].

ولا فرق بين أن يكون الغائب عن المشاعر والحواسّ ماضياً أو في الحال أو الاستقبال، ويدلّ على الأوّل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (آل عمران: ٤٤)، الوارد في قصّة زكريا ومريم عليهما السلام، وعلى الثاني قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ (البقرة: ٣)، وقوله: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ (سبأ: ١٤) وقوله حكايةً عن إخوة يوسف: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ (يوسف: ٨١). وأمّا الثالث فهو المتيقّن من الغيب.

وأمّا الشهادة فهو الحضور؛ قال الراغب: «الشهادة هي الحضور مقترناً بالمشاهدة، سواء بالعين الظاهرة أو بعين البصيرة»[٣].

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**، مصدر سابق: ص٣٣٦، مادّة: غيب.

(٢) **لسان العرب**، مصدر سابق: ج١٠ ص١٥١، مادّة: غيب.

(٣) **المفردات في غريب القرآن**: ص٢٦٧، مادّة: شهد.

وبنفس هذا المعنى جاء في النصّ القرآني كقوله تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ (الرعد: ٩).

قال الآلوسي: «**عالم الغيب** أي الغائب عن الحسّ، والشهادة: أي الحاضر له»[١]. وقال الطباطبائي: «الغيب خلاف الشهادة، وينطبق على ما لا يقع عليه الحسّ»[٢].

فما قيل من اختصاص الغيب بما لم يكن وسيكون ضعيف، والاستدلال عليه بما ورد «عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾: **الغيب ما لم يكن، والشهادة ما قد كان**»[٣] لا يدلّ على الاختصاص بل على الاستعمال.

## الغيب والشهادة أمران إضافيّان

إنّ الغيب والشهادة من المعاني الإضافيّة، فإنّ الشيء الواحد قد يكون غيباً بالنسبة إلى شيء لأنّه خارج عن دائرة رؤيته ومعرفته، ويكون نفس ذلك الشيء شهادة لآخر لأنّه مشهودٌ له. ومردّ ذلك إلى كون الأشياء لها حدود لا تنفكّ عنها، فما كان خارجاً عن حدّ الشيء لا يكون مشهوداً له فيكون غيباً بالنسبة إليه، وما كان داخلاً في حدّ الشيء فهو شهادة بالنسبة إليه ومشهودٌ له.

من قبيل ما يجري في فكر الإنسان فهو شهادة بالنسبة لذلك الإنسان وغيب لآخر، ومن قبيل عالم البرزخ فهو غيب بالنسبة للإنسان الذي يعيش

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: ج٣ ص١١٠.
(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١ ص٤٥.
(٣) **البرهان في تفسير القرآن**: ج٤ ص٢٥٤.

في دار الدُّنيا وشهادة لمن انتقل من هذه النشأة إلى نشأة البرزخ. كذلك علم الله تعالى بذاته فهو شهادة بالنسبة إليه تعالى وغيب بالنسبة لباقي مخلوقاته.

إذن الغيب والشهادة من المعاني الإضافيّة النسبيّة بقياس الأشياء بعضها إلى بعض.

ومن أهمّ النتائج المترتّبة على هذه الحقيقة، أنّه لا يوجد هناك شيء يكون غيباً بالنسبة له تعالى، وذلك لأنّه بعدما ثبت في أبحاث التوحيد أنّ الله تعالى عالم بكلّ شيء ومحيط بكلّ شيء، لا يشذّ عن علمه شيء من الأشياء، فلا يقع شيء خارج عن علمه، فعلى هذا فلا معنى لأن يكون شيء من الأشياء غيباً بالنسبة إليه تعالى، فكلّ ما هو موجود فهو داخل في دائرة إحاطته وإن فرض أنّ ذلك الشيء غيب بالنسبة إلى غيره؛ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ (فصّلت: ٥٤)، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣١)، وقال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ (النساء: ١٧٦)، وقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٠١).

وبحسب الاصطلاح المنطقي لا يتّصف الحقّ تعالى بأنّه عالم الغيب؛ لأنّه لا يوجد بالنسبة إليه غيب أصلاً، فيكون نفي العلم بالغيب عنه من باب السالبة بانتفاء الموضوع، لذا نقل الآلوسي عن البعض أنّه قال: «إنّه سبحانه لا يعلم الغيب على معنى أن لا غيب بالنسبة إليه جلّ شأنه»[1].

من هنا قد يُقال: إذن ما معنى إطلاق القرآن عليه تعالى بأنّه «عالم الغيب» وأنّه تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (سبأ: ٤٨)؟ والجواب: أنّ ذلك ليس وصفاً بحال نفس الموصوف، بل هو وصف بحال متعلّق الموصوف، بمعنى أنّ شيئاً ما إذا كان غيباً بالنسبة إلى بعض مخلوقاته وغير مشهود له،

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج١٣ ص١١٠.

فهو معلوم له تعالى بنحو الشهادة والحضور، وعليه فكلّ شيء سواء كان غيباً أو شهادةً بالنسبة إلى مخلوقاته فهو شهادة بالنسبة إليه تعالى، قال في الميزان: «فيصير معنى قوله ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أنّ الذي يمكن أن يعلم به أرباب العلم وهو الذي لا يخرج عن حدّ وجودهم والذي لا يمكن أن يعلموا به لكونه غيباً خارجاً عن حدّ وجودهم، هما معاً معلومان مشهودان له تعالى لإحاطته بكلّ شيء»[1].

## ٢: الجمع بين الآيات النافية لعلم الغيب لغير الله والآيات المثبتة

دلّت مجموعة من الآيات على انحصار علم الغيب بالله تعالى؛ منها:

- قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥).
- وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩).
- وقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ (يونس: ٢٠).

فهذه الآيات ظاهرة في أنّ علم الغيب منحصر به تعالى؛ قال الرازي: «إنّ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ يفيد الحصر، أي عنده لا عند غيره»[2].

وقال الطباطبائي: «وكيف كان فقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ مسوق لبيان انحصار العلم بالغيب فيه تعالى؛ إمّا لأنّ خزائن الغيب لا يعلمها إلاّ الله، وإمّا لأنّ مفاتيح الغيب لا يعلمها غيره تعالى، فلا سبيل لغيره إلى تلك الخزائن، إذ لا علم له بمفاتيحها التي يتوصّل بها إلى فتحها والتصرّف فيها»[3].

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١١ ص٣٠٧.

(٢) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، مصدر سابق: ج١٣ ص١٠.

(٣) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٧ ص١٢٥.

في مقابل هذه النصوص هناك نصوص قرآنية أخرى أثبتت أنّ بعض عباده مستثنى من ذلك:

• قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ (آل عمران: ١٧٩)، وهي واضحة الدلالة على أنّ بعض عباده يطلعهم الله على الغيب. وفي التعبير بالاجتباء إشارة إلى أنّ الوقوف على أسرار الغيب منصبٌ جليل تتقاصر عنه الهمم ولا يؤتيه الله إلاّ لمن اصطفاه من عباده.

قال المراغي في ذيل هذه الآية: «أي لم يكن من شأنه تعالى أن يطلع عامّة الناس على الغيب، إذ لو فعل ذلك لأخرج الإنسان من طبيعته، فإنّه تعالى خلقه يحصّل رغائبه ويدفع المكاره عنه بالعمل الكسبي الذي تهدي إليه الفطرة وترشد إليه النبوّة.

ولكن يختار من رسله من يشاء فيطلعه على ما في قلوب المنافقين من كفر ونفاق وعلى ما ظهر من أقوال وأفعال»[1].

وقال الآلوسي: «إنّ حاصل المعنى: ليس لكم رتبة الاطّلاع على الغيب وإنّما لكم رتبة العلم الاستدلالي الحاصل من نصب العلامات والأدلّة، والله تعالى سيمنحكم بذلك فلا تطمعوا في غيره، فإنّ رتبة الاطّلاع على الغيب لمن شاء من رسله، وأين أنتم من أولئك المصطفين الأخيار؟!

ونقل الواحدي عن السدي أنّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قال: **«عُرضت عليَّ أمّتي في صورها كما عُرضت على آدم وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر. فبلغ ذلك المنافقين فاستهزءوا وقالوا: يزعم محمّد أنّه يعلم من**

---

(١) **تفسير المراغي**، تأليف: أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ: ج٢ ص٨٢.

**يؤمن به ومن يكفر، ونحن معه ولا يعرفنا فأنزل الله تعالى هذه الآية»**(١).

وقال الطباطبائي: «لمّا أمكن أن يتوهّم أنّ هناك طريقاً آخر إلى تمييز الخبيث من الطيّب، وهو أن يطلعهم على الخبثاء حتّى يتميّزوا منهم، فلا يقاسوا جميع هذه المحن والبلايا التي يقاسونها بسبب اختلاط المنافقين والذين في قلوبهم مرض بهم، فدفع هذا الوهم بأنّ علم الغيب بما استأثر الله به نفسه فلا يطلع عليه أحداً إلاّ من اجتبى من رسله، فإنّه ربما أطلعه عليه بالوحي»(٢).

• وقال تعالى: ﴿**عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**﴾ (الجن: ٢٦، ٢٧). قال القرطبي: «لمّا تمدّح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنّه لا يعلم الغيب أحدٌ سواه، ثمّ استثنى من ارتضاه من الرُّسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوّتهم»(٣).

وقال ابن عاشور التونسي: «وإضافة صفة **عالم** إلى **الغيب** تفيد العلم بكلّ الحقائق المغيّبة سواء كانت ماهيّات أو أفراداً، فيشمل المعنى المصدري للغيب مثل علم الله بذاته وصفاته، ويشمل الأمور الغائبة بذاتها مثل الملائكة والجنّ، ويشمل الذرّات المغيّبة عن علم الناس مثل الوقائع المستقبلة التي يخبر عنها أو التي لا يخبر عنها، فإيثار المصدر هنا لأنّه أشمل لإحاطة علم الله بجميع ذلك.

وفرّع على معنى تخصيص الله تعالى بعلم الغيب جملة ﴿**فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ**

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج٤ ص١٣٧.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٤ ص٧٩.

(٣) **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المتوفّى ٦٧١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٧ : ج١٩ ص٢٨.

غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ومعناها: لا يطلع ولا ينبي به، وهو أقوى من «يطلع» لأنّ «يظهر» جاء من الظهور وهو المشاهدة ولتضمينه معنى «يطلع» عدّي بحرف «على». ووقوع الفعل في حيّز النفي يفيد العموم، وكذلك وقوع مفعوله وهو نكرة في حيّزه يفيد العموم.

واستثنى من هذا النفي من ارتضاه ليطلعه على بعض الغيب أي على غيب أراد الله إظهاره من الوحي فإنّه من غيب الله، وكذلك ما أراد الله أن يؤيّد به رسوله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم من إخبار بما سيحدث أو إطلاع على ضمائر بعض الناس. فقوله «ارتضى» مستثنى من عموم «أحداً» والتقدير: إلاّ أحداً ارتضاه أي اختاره للاطّلاع على شيء من الغيب لحكمة أرادها الله تعالى.

والمراد بهذا الاطّلاع المحقّق المفيدُ علماً كعلم المشاهدة، فلا تشمل الآية ما قد يحصل لبعض الصالحين من شرح الصدر بالرؤيا الصادقة»[1].

من هنا ذكر القرآن الكريم عدداً من الموارد التي أخبر فيها الأنبياء وغيرهم عن المواد المستقبليّة.

• قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ (الروم: ٢ ـ ٤).

اتّفقت كلمة المفسّرين على أنّ هذه الآيات نزلت في أعقاب الحرب التي دارت بين الروم والفرس، وهما الدولتان اللتان كانتا تسيطران على العالم القديم، وكانتا تتنازعان السيادة على بلاد الشام وغيرها، حيث أخبرت عن أمر غيبيّ يقع في المستقبل القريب.

قال الزحيلي في تفسيره: «وهذا إخبار بالغيب عن أمر في المستقبل وأيّده

(١) **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**، مصدر سابق: ج٢٩ ص٢٣٠.

الواقع، وقد نزلت الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، فاضطرّ هرقل ملك الروم حتّى ألجأه إلى القسطنطينيّة وحاصره فيها مدّة طويلة، ثمّ عادت الدولة لهرقل.

فبعد نزول سورة الروم سنة ٦٢٢م ببضع سنين (في سنة ٦٢٧ م) أحرز هرقل أوّل نصر حاسم للروم على الفرس في نينوى على نهر دجلة، وانسحب الفرس لذلك من حصارهم للقسطنطينيّة، ولقي كسرى ابرويز مصرعه سنة ٦٢٨م على يد ولده»[1].

• وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٧)، فقد أخبر رسول الله صلّى الله عليه وآله المسلمين بأنّهم سوف يفتحون مكّة في المستقبل وقد وقع ذلك فعلاً، ومن الواضح أنّ ذلك إخبار عن الغيب أطلع الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وآله من خلال الرؤيا.

• وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥). أشارت الآية إلى أنّ الذي «فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس وتبلّغه ولتعملوا به، سيردّك ويصيّرك إلى محلّ لكون هذه الصيرورة منك إليه عوداً ويكون هو معاداً لك. ومن المعلوم أنّه صلّى الله عليه وآله كان بمكّة على ما فيها من الشدّة والفتنة، ثمّ هاجر منها ثمّ عاد إليها فاتحاً مظفّراً

---

(١) **التفسير المبين في العقيدة والشريعة والمنهج**، الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان، دار الفكر، دمشق ـ سورية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ: ج٢١ ص٤٩.

وثبتت قواعد دينه واستحكمت أركان دولته»[1]. ومن الواضح أنّ ذلك إخبار عن الغيب وقد وقع كما أخبر.

• كذا ما ورد في شأن النبي عيسى؛ قال تعالى على لسانه: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩)، فإخباره عليه السلام ما يدّخرون في بيوتهم وما يأكلون من أوضح مصاديق الإخبار عن الغيب.

• وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص: ٧)، حيث دلّت على إطلاع أمّ موسى على الغيب، وليست هي من الأنبياء والأوصياء.

وكذلك تحدّث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن قصص الأنبياء السابقين وأخبار أممهم، وهو من أوضح مصاديق الإخبار بالغيب.

• قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ (هود: ٤٩).

• وقوله بعد قصّة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢).

• وقوله تعالى في قصّة مريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران: ٤٤).

تحصّل ممّا سبق أنّ الآيات القرآنيّة تبيّن من جهة اختصاص العلم بالغيب بالله عزّ اسمه كما في الصنف الأوّل، لكنّها من جهة أخرى تعمّمها لغيره تعالى كما في الصنف الثاني. من هنا يطرح هذا التساؤل: كيف يمكن

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٦ ص٨٧ .

الجمع بين هذين الصنفين من الآيات؟

وقد ذكرت في كلمات الأعلام معالجتان لذلك:

## المعالجة الأولى: بالذات وبالغير

أن يقال إنّ الآيات الدالّة على انحصار علم الغيب بالله تعالى غايتها الدلالة على أنّ علم الغيب منحصر به تعالى بنحو الاستقلال وبالذات، بمعنى أنّه ليس محتاجاً فيه إلى غيره أبداً، وذلك لأنّ الله تعالى واجب الوجود بالذات وغنيٌّ عمّا سواه، وعليه فهو مصدر ومنبع كلّ الكمالات ومنها علمه تعالى بكلّ شيء، وهذا المعنى لا يشاركه فيه أحد؛ لوحدة واجب الوجود بالذات. ومن الواضح أنّ هذا لا يتنافى ولا يتقاطع مع تلك النصوص القرآنيّة التي أثبتت علم الغيب لغيره سبحانه ممّن اجتباهم وارتضاهم من عباده الصالحين، لمصلحة وحكمة تقتضي ذلك، لكن على نحو التبعيّة والتعليم والإفاضة منه سبحانه، لذا قال تعالى حكايةً عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ (الأنعام: ٥٠)، فهو يكشف عن فقره الذاتي، إذ لا يملك من نفسه أيّ شيء، إلاّ أنّ ذلك لا ينافي أن يفيض الله تعالى عليه من نعمه ومنها العلم بالغيب، لذا جاء في ذيل الآية: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ (الأنعام: ٥٠)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (النساء: ١٦٣).

قال الطباطبائي معقّباً على قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾: «استثناء من قوله **أحداً** و **من رسول** بيان لقوله: **من ارتضى**، فيفيد أنّ الله تعالى يظهر رسله على ما شاء من الغيب المختصّ به، فالآية إذا انضمّت إلى الآيات التي تخصّ علم الغيب به تعالى كقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أفاد ذلك معنى الأصالة والتبعيّة، فهو تعالى يعلم

الغيب لذاته، وغيره يعلمه بتعليم من الله تعالى.

وهذه المعالجة لا تختصّ بمحلّ الكلام، بل يمكن الاستعانة بها في موارد أخرى كثيرة أشار إليها القرآن الكريم من قبيل ما ورد في:

• الإماتة والتوفّي، حيث يصرّح بأنّ الله هو الذي يتوفّى الأنفس حين موتها كقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ (الزمر: ٤٢) بينما نجده في آيات أخرى ينسب التوفّي إلى غيره: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ (السجدة: ١١)، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (الأنعام: ٦١).

• كتابة أعمال العباد، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ (النساء: ٨١)، بينما قال في موضع آخر إنّ الملائكة مأمورون بكتابة الأعمال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٠) .

• الخلق، ففيما يسجّل القرآن بصراحة لا لبسَ فيها: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الرعد: ١٦)، نراه يعود لنسبة الخلق إلى آخرين كما في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤)، الذي يفيد تعدّد الخالق، أو قوله على لسان عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٤٩).

• الغنى، فبعد أن أثبت القرآن في آيات كثيرة أنّ الله هو الغنيّ الحميد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥)، عاد لنسبة الغنى والإغناء إلى رسوله محمّد صلّى الله عليه وآله أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (التوبة: ٧٤).

• الولاية، فمع أنّ الولاية هي حصراً لله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ (الشورى: ٩)، إلاّ أنّه مع ذلك أثبت الولاية لرسوله صلّى الله عليه وآله وأوصيائه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥).

• العزّة والقوّة، فبعد أن نصّ القرآن في العزّة بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٣٩) عاد ليقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨).

• وهكذا في القوّة حيث قال: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ١٦٥)، عاد ليسجّل: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم: ١٢) ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ (البقرة: ٦٣) ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

• التدبير، ولعلّه يعدّ من أوضح الأمثلة في هذا المجال، حيث نجد أنّ القرآن الكريم من جهة يثبت التدبير لله حصراً لقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ (يونس: ٣١)، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ (يونس: ٣)، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ (السجدة: ٥)، لكن من جهة أخرى ينسب التدبير إلى الملائكة أيضاً فيقول: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ (النازعات: ٥)، حيث أثبت لهم التدبير مطلقاً في هذا العالم.

فإنّه في جميع هذه الموارد ونظائرها، نجد أنّ القرآن ينفي كلّ كمال عن غيره تعالى ويحصره به سبحانه، ثمّ يثبته لغيره بإذنه ومشيّته، ولازم ذلك أنّ جميع الموجودات الإمكانيّة لا تملك ما تملك من هذه الكمالات بنفسها

واستقلالها، وإنّما تملكها بتمليك الله إيّاها. ولعلّ هذا معنى ما ورد عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام عندما سأله عباية بن ربعي عن معنى الاستطاعة قال: «**تملكها بالله الذي يملكها من دونك، فإن ملّككها كان ذلك من عطائه، وإن سلبكها كان ذلك من بلائه، وهو المالك لما ملّكَكَ والقادر على ما عليه أقدرك**»[1].

## المعالجة الثانية: الموجبة الكلّية والموجبة الجزئيّة

إنّ الآيات الدالّة على انحصار العلم بالغيب بالله تعالى، إنّما ترمي الإشارة إلى أمر بالغ الأهمّية على صعيد المعارف التوحيديّة، وهو استحالة اطلاع غير الله تعالى من المخلوقات على علم الغيب بشكل مطلق وشامل لكلّ موارده. إذ لا يمكن لأيٍّ من الموجودات الإمكانيّة مهما بلغت درجة وسعة كمالها الوجودي ـ ولو كان الصادر الأوّل ـ أن يطّلع على العلم الإلهي في مقام الذات الذي لا حدّ ولا نهاية له[2]؛ لعدم قابليّة إحاطة المتناهي باللامتناهي.

وفي ضوء ذلك فالآيات القرآنيّة الدالّة على انحصار علم الغيب بالله تعالى تشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ علم الغيب بنحو مطلق وشامل لكلّ موارد علم الغيب ـ بما فيها العلم بالذات الإلهيّة ـ منحصر به سبحانه، ولا يمكن لأيّ موجود آخر الاطّلاع على كلّ موارد العلم بالغيب، وهذا لا

---

(١) **تحف العقول عن آل الرسول**، الشيخ الثقة الجليل الأقدم أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ : ص٢١٣.

(٢) ينظر **التوحيد، بحوث في مراتبه ومعطياته**، تقريراً لدروس السيّد كمال الحيدري، بقلم: جواد علي كسّار، دار فراقد، الطبعة الخامسة: ١٤٢٧هـ : ج١ ص٢١٨.

ينافي إفاضته تعالى بعض علومه الغيبيّة لعباده الصالحين لمصلحة وحكمة تقتضي ذلك.

وبلغة الاصطلاح المنطقي: إنّ الآيات التي تثبت انحصار علم الغيب بالله تعالى إنّما تثبت ذلك بنحو الموجبة الكلّية، وأنّه لا أحد له علمٌ بذلك، وهذا الحصر لا ينتقض بما ذكره القرآن لبعض عباده لأنّه علم بنحو الموجبة الجزئيّة.

إذن: الآيات تنفي علم الغيب المطلق لا مطلق الغيب، وبذلك يظهر أنّه لا تنافي بين الأدلّة الدالّة على انحصار علم الغيب به تعالى وبين غيرها من الأدلّة التي تثبت علم الغيب للأنبياء والأوصياء.

ولعلّ من أقوى الشواهد التي بيّنت هذه الحقيقة ما ورد في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (الجن: ٢٦)، فالآية واضحة الدلالة أنّ كلّ غيبه لا يطّلع عليه أحد من عباده، فهي بصدد نفي أن يحصل لأحد من عباده المرسلين علمٌ بالغيب بنحو الموجبة الكلّية.

قال الطباطبائي: «والمعنى هو عالم كلّ غيب علماً يختصّ به فلا يطلع على الغيب ـ وهو مختصّ به ـ أحداً من الناس، فالمفاد سلب كلّي، وإن أصرَّ بعضهم على كونه سلباً جزئيّاً. محصّل معناه: لا يظهر على كلّ غيبه أحداً، ويؤيّد ما قلنا ظاهر ما سيأتي من الآيات»[١].

وقال الآلوسي: «إنّ اسم الجنس ـ أعني الذي يقع على القليل والكثير بلفظ واحد ـ إذا استعمل ولم تقم قرينة تخصّصه ببعض ما يصدق عليه، فهو في الظاهر لاستغراق الجنس آخذاً من استقراء كلامهم. والغيب اسم جنس يقع على القليل والكثير بلفظ واحد، ولا يضرّ في ذلك جمعه على

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج ٢٠ ص٥٣.

غيوب، وكذا المراد «بغيبه» جمع غيوبه، لأنّ اسم الجنس المضاف بمنزلة المعرّف باللام، سيما إذا كان في الأصل مصدراً.

والمراد بالإظهار المنفيّ الاطّلاع الكامل الذي تنكشف به جلّية الحال على أتمّ وجه كما يرشد إليه حرف الاستعلاء، فالله سبحانه عالم كلّ غيب وحده فلا يطلع على ذلك المختصّ علمه به إطلاعاً كاملاً أحداً من خلقه ليكون أليَق بالتفرّد وأبعَد عن توهّم مساواة علم خلقه لعلمه سبحانه، وإنّما يُطلع جلّ وعلا ـ إذا أطلع من شاء ـ على بعضه ممّا تقتضيه الحكمة التي هي مدار سائر أفعاله عزّ وجلّ»[1].

والحاصل أنّ هذه المعالجة تقوم على أساس أنّه لم يثبت أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله له علمٌ بكلّ غيب، حتّى يكون منافياً للآيات التي أثبتت أنّ علم الغيب بتمامه وكماله منحصر به تعالى، بل قام الدليل على عدمه؛ للنصوص الروائيّة الدالّة على أنّ من العلوم ما هو مكفوف وموقوف عنده تعالى، ولم يخبر به أحداً من خلقه، كما سنقف عليه في البحوث اللاحقة.

## ٣: أدلّة على علم أئمّة أهل البيت بالغيب

هناك عدد من الأدلّة الدالّة على علم أئمّة أهل البيت عليهم السلام بالغيب، منها:

### الدليل الأوّل: علم أهل البيت بالكتاب المبين

تبيّن فيما سبق أنّ الكتاب المبين هو المرتبة الغيبيّة والملكوتيّة للقرآن الكريم، وأنّ هذه المرتبة من الكتاب فيها تبيان كلّ شيء كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج٢٩ ص٩٦.

**﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾** (الأنعام: ٥٩)، وتبيّن أيضاً أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام؛ يعلمون كلّ ما في الكتاب المبين بالمشاهدة القلبيّة؛ لقوله: **﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾** (الواقعة: ٧٩)، فيثبت أنّهم عليهم السلام لديهم علم الغيب بكلّ ما يضمّه الكتاب المبين من علوم غيبيّة.

ويمكن صياغة هذا الدليل بشكل منطقي بما يلي:

- إنّ مرتبة الكتاب المبين هي مرتبة ملكوتيّة باطنيّة غيبيّة للقرآن الكريم.
- إنّ هذه المرتبة فيها تبيان كلّ شيء.
- إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام وقفوا وعلموا بكلّ ما يتضمّن الكتاب المبين من حقائق.

والنتيجة: أنّهم عليهم السلام لديهم علم بكلّ ما يضمّ الكتاب المبين من علوم غيبيّة، وهذا ما أيّدته النصوص الروائيّة الواردة في ذيل هذه الآية.

عن المفضل بن عمر قال: «دخلت على الصادق عليه السلام ذات يوم، فقال لي: **يا مفضّل عرفت محمّداً وعليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام كنه معرفتهم؟**

قلت: يا سيّدي وما كنه معرفتهم؟

قال: **يا مفضّل من عرفهم كنه معرفتهم كان مؤمناً في السنام الأعلى.**

قال قلت: عرّفني ذلك يا سيّدي؟

قال عليه السلام: **يا مفضّل تعلم أنّهم علموا ما خلق الله عزّ وجلّ وذرأه وبرأه، وأنّهم كلمة التقوى، وخزّان السماوات والأرضين والجبال والرمال والبحار، وعرفوا كم في السماء نجم ومَلك، ووزن الجبال وكيل ماء البحار وأنهارها وعيونها، وما تسقط من ورقة إلاّ علموها، ولا حبّة في ظلمات**

**الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين، وهو في علمهم وقد علموا ذلك»**[١].

## الدليل الثاني: أئمّة أهل البيت هم ورثة علم رسول الله

تضافرت النصوص الروائيّة على أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام وعلى رأسهم إمام المتّقين عليّ أمير المؤمنين عليه السلام هم ورثة علم رسول الله صلّى الله عليه وآله، ولمّا كان صلّى الله عليه وآله واجداً لأعلى وأكمل مراتب علم الغيب، لكونه أعلم من جميع الأنبياء والمرسلين كما تقدّم، فهم عليهم السلام أيضاً كذلك:

• عن الإمام الرضا عليه السلام في جواب عمرو بن هذّاب حينما نفى عن الأئمّة عليهم السلام علم الغيب متذرّعاً: بأنّ الغيب لا يعلمه إلاّ الله تعالى، قال عليه السلام: «**أوليسَ الله يقول: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فرسول الله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما شاء من غيبه، فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة»**[٢].

• عن عبد الله بن جندب أنّه كتب إليه أبو الحسن الرضا عليه السلام: **«أمّا بعد فإنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله كان أمين الله في أرضه، فلمّا قُبض صلّى الله عليه وآله كنّا أهل البيت ورثته، فنحن أُمناء الله في أرضه، عندنا علم المنايا والبلايا وأنساب العرب ومولد الإسلام، وإنّا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق، وإنّ شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله**

---

(١) **البرهان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٦ ص٣٨٧.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج٤٩ ص٧٥، تاريخ الإمام أبي الحسن الرضا، باب وروده البصرة والكوفة، الحديث: ١.

**علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا ويدخلون مدخلنا، ليس على ملّة الإسلام غيرنا وغيرهم. نحن النجباء ونحن أفراط الأنبياء ونحن أبناء الأوصياء، ونحن المخصوصون في كتاب الله، ونحن أولى الناس برسول الله صلّى الله عليه وآله...»**[1].

• عن سيف التمّار قال: كنّا مع أبي عبد الله الصادق عليه السلام جماعة من الشيعة في الحجر، فقال: «**وربّ الكعبة ـ ثلاث مرّات ـ لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أنّي أعلمُ منهما، ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما، لأنّ موسى والخضر أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما هو كائن إلى يوم القيامة، وأنّ رسول الله أُعطي علم ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فورثناه من رسول الله صلّى الله عليه وآله وراثةً**»[2].

• عن ضريس الكناسي قال: كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام وعنده أبو بصير، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**إنّ داود ورث علم الأنبياء، وإنّ سليمان ورث داود، وإنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله ورث سليمان، وإنّا ورثنا محمّداً صلّى الله عليه وآله، وإنّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى...**»[3].

## الدليل الثالث: نصوص روائيّة متفرّقة

عند الانتقال إلى النصوص الروائيّة نجد توفّر المجاميع الحديثيّة على رصد عشرات الأحاديث الدالّة على علم أهل البيت عليهم السلام بالغيب.

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٢٤٩، باب أنّ الأئمّة ورثوا علم أولي العزم من الرسل، الحديث: ٤٧٢.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق، كتاب الحجّة: ج١ ص٢٦٠، باب أنّ الأئمّة يعلمون علم ما كان وما يكون، الحديث: ١.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٥، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة ورثوا علم النبيّ وجميع الأنبياء، الحديث: ٤.

• عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**ما من أرض مخصبة ولا مجدبة ولا فئة تضلّ مائة وتهدي مائة إلاّ أنا أعلمها، وقد علّمتها أهل بيتي، يعلِّم كبيرهم صغيرهم إلى أن تقوم الساعة**»[1].

• وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «**والله لو شئت أن أخبر كلّ رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله صلّى الله عليه وآله، ألا وأنّي مفضيه إلى الخاصّة ممّن يؤمَن ذلك منه.**

**والذي بعثه بالحقّ، واصطفاه على الخلق، ما أنطق إلاّ صادقاً، وقد عهد إليّ بذلك كلّه، وبمَهلك من يهلك ومنجى من ينجو، ومآل هذا الأمر. وما أبقى شيئاً يمرّ على رأسي إلاّ أفرغه في أذني وأفضى به إليّ**»[2].

• وقال في خطبة أخرى: «**أمّا بعد حمد الله والثناء عليه، أيّها الناس: فإنّي فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليها أحدٌ غيري بعد أن ماج غيهبها واشتدّ كلَبُها.**

**فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مئة وتضلّ مئة إلاّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومُناخ ركابها ومحطّ رحالها، ومن يُقتل من أهلها قتلاً ومن**

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٦٥، باب في الأئمّة أنّهم يعلمون كلّ أرض مخصبة وكلّ أرض مجدبة، وكلّ فئة تهدي وتضلّ إلى يوم القيامة، الحديث: ١٠٥٥.

(٢) **نهج البلاغة**، الإمام علي عليه السلام، ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلميّة: الدكتور صبحي الصالح، منشورات دار الهجرة، إيران ـ قم، الخطبة: ١٧٥ في الموعظة وبيان قرباه من رسول الله: ص٢٥٠.

**يموت منهم موتاً...»**[١].

• وقال أيضاً: «**أما أنّه سيظهر عليكم بعدي رجلٌ رحب البلعوم، مندحق البطن، يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه! ألا وإنّه سيأمركم بسبّي والبراءة منّي، فأمّا السبّ فسبّوني فإنّه لي زكاة ولكم نجاة، وأمّا البراءة فلا تتبرّؤوا منّي، فإنّي وُلدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة**»[٢].

قال ابن أبي الحديد: «وكثير من الناس يذهب إلى أنّه عليه السلام عنى زياداً، وكثير منهم يقول: إنّه عَنَى الحجّاج، وقال قوم: إنّه عنى المغيرة بن شعبة، والأشبه عندي أنّه عنى معاوية؛ لأنّه كان موصوفاً بالنهم وكثرة الأكل وكان بطيناً». ثمّ قال: «إنّ معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسبّ عليٍّ عليه السلام والبراءة منه»[٣].

• وقال عليه السلام في خطبة أخرى: «**أيّها الناس: سلوني قبل أن تفقدوني... فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض، قبل أن تشغر بوجلها فتنةٌ تطأ في خطامها، وتذهب بأحلام قومها**»[٤].

• وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**يا مفضّل من زعم أنّ الإمام من آل محمّد يعزب عنه شيء من الأمر المحتوم فقد كفر بما نزل على محمّد، وإنّا لنشهد أعمالكم ولا يخفى علينا شيء من أمركم، وإنّ أعمالكم لتعرض علينا...**»[٥].

---

(١) **نهج البلاغة**: ص١٣٧، الخطبة: ٩٣، وفيها ينبّه أمير المؤمنين على فضله وعلمه ويبيّن فتنة بني أميّة.

(٢) المصدر السابق: ص٩٢، الخطبة: ٥٧، في صفة رجل مذموم.

(٣) **شرح نهج البلاغة**، لابن أبي الحديد، مصدر سابق: ج٢ ص٤٢.

(٤) **نهج البلاغة**، الخطبة: ١٨٩، في الإيمان ووجوب الهجرة: ص٢٧٩.

(٥) **مشارق أنوار اليقين**، الحافظ رجب البرسي، تحقيق علي عاشور، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ مؤسّسة الأعلمي، بيروت: ص١٣٨.

• وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «**إنّ الله أطلعني على ما شاء من غيبه وحياً وتنزيلاً، وأطلعك عليه إلهاماً**»(١).

• وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**والله لقد أُعطينا علم الأوّلين والآخرين**».

فقال له رجل من أصحابه: جعلت فداك أعندكم علم الغيب؟

فقال له عليه السلام: «**ويحك إنّي أعلم ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء. ويحكم وسّعوا صدوركم ولتبصر أعينكم ولتع قلوبكم. فنحن حجّة الله تعالى في خلقه ولن يَسَع ذلك إلاّ صدر كلّ مؤمن قويّ، قوّته كقوّة جبل تهامة إلاّ بإذن الله، والله لو أردت أن أحصي لكم كلّ حصاة لأخبرتكم**»(٢).

• عن حريز عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سُئل عليّ عليه السلام عن علم النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال: **علم النبيّ علم جميع النبيّين، وعلم ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام الساعة.**

ثمّ قال: **والذي نفسي بيده إنّي لأعلم علم النبيّ صلّى الله عليه وآله وعلم ما كان وعلم ما هو كائن فيما بيني وبين قيام الساعة**»(٣).

هذا غيضٌ من فيض من الروايات التي تحدّثت عن علم أئمّة أهل البيت بالأمور الغيبيّة، وهي كثيرة جدّاً لا يمكن إحصاؤها في هذه الدراسة، لكن نحاول الإشارة إلى بعض عناوينها العامّة بنحو الإجمال، على

---

(١) المصدر السابق: ص٣٤.

(٢) **مناقب آل أبي طالب**، لمؤلّفه أبي جعفر رشيد الدِّين محمّد بن علي بن شهرآشوب السروي المازندراني، المتوفّى سنة ٥٨٨ هـ، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، سنة ١٣٧٦هـ، مطبعة الحيدريّة، النجف الأشرف: ج٣ ص٣٧٤.

(٣) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٢، باب في علم الأئمّة بما في السماوات والأرض والجنّة والنار، الحديث: ٤٩٣.

أمل أن نفصّل الحديث عنها في دراسة أخرى، إن شاء الله تعالى.

• إنّهم عليهم السلام لا يحجب عنهم من علم السماء وأخباره وعلم الأرض شيء.

• إنّهم عليهم السلام أُعطوا علم ما مضى وما بقي إلى يوم القيامة[١].

• عندهم عليهم السلام الكتب التي فيها أسماء الملوك الذين يملكون.

• عندهم عليهم السلام ديوان فيه أسماء شيعتهم وأسماء آبائهم[٢].

• عندهم عليهم السلام الصحيفة لتي فيها أسماء أهل الجنّة وأهل النار[٣].

• يعرفون عليهم السلام الضمائر وحديث النفس[٤].

• إنّهم عليهم السلام يخبرون شيعتهم بأفعالهم وأفعال غيرهم[٥].

• إنّهم عليهم السلام يعلمون من يأتي إلى أبوابهم من قبل أن يستأذنوا عليهم[٦].

هذا مضافاً إلى علمهم بما يجري عليهم:

١ ـ كإخبارات النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله بقتل الحسين عليه السلام وما يجري عليه، وكذلك إخباراته بما يجري على ابنته الصدِّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام من الظلم.

٢ ـ وإخبارات أمير المؤمنين بقتل الحسين وقاتله، وإخباره بقضيّة

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٢٥٣ ـ ص٢٦٦.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٣٣٧ ـ ص٣٤٧.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٣٧٩ ـ ص٣٨٤.

(٤) المصدر السابق: ج١ ص٤٥٧ ـ ص٤٧٢.

(٥) المصدر السابق: ج١ ص٤٧٣ ـ ص٤٨٨.

(٦) المصدر السابق: ج١ ص٥٠١ ـ ص٥٠٥.

الخوارج وصاحب الثدية. وإخباره عمّا يجري عليه وليلة شهادته، وكذلك إخباره بقتل ميثم التمّار وصلبه، وغيرها من الإخبارات بالمغيبات التي لا يمكن عدّها.

٣ ـ إخبار الإمام الحسن عليه السلام عائشة بما فعلته يوم شهادة عليّ عليه السلام.

٤ ـ إخبار الإمام الحسين عليه السلام بقتله وما يجري عليه.

## ٤. مناقشة الأدلّة الدالّة على عدم علم الغيب لغير الله تعالى

استدلّ النافون ببعض الآيات القرآنيّة والنصوص الروائيّة، لنفي أنّ غيره تعالى يعلم الغيب.

أمّا الآيات فقد استندوا إلى قوله تعالى حكايةً عن الرسول صلّى الله عليه وآله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ (الأنعام: ٥٠)، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وقال على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ (هود: ٣١).

لكي يتّضح الجواب عن ذلك لابدّ من الإشارة إلى مقدّمة حاصلها:

إنّ المنكرين للنبوّة كانوا يعتقدون بأنّ الإنسان إذا كان نبيّاً فإنّ ذلك يستلزم أن يتوفّر على خصوصيّتين:

الأولى: القدرة على التصرّف التكويني.

الثانية: العلم بالغيب.

لذا نجد أنّهم اقترحوا على النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله كما أشار

القرآن إلى ذلك بقولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا *أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ (الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣).

من هنا جاء جواب الأنبياء كما حكى القرآن عنهم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي إنّي لستُ ادّعي شيئاً من الفضل الذي تتوقّعون منّي أن أدّعيه بما أنّي أدّعي الرسالة «فإنّكم تزعمون أنّ على الرسول أن يملك خزائن الرحمة الإلهيّة فيستقلّ بإغناء الفقير وشفاء العليل وإحياء الموتى والتصرّف في السماء والأرض وسائر أجزاء الكون بما شاء وكيف شاء، وأن يملك علم الغيب فيحصل على كلّ خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار، فيجلبه إلى نفسه ويدفع كلّ شرّ مستقبل كامن عن نفسه، وبالجملة يستكثر من الخيرات ويصان من المكاره.

فهذه هي جهات الفضل التي تزعمون أنّ الرسول يجب أن يؤتاها ويمتلكها فيستقلّ بها، وقد أخطأتم فليس للرسول إلاّ الرسالة، وأنّي لستُ أدّعي شيئاً من ذلك، فلا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب»[1].

وهذا ما أُشير إليه أيضاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣). حيث أكّد القرآن هاتين الخصوصيّتين للسفراء الإلهيّين، وهما البشريّة والرسالة. ومن المعلوم أنّ لكلّ من هاتين الخصوصيّتين لوازم ذاتيّة خاصّة لا يمكن سلبها عنها، فخصوصيّة البشريّة

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٠ ص٢٠٩.

تستلزم مثلاً أن يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، وهكذا خصوصيّة الرسالة فإنّها لا تقتضي إلاّ حمل ما حمّله الله من أمره وبعثه لتبليغه بالإنذار والتبشير.

ومن الواضح أنّ هاتين الخصوصيّتين لا تقتضيان بطبيعتهما أن يكون الرسول، بما هو رسول، عالماً بالغيب وقادراً على التصرّف في نظام التكوين، وهذا بخلاف واجب الوجود فإنّ كونه كذلك يستلزم القدرة على كلّ شيء والعلم بكلّ شيء.

قال المراغي: «ونفي ادّعاء الرسول الأمرين ـ أي أنّه يملك خزائن الله ويعلم الغيب ـ يتضمّن التبرّؤ من ادّعاء الألوهيّة وادّعاء شيء من صفات الإله القادر على كلّ شيء، العليم بكلّ شيء، ويتضمّن جهل المشركين حقيقة الألوهيّة وحقيقة الرسالة، فقد اقترحوا عليه من الأعمال ما لا يقدر عليه إلاّ من له التصرّف فيما وراء الأسباب، وطلبوا منه الإخبار بما يكون في الزمان المستقبل، ولا يعلمه إلاّ من كان علمُ الغيب صفةً له كسائر الصفات»[١].

إذا اتّضحت هذه المقدّمة نقول: إنّ الآيات الدالّة على نفي علم الغيب للأنبياء بصدد نفي اقتضاء الحيثيّة البشريّة والرساليّة للنبيّ والرسول للعلم بالغيب، إذ العلم بالغيب ليس من لوازم هاتين الحيثيّتين للنبيّ أو الرسول، إلاّ أنّ هذا لا ينافي أن يفيض الله تعالى على عباده الذين ارتضاهم واجتباهم بعض العلوم الغيبيّة بإذنه وإرادته.

وبعبارة أخرى: إنّ هاتين الحيثيّتين للرسول لا بشرط من جهة العلم

---

(١) **تفسير المراغي**: أحمد مصطفى المراغي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت: ج٣ ص٧٥.

بالغيب، كما أنّ الإنسان من حيث طبيعته الأوّليّة لا يقتضي الوجود ولا العدم، وهذا لا ينافي إفاضة الوجود عليه من قبل الله تعالى.

قال الطباطبائي: «فالمراد بنفي علم الغيب نفي أن يكون مجهّزاً في وجوده ـ بحسب الطبع ـ بما لا يخفى عليه معه ما لا سبيل للإنسان ـ بحسب العادة ـ إلى العلم به من خفيّات الأمور كائنة ما كانت»(١).

فتحصّل أنّ الآيات الدالّة على نفي علم الغيب لغير الله تعالى تشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ غير الله تعالى لا تقتضي طبيعته الأوّلية أن يكون عالماً بالغيب، وليست بصدد القول إنّ غير الله تعالى من أنبياء وأولياء لا يعلمون الغيب ولو بإفاضة من الله تعالى، وهذا ما تقدّم التصريح به في مواضع من كلامه سبحانه كقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا*إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

أمّا النصوص الروائيّة فهناك عدد من الروايات التي استدلّ بها لنفي علم أهل البيت بالغيب:

• عن ابن أبي عمير عن ابن المغيرة قال: «كنت عند أبي الحسن عليه السلام أنا ويحيى بن عبد الله بن الحسن فقال يحيى: جُعلت فداك إنّهم يزعمون أنّك تعلم الغيب؟

فقال: **سبحان الله! ضع يدك على رأسي**، فوالله ما بقيت في جسدي شعرة ولا في رأسي إلاّ قامت. قال ثمّ قال: **لا والله ما هي إلاّ رواية عن رسول الله صلّى الله عليه وآله**»(٢).

• عن ابن أبي عمير عن شعيب عن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبد الله

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٧ ص٩٦.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٢٥ ص٢٩٣، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة، الحديث: ٥٠.

الصادق عليه السلام: إنّهم يقولون. قال: وما يقولون؟ قلت: يقولون يعلم قطر المطر وعدد النجوم وورق الشجر ووزن ما في البحر وعدد التراب.

فرفع يده إلى السماء وقال: **سبحان الله سبحان الله لا والله ما يعلم هذا إلاّ الله**»[١].

في مقام الجواب عن هذه الروايات ونظائرها، تساق عدّة مناقشات:

**المناقشة الأولى**: إنّ هذه الروايات قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة. وعليه فمقتضى ما تقرّره قواعد التعارض بين الأدلّة، هو سقوطها عن الاعتبار لعدم مقاومتها للأدلّة القطعيّة من النصوص القرآنيّة والروايات المتواترة مضموناً المؤيّدة بموافقة الكتاب، ومخالفة النصوص النافية للكتاب.

**المناقشة الثانية**: لو غضضنا النظر عن المناقشة الأولى نقول: إنّ هذه الروايات النافية لا تعارض ما تقدّم من النصوص المثبتة، لأنّ غاية ما تدلّ عليه هو نفي علم أهل البيت بالغيب بنحو الاستقلال عنه تعالى، وهذا ممّا لا ريب في بطلانه، وعليه فلا تتقاطع مع ما تقدّم من الأدلّة الدالّة على علمهم عليهم السلام بالغيب بإفاضة منه سبحانه.

قال المجلسي: «اعلم أنّ الغلوّ في النبيّ والأئمّة عليهم السلام إنّما يكون بالقول بألوهيّتهم أو بكونهم شركاء لله تعالى في المعبوديّة، أو أنّهم يعلمون الغيب بغير وحي أو إلهام من الله تعالى»[٢].

وهذا ما تؤيّده شواهد كثيرة، حيث إنّ البعض كان يعتقد ذلك لهم بنحو يؤدّي إلى الغلوّ فيهم، لذا ورد النفي لهذا النحو من العلم بالغيب وأنّه

---

(١) المصدر السابق: ج٢٥ ص٢٩٤، الحديث: ٥٢.

(٢) المصدر السابق: ج٢٥ ص٣٤٧.

مختصّ بالله تعالى.

من التوقيعات الواردة عن صاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه الشريف جواباً لكتاب كتب إليه على يد محمّد بن علي بن هلال الكرخي:

قال عليه السلام: «**يا محمّد بن علي، تعالى الله عزّ وجلّ عمّا يصفون، سبحانه وبحمده، ليس نحن شركاءه في علمه ولا في قدرته. بل لا يعلم الغيب غيره كما قال في محكم كتابه تبارك وتعالى:** ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥)، **وأنا وجميع آبائي من الأوّلين آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من النبيّين، ومن الآخرين محمّد رسول الله وعليّ بن أبي طالب والحسن والحسين وغيرهم ممّن مضى من الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين إلى مبلغ أيّامي ومنتهى عصري، عبيد الله عزّ وجلّ، فأشهد الله الذي لا إله إلاّ هو وكفى به شهيداً، ورسوله محمّد صلّى الله عليه وآله، وملائكته وأنبياءه وأولياءه عليهم السلام، وأُشهدك وأُشهد كلّ من سمع كتابي هذا، أنّي بريءٌ إلى الله ورسوله ممّن يقول: إنّا نعلم الغيب ونشاركه في ملكه، أو يحلّنا محلاًّ سوى المحلّ الذي رضيه الله لنا وخلقنا له، أو يتعدّى بنا عمّا قد فسّرته لك وبيّنته في صدر كتابي**»[(١)].

لذا علّق المجلسي على هذا النصّ بقوله: «المراد من نفي علم الغيب عنهم أنّهم لا يعلمونه من غير وحي وإلهام، وأمّا ما كان من ذلك فلا يمكن نفيه إذ كانت عمدة معجزات الأنبياء والأوصياء عليهم السلام الإخبار عن المغيبات»[(٢)].

---

(١) **الاحتجاج**، تأليف: أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، طبع في مطابع النعمان، النجف الأشرف ١٣٨٦هـ : ج٢ ص٢٨٨.

(٢) **بحار الأنوار**: ج٢٥ ص٢٦٨، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ، ذيل الحديث: ٩.

**المناقشة الثالثة**: عند التأمّل في دلالة هذه النصوص نجد أنّها تنطوي على معنى ذات أهمّية كبيرة على صعيد أدب عبوديّة أهل البيت عليهم السلام لله تعالى، ولأجل بيان هذا المعنى ينبغي تقديم مقدّمة تساهم في الوصول إلى المطلوب وتحول دون الوقوع في الالتباس.

توضيحها: أنّ الصفات التي يتّصف الله بها على نحوين:

الأوّل: أنّ هناك مجموعة من الصفات أشار القرآن إلى اتّصافه سبحانه بها، من قبيل المكر ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (آل عمران: ٥٤)، والزرع ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ (الواقعة: ٦٤)، إلاّ أنّه على الرغم من ذلك لا تطلق على الله ـ بنحو التسمية ـ اسم الماكر أو اسم الزارع كما يطلق عليه اسم العالم والقادر والخالق، لأنّ الذهن العرفيّ يرى أنّ مثل هذه الألفاظ تشعر وتوحي بالنقص والحاجة.

الثاني: الصفات التي تتضمّن في أحشائها معنى الاستقلاليّة والربوبيّة، من هنا يرى الذهن العرفي أنّها مختصّة بالله تعالى من قبيل الخالقية والرازقية والإحياء والإماتة ونحوها، وهذه الصفات وإن أمكن أن يتّصف بها غيره تعالى لكن بإفاضة وإذن منه سبحانه؛ لقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤) الذي يفيد تعدّد الخالقين، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ (الجمعة: ١١)، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ (السجدة: ١١)، إلاّ أنّه لا يسمّى بها غيره لأنّها أسماء مختصّة به تعالى، وذلك للإيحاء بأنّها مرتبطة بمقام الربوبيّة والألوهيّة.

وعلى هذا فاقتضاءً لأدب العبوديّة لله تعالى لا تطلق هذه الصفات بنحو التسمية على غير الله سبحانه، وإن اتّصف الغير بها بإعطاء وإفاضة منه سبحانه.

إذا اتّضحت هذه المقدّمة نقول: إنّ اسم «عالم الغيب» من الأسماء المختصّة بالله تعالى في الأدب الديني، ولأجل أدب العبوديّة لا يطلق ـ بنحو التسمية ـ على غير الباري تعالى وإن اتّصف به، وهذا المعنى نلمسه واضحاً في روايات أهل البيت عليهم السلام حيث إنّهم يرفضون تسميتهم بهذا الاسم كما في أسماء أخرى كالخالق والرازق اقتضاءً لأدب العبوديّة، ولهذا لم يسمّ القرآن الكريم الرسول صلّى الله عليه وآله بالعالم بالغيب، بخلاف العبوديّة والرسالة والنبوّة.

من هنا لم يعبّر القرآن الكريم بأنّ الحقّ مع ربّك، لأنّه تعبير يوحي إلى وجود شيء آخر مع الله تعالى وهو الحقّ، وهو نحو من الشرك، لأنّه كان ولم يكن معه شيء، وإنّما عبّر ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ (آل عمران: ٦٠)؛ لذا قال الطباطبائي: «إنّ هذا من أبدع البيانات القرآنيّة حيث قيّد الحقّ بـ«من» الدالّة على الابتداء، دون غيره بأن يقال: (الحقّ مع ربّك) لما فيه من شائبة الشرك»[1].

وبهذا يتّضح السبب في أنّهم عليهم السلام في الوقت الذي ينفون علم الغيب عن أنفسهم، يقولون إنّه وراثة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، أو رواية عنه، أو علم علّمنيه حبيبي رسول الله، ونحو ذلك. ومن الواضح أنّ ذلك تعبير آخر عن العلم بالغيب. وهذا معناه أنّهم عليهم السلام يرفضون تسميتهم بالعالمين بالغيب لا نفي توصيفهم بذلك.

ولعلّ من أوضح الشواهد على ذلك، ما ورد في هذا النصّ عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام عندما أخبر عن بعض المغيبات، فقال له بعض أصحابه: لقد أُعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب! فضحك عليه السلام

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص٢١٣.

وقال للرجل وكان كلبيّاً: «**يا أخا كلب، ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلّم من ذي علم... علّمه الله نبيّه فعلّمنيه، ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطمّ عليه جوانحي**»[1].

بهذا يتبيّن أنّ التسمية غير تابعة للاتّصاف، بل لها قانونها الخاصّ، وهو أنّ الأسماء التي توحي وتشعر بالشراكة في الربوبيّة لا يسمّى بها الممكن وإن اتّصف بها لأجل رعاية أدب العبوديّة لله تعالى. وهذا هو السبب في نفي بعض النصوص تسمية أهل البيت عليهم السلام بالعالمين بالغيب، لأنّ هذا الاسم من الأسماء التي يرى العرف الديني أنّها مختصّة بالواجب سبحانه، فلكي لا ينصرف الذهن إلى توفّرهم على نصيب من الربوبيّة والشراكة مع الله تعالى، نجد رفض بعض هذه النصوص تسميتهم بهذا الاسم وإن اتّصفوا به.

وعليه فلا دلالة لمثل هذه الروايات على عدم توفّرهم عليهم السلام على علم الغيب.

بقي هنا نصّ آخر في هذا المجال هو الوارد عن سدير قال: «كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزّاز وداود بن كثير في مجلس أبي عبد الله الصادق عليه السلام، إذ خرج إلينا وهو مغضب، فلما أخذ مجلسه قال: **يا عجباً لأقوام يزعمون أنّا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلاّ الله عزّ وجلّ، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة، فهربت منّي فما علمت في أيّ بيوت الدار هي**.

قال سدير: فلمّا أن قام من مجلسه وصار في منزله، دخلت أنا وأبو بصير وميسّر وقلنا له: جعلنا فداك، سمعناك تقول كذا وكذا في أمر جاريتك، ونحن نعلم أنّك تعلم علماً كثيراً، ولا ننسبك إلى علم الغيب.

---

(١) **نهج البلاغة**: ص١٨٦، الخطبة: ١٢٨ فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة.

قال: فقال: **يا سدير، ألم تقرأ القرآن؟** قلت: بلى.

قال: **فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّ وجلّ:** ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠)؟ قال: قلت: جعلت فداك، قد قرأته.

قال: **فهل عرفت الرجل؟ وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟**

قال: قلت: أخبرني به.

قال: **قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم الكتاب؟**

قال قلت: جعلت فداك، ما أقلّ هذا!

فقال: **يا سدير ما أكثر هذا، أن ينسبه الله عزّ وجلّ إلى العلم الذي أخبرك به.**

**يا سدير، فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّ وجلّ أيضاً:** ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (الرعد: ٤٣)؟

قال: قلت: قد قرأته جعلت فداك.

قال: **أفمن عنده علم الكتاب كلّه أفهم أم مَن عنده علم الكتاب بعضه؟**

قلت: لا، بل من عنده علم الكتاب كلّه.

قال: فأومأ بيده إلى صدره، وقال: **علم الكتاب والله كلّه عندنا، علم الكتاب والله كلّه عندنا**»[1].

فتمسّك البعض بقول الإمام عليه السلام «فهربت منّي فما علمت في أيّ بيوت الدار هي» لنفي علم أهل البيت عليهم السلام بالغيب.

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥٧، كتاب الحجّة، باب نادر فيه ذكر الغيب، الحديث: ٣.

إلاّ أنّ الذي يلاحظ على هذه الرواية أنّ الإمام عليه السلام لما قام من مجلسه وصار في منزله قال كلاماً غير الذي قاله أوّلاً، حيث بيّن أنّه عالم بالكتاب كلّه، وحيث إنّ الكتاب فيه تبيان كلّ شيء فهو عالم بجميع الأشياء، ما كان وما يكون، كما تقدّم سابقاً، وعليه فكيف يمكن أن يخفى عليه مكان الجارية. وهذا يكشف أنّه عندما كان في المجلس لم يكن يستطيع أن يصرّح بهذه الحقيقة التي بيّنها صريحاً عندما دخل منزله عليه السلام.

ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أنّ المجلس كان فيه من لا يحتمل مثل هذه المقامات لأئمّة أهل البيت عليهم السلام. قال المجلسي: «أن يكون الغرض بيان أنّ ما ذكره عليه السلام أوّلاً كان للتقيّة من المخالفين أو من ضعفاء العقول من الشيعة، لئلا ينسبوهم إلى الربوبيّة، ولعلّه أظهر وأوفق بسائر الأخبار»[(١)].

والحاصل أنّ النصوص الروائية فضلاً عن الآيات القرآنيّة التي نفت علم غيره تعالى بالغيب، إنّما هي بصدد بيان أنّ حقيقة علم الغيب هو علم غير مستفاد كعلم الله تعالى، وأمّا علم غيره من الأنبياء والأوصياء بالغيب فإنّه لما كان علماً مستفاداً منه تعالى لا يكون علماً بالغيب حقيقةً، وإنّما سُمّي بذلك نظراً إلى تعلّقه بالأمور الغائبة.

وبه يجمع بين الأدلّة التي دلّت على أنّهم عالمون بالغيب والأدلّة التي نفت ذلك، لذا روي عن عمّار الساباطي قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الإمام يعلم الغيب؟ فقال: **لا، ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك**»[(٢)].

---

(١) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، مصدر سابق: ج٣ ص١١٤.

(٢) **أصول الكافي**: ج١ ص٢٥٧، كتاب الحجّة، باب نادر فيه ذكر الغيب، الحديث: ٤.

وهذا ما أشار إليه أعلام المحقّقين في هذا الباب؛ قال المجلسي: «والحاصل أنّ مقتضى الجمع بين الآيات والأخبار، حملها على أنّ نفي الغيب عنهم معناه أنّهم لا يعلمون ذلك من أنفسهم بغير تعليمه بوحي أو إلهام، وإلاّ فظاهر أنّ عمدة معجزات الأنبياء والأوصياء عليهم السلام من هذا القبيل. وأحد وجوه إعجاز القرآن أيضاً الإخبار بالغائبات، ونحن أيضاً نعلم كثيراً من المغيبات بإخبار الله تعالى ورسوله وأئمّة الهدى عليهم السلام كالقيامة وأحوالها والجنّة والنار والرجعة وقيام القائم عليه السلام ونزول عيسى عليه السلام وغير ذلك من أشراط الساعة والعرش والكرسي والملائكة»[١].

## ٥. علم أهل البيت بالغيب وإشكالية الإلقاء بالتهلكة

في ضوء ما تقدّم من أنّ أهل البيت عليهم السلام يعلمون ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، إذن فهم يعلمون مصيرهم ومكان وزمان وكيفيّة موتهم، وهذا ما أشارت إليه نصوص كثيرة.

عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**أيّ إمام لا يعلم ما يصيبه وإلى ما يصير، فليس ذلك بحجّة الله على خلقه**»[٢]، وإذا كان الأمر كذلك فقد يقال: إنّ ذلك ينافي ما هو المعروف من سيرتهم الظاهرة في أنّهم عليهم السلام كانوا يعيشون طوال حياتهم عيشة سائر الناس الذين لا يعلمون مصيرهم وما ينتهون إليه، فيقصدون مقاصدهم على أساس

---

(١) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، مصدر سابق: ج٣ ص١١٧.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥٨، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة يعلمون متى يموتون، الحديث: ١، وكذلك **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٤١٣، باب في أنّ الأئمّة يعرفون متى يموتون، الحديث: ١٧٢٦.

الأسباب الظاهريّة، فربما أصابوا في مقاصدهم وربما أخطأ بهم الطريق فلم يصيبوا، فلو أنّهم كانوا يعلمون الغيب لا معنى لخيبة سعيهم أبداً، إذ العاقل لا يسلك سبيلاً يعلم يقيناً أنّه يخفق فيه ولا يترك سبيلاً يعلم يقيناً أنّه سوف يُصيب فيه.

والإشكال ـ كما هو واضح ـ مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، حيث إنّ العلم بالغيب يهدي الإنسان إلى كلّ خير ويجنّبه كلّ شرّ، والعادة تأبى أن يعلم أحد الخير والشرّ ويهتدي إلى موقعهما ثمّ لا يستفيد من ذلك لنفسه، فالإنسان إذا لم يستكثر من الخير ولم يوق من الشرّ كيف يعلم الغيب؟

والشواهد الدالّة على هذه الحقيقة كثيرة جدّاً، فإنّهم مع علمهم بما يصيبهم إلاّ أنّ ذلك لم يؤدّ بهم إلى تغيير ذلك المصير، حيث أصيب النبيّ صلّى الله عليه وآله يوم أحُد، وأُصيب الإمام عليّ عليه السلام في مسجد الكوفة وأودى بحياته، واستشهد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، وهكذا في سائر الأئمّة عليهم السلام حيث سقوا السمّ كما في النصوص المعتبرة. فلو كانوا عليهم السلام يعلمون ما يجري عليهم لكان ذلك من أوضح مصاديق الإلقاء بالتهلكة التي نُهي عنها في قوله: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥).

وهنا ينبغي الإلفات إلى أنّ هذه الاعتراضات على علم أهل البيت عليهم السلام بالغيب، ليست هي حديثة عهد، وإنّما كانت مطروحة في زمن الأئمّة عليهم السلام، من قبل أصحابهم:

• عن الحسن بن الجهم قال: «قلت للرضا عليه السلام: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد عرف قاتله والليلة التي يُقتل فيها والموضع الذي يُقتل فيه،

وقوله لمّا سمع صياح الأوز في الدار (صوائح تتبعها نوائح) وقول أُمّ كلثوم: (لو صلّيت الليلة داخل الدار وأمرت غيرك يصلّي بالناس) فأبى عليها، وكثر دخوله وخروجه تلك الليلة بلا سلاح، وقد عرف عليه السلام أنّ ابن ملجم ـ لعنه الله ـ قاتله بالسيف، كان هذا مما لم يجز تعرّضه.

فقال عليه السلام: **كان ولكنّه خيّر في تلك الليلة لتمضي مقادير الله عزّ وجلّ**»[1].

• عن ضريس الكناسي قال: «سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول ـ وعنده أُناس من أصحابه ـ: **عجبت من قوم يتولّونا ويجعلونا أئمّة ويصفون أنّ طاعتنا مفترضة عليهم كطاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ يكسرون حجّتهم ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم، فينقصونا حقّنا ويعيبون ذلك على من أعطاه برهان حقّ معرفتنا والتسليم لأمرنا.**

**أترون أنّ الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده، ثمّ يُخفي عنهم أخبار السماوات والأرض ويقطع عنهم موادّ العلم فيما يرد عليهم ممّا فيه قوام دينهم؟**

فقال له حمران: جعلت فداك ـ أرأيت ما كان من أمر قيام علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام وخروجهم وقيامهم بدين الله عزّ ذكره، وما أصيبوا من قتل الطواغيت إيّاهم والظفر بهم حتّى قتلوا وغلبوا؟»[2].

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق، كتاب الحجّة: ج١ ص٢٥٩، باب أنّ الأئمّة يعلمون متى يموتون، وأنّهم لا يموتون إلاّ باختيار منهم، الحديث: ٤.

(٢) المصدر السابق، كتاب الحجّة: ج١ ص٢٦١، باب أنّ الأئمّة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنّه لا يخفى عليهم شيء، الحديث: ٤.

كأنّ السائل يقول: إنّ تلك الأمور التي صدرت منهم توهم إمّا عدم علمهم بما يكون قبل وقوعها، أو يلزم أنّهم ألقوا بأيديهم إلى التهلكة.

## جوابان عن التساؤل

يمكن الإجابة على هذا التساؤل من خلال جوابين:

## الجواب الأول: علم الغيب لا يؤثّر في تغير الحوادث الخارجية

هذا الجواب يقوم على أساس أنّ العلوم غير العاديّة كالعلم بالغيب لا أثر له في تغيير مجرى الحوادث الخارجيّة القائمة على أساس نظام الأسباب والمسبّبات في حياتنا المشهودة.

وتوضيح ذلك يبتني على بيان عدد من المقدّمات:

### المقدمة الأولى: الله تعالى عالم بالأشياء قبل إيجادها

فقد ثبت في محلّه من مباحث التوحيد أنّ الله تعالى عالم بالأشياء قبل أن يوجدها علماً أزليّاً لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء.

• عن أيّوب بن نوح أنّه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله عزّ وجلّ، أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكوّنها أو لم يعلم ذلك حتّى خلقها وأراد خلقها وتكوينها، فعلم ما خلق عندما خلق، وما كوّن عندما كوّن؟

فوقّع بخطّه: **«لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعدما خلق الأشياء»**[1].

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص١٠٧، كتاب التوحيد، باب صفات الذات، الحديث: ٤.

• عن ابن حازم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قلت له: أرأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، أليس كان في علم الله تعالى؟

قال: فقال: **بلى قبل أن يخلق السماوات والأرض**»[١].

• عن يونس عن ابن حازم قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام: هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالأمس؟

قال: **لا، من قال هذا فأخزاه الله.**

قلت: أليس ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، أليس في علم الله؟

قال: **بلى قبل أن يخلق الخلق**»[٢].

ومن جملة ذلك علمه بمصير الإنسان وما يختاره من الخير والشرّ.

### المقدمة الثانية: ترتّب الجزاء على تحقق الفعل خارجاً لا على العلم الإلهي

توضيحه: إنّ الله تعالى وإن كان يعلم منذ الأزل ماذا يختار الإنسان من أفعال الخير والشرّ، إلاّ أنّه تعالى لا يرتّب أثر الثواب والعقاب على أساس علمه تعالى، بل الثواب والعقاب إنّما يترتّبان على تحقّق الفعل من الإنسان خارجاً، ولعلّ أفضل ما يؤكّد هذه الحقيقة هو ما حفلت به النصوص القرآنيّة والروائيّة التي تشير إلى أنّ الدُّنيا دار امتحان واختبار وابتلاء، ليميز الخبيث من الطيّب، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

وهذا هو المصطلح عليه بالعلم الفعلي في مقابل العلم الذاتي الذي هو عين الذات، والمراد به أن يرى الحقّ تعالى ذلك العلم الذاتي في الواقع

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٤ ص٨٤، كتاب التوحيد، باب العلم وكيفيّته، الحديث: ١٤.

(٢) المصدر السابق: ج٤ ص٨٩، الحديث: ٢٩.

العيني عبر الانتقال من عالم العلم الإلهي إلى عالم العين الخارجي، وبذلك يكون هذا الواقع الخارجي هو معلوم ذلك العلم الذي هو عين الذات.

وقد كثر ورود العلم بهذا المعنى في القرآن كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ (المائدة: ٩٤)، وقوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ (الحديد: ٢٥)، وقوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (محمّد: ٣١)، وقوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ (الحديد: ٢٥)، فهو سبحانه وإن كان يعلم منذ الأزل ماذا يفعل ويختار الإنسان، إلاّ أنّه لا يرتّب الأثر على ذلك إلاّ بعد تحقّق معلوم ذلك العلم من قبل الإنسان وباختياره في الواقع العيني الخارجي؛ لذا قال الطباطبائي إنّ التعبير القرآني بـ «ليعلم الله» هو: «كناية عن أنّه سيتقدّر كذا ليتميّز منكم من يخاف الله بالغيب عمّن لا يخافه، لأنّ الله سبحانه لا يجوز عليه الجهل حتّى يرفعه بالعلم»[1].

وقال في موضع آخر: «إنّ المراد بالعلم الحاصل له تعالى من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك، وبنظر أدقّ هو علم فعليّ له تعالى خارج الذات»[2].

ومن المعلوم أنّ قانون الابتلاء والامتحان لا يستثني أحداً من الناس، سواء كان نبيّاً أم وليّاً؛ قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾ (البقرة: ١٢٤)، وحكى القرآن على لسان سليمان بعدما أعطي ما أعطى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ (النمل: ٤٠)، ونحوها من الآيات الدالّة على هذه الحقيقة القرآنيّة.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٦ ص١٣٨.

(٢) المصدر السابق: ج١٨ ص٢٤٣.

## المقدمة الثالثة: حكمة الله تعالى تقتضي عدم إخبار الإنسان بنتائج عمله

لمّا كان الله تعالى يعلم بمصير الإنسان وما تؤدّي إليه أعماله من نتائج، إلى جوار هذه الحقيقة ينبثق تساؤل يسلّط فيه الضوء على أنّ الحكمة الإلهيّة هل تقتضي إخبار الإنسان بنتائج أعماله وممارسة تكاليفه في دار الدُّنيا؟ وهل من الحكمة أن يخبر الله تعالى ذلك الإنسان المجاهد مثلاً بأنّه سوف يموت في يوم كذا ويصاب بكذا في تلك الواقعة، أم أنّ الحكمُة تقتضي عدم إخبار الإنسان بنتائج عمله؟

من الواضح أنّ الحكمة الإلهيّة في تكليف تقتضي عدم إخبار الإنسان بمصيره وبنتائج أعماله وتكاليفه التي يمارسها، ولعلّ السبب في ذلك بات واضحاً، إذ لو كان الإنسان مطّلعاً على نتيجة ما يمتثله من تكاليف ويمارسه من أفعال، لأفضى ذلك إلى ترك الإنسان لكثير من الأعمال والأفعال الواجبة التي يعلم أنّها تؤدّي إلى تعرّضه للأذى حين امتثالها، وكذلك الأمر في جانب المحرّمات.

قال الطباطبائي: «إنّ الله سبحانه لا يريد من خلقه إلاّ أن يعيشوا على جهل بالحوادث المستقبلة ليقوموا بواجب حياتهم بهداية من الأسباب العاديّة وسياقة من الخوف والرجاء، وظهور الحوادث المستقبلة تمام ظهورها يفسد هذه الغاية الإلهيّة»(١).

فمن الحكمة في ضوء هذه الحقيقة أن يخفي الله تعالى نتائج وعواقب ما يمارسه الإنسان من تكاليف وأفعال، لكي لا يؤثّر ذلك على سلوكه في امتثاله للتكاليف الإلهيّة.

---

(١) المصدر السابق: ج١١ ص٣٨٠.

**المقدمة الرابعة: إطلاع أهل البيت على نتائج عملهم لا يؤثر في سلوكهم الخارجي**

بناءً على ما تقدّم من أنّ الغرض والغاية من إخفاء الله تعالى نتائج أعمال وتكاليف الإنسان ومصيره، يطرح هذا التساؤل وهو: لو كان بعض الناس يؤدّون تكاليفهم وأعمالهم على وفق ما تمليه الإرادة الإلهيّة، سواء علموا بنتائج أعمالهم ومصيرهم أم لا، فهل ينتقض الغرض والحكمة في إخفاء الله تعالى لنتائج أعمالهم لو عملوا بما هم صائرون إليه ؟

والجواب لعلّه يبدو واضحاً، وهو أنّ علم هؤلاء بنتائج ما يؤدّونه من تكاليف لا ينقض الغرض والحكمة من الإخفاء، لأنّهم يؤدّون ويمتثلون تكاليفهم سواء علموا بنتائجها أم لا.

فالإنسان المجاهد الذي يؤدّي ما عليه من تكليف، لا يبالي بالموت، فهو يقدم إلى المعركة سواء علم بأنّه يموت أم لا، ولعلّ أوضح مثال على ذلك هم أصحاب الحسين عليه السلام حينما أخبرهم بأنّهم سوف يُقتلون، فإنّ علمهم بنتيجة ما يقدمون عليه لم يؤثّر في أداء ما عليهم من تكليف، وهذا بخلاف من فرّوا وتخاذلوا عن نصرة الإمام عليه السلام لّما علموا بمصيرهم وأنّهم سوف يُقتلون في المواجهة.

**النتيجة**

بناء على أن أهل البيت عليهم السلام وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الدرجات العالية من العصمة والقُرب الإلهي، فإنّهم يقدمون على امتثال ما عليهم من تكاليف إلهيّة وإن علموا أنّها سوف تودي بحياتهم وتعرّضهم إلى القتل والأذى وسبي العيال... .

فالإمام عليّ عليه السلام حينما يخرج إلى المسجد ويعلم أنّه سوف يتعرّض لما تعرّض له على يد أشقى الأشقياء، إنّما هو لأجل أنّ تكليفه

الإلهي اقتضى ذلك، فإقدامه إنّما كان بمحض إرادته امتثالاً لأمر مولاه، ولذا في النصّ المتقدّم عن الرضا عليه السلام حينما سأله السائل عن سبب خروجه عليه السلام إلى المسجد مع علمه بما يحصل، كان جوابه عليه السلام: «**ولكنّه خُيّر في تلك الليلة لتمضي مقادير الله عزّ وجلّ**» وهو دالّ بصراحة على انقياد الإمام وطاعته لله تعالى وإنّ ذلك تكليف إلهيّ لابدّ من امتثاله.

وهذا ما نجده بنحو واضح في نصّ آخر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام حيث قال: «**يا حمران إنّ الله تبارك وتعالى قد كان قدّر ذلك عليهم وقضاه وأمضاه وحتمه على سبيل الاختيار ثمّ أجراه، فبتقدّم علم إليهم من رسول الله صلّى الله عليه وآله قام عليٌّ والحسن والحسين عليهم السلام، وبعلم صمت من صمت منّا**»(١).

إذن فإنّهم عليهم السلام وإن علموا بمصائرهم، إلاّ أنّ هذا العلم لا يؤثّر في سلوكهم الخارجي شيئاً، لأنّ تكاليفهم الشرعيّة ليست قائمة على هذا اللّون من العلم الخاصّ، وإنّما هي على أساس ما تمليه الأسباب والعلوم الظاهريّة، وهذا المعنى يقرّره المجلسي بقوله: «إنّ أحكامهم الشرعيّة منوطة بالعلوم الظاهرة لا بالعلوم الإلهاميّة»(٢).

وهذا ما أكّده الشيخ المفيد ببيان آخر في خصوص شهادة عليّ أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إذا كان لا يمتنع أن يتعبّده الله بالصبر على الشهادة والاستسلام للقتل، ليبلغه الله بذلك من علوّ الدرجة ما لا يبلغه إلاّ به، ويكون في المعلوم من اللّطف بهذا التكليف لخلق من الناس ما لا

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٢، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة يعلمون علم ما كان وما يكون، الحديث: ٤.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٤٨ ص٢٣٦، تاريخ الإمام موسى بن جعفر، باب أحواله في الحبس إلى شهادته، ذيل الحديث: ٤٣.

يقوم مقامه غيره، فلا يكون بذلك أمير المؤمنين عليه السلام ملقياً بيده إلى التهلكة ولا معيناً على نفسه معونة مستقبحة في العقول»[1].

حاصل ما تقدّم في هذه الإجابة هو أنّ الإمام عليه السلام، إذا علم أنّ الله تعالى أراد منه الإقدام على أمر معيّن، فهو يُقدم وإن علم أنّه يموت، وهذا ليس من الإلقاء في التهلكة ـ كما قيل ـ لأنّه طاعة وامتثال لله تعالى لما فيه المصلحة للدِّين والأمّة، والفوز بالدرجات الرفيعة والكرامة الإلهيّة.

## الجواب الثاني: إن أهل البيت يعلمون مصائرهم بنحو قابل للتغيير

وتفصيل هذا الوجه يأتي في البحث اللاحق إن شاء الله تعالى، وحاصله أنّ أهل البيت عليهم السلام وإن كانوا يعلمون مصيرهم، إلاّ أنّ علمهم هذا يحتمل أن يحصل فيه بداء وتغيّر عمّا كانوا يعلمونه، فمبيت أمير المؤمنين عليه السلام مثلاً في فراش النبيّ صلّى الله عليه وآله في ليلة الهجرة، وإن كان يعلم أنّه لا يصيبه شيء، إلاّ أنّ هذا العلم يمكن أن يحصل فيه بداء لله تعالى ويتغيّر عمّا هو عليه، كما سيأتي بحثه.

## الخلاصة

١ ـ إنّ الغيب والشهادة وصفان إضافيّان، بمعنى أنّ الشيء الواحد قد يكون غيباً من شيء لأنّه خارج عن دائرة رؤيته ومعرفته، ويكون نفس ذلك الشيء شهادة لآخر، لأنّه مشهودٌ له.

٢ ـ بشأن الجمع بين الآيات النافية لعلم الغيب لغير الله تعالى، وبين

---

(١) **المسائل العكبريّة**، الشيخ أبي عبد الله محمّد بن محمّد النعمان العكبري البغدادي المفيد، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة: ج٦ ص٧٠.

الآيات المثبتة لذلك، توجد معالجتان:

**المعالجة الأولى**: إنّ الآيات الدالّة على انحصار علم الغيب بالله تعالى غايتها الدلالة على أنّ علم الغيب منحصر به تعالى بنحو الاستقلال وبالذات، وهذا الأمر لا يتنافى ولا يتقاطع مع النصوص القرآنية التي أثبتت علم الغيب لغيره تعالى بنحو التبعيّة له تعالى، والإفاضة منه سبحانه لحكمة تقتضي ذلك.

**المعالجة الثانية**: إنّ الآيات الدالّة على انحصار علم الغيب به تعالى، تشير إلى استحالة إطلاع غير الله تعالى من المخلوقات على علم الغيب بشكل مطلق وشامل لجميع موارد الغيب، والتي منها العلم الإلهي في مقام الذات الذي لا حدّ له، وذلك لعدم قابليّة إحاطة المتناهي ـ المخلوقات ـ باللامتناهي وهو الله تعالى.

**٣ ـ** من الأدلّة على علم أهل البيت بالغيب:

الدليل الأوّل: علم أهل البيت بالكتاب المبين.

الدليل الثاني: أنّهم عليهم السلام ورثة علم رسول الله صلّى الله عليه وآله.

الدليل الثالث: الروايات.

**٤ ـ** مناقشة الأدلّة الدالّة على عدم علم الغيب لغير الله تعالى:

أ ـ أمّا بشأن الآيات الدالّة على نفي علم الغيب لغيره تعالى كقوله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ (الأنعام: ٥٠)، فهي بصدد الإشارة إلى أنّ الحيثيّة البشريّة والرساليّة للنبيّ أو الرسول لا تقتضي العلم بالغيب، وليس من لوازم هاتين الحيثيّتين للنبيّ أو الرسول.

وهذا لا ينافي إفاضة الله تعالى على عباده الذين ارتضاهم واجتباهم لبعض العلوم الغيبيّة بإذنه وإرادته.

ب ـ أمّا النصوص الروائيّة التي استدلّ بها على نفي علم الغيب لغيره تعالى، فالجواب عليها:

**المناقشة الأولى**: إنّ هذه الروايات قليلة العدد، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وعلى هذا الأساس فإنّ مقتضى قواعد التعارض بين الأدلّة تقتضي سقوطها عن الاعتبار لعدم مقاومتها للأدلّة القطعيّة من النصوص القرآنيّة والروائيّة المتواترة مضموناً والمؤيّدة بموافقة الكتاب.

**المناقشة الثانية**: لو غضضنا النظر عن المناقشة الأولى، نقول: إنّ الروايات النافية لا تعارض الروايات المثبتة لعلم الغيب لغيره تعالى، لأنّ غاية ما تدلّ عليه الروايات النافية، هو نفي علم أهل البيت عليهم السلام بالغيب بنحو الاستقلال عنه تعالى.

**المناقشة الثالثة**: إنّ الروايات النافية لعلم الغيب لغيره تعالى، تنطوي على معنى في غاية الأهمّية على صعيد أدب عبوديّة أهل البيت عليهم السلام لله تعالى، إذ إنّ صفة العلم بالغيب من الصفات التي تتضمّن في أحشائها معنى الاستقلاليّة والربوبيّة، ولذا يرى الذهن البشري أنّها مختصّة بالله تعالى من قبيل الخالقيّة والرازقيّة والإحياء والإماتة، فهذه الصفات وإن أمكن أن يتّصف بها غيره تعالى بإذنه، إلاّ أنّ اقتضاء أدب العبوديّة لله تعالى، دعا أهل البيت عليهم السلام إلى رفض تسميتهم بالعالمين بالغيب، ومن هنا لم يطلق القرآن الكريم على الرسول صلّى الله عليه وآله صفة العالم بالغيب، بخلاف إطلاق صفة العبوديّة والرسالة والنبوّة.

**٥ ـ عدم مؤثّرية علم الغيب على أهل البيت عليهم السلام في سلوكهم الخارجي.**

**٦ ـ** إنّ علم أهل البيت بالغيب غير مؤثّر في سلوكهم الخارجي، ومنه

يتّضح الإجابة عن إشكاليّة الوقوع بالتهلكة.

**الجواب الأوّل:** علم الغيب غير مؤثّر في تغيير الحوادث الخارجيّة.

المقدّمة الأولى: إنّ الله تعالى عالم بالأشياء قبل إيجادها.

المقدّمة الثانية: ترتّب الثواب والعقاب على تحقّق الفعل من قبل الإنسان خارجاً لا على علم الله تعالى.

المقدّمة الثالثة: حكمة الله تعالى تقتضي عدم إخبار الإنسان بنتائج عمله.

المقدّمة الرابعة: اطّلاع أهل البيت عليهم السلام على نتائج أعمالهم لا يؤثّر في سلوكهم الخارجي.

**النتيجة:** بناءً على أنّ أهل البيت عليهم السلام وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الدرجات العالية من العصمة والقُرب الإلهي، فإنّهم يقدمون على امتثال ما عليهم من تكاليف إلهيّة وإن علموا أنّها تودي بحياتهم وتعرّضهم إلى القتل والأذى.

**الجواب الثاني:** إنّ أهل البيت عليهم السلام يعلمون بمصائرهم بنحو قابل للتغيير أي أنّهم يعلمون مصيرهم بنحو يمكن أن يحصل فيه بداء وتغيّر عمّا علموه عليهم السلام.

# الفصل السادس

# في ازدياد علم أهل البيت عليهم السلام

## تمهيد

ينصبّ البحث في هذا الفصل حول مسألة زيادة علم أهل البيت عليهم السلام، ولعلّ عنوان هذا الفصل يبدو غريباً، إذ أنّه قد يكون منافياً ـ بحسب الظاهر ـ مع ما تقدّم من أنّهم عليهم السلام يعلمون ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، فكيف يزاد في علمهم؟

من هنا عقد هذا الفصل لمعالجة هذه الإشكاليّة، مضافاً إلى البحث في عدد من المسائل المتعلّقة بذلك، من قبيل حقيقة ونوعيّة هذا العلم الذي يزاد، وهل هو في الحلال والحرام أم سنخ آخر من العلم، ونحوها من المسائل المرتبطة بهذا البحث.

## المبحث الأوّل: النصوص الدالّة على أنّ أهل البيت يزدادون علماً

هناك العشرات من الروايات الصحيحة المتضافرة التي أضاءت هذه المسألة بأحسن وجه وأروع بيان، نشير إلى بعضها:

• عن المفضّل قال: «قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام ذات يوم وكان لا يكنّيني قبل ذلك: **يا أبا عبد الله.**

قلت: لبّيك.

قال: **إنّ لنا في كلّ ليلة جمعة سروراً.**

قلت: وما ذاك؟

قال: **إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله صلّى الله عليه وآله العرش، ووافى الأئمّة عليهم السلام معه، ووافينا معهم، فلا ترد أرواحنا إلى أبداننا إلاّ**

**بعلم مستفاد، ولولا ذلك لأنفدنا»**[١].

• عن يونس أو المفضّل عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**ما من ليلة جمعة إلاّ ولأولياء الله فيها سرور**» قلت: كيف ذلك جعلت فداك؟

قال: «**إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله صلّى الله عليه وآله العرش، ووافى الأئمّة عليهم السلام، ووافيت معهم فما أرجع إلاّ بعلم مستفاد، ولولا ذلك لنفد ما عندي**»[٢].

• عن عبد الله بن أيّوب عن أبي يحيى الصنعاني عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قال: **يا أبا يحيى لنا في ليالي الجمعة لشأن من الشأن.**

قلت له: جعلت فداك! وما ذلك الشأن؟

قال: **يؤذن لأرواح الأنبياء الموتى وأرواح الأوصياء الموتى، وروح الوصي الذي بين ظهرانيكم يُعرج بها إلى السماء حتّى توافي عرش ربّها، فتطوف بها أسبوعاً وتصلّي عند كلّ قائمة من قوائم العرش ركعتين، ثمّ تردّ إلى الأبدان التي كانت فيها، فتصبح الأنبياء والأوصياء قد مُلئوا وأعطوا سروراً، ويصبح الوصيّ الذي بين ظهرانيكم وقد زيدَ في علمه مثل جمّ الغفير**»[٣].

• عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين عليهما السلام، قال: «قلت: جعلت فداك! كلّ ما كان عند رسول الله صلّى الله عليه وآله فقد أعطاه أمير المؤمنين عليه السلام بعده، ثمّ الحسن عليه السلام بعد أمير المؤمنين، ثمّ الحسين عليه السلام، ثمّ كلّ إمام إلى أن تقوم الساعة؟

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥٤، كتاب الحجّة، باب في أنّ الأئمّة يزدادون في ليلة الجمعة، الحديث: ٢.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٥٤، الحديث: ٣.

(٣) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٩، باب ما يزاد الأئمّة في ليلة الجمعة، الحديث: ٥٠٦.

قال عليه السلام: **نعم، مع الزيادة التي تحدث في كلّ سنة وفي كلّ شهر، إي والله وفي كلّ ساعة**»[١].

## المبحث الثاني: حقيقة العلم الذي تقع فيه الزيادة

لكي نتوفّر على نوع حقيقة العلم الذي تقع فيه الزيادة، لابدّ من الوقوف على أقسام العلوم التي توجد عندهم، وهذا ما أوضحته نصوص روائيّة متعدّدة.

## أقسام علوم أهل البيت عليهم السلام

أشارت جملة من الروايات إلى توفّر أهل البيت عليهم السلام على أقسام متعدّدة من العلوم، ومن هذه الروايات:

• عن المفضّل بن عمر قال: «قلت لأبي الحسن عليه السلام: روينا عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: (**إنّ علمنا غابر ومزبور ونكت في القلوب ونقر في الأسماع**)، فقال: **أمّا الغابر فما تقدّم من علمنا، وأمّا المزبور فما يأتينا، وأمّا النكت في القلوب فإلهام، وأمّا النقر في الأسماع فأمر الملك**»[٢].

• عن علي السائي عن أبي الحسن الأوّل موسى بن جعفر عليهما السلام قال: «قال: **مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه: ماضٍ وغابر وحادث، فأمّا الماضي فمفسّر، وأمّا الغابر فمزبور، وأمّا الحادث فقذف في القلوب ونقر في الأسماع وهو أفضل علمنا، ولا نبيّ بعد نبيّنا**»[٣] وغير ذلك من الروايات.

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٥٨، باب في الأئمّة أنّهم يزدادون في الليل والنهار، الحديث: ١٤٠٦.

(٢) **أصول الكافي**: ج١ ص٢٦٤، كتاب الحجّة، باب جهات علوم الأئمّة، الحديث: ٣.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٢٦٤، الحديث: ١.

وعلى هذا الأساس فإنّ أقسام علوم أهل البيت عليهم السلام هي:

### القسم الأوّل: العلم الماضي

ويراد به إمّا المتعلّق بالأمور الماضية، أو العلم الماضي أي الذي حصل لهم سابقاً، وهو علم ما كان، وهذا العلم هو القسم المفسّر من علومهم، ومعنى كونه مفسّراً أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله فسّره لهم وفصّل مجمله، أو فسّروه هم بعقولهم الكاملة المعصومة واستخرجوا تفاصيله ونتائجه، أو أنّ المراد هو الأعمّ، فإنّ من علمهم الماضي ما فسّره لهم رسول الله صلّى الله عليه وآله كما هو المستفاد من النصوص الدالّة على أنّهم تعلّموا من رسول الله صلّى الله عليه وآله، خصوصاً الأحاديث التي تحدّثت عن أنّ عليّاً عليه السلام تعلّم من رسول الله صلّى الله عليه وآله «**ألف باب من العلم يفتح من كلّ باب ألف باب**»[1]، وهي كثيرة جدّاً وبألسن وصيغ مختلفة، ومنه ما فسّروه بعقلهم المعصوم عن كلّ خطأ، لكن هذا العلم أيضاً لا يخرج عن كونه وراثة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، وذلك لأنّ للوراثة أنحاء متعدّدة كما سيأتي الحديث عنها.

### القسم الثاني: العلم الغابر

أي العلم الباقي. قال في القاموس: «غَبَرَ الشيء غبراً أي بقي»، وقال الزبيدي: «والغابر: الباقي، والغابر: الماضي»[2] وهو من الأضداد.

---

(١) ينظر **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق، باب فيه الحروف التي علّم رسول الله صلّى الله عليه وآله عليّاً، ج٢ ص٨٦، باب فيه الكلمة التي علّم رسول الله أمير المؤمنين: ج٢ ص٨٩، باب فيه ذكر الحديث الذي علّم رسول الله عليّاً: ج٢ ص٩٨.

(٢) **تاج العروس**، مصدر سابق: ج١٣ ص١٨٦.

والمراد به العلم الحاصل لهم بعد العلم الماضي عن طريق الجفر والجامعة ومصحف فاطمة سلام الله عليها، وغيرها من الكتب، ومن أجل ذلك وصفه الإمام عليه السلام بأنّه مزبور، فكلّ من الغابر والمزبور وصف لنفس العلم.

وقد فسّر الغابر عدد من المحقّقين بالعلم المتعلّق بالأمور الآتية المحتومة، قال المازندراني: «**والغابر المحتوم الذي تعلّق علمنا به، وهو كلّ ما يكون مزبوراً مكتوباً عندنا بخطّ عليّ عليه السلام وإملاء الرسول وإملاء الملائكة، كما هو في تفسير الجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام**»[1]. إلاّ أنّ ما ذكره وإن كان من متعلّقات علمهم الغابر، لكنّها ليست جميع متعلّقاته، إذ منها علوم الشرائع والأحكام كما سيأتي، وهي أمور حالية ولا يشملها هذا التفسير، فالتفسير الأوّل أولى وأشمل وأنسب بسياق الحديث، وعليه شواهد أخرى من النصوص الروائيّة.

ويحتمل ـ كما عن المجلسي ـ أن يكون الغابر علمهم المتقدّم على زمن إمامتهم، ويكون المزبور هو ما يأتيهم بعد إمامتهم من جهة الكتب التي دفعت إليهم عن الإمام المتقدّم، إذ الغابر من الأضداد كما تقدّم.

قال في «مرآة العقول» في ذيل حديث مفضّل بن عمر المتقدّم: «قوله عليه السلام: «**فما تقدّم من علمنا**» أي معلومنا أي العلم بالأمور الماضية، أو المراد ما سمعه من الإمام المتقدّم في حال حياته وعند موته، وهو متقدّم على الإمامة، فالمراد بالمزبورة ما يقرؤه بعد الإمامة في الكتب التي دفعها إليه الإمام المتقدّم»[2].

---

(١) **شرح أصول الكافي والروضة**، مصدر سابق: ج٦ ص٤٤.

(٢) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، مصدر سابق: ج٣ ص١٣٨.

## القسم الثالث: العلم الحادث

وهو العلم المتجدّد لهم لا عن سابقة، على سبيل القذف في القلوب والنقر في الأسماع، وقد تقدّم أنّ الأوّل هو الإلهام، والثاني هو تحديث الملك. قال المجلسي: «وأمّا الحادث: فهو ما يتجدّد من الله حتمه من الأمور البدائية أو العلوم والمعارف الربّانيّة أو تفصيل المجملات أو الأعمّ»[١].

ولعلّ في بعض النصوص المعتبرة ما يشير إلى تفصيل هذا التقسيم الثلاثي لعلومهم عليهم السلام.

عن أحمد بن عمر الحلبي عن أبي بصير قال قلت: «جعلت فداك، إنّ شيعتك يتحدّثون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله علّم عليّاً عليه السلام باباً يفتح له منه ألف باب.

قال: فقال: **يا أبا محمّد علّم رسول الله صلّى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام ألف باب يفتح من كلّ باب ألف باب.**

قال: قلت: هذا والله العلم، قال: فنكت ساعة في الأرض، ثمّ قال: **إنّه لعلم وما هو بذاك.**

قال: ثمّ قال: **يا أبا محمّد! وإنّ عندنا الجامعة، وما يدريهم ما الجامعة؟**

قال: قلت: جعلت فداك وما الجامعة؟

قال: **صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلّى الله عليه وآله وإملائه من فلق فيه (أي شقّ فمه) وخطّ عليّ بيمينه، فيها كلّ حلال وحرام وكلّ شيء يحتاج إليه الناس حتّى الأرش في الخدش.**

ثمّ سكت ساعة ثمّ قال: **وإنّ عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر؟**

قال: قلت: وما الجفر؟

---

(١) المصدر السابق: ج٣ ص١٣٦.

قال: **وعاء من أدم فيه علم النبيّين والوصيّين وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل.**

قال: قلت: إن هذا هو العلم، قال: **إنّه لعلم وليس بذاك.**

ثمّ سكت ساعة ثمّ قال: **وإنّ عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام، وما يدريهم ما مصحف فاطمة؟**

ثمّ سكت ساعة ثمّ قال: **إنّ عندنا علم ما كان وعلم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة.**

قال: قلت: جُعلت فداك، هذا والله هو العلم.

قال: **إنّه لعلم وليس بذاك.**

قال: قلت: جعلت فداك، فأيّ شيء العلم؟

قال: **ما يحدث بالليل والنهار، الأمر بعد الأمر، والشيء بعد الشيء إلى يوم القيامة»**[(١)].

## العلم الذي تقع فيه الزيادة هو العلم الحادث

إذا اتّضح أنّ علومهم عليهم السلام على ثلاثة أنحاء، نقول: إنّ العلم الذي تقع فيه الزيادة هو القسم الثالث وهو العلم الحادث دون النحوين الآخرين. من هنا لابدّ من الوقوف قليلاً عند خصائص هذا النحو من العلم الذي عبّرت عنه الرواية بأنّه أفضل علومهم، كما أوضحته نصوص روائيّة كثيرة في هذا المجال، حيث بيّنت أنّه هو الذي يقع فيه البداء.

ولعلّ من أوضح النصوص المعتبرة التي بيّنت هذه الحقيقة ما ورد عن

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٨، كتاب الحجّة، باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة، الحديث: ١.

الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام حين سأله سائل: أرأيت قولك في ليلة القدر وتنزّل الملائكة والروح فيها إلى الأوصياء، يأتونهم بأمر لم يكن رسول الله صلّى الله عليه وآله قد عَلِمه؟ أو يأتونهم بأمر كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يعلمه؟ وقد علمت أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله مات وليس من علمه شيء إلاّ وعليّ عليه السلام له واع.

فأجابه عليه السلام: **إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا أُسري به لم يهبط حتّى أعلمه ـ عزّ وجلّ ذكره ـ علم ما قد كان وما سيكون، وكان كثير من علمه جُملاً يأتي تفسيره في ليلة القدر، وكذلك كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام قد علم جُمل العلم ويأتي تفسيره في ليلة القدر كما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله.**

قال السائل: أوَ كان في الجمل تفسير؟

قال عليه السلام: **بلى، ولكنّه إنّما يأتي بالأمر من الله تعالى في ليالي القدر إلى النبيّ وإلى الأوصياء: افعل كذا وكذا لأمر قد كانوا قد علموه، أمروا كيف يعملون فيه؟**

قلت: فسِّر لي هذا.

قال: **لم يمت رسول الله صلّى الله عليه وآله إلاّ حافظاً لجملة العلم وتفسيره.**

قلت: فالذي كان يأتيه في ليالي القدر علم ما هو ؟

قال: **الأمر واليسر فيما كان قد علم.**

قال السائل: فما يحدث لهم في ليالي القدر علمٌ سوى ما علموا؟

قال: **هذا ما أُمروا بكتمانه، ولا يعلم تفسير ما سألت عنه إلاّ الله عزّ وجلّ.**

قال السائل: فهل يعلم الأوصياء ما لا يعلم الأنبياء؟

قال: **لا، وكيف يعلم وصيّ غير علم ما أوصي إليه.**

قال السائل: فهل يسعنا أن نقول: إنّ أحداً من الوصاة يعلم ما لا يعلم الآخر؟

قال: **لا، لم يمت نبيّ إلاّ وعلمه في جوف وصيّه، وإنّما تنزّل الملائكة والروح في ليلة القدر بالحكم الذي يحكم به بين العباد.**

قال السائل: وما كانوا علموا ذلك الحكم؟

قال: **بلى قد علموه، ولكنّهم لا يستطيعون إمضاء شيء حتّى يؤمروا في ليالي القدر كيف يصنعون إلى السنة المقبلة.**

قال: يا أبا جعفر لا أستطيع إنكار هذا؟

قال أبو جعفر عليه السلام: **مَن أنكره فليس منّا.**

قال السائل: يا أبا جعفر أرأيت النبيّ صلّى الله عليه وآله هل كان يأتيه في ليالي القدر شيءٌ لم يكن عَلِمه؟

قال: **لا يحلّ لك أن تسأل عن هذا. أمّا علم ما كان وما سيكون، فليس يموت نبيّ ولا وصيّ إلاّ والوصي الذي بعده يعلمه. أمّا هذا العلم الذي تسأل عنه فإنّ الله عزّ وجلّ أبى أن يطّلع الأوصياء عليه إلاّ أنفسهم**»[1].

يشتمل هذا النصّ القيّم على عدّة أمور أساسيّة في فهم حقيقة علمهم:

**الأوّل:** أنّ علمهم يشمل ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، وأنّه لا يعزب عن علمهم شيء، وهذا ما أشير إليه بقوله عليه السلام: «**إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا أسري به لم يهبط حتّى أعلمه جلّ ذكره علم ما كان وما سيكون**» ثمّ قال: «**لم يمت نبيّ إلاّ وعلمه في جوف**

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥١، كتاب الحجّة، باب في شأن إنّا أنزلناه في ليلة القدر وتفسيرها، الحديث: ٨ .

**وصيّه»** وهذا ما فصّلنا الكلام فيه في الفصول السابقة. ومن الواضح أنّ ذلك يشمل العلم الحادث الذي يرتبط بالأمور المستقبليّة أيضاً.

**الثاني**: أنّ من علومهم التي تتعلّق بالأمور المستقبليّة أعني العلم الحادث، ما لا يعلمونه بنحو الأمر المحتوم الذي لا تبديل فيه، بل هو قابل للتغيير من قبله سبحانه، لذا نجد أنّ الإمام أكّد هذه الحقيقة مرّة بعد أخرى بقوله: «**لكنّهم لا يستطيعون إمضاء شيء منه حتّى يُؤمروا**».

**الثالث**: أنّ إمضاء وحتم ما علموه من الأمور المستقبليّة من خير وشرّ وطاعة ومعصية، وحياة وموت ورزق ونحوها، إنّما يحصل لهم عليهم السلام في ليلة القدر من كلّ سنة، وهذه أهمّ خصوصيّة في هذه الليلة بالنسبة إلى الأوصياء عليهم السلام.

من هنا قد يقال إنّ المراد بالجمل في قوله عليه السلام: «وكان كثير من علمه ذلك جُملاً» ما يقبل البداء من الأمور المستقبليّة، وبالتفسير في قوله: «ويأتي تفسيرها في ليلة القدر» هو تعيين وتفصيل ما هو محتوم وما يقبل البداء.

قال الفاضل الاسترابادي: «يفهم من كلامه عليه السلام أنّ الله تعالى علّم النبيّ صلى الله عليه وآله جلّ نقوش اللوح المحفوظ المتعلّقة بما مضى وما سيكون، ونقوش اللوح المحفوظ قسمان: قسم منه لله فيه المشيئة والبداء يجري فيه، وقسمٌ محتوم لا يجري فيه البداء. والنقوش المتعلّقة بكلّ سنة تصير محتومة في ليلة القدر، وتنزّل الملائكة والروح فيها بالإذن فيما صار محتوماً.

وأمّا قوله عليه السلام: **(وهذا ممّا أمروا بكتمانه)** فمعناه أنّهم مأمورون بكتمان خصوصيّات ما ينزل عليهم في ليلة القدر. وأمّا قوله: **(ولا يعلم**

**تفسير ما سألت عنه إلاّ الله)** فمعناه أنّه لا يعلم ما يصير محتوماً في كلّ سنة قبل أن يصير محتوماً إلاّ الله تعالى. وأمّا قوله: **(لكنّهم لا يستطيعون إمضاء شيء منه حتّى يؤمروا في ليالي القدر)** فمعناه أنّه لا يجوز لهم العمل بمقتضى علمهم إلاّ بعد العلم بأنّه صار محتوماً، وبعد الإذن في العمل»[1].

وعلى هذا فليس المراد أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم المجمل قبل ليلة القدر، ويحصل على التفسير والتفصيل في ليلة القدر، كما لعلّه فهم السائل من كلام الإمام بقوله: «**وكان كثير من علمه ذلك جملاً يأتي تفسيرها في ليلة القدر**» وإنّما المراد أنّ الإمام وإن كان يعلم الإجمال والتفسير معاً كما في قوله عليه السلام: «**لم يمت رسول الله صلّى الله عليه وآله إلاّ حافظاً لجملة العلم وتفسيره**» وما يقف عليه في ليلة القدر هو إمضاء ما قد علمه من التفسير قبل ذلك.

قال المازندراني: «**(وكان كثير من علمه ذلك جملاً يأتي تفسيرها في ليلة القدر)** يحتمل فيه احتمالان: الأوّل: أنّه يأتي تفسيرها وتفصيلها في ليلة القدر، والثاني: أنّه يأتي الأمر بتفاصيلها، حمله السائل على الأوّل واستفهم على سبيل التقرير **(أوَما كان في الجمل تفسير)** يريد أنّ فيها تفسيرها، والنفوس القدسيّة إذا علمت الجملة فقد علمت تفسيرها أيضاً، إمّا بنفس معرفة الجمل أو بأدنى التفات، وذلك كما إذا نظرت إلى زيد فقد أبصرت كلّه إجمالاً وأبصرت أجزاءه وتفاصيله جميعاً عند إبصار واحد، بل إبصار الكلّ والأجزاء إبصار واحد وإنّما يتفاوت بالاعتبار، فأقرّ به عليه السلام بقوله: (بلى) وصدّقه، وأشار بقوله: **(ولكنّه إنّما يأتي بالأمر من الله تعالى في ليالي القدر إلى النبيّ والأوصياء: افعل كذا وكذا، لأمر قد كانوا علموه، أمروا**

---

(١) نقلاً عن **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، مصدر سابق: ج٣ ص٩٨.

**كيف يعملون فيه)** إلى أنّ المراد هو الاحتمال الثاني.

توضيحه: أنّ كثيراً من علمه عليه السلام ذلك كان مجملاً لا يعلم أيأمر بإمضائه وفعله وتركه أم لا يأمر، أوَ يثبته أم يمحوه كما في العلم الذي يجري فيه البداء، وإنّما يأتي الأمر في ليلة القدر بتفاصيل هذه الأمور في ليلة القدر، وإنّما قال كثير من علمه ذلك جملاً، لأنّ من علمه أيضاً كان مثبتاً لا يجري فيه البداء، وكان الأمر به معلوماً لا يحتمل غيره»[1].

ثمّ رجع السائل فسأله بقوله: «فالذي كان يأتيه في ليالي القدر ما هو؟» للمبالغة في استعلام ما يأتيه فيها، فأجابه عليه السلام بنحو ما أجابه سابقاً، من أنّ الذي يأتيه هو «الأمر واليُسر» والمراد باليُسر هو التخفيف بالمحو ونحوه.

ثمّ عاد السائل وقال: «فما يحدث لهم في ليالي القدر علمٌ سوى ما علموا» إشعاراً بأنّ هذا محال؛ لأنّه تحصيل الحاصل، ومبالغة في استعلام ما يحدث لهم فيها من الأوامر المخصوصة، فأجابه عليه السلام صريحاً بأنّ هذا، أي ما يحدث لهم من الأوامر ممّا أمروا بكتمانه وإظهار خصوصيّاته.

ثمّ بيّن عليه السلام أنّه لا يعلم تفسير ما سأل عنه السائل من الأوامر المخصوصة والخصوصيّات التي تنزل فيها إلاّ الله تعالى. والحصر قد يكون حقيقيّاً فيكون المراد أنّه لا يعلم ما يصير محتوماً في ليلة القدر قبل أن يصير محتوماً إلاّ الله تعالى كما تقدّم، وقد يكون إضافيّاً بالنسبة إلى غير الأولياء، لأنّ عقول غيرهم لا تتحمّل ما تنزّل في ليالي القدر.

والحاصل: أنّ المستفاد من هذا النصّ أنّهم عليهم السلام علموا المحتوم وغير المحتوم جميعاً، لكن لا يجوز لهم العمل في غير المحتوم إلاّ بعد العلم

---

(١) **شرح أصول الكافي والروضة**، مصدر سابق: ج٦ ص١٦.

الحاصل لهم في ليلة القدر بأنّه صار محتوماً، وبعد الإذن لهم في العمل.

## المبحث الثالث: بيان الأمور التي يتحقّق فيها زيادة العلم

يمكن أن يُذكر في المقام وجهان لبيان الأمور التي يتحقّق فيها زيادة العلم:

### الوجه الأوّل: الزيادة إنّما هي في الأمور التي لم يقع فيها قضاء حتميّ

بيانه: اتّفقت النصوص الروائيّة على أنّ هناك نحواً من العلم المخزون المكنون عند الله تعالى لا يعلمه إلاّ هو، نحاول الإشارة إلى بعضها:

• عن سدير عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنّ لله علماً عامّاً وعلماً خاصّاً، فأمّا الخاصّ فالذي لم يطّلع عليه ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل، وأمّا علمه العام الذي اطّلعت عليه الملائكة المقرّبون والأنبياء المرسلون، وقد وقع ذلك كلّه إلينا**»(١).

• عن الأصبغ بن نباتة قال: «سمعت أمير المؤمنين يقول: **إنّ لله علمين: علمٌ استأثر به في غيبه فلم يُطلع عليه نبيّاً من أنبيائه ولا ملكاً من ملائكته، وله علمٌ قد أطلَع عليه ملائكته، فما أطلع عليه ملائكته فقد أطلع عليه محمّداً، وما أطلع عليه محمّداً فقد أطلعني عليه، يعلّمه الكبير منّا الصغير إلى أن تقوم الساعة**»(٢).

• عن سدير الصيرفي قال: «سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفر الباقر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ١٠١).

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٢٢٩، باب في الأئمّة أنّه صار إليهم جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء، الحديث: ٤٣٢.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٣٢، الحديث: ٤٤٠.

قال أبو جعفر: **إنّ الله عزّ وجلّ ابتدع الأشياء كلّها بعلمه على غير مثال كان قبله، فابتدع السماوات والأرضين، ولم يكن قبلهنّ سماوات ولا أرضون، أما تسمع لقوله تعالى:** ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (هود: ٩).

فقال له حمران: أرأيت قوله جلّ ذكره: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ (الجنّ: ٢٦).

فقال أبو جعفر عليه السلام: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن: ٢٧)، **وكان والله محمّد ممّن ارتضاه، وأمّا قوله:** ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ **فإنّ الله عزّ وجلّ عالم بما غاب عن خلقه فيما يقدّر من شيء، ويقتضيه في علمه قبل أن يخلقه وقبل أن يقضيه إلى الملائكة، فذلك ـ يا حمران ـ علمٌ موقوف عنده إليه فيه المشيئة، فيقضيه إذا أراد، ويبدو له فيه فلا يمضيه، فأمّا العلم الذي يقدّره الله عزّ وجلّ فيقضيه ويمضيه فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ثمّ إلينا»**(١).

• عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ لله علمين: علمٌ مكنون مخزون لا يعلمه إلاّ هو، من ذلك يكون البداء، وعلمٌ علّمه ملائكته ورسله وأنبياءه ونحن نعلمه»**(٢).

وتوضيح المراد من هذه النصوص يتوقّف على بيان المراد من البداء، وما هي المساحة التي يحصل فيها ذلك، من هنا سوف نمكث قليلاً لإعطاء لمحة عامّة عن هذه العقيدة بالقدر الذي نحتاج إليه.

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥٦، باب الحجّة، باب نادر فيه ذكر الغيب، الحديث: ٢.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٠، باب في الأئمّة أنّه صار إليهم جميع العلوم، الحديث: ٤٣٣.

## البداء في حديث أهل البيت

أولت روايات أهل البيت عليهم السلام عناية فائقة بموضوع البداء، من حيث الإقرار بوجوده وأهمّية الإيمان به، بالإضافة إلى معالجة ما يطرأ على بعض الأذهان من الالتباسات حيال المسألة.

• عن زرارة بن أعين عن أحدهما عليهما السلام قال: «**ما عُبد الله بشيء مثل البداء**»(١).

• عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**ما عظم الله بمثل البداء**»(٢).

• عن مالك الجهني قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه**»(٣).

• عن مرازم بن حكيم قال: سمعت أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول: «**ما تنبّأ نبيٌّ قطّ حتّى يقرّ لله بخمس خصال: بالبداء والمشيئة والسجود والعبوديّة والطاعة**»(٤).

• عن الريّان بن الصلت قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «**ما بعث الله نبيّاً قطّ إلاّ بتحريم الخمر وأن يقرّ لله بالبداء**»(٥).

### البداء لغةً

تلتقي معاجم اللغة في القديم والحديث على معنى مشترك للبداء، فكلمة «بداء» مصدر الفعل الثلاثي «بدا» بمعنى ظهر، قولهم: بدا الشيء

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص١٤٦، كتاب التوحيد، الحديث: ١.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص١٤٦، الحديث: ٢.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص١٤٨، الحديث: ١٢.

(٤) المصدر السابق: ج١ ص١٤٨، الحديث: ١٣ و١٥.

يبدو بِدواً وبَدواً وبداءً: ظهر. هذا ما ذكره ابن فارس[١] والأزهري[٢] والجوهري[٣] وغيرهم.

ومن المعاجم الحديثة جاء في المعجم الوسيط: «بدا بدواً وبداءً: ظهر، وبدا له في الأمر كذا: جدّ له فيه رأي. البداء: ظهور الرأي بعد أن لم يكن، وأيضاً استصواب شيء عُلم بعد أن لم يعلم، وكذلك بدا لي في هذا الأمر بداءً: أي ظهر لي فيه رأيٌ آخر»[٤].

وبهذا يتّضح أنّ المعنى اللغوي يعني: الظهور المسبوق بالخفاء أو العلم بعد أن لم يُعلم، أي العلم الذي يسبقه جهل؛ قال الطباطبائي: «البداء من الأوصاف التي ربما تتّصف بها أفعالنا الاختياريّة من حيث صدورها عنّا بالعلم والاختيار، فإنّا لا نريد شيئاً من أفعالنا الاختياريّة إلاّ بمصلحة داعية إلى ذلك تعلّق بها علمنا، وربما تعلّق العلم بمصلحة فقَصَدنا الفعل، ثمّ تعلّق العلم بمصلحة أخرى توجب خلاف المصلحة الأولى، فحينئذ نريد خلاف ما كنّا نريده قبل، وهو الذي نقول بدا لنا أن نفعل كذا، أي ظهر لنا بعدما كان خفيّاً عنّا كذا.

---

(١) **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريّا، المتوفّى ٣٩٥هـ تحقيق وضبط: عبد السلام محمّد هارون، تاريخ النشر: ١٤٠٤هـ : ج١ ص٢١٢.

(٢) **تهذيب اللغة**، لأبي منصور محمّد بن أحمد الأزهري (٢٨٢ ـ ٣٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ إشراف: محمّد عوض مرعب: ج١٤ ص١٤٢.

(٣) **الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربيّة**، تأليف: إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٩٩هـ : ج٦ ص٢٢٧٨.

(٤) **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، الطبعة الخامسة، طهران ١٤١٦هـ : ص٤٤.

فالبداء ظهور ما كان خفيّاً من الفعل لظهور ما كان خفيّاً من العلم بالمصلحة»[١].

إلاّ أنّه من الواضح أنّ هذا المعنى من البداء يستحيل على الله تعالى لأنّه يستلزم نسبة الجهل إليه تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. وهذا ما لا يمكن أن يلتزم به عاقل موحِّد مؤمن بالله، فضلاً عن عالم، فكيف بأئمّة أهل البيت عليهم السلام الذين هم عِدل القرآن.

من هنا تضافرت النصوص عن أهل البيت عليهم السلام لردّ هذا المعنى من البيان بشكل واضح، كما سيأتي.

## البداء اصطلاحاً

إنّ البداء الذي تقول به الشيعة الإماميّة مغاير للمعنى اللغوي، الذي هو مستحيل على الله تعالى، إذ البداء الذي ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام هو الظهور لغيره تعالى، ومن الواضح أنّ هذا المعنى من البداء لا محذور فيه، لأنّه ينسب الخفاء إلى المخلوقات، لا إلى الذات الإلهيّة المقدّسة، ومن الروايات التي أشارت إلى هذا المعنى:

• عن داود بن فرقد عن عمرو بن عثمان الجهني عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله لم يبد له من جهل**»[٢].

• عن منصور بن حازم قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام: هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالأمس؟ قال: **لا، من قال هذا فأخزاه الله**.

قلت: أرأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، أليس في علم الله؟

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص١٤٦، كتاب التوحيد، باب البداء، الحاشية رقم: ١.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص١٤٨، الحديث: ١٠.

قال: **بلى قبل أن يخلق الخلق**»(١).

• عن أبي بصير وسماعة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**من زعم أنّ الله عزّ وجلّ يبدو له في شيء لم يعلمه أمس فابرؤوا منه**»(٢).

وهي واضحة الدلالة في أن المراد من البداء هو أن يظهر لله من المشيئة ما هو مخفيّ على الناس وعلى خلاف ما يحسبون.

• عن ابن سنان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**إنّ الله يقدّم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء، ويمحو ما يشاء ويُثبت ما يشاء وعنده أُمّ الكتاب.** وقال: **فكلّ أمر يريده الله فهو في علمه قبل أن يصنعه، ليس شيء يبدو له إلاّ وقد كان في علمه، إنّ الله لا يبدو له من جهل**»(٣).

ومن الواضح أنّ هذا المعنى من البداء لا محذور فيه لأنّه يثبت الخفاء للمخلوقين فقط، لا لله تعالى.

وهذا هو مقتضى القدرة الإلهيّة المطلقة، لأنّ من يؤمن بالبداء فإنّه يدين له بالقدرة اللامتناهيّة، وفي هذا بعض أسباب التأكيد على البداء.

قال الشيخ البلاغي في رسالته عن البداء: «إذن فالفضل المذكور والأهمّية الكبرى للاعتراف بالبداء، ما هو إلاّ لأنّه يرجع إلى الاعتراف بحقيقة الإلهيّة، وأنّ الموجِد للعالم إنّما هو إله وموجِد بالإرادة والقدرة على مقتضى الحكمة، متصرّف بقدرته بما يتراءى من العلل وتعليلاتها التي هي من صنعه وإيجاده، والخاضعة لتصرّف مشيئته فيها»(٤).

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص١٤٨، الحديث: ١١.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٤ ص١١١، كتاب التوحيد، باب البداء والنسج، الحديث: ٣٠.

(٣) المصدر السابق: ج٤ ص١٢١، الحديث: ٦٣.

(٤) **رسالتان في البداء**، تأليف: الشيخ محمّد جواد البلاغي (١٢٨٢ ـ ١٣٥٢) السيّد أبو =

ويمكن بيان عقيدة البداء التي نصّت عليها النصوص المتقدِّمة ببيان عقليّ كما أشار إليه الطباطبائي بقوله: «إنّ وجود كلّ موجود من الموجودات الخارجيّة له نسبة إلى مجموع علّته التامّة التي يستحيل معها عدم الشيء، وعند ذلك يجب وجوده بالضرورة، وله نسبة إلى مقتضيه الذي يحتاج الشيء في صدوره منه إلى شرط وعدم مانع، فإذا وجدت الشرائط وعدمت الموانع تمّت العلّة التامّة ووجب وجود الشيء، وإذا لم يوجد الشرط أو وجد مانع لم يؤثّر المقتضي أثره، وكان التأثير للمانع، وحينئذ يصدق البداء. فإنّ هذا الحادث إذا نسب وجوده إلى مقتضيه الذي كان يظهر بوجوده خلاف هذا الحادث كان موجوداً، ظهر من علّته خلاف ما كان يظهر منها.

ومن المعلوم أنّ علمه تعالى بالموجودات والحوادث مطابق لما في نفس الأمر من وجودها، فله تعالى علمٌ بالأشياء من جهة عللها التامّة، وهو العلم الذي لا بداء فيه أصلاً، وله علمٌ بالأشياء من جهة مقتضياتها التي موقوفة التأثير على وجود الشرائط وفقد الموانع، وهذا العلم يمكن أن يظهر خلاف ما كان ظاهراً منه بفقد شرط أو وجود مانع»[1].

## موقع البداء في القضاء الإلهي

اتّضح أنّ البداء لا يجري في كلّ أمر، وإنّما يختصّ وقوعه في خصوص القضاء غير المحتوم، أمّا القضاء المحتوم فيستحيل وقوع البداء فيه، ولأجل

---

= القاسم الموسوي الخوئي (١٣١٧ ـ ١٤١٣هـ) إعداد السيّد محمّد علي الحكيم، قم، ١٤١٤هـ : ص٢٣.

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص١٤٦، كتاب التوحيد، باب البداء، حاشية الطباطبائي، رقم: ١.

إيضاح ذلك ينبغي أن نعرض بشكل إجمالي لأقسام القضاء الإلهي، وهي ثلاثة كما هو المستفاد من النصوص في المقام:

## القسم الأوّل: القضاء المحتوم الذي لا يطّلع عليه أحدٌ من خلقه

وهذا القضاء من العلم المخزون المكنون الذي استأثره الله تعالى لنفسه.

ومن الواضح أنّ هذا القسم من القضاء الإلهي لا يقع فيه البداء، إذ إنّه لم يظهر لأحد حتّى يتحقّق فيه البداء، لأنّ البداء ـ كما تقدّم ـ هو الظهور للمخلوقين على خلاف ما علموه، كذلك يستحيل أن يقع البداء في هذا القسم بالنسبة لله تعالى، لأنّه تعالى عالم بجميع الأشياء منذ الأزل، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، وهو العالم بتحقّق الأسباب أو عدم تحقّقها.

نعم، هذا القسم من القضاء يكون منشأً للبداء ـ كما تقدّم ـ لا أنّه يقع فيه البداء. فمثلاً: قضى الله تعالى لزيد أن يعيش عشرين سنة، وعِلمَ النبيّ أو الإمام بذلك، إلاّ أنّ زيداً وصل رحمه أو فعل من أفعال البرّ ما اقتضى زيادة في عمره، فزاد الله تعالى له عمره إلى ثلاثين سنة. ففي هذا المثال تقديران: أحدهما: تقدير معلوم للنبيّ أو الإمام، وهو عمر زيد عشرين سنة، وفي هذا العلم قد يقع البداء، وتقدير آخر: وهو معلوم لله تعالى فقط، وهو أنّ زيد قد يقوم بأيّ عمل من أعمال البرّ، ويكون سبباً في زيادة عمره، وهذا العلم الثاني لا يطاله التغيّر والتبدّل، وإنّما يكون منه التغيّر والتبدّل، وهو منشأ حصول البداء.

وتدلّ على ذلك نصوص عديدة، منها:

• عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ لله علمين: علمٌ مكنون مخزون لا يعلمه إلاّ هو، من ذلك يكون البداء. وعلمٌ علّمه**

**ملائكته ورسله وأنبياءه، ونحن نعلمه»**[١].

• عن معلّى بن محمّد قال: سُئل العالم عليه السلام كيف علم الله؟

قال: «**علم وشاء وأراد وقدّر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى، وقضى ما قدّر، وقدّر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء، وبقضائه كان الإمضاء. والعلم متقدّم على المشيئة، والمشيئة ثانية، والإرادة ثالثة، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء.**

**فلله تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء، وفيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء...**»[٢].

## القسم الثاني: القضاء المحتوم الذي أخبر به أنبياءه وملائكته بحتميّة وقوعه

وهذا النوع من القضاء لا يقع فيه البداء أيضاً، لأنّ الله تعالى لا يكذّب نفسه ورسله وملائكته، وعليه فلا فرق بين هذا القسم من القضاء وبين القسم الأوّل من جهة عدم وقوع البداء فيه، نعم يفترق هذا القسم عن سابقه أنّ هذا القضاء ممّا أخبر به أولياءه، مضافاً إلى عدم نشوء البداء منه، بخلاف الأوّل.

وقد دلّت جملة من النصوص الروائيّة على هذا النوع من القضاء، منها:

• عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: «**العلم علمان: فعلمٌ عند الله مخزون لم يطلع عليه أحداً من خلقه، وعلمٌ علّمه ملائكته ورسله، فما علّمه ملائكته ورسله فإنّه سيكون، ولا يكذّب نفسه ولا**

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٠، باب في الأئمّة أنّه صار إليهم جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والمرسلين، الحديث: ٤٣٣.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص١٤٨، الحديث: ١٦.

**ملائكته ولا رسله، وعلمٌ عنده مخزون يقدّم منه ما يشاء، ويؤخر منه ما يشاء، ويثبت ما يشاء»**[١].

• عن جهم ابن أبي جهمة عمّن حدّثه عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ أخبر محمّداً صلّى الله عليه وآله بما كان منذ كانت الدُّنيا، وبما يكون إلى انقضاء الدُّنيا، وأخبره بالمحتوم من ذلك واستثنى عليه فيما سواه**»[٢].

### القسم الثالث: القضاء غير المحتوم

وهو القضاء الذي أخبر به تعالى ملائكته وأنبياءه، وربما أخبروا الناس بوقوعه في الخارج لكن لا على نحو الحتم والجزم، وإنّما وقوعه معلّق على شيء آخر، من قبيل قضاء الله تعالى بموت زيد في سنّ العشرين، بيدَ أنّه علّق موته على عدم دفع زيد للصدقة أو على عدم صلة رحمه، أو عدم دعاء الناس له، فلو تحقّق الشرط فلا يموت زيد في ذلك العمر، قال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرعد: ٣٩)، وقوله تعالى هذا يفيد فائدة التعليل لقوله المتقدّم في الآية السابقة: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد: ٣٨)، والمعنى: «أنّ لكلّ وقت كتاباً يخصّه فيختلف، فاختلاف الكتب باختلاف الأوقات والآجال إنّما ظهر من ناحية اختلاف التصرّف الإلهي بمشيئته، لا من جهة اختلافها في أنفسها ومن ذواتها، بأن يتعيّن لكلّ أجل كتاب في نفسه لا يتغيّر عن وجهه، بل الله سبحانه هو الذي يعيّن ذلك بتبديل كتاب مكان كتاب، ومحو كتاب وإثبات آخر»[٣].

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص١٤٧، الحديث: ٦.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص١٤٨، الحديث: ١٤.

(٣) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١١ ص٣٧٥.

وهذا ما أكّدته النصوص الروائيّة بشكل واضح:

• عن ابن سنان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى يقدّم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء ويمحو ما يشاء ويُثبت ما يشاء وعنده أمّ الكتاب.** وقال: **كلّ أمر يريده الله فهو في علمه قبل أن يضعه، وليس شيء يبدو له إلاّ وقد كان في علمه...**»(١).

• عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنّ الله لم يَدع شيئاً كان أو يكون إلاّ كتبه في كتاب، فهو موضوع بين يديه ينظر إليه، فما شاء منه قدّم وما شاء منه أخّر، وما شاء منه محا، وما شاء منه كان، وما لم يشأ لم يكن**»(٢).

• عن الفضيل قال: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: «**من الأمور أمور محتومة كائنة لا محالة، ومن الأمور أمور موقوفة عند الله، يقدّم فيها ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت منها ما يشاء، لم يُطْلع على ذلك أحداً ـ يعني الموقوفة ـ فأمّا ما جاءت به الرسل فهي كائنة لا يكذّب نفسه ولا نبيّه ولا ملائكته**»(٣).

• عن الثمالي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «بينا داود على نبيّنا وآله وعليه السلام جالس وعنده شاب رثّ الهيئة، يكثر الجلوس عنده ويطيل الصمت إذ أتاه ملك الموت فسلّم عليه وأحدّ ملك الموت النظر إلى الشابّ (أي بالغ في النظر).

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٤ ص١٢١، كتاب التوحيد، باب البداء والنسخ، الحديث: ٦٣.

(٢) **تفسير العيّاشي**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٩٥، الحديث: ٢٢٤٠.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٣٩٦، الحديث: ٢٢٤٤.

فقال داود عليه السلام: **نظرت إلى هذا؟**

فقال: نعم إنّي أُمرت بقبض روحه إلى سبعة أيّام في هذا الموضع. فرحمه داود، فقال: **يا شابّ هل لك امرأة؟** قال: لا، وما تزوّجت قطّ.

قال داود: **فأت فلاناً** ـ رجلاً كان عظيم القدر في بني إسرائيل ـ **فقل له: إنّ داود يأمرك أن تزوّجني ابنتك، وتدخلها الليلة. وخُذ من النفقة ما تحتاج إليه وكُن عندها، فإذا مضت سبعة أيّام فوافني في هذا الموضع.**

فمضى الشاب برسالة داود على نبيّنا وآله وعليه السلام فزوّجه الرجل ابنته وأدخلوها عليه وأقام عندها سبعة أيّام، ثمّ وافى داود يوم الثامن فقال له داود: **يا شابّ كيف رأيت ما كنت فيه؟** قال: ما كنت في نعمة ولا سرور قطّ أعظم ممّا كنت فيه.

قال داود: **اجلس**. فجلس وداود ينتظر أن يقبض روحه، فلمّا طال قال: **انصرف إلى منزلك فكن مع أهلك، فإذا كان يوم الثامن فوافني هاهنا.** فمضى الشاب ثمّ وافاه في اليوم الثامن وجلس عنده، ثمّ انصرف أسبوعاً آخر ثمّ أتاه فجلس، فجاء ملك الموت داود، فقال داود: **ألست حدّثتني بأنّك أُمرت بقبض روح هذا الشاب إلى سبعة أيّام؟** قال: بلى. فقال: **قد مضيت ثمانية وثمانية وثمانية.**

قال: **يا داود إنّ الله رحمه برحمتك له، فأخّر في أجله ثلاثين سنة**»[1].

• عن السيوطي في الدر المنثور في ظلال قوله سبحانه: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرعد: ٣٩)، عن عليّ أنّه سأل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن هذه الآية، فقال له: «**لأقرنّ عينيك بتفسيرها،**

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٤ ص١١١، كتاب التوحيد، باب البداء والنسخ، الحديث: ٣١.

**ولأقرنّ عين أمّتي بعدي بتفسيرها، الصدقة على وجهها، وبرّ الوالدين، واصطناع المعروف، يحوّل الشقاء سعادة ويزيد في العمر ويقي مصارع السوء»**(١).

• عن ثوبان عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «**لا يردّ القدر إلاّ الدعاء، ولا يزيد في العمر إلاّ البرّ، وإنّ الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها**»(٢).

• عن أبي ولاّد قال: قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام: «**عليكم بالدّعاء، فإنّ الدعاء لله والطلب إلى الله يردّ البلاء وقد قدّر وقضي ولم يبق إلاّ إمضاؤه، فإذا دُعي الله عزّ وجلّ وسُئل صرف البلاء صرفه**»(٣).

وبهذا يتّضح أهمّية الإيمان بالبداء في البناء العقائدي، فإنّه لو هيمن على وجود أيّ إنسان نمط من الاعتقاد يفيد بأنّ ما جرى به قلم التقدير أمرٌ لا مردّ له، وهو كائن لا محالة دون استثناء، لسقط الإنسان في هوّة اليأس وضُربت عليه حالة من الإحباط والقنوط.

من هنا يأتي دور البداء ليفتح أمام الإنسان نافذة أمل يمكّنه التحكّم بمصيره عبر العمل الاختياري، ويضيء أمامه مجرى الحياة بإشراقة تبعث في قلوب المؤمنين الرجاء بالله دائماً وأبداً، فيحثّه ذلك على الدّعاء والصدقات وضروب البرّ وفنون الطاعات، ممّا يوثّق علاقته بخالقه سبحانه، ويضع

---

(١) **الدر المنثور في التفسير المأثور**، مصدر سابق: ج٤ ص٦٦١.

(٢) **سنن ابن ماجة**، تصنيف: أبي عبدالله محمّد بن يزيد ابن ماجة القزويني (٢٠٩ ـ ٢٧٣)، اعتنى به فريق بيت الأفكار الدوليّة: كتاب المقدّمة، باب القدر، الحديث: ٩٠: ص٢٧.

(٣) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص٤٧٠، كتاب الدّعاء، باب أنّ الدّعاء يردّ البلاء والقضاء، الحديث: ٨ .

أمامه فرصاً مفتوحة على الدوام لتعديل المصير.

قال السيّد الخوئي في رسالته عن البداء: «والقول بالبداء يوجب انقطاع العبد إلى الله، وطلبه إجابة دعائه منه وكفاية مهمّاته وتوفيقه للطاعة وإبعاده عن المعصية. فإنّ إنكار البداء والالتزام بأنّ ما جرى به قلم التقدير كائن لا محالة دون استثناء، يلزمه يأس المعتقد بهذه العقيدة عن إجابة دعائه، فإنّ ما يطلبه العبد من ربّه إن كان قد جرى قلم التقدير بإنفاذه فهو كائن لا محالة، ولا حاجة للدّعاء والتوسّل، وإن كان قد جرى بخلافه لم يقع أبداً ولم ينفعه الدّعاء والتضرّع، وإذا يئس العبد من إجابة دعائه ترك التضرّع لخالقه، حيث لا فائدة في ذلك. وكذلك الحال في سائر العبادات والصدقات التي وردت عن المعصومين عليهم السلام أنّها تزيد في العمر أو في الرزق أو غير ذلك ممّا يطلبه العبد.

وهذا هو سرّ ما ورد في روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام من الاهتمام بشأن البداء»[1].

## النتائج المترتّبة على الوجه الأوّل

هناك عدّة نتائج تترتّب على الوجه الأوّل الذي تعرضنا له وهي كما يلي:

**النتيجة الأولى**: أنّ علم أهل البيت عليهم السلام في القضاء غير المحتوم، إنّما هو بنحو قابل للتبديل والتغيير. ومؤدّى ذلك أنّهم وإن كانوا يعلمون هذه الأمور، إلاّ أنّ علمهم ليس بنحو الحتم والجزم، فإذا تغيّرت الشرائط وارتفعت الموانع يخبرهم الله تعالى من العلم المخزون المكنون المستأثر عنده بذلك التغيّر والتبدّل.

---

(١) **رسالتان في البداء**، مصدر سابق: ص٤٣.

فالإمام وإن كان يعلم أنّ زيداً مثلاً سيموت في اليوم الكذائي والساعة الكذائيّة، إلاّ أنّ هذا العلم يمكن أن يحصل فيه البداء فيموت في غير الوقت الذي علمه؛ لعدم تحقّق الشرط أو وجود مانع، فإذا بدا لله تعالى يطلعهم على ما بدا له في ذلك.

وهذا هو العلم الحادث الذي عبّرت عنه النصوص بتعبيرات وصيغ مختلفة ـ كما تقدّم ـ.

من هنا يتّضح عدم التعارض بين ما ورد من الروايات الدالّة على أنّ الله استأثر في علمه خمسة أشياء، وهي: علم الساعة، ونزول الغيث، وما في الأرحام، وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً، وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت. من هذه الروايات:

• ما رواه علي بن إبراهيم في تفسيره في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ (لقمان: ٣٤).

قال: قال الصادق عليه السلام: «**هذه الخمسة أشياء لم يطّلع عليها ملكٌ مقرّب، ولا نبيٌّ مرسل، وهي من صفات الله عزّ وجلّ**»[١].

• عن أبي الجارود عن الأصبغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**إنّ لله علمين: علمٌ استأثر به في غيبه، فلم يُطلع عليه نبيّاً من أنبيائه ولا ملكاً من ملائكته، وذلك قول الله تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ ﴾. **وله علمٌ قد أطلع عليه ملائكته، فما أطلع عليه ملائكته فقد أطلع عليه محمّداً وآله، وما أطلع عليه محمّداً وآله فقد أطلعني عليه يعلّمه**

(١) **تفسير القمّي**، مصدر سابق: ج٢ ص١٦٧.

**الكبير منّا الصغير إلى أن تقوم الساعة»**[1].

• ما رواه الصدوق في الخصال عن أبي أسامة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قال لي أبي ألا أخبرك بخمسة لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه؟** قلت: بلى، قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾»[2].

• وعن عليٍّ عليه السلام لّما أخبر بأخبار الترك، قال له بعض أصحابه: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب! فضحك عليه السلام، وقال للرجل وكان كلبيّاً:

«**يا أخا كلب، ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلّم من ذي علم. وإنّما علم الغيب علم الساعة، وما عدّده الله سبحانه بقوله:** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ الآية، **فيعلمُ الله سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أُنثى، وقبيح أو جميل، وسخيّ أو بخيل، وشقيّ أو سعيد، ومن يكون في النار حطباً، أو في الجنان للنبيّين مرافقاً.**

**فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحدٌ إلاّ الله، وما سوى ذلك فعلمٌ علّمه الله نبيّه فعلّمنيه، ودعا لي بأن يَعيه صدري، وتضطمّ عليه جوانحي»**[3].

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٢، باب في الأئمّة أنّه صار إليهم جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء، الحديث: ٤٤٠.

(٢) **الخصال**، للشيخ الصدوق، باب الخمسة، خمسة لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه، الحديث: ٤٩، ج١ ص٢٩٠.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق: ص١٨٦، الخطبة: ١٢٨، فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة.

• عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنّ رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قال: «**مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلاّ الله. لا يعلم ما في غد إلاّ الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلاّ الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلاّ الله، ولا تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلاّ الله**»(١).

• عن أبي هريرة «أنّ رجلاً قال: يا رسول الله متى الساعة؟

قال: ما المسؤول عنه بأعلم من السائل. ثمّ أشار إلى بعض أشراطها، ثمّ قال: **في خمس من الغيب لا يعلمهنّ إلاّ الله**، ثمّ تلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ...﴾ إلى آخر الآية»(٢).

ووجه الجمع بين هذه النصوص وبين ما تقدّم على أنّ الأنبياء والأولياء ـ خصوصاً النبيّ الأعظم وأهل بيته ـ يعلمون الغيب بما يشمل هذه الأمور أيضاً، هو أن يقال: إنّ العلم بالقضاء الحتمي في هذه الموارد الخمسة مختصّ بالله تعالى، أمّا غيره فإنّهم وإن كانوا مطّلعين على ذلك بإخباره سبحانه لهم، إلاّ أنّه ليس بنحو الجزم، لأنّ الله سبحانه جعل لنفسه البداء فيها.

قال الآلوسي: «وجه الجمع بين الأخبار الدالّة على استئثار الله تعالى بعلم ذلك، وبين ما يدلّ على خلافه كبعض إخباراته عليه الصلاة والسلام بالمغيّبات التي هي من هذا القبيل، يعلم ذلك من راجع نحو الشفاء والمواهب اللدنيّة ممّا ذكر فيه معجزاته صلّى الله عليه وآله وإخباره عليه الصلاة

---

(١) **صحيح البخاري**، مصدر سابق: كتاب التفسير، باب قوله: «الله يعلم ما تحمل كلّ أنثى»، الحديث ٤٦٩٧، ص ٩٠٠.

(٢) **تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله والصحابة والتابعين**، تأليف: الإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمّد بن إدريس ابن أبي حاتم، المتوفّى سنة ٣٢٧ هـ، تحقيق: أسعد محمّد الطيّب، المكتبة العصريّة، صيدا ـ بيروت، الطبعة الثانية: ١٤١٩، الحديث ١٧٥٦٨: ج٩ ص٣١٠٢.

والسلام بالمغيّبات.

وذكر القسطلاني أنّه عزّ وجلّ إذا أمر بالغيث وسوّقه إلى ما شاء من الأماكن، علمته الملائكة الموكّلون به، ومن شاء سبحانه من خلقه عزّ وجلّ، وكذا إذا أراد تبارك وتعالى خلق شخص في رحم يُعلم سبحانه الملك الموكّل بالرحم بما يريد جلّ وعلا، كما يدلّ عليه ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك عن النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم قال: **إنّ الله تعالى وكلّ بالرحم ملكاً يقول: ياربّ نطفة، ياربّ علقة، ياربّ مضغة، فإذا أراد الله تعالى أن يقضي خلقه قال: أذكرٌ أم أُنثى، شقيٌّ أم سعيدٌ، فما الرزق والأجل؟ فيُكتب في بطن أمّه، فحينئذ يَعلم بذلك الملك ومن شاء الله تعالى من خلقه عزّ وجلّ.**

وهذا لا ينافي الاختصاص والاستئثار بعلم المذكورات، بناءً على ما سمعت منّا من أنّ المراد بالعلم الذي استأثر سبحانه به العلم الكامل بأحوال كلّ على التفصيل، فما يعلم به المَلك ويطّلع عليه بعض الخواصّ يجوز أن يكون دون ذلك العلم، بل هو كذلك في الواقع بلا شبهة»[١].

وأورد المجلسي وجوهاً للجمع، منها ما ذكره بقوله: «ما أومأنا إليه سابقاً وهو أنّ الله تعالى لم يطلع على تلك الأمور كليّةً أحداً من الخلق على وجه لا بداء فيه، بل يرسل علمها على وجه الحتم في زمان قريب من حصولها كليلة القدر أو أقرب من ذلك.

وهذا وجهٌ قريب تدلّ عليه الأخبار الكثيرة، إذ لابدّ من علم ملك الموت بخصوص الوقت كما ورد في الأخبار، وكذا ملائكة السحاب والمطر بوقت نزول المطر، وكذا المدبّرات من الملائكة بأوقات وقوع الحوادث»[٢].

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج٢١ ص١١١.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٢٦ ص١٠٤ =

وهذا ما تقدّم في نصّ سابق عن أبي جعفر الباقر عليه السلام حيث قال: **«إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا أُسري به لم يهبط حتّى أعلمه جلّ ذكره علم ما قد كان وما سيكون، وكان كثير من علمه ذلك جُملاً يأتي تفسيرها في ليلة القدر، وكذلك كان علي بن أبي طالب عليه السلام قد علم جُمل العلم ويأتي تفسيره في ليالي القدر كما كان مع رسول الله صلّى الله عليه وآله .**

قال السائل: أوَ ما كان في الجمل تفسير؟

قال: **بلى، ولكنّه إنّما يأتي بالأمر من الله تعالى في ليالي القدر إلى النبيّ وإلى الأوصياء: إفعل كذا وكذا لأمر، قد كانوا علموه، أمروا كيف يعملون فيه.**

ثمّ قال السائل: وما كانوا علموا ذلك الحكم؟

قال: **بلى، قد علموه ولكنّهم لا يستطيعون إمضاء شيء منه حتّى يؤمروا في ليالي القدر كيف يصنعون إلى السنة المقبلة»**(١) .

**النتيجة الثانية:** بناءً على ما أوردناه في النتيجة الأولى اتّضح المراد من ازدياد علمهم عليهم السلام، الذي أشارت إليه نصوص كثيرة ـ كما تقدّم ـ وهو أنّ الزيادة ليست بمعنى أنّهم كانوا جاهلين بهذه الأمور ثمّ علموها، وإنّما هم يعلمونها ولكن بنحو قابل للبداء، فإذا بدا لله تعالى في شيء منها أخبرهم وأطلعهم على ذلك، فإذا أطلعهم فإنّه يكون حتماً مقضيّاً.

في ضوء هذا يمكن أن نفهم سبب عدم إخبار الأئمّة عليهم السلام بالأمور ـ التي هي في معرض البداء ـ بنحو الجزم والحتم، وذلك لاحتمال حصول البداء فيها كآجال الناس ومصائرهم، وهذا ما يشير إليه أمير

---

= كتاب الإمامة، آخر باب أنّهم عليهم السلام لا يعلمون الغيب ومعناه.

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥١، كتاب الحجّة، باب في شأن إنّا أنزلناه في ليلة القدر وتفسيرها، الحديث: ٨ .

المؤمنين عليه السلام في الرواية التالية:

«عن الأصبغ بن نباتة قال: لمّا جلس عليّ عليه السلام في الخلافة وبايعه الناس، خرج إلى المسجد متعمّماً بعمامة رسول الله صلّى الله عليه وآله، لابساً بردة رسول الله صلّى الله عليه وآله، متنعّلاً نعل رسول الله صلّى الله عليه وآله، متقلّداً سيف رسول الله صلّى الله عليه وآله، فصعد المنبر فجلس عليه متمكّناً، ثمّ شبّك بين أصابعه فوضعها أسفل بطنه، ثمّ قال:

**يا معشر الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفط العلم، هذا لعاب رسول الله صلّى الله عليه وآله، هذا ما زقّني رسول الله صلّى الله عليه وآله زقّاً زقّاً، سلوني فإنّ عندي علم الأوّلين والآخرين، أما والله لو ثنيت لي وسادة فجلست عليها لأفتيتُ أهل التوراة بتوراتهم حتّى تنطق التوراة فتقول: صدق عليّ ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيَّ، وأفتيتُ أهل الإنجيل بإنجيلهم حتّى ينطق الإنجيل فيقول: صدق عليّ ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأفتيتُ أهل القرآن بقرآنهم حتّى ينطق القرآن فيقول: صدق عليٌّ ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً، فهل فيكم أحدٌ يعلم ما نزل فيه؟ ولولا آية في كتاب الله عزّ وجلّ لأخبرتكم بما كان وبما يكون وبما هو كائن إلى يوم القيامة، وهي هذه الآية:** ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرعد: ٣٩) »[1].

**النتيجة الثالثة:** أشرنا في الفصل السابق إلى أنّ هناك جواباً آخر لبيان وجه عدم التنافي بين علمهم بما هم صائرون إليه في حياتهم وبين سلوكهم

(١) **ترتيب الأمالي**، ترتيب موضوعي لأمالي المشايخ الثلاثة: الصدوق والمفيد والطوسي، تأليف: محمّد جواد المحمودي، مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠، الحديث: ٢١٨٩: ج٤ ص٥٢٨، الحديث: ٤٧٨٥، ج٨ ص٣٤٥.

الخارجي الذي قد يُقال إنّه إيقاع بالتهلكة.

وحاصل ذلك: أنّ الإمام عليه السلام وإن كان يعلم ما هو صائرٌ إليه، لكن هذا العلم الذي توفّر عليه من الأمور التي قد يبدو لله فيها ـ كما تقدّم بيانه ـ فالإمام الذي يقدم على واقعة يعلم أنّه يموت فيها، كما هو الحال في خروج أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد أو خروج الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء، فهما وإن كانا يعلمان بأنّهما سيقتلان، إلاّ أنّ سنخ هذا العلم قد يبدو لله فيه، ومن ثَمَّ لم يكن الإمام عليه السلام حين خروجه جازماً بقتله.

وهكذا الحال بالنسبة لمبيت أمير المؤمنين عليه السلام في فراش النبيّ صلّى الله عليه وآله ليلة الهجرة، فإنّه عليه السلام وإن كان يعلم أنّه لا يصيبه شيء، إلاّ أنّه يعلم أيضاً أنّ هذا العلم من الأقضية التي قد يبدو لله فيها، وعلى هذا الأساس يعدّ مبيته عليه السلام في تلك الليلة منقبة.

إذن لا تنافي بين القول بعلم أهل البيت عليهم السلام بالغيب وما هم صائرون إليه وبين سلوكهم الخارجي.

## فائدة: العلم الحادث أفضل علومهم

أشارت النصوص أنّ هذا القسم من علومهم ـ وهو العلم الحادث ـ هو أفضل وأشرف أقسام علومهم، قال أبو الحسن الأوّل موسى بن جعفر عليهما السلام: «**مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه: ماض وغابر وحادث، فأمّا الماضي فمفسّر، وأمّا الغابر فمزبور، وأمّا الحادث فقذف في القلوب ونقر في الأسماع، وهو أفضل علمنا**»[1].

---

(١) **أصول الكافي**: ج١ ص٢٦٤، كتاب الحجّة، باب جهات علوم الأئمّة، الحديث: ١.

ولعلّ النكتة في ذلك، هو اختصاص هذا النحو من العلم بهم عليهم السلام ولا يتعدّاه إلى غيرهم، بخلاف القسمين الآخرين من علومهم، إذ قد يطلع على بعضها بعض خواصّ النبيّ صلّى الله عليه وآله، مثل سلمان وأبي ذر بإخبار النبيّ صلّى الله عليه وآله، وبعض خواصّ أصحاب الأئمّة عليهم السلام، بقراءة بعض مواضع الكتب التي كانت عندهم.

لذا ورد في نصّ متقدّم، عندما سأل السائل عن هذا القسم من العلم، بقوله: «فما يحدث لهم في ليالي القدر علمٌ سوى ما علموا؟»

قال عليه السلام: «**هذا ممّا أُمروا بكتمانه**».

ثمّ قال: «**أمّا هذا العلم** (أي الحادث في ليلة القدر) **الذي تسأل عنه، فإنّ الله عزّ وجلّ أبى أن يُطلع الأوصياء عليه إلاّ أنفسهم**»(١).

من هنا نجد أنّهم كانوا يؤكّدون أنّ هذا القسم من العلم هو العلم الحقيقي بالقياس إلى أقسام العلوم الأخرى التي توجد عندهم.

• عن المفضل بن عمر قال: «قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **إنّ سليمان ورث داود، وإنّ محمّداً ورث سليمان، وإنّا ورثنا محمّداً، وإنّ عندنا علم التوراة والإنجيل والزبور وتبيان ما في الألواح.**

قلت: إنّ هذا لهو العلم؟

قال: **ليس هذا هو العلم، إنّ العلم الذي يحدث يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة**»(٢).

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥٢، كتاب الحجّة، باب في شأن إنّا أنزلناه في ليلة القدر وتفسيرها، الحديث: ٨.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٤، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة ورثوا علم النبيّ وجميع الأنبياء والأوصياء الذين من قبلهم، الحديث: ٣.

• عن ضريس الكناني قال: «كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام وعنده أبو بصير فقال أبو عبد الله عليه السلام: **إنّ داود ورث علم الأنبياء، وإنّ سليمان ورث داود، وإنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله ورث سليمان، وإنّا ورثنا محمّداً صلّى الله عليه وآله، وإنّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى.**

فقال أبو بصير: إنّ هذا لهو العلم.

فقال: **يا أبا محمّد، ليس هذا هو العلم، إنّما العلم ما يحدث بالليل والنهار، يوماً بيوم وساعة بساعة**»[١].

## العلم الحادث يبدأ أوّلاً برسول الله ثمّ يصل إلى الأوصياء

قد يقال إنّ هذه الزيادة الحاصلة في علم الأوصياء في كلّ سنة في ليلة القدر أو ليلة الجمعة يلزم منها أن يكون الوصيّ أعلم من النبي الذي يرثه، والوصي اللاّحق أعلم من الوصي السابق عليه، لأنّ الملائكة والروح تتنزّل على الأخير بما لم تتنزّل على الأوّل من الأمور المتعلّقة بمصائر الناس وآجالهم وأرزاقهم ونحو ذلك.

لذا ورد في نصّ متقدّم أنّ السائل سأل: فهل يعلم الأوصياء ما لا يعلم الأنبياء؟ وهل يعلم أحد من الوصاة ما لا يعلم الآخر؟

وهذا ما أجابت عليه نصوص كثيرة أنّ هذه الزيادة تبدأ برسول الله صلّى الله عليه وآله ثمّ الأوصياء السابقين، إلى أن تنتهي إلى الوصي الذي بين ظهرانيكم، لئلا يكون آخرهم أعلم من أوّلهم.

• عن يونس بن عبد الرحمان عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: **ليس شيء يخرج من الله حتّى يبدأ**

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٥، الحديث: ٤.

**برسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ بأمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ واحد بعد واحد، لكي لا يكون آخرنا أعلم من أوّلنا»**(١).

• عن سماعة بن مهران قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إنّ لله علمين: علماً أظهر عليه ملائكته وأنبياءه ورسله، فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه، وعلماً استأثر به، فإذا بدا لله في شيء منه أعلمناه ذلك، وعرض على الأئمّة الذين كانوا من قبلنا»**(٢).

• عن محمّد بن سليمان الديلمي ـ مولى أبي عبد الله ـ عن سليمان قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام فقلت: جعلت فداك! سمعتك وأنت تقول غير مرّة: لولا أنّا نزاد لأنفدنا.

قال: **أمّا الحلال والحرام فقد ـ والله ـ أنزله الله على نبيّه بكماله، وما يزاد الإمام في حلال ولا حرام.**

قال: فقلت: فما هذه الزيادة؟

قال: **في سائر الأشياء سوى الحلال والحرام.**

قلت: فتزادون شيئاً يخفى على رسول الله صلّى الله عليه وآله ولا يعلمه؟

فقال: **لا، إنّما يخرج الأمر من عند الله فيأتيه به الملك رسول الله صلّى الله عليه وآله، فيقول: يا محمّد ربّك يأمرك بكذا وكذا، فيقول: انطلق إلى عليّ عليه السلام، فيأتي عليّاً عليه السلام فيقول: انطلق به إلى الحسن، فيقول: انطلق به إلى الحسين، فلم يزل هذا ينطلق إلى واحد بعد واحد حتّى يخرج إلينا.**

قلت: فتزادون شيئاً لا يعلمه رسول الله صلّى الله عليه وآله؟

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥٥، كتاب الحجّة، باب لولا أنّ الأئمّة يزدادون لنفد ما عندهم، الحديث: ٤.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٢٥٦، باب ما يزاد الأئمّة ويعرض على كلّ من كان قبلهم من الأئمّة، رسول الله ومن دونه، الحديث: ١٣٩٨.

فقال: **ويحك كيف يجوز أن يعلم الإمام شيئاً لم يعلمه رسول الله صلّى الله عليه وآله والإمام من قبله**»[١].

• عن عبد الله بن بكير عن أبي بصير قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **لولا انّا نزاد لأنفدنا**. قال قلت: أتزادون شيئاً ليس عند رسول الله صلّى الله عليه وآله؟

قال: **إنّه إذا كان ذلك أُتي النبيّ صلّى الله عليه وآله فأخبر، ثمّ إلى عليّ، ثمّ إلى بنيه واحداً بعد واحد حتّى ينتهي إلى صاحب هذا الأمر**»[٢].

ويترتّب على هذه النصوص ونظائرها أمران أساسيّان:

**الأوّل**: إنها تكشف بوضوح أنّهم عليهم السلام يرثون رسول الله صلّى الله عليه وآله العلم بعد مماته أيضاً، وقد يبدو هذا الأمر غريباً لأوّل وهلة، إذ المتعارف أنّ أهل البيت عليهم السلام يأخذون ويرثون علم رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو حيٌّ بينهم، فكيف يتصوّر أنّهم يرثونه وإن كان ميّتاً.

إلاّ أنّ هذه الغرابة تزول إذا علمنا أنّ وجوده صلّى الله عليه وآله المعنوي في عوالم الملكوت له نفس الدور الذي كان له وهو في هذه النشأة، كما هو مفاد كثير من النصوص التي أثبتت هذه الحقيقة. ولعلّ من أهمّ الشواهد على ذلك ـ ما سيأتي بحثه ـ من أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله يشهد على أعمال الخلائق.

• عن سماعة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «سمعته يقول: **ما لكم تسوءون رسول الله صلّى الله عليه وآله؟** فقال رجل: وكيف نسوءه؟

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٥٥، الحديث: ١٣٩٧.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٢٦ ص٨٦، كتاب الإمامة، باب أنّهم عليهم السلام يزادون ولولا ذلك لنفد ما عندهم، الحديث: ٢.

فقال: **أما تعلمون أنّ أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك، فلا تسوءوا رسول الله وسرّوه»**[١].

وبهذا يتبيّن أنّ إمامة الرسول صلّى الله عليه وآله للأئمّة عليهم السلام ليست منحصرة وهو في هذه النشأة، وإنّما هي مستمرّة وممتدّة لما بعد مماته صلّى الله عليه وآله. فهو واسطة الفيض بين الله والأئمّة عليهم السلام، كما هو واضح من تعبير الروايات المتقدّمة التي تؤكّد أنّهم عليهم السلام لا يزاد في علمهم شيئاً إلاّ ويبدأ بالخاتم صلّى الله عليه وآله ثمّ عليّ عليه السلام ثمّ سائر الأئمّة عليهم السلام.

قال القيصري في شرحه على فصوص الحكم: «إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله يمدّ أرواح جميع الأنبياء السابقين عليه ـ بحسب الظهور والزمان ـ حال كونه في الغيب، لكونه قطب الأقطاب أزلاً وأبداً، كما يمدّ أرواح الأولياء اللاّحقين به، بإيصالهم إلى مرتبة كمالهم في حال كونه موجوداً في الشهادة، ومنتقلاً إلى الغيب، وهو دار الآخرة. فأنواره غير منقطعة عن العالم قبل تعلّق روحه بالبدن وبعده، سواء كان حيّاً أو ميّتاً»[٢].

**الثاني**: ثبت أنّ ازدياد كمالات النبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام لا تختصّ بحياتهم الدنيويّة، بل هي مستمرّة بعد مماتهم أيضاً، وهم في نشآت الملكوت.

قال المازندراني: «ينبغي أن يعلم أنّ كلّ علم ألقاه تعالى إلى نبيّه صلّى الله

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢١٩، كتاب الحجّة، باب عرض الأعمال على النبيّ والأئمّة، الحديث: ٣.

(٢) **شرح فصوص الحكم**، داود القيصري، تحقيق: آية الله حسن حسن زاده الآملي، بوستان كتاب قم، الطبعة الأولى ١٤٢٤ : ج١ ص١٨٦.

عليه وآله كان أوصياؤه عليهم السلام عالمين به من غير زيادة ولا نقصان، وأمّا العلوم المستأثرة المخزونة إذا اقتضت الحكمة الإلهيّة إظهارها في أوقات متفرّقة على وليّ العصر والخليفة الموجود في تلك الأوقات، ولا يلزم منه أن يكون هو أعلم من النبيّ صلّى الله عليه وآله، لما ذكر من أنّه يُعرض ذلك أوّلاً على رسول الله صلّى الله عليه وآله ثمّ عليه.

ولا ينافي ذلك ما مرّ أنّه صلّى الله عليه وآله **لم يمت إلاّ حافظاً لجملة العلم وتفسيره**[1]، إذ لعلّ المراد بجملة العلم، العلم بالمحتوم وغيره على وجه الحتم وعدمه، ثمّ يحصل له بعد الموت العلم بالحتم في غير المحتوم، والله أعلم»[2].

## الوجه الثاني: الزيادة في معرفة الكمالات الإلهيّة

ينطلق هذا الوجه في تفسير توجيه ازدياد علم أهل البيت عليهم السلام من خلال ما ثبت في أبحاث التوحيد من عدم تناهي كمالات الذات الإلهيّة وعدم تحديدها بحدٍّ معيّن.

- قال عليّ عليه السلام: «**الذي ليس لصفته حدٌّ محدود**»[3].
- وقال: «**لا يشمل بحدّ، ولا يحسب بعدٍّ**»[4].

على هذا الأساس فإنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام وإن بلغوا في معرفة الله تعالى وكمالاته حدّاً لم يبلغه أحدٌ غيرهم، إلاّ أنّ هذا لا يعني توقّف

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٥٢، كتاب الحجّة، باب في شأن إنّا أنزلناه في ليلة القدر، الحديث: ٨ .

(٢) **شرح الأصول والروضة**، مصدر سابق: ج٦ ص٢٥.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق: ص٣٩، الخطبة رقم: ١.

(٤) المصدر السابق: ص٢٧٣، الخطبة: ١٨٦.

معرفتهم وانتهاءها إلى حدٍّ معيّن، وإنّما هي سائرة في طريق الازدياد تبعاً لما تمليه وتقتضيه الكمالات الإلهيّة اللامتناهية، لذا نجد رسول الله صلّى الله عليه وآله مع بلوغه إلى مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم: ٩)، يقول ـ كما يحكيه القرآن في قوله تعالى ـ: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

ومن الواضح أنّ هذا العلم ليس علماً مرتبطاً بالأحكام أو تفسير القرآن أو علم ما كان وما يكون وما هو كائن، لأنّ الرسول صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام قد وقفوا على مثل هذه العلوم بكلّ خصائصها وحدودها، وهذا ما صرّحت به نصوص كثيرة منها ما تقدّم عن محمّد بن سليمان الديلمي:

«قال: سألت الصادق عليه السلام فقلت: جعلت فداك! سمعتك وأنت تقول غير مرّة: لولا إنّا نزاد لأنفدنا.

قال: **أمّا الحلال والحرام فقد ـ والله ـ أنزل على نبيّه بكماله، وما يزاد الإمام في حلال ولا حرام**. قال فقلت: فما هذه الزيادة؟

قال: **في سائر الأشياء سوى الحلال والحرام**»[(١)].

إذن العلم الذي يطلب الرسول صلّى الله عليه وآله الازدياد منه هو العلم المرتبط بالمعارف الإلهيّة اللامتناهيّة، الذي يستحيل أن يحيط بها أي إنسان مهما بلغ مقامه، لأنّه لا يمكن إحاطة المحدود المتناهي باللامحدود اللامتناهي، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ (طه: ١١٠).

قال المجلسي: «يلوح من فحاوى الأخبار الكثيرة أنّهم عليهم السلام في جميع النشآت، أي قبل حلول أرواحهم المطهّرة في الأجساد المقدّسة، وبعد

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٢٥٥، باب ما يزاد الأئمّة على كلّ من كان قبلهم، الحديث: ١٣٩٧.

حلولها فيها، وبعد مفارقتها الأبدان وعروجها إلى عالم القدس، لهم ترقّيات في المعارف الربّانيّة ودرجات الكمال، ولا يزالون سائرين على معارج القرب والوصال وغائصين في بحار أنوار معرفة ذي الجلال، إذ لا غاية لمدارج عرفانه وحسبه وقربه تعالى، وبين درجة الربوبيّة ودرجات العبوديّة منازل لا تُحصى.

فإذا عرفت ذلك فإنّهم عليهم السلام إذا تعلّموا في بدو إمامتهم من الإمام السابق قدراً من العلوم والمعارف، فلا محالة لا يقفون في تلك المرتبة، ويحصل لهم بسبب مزيد القُرب والطاعات زوائد العلوم والحكم والترقّيات، فيمكن أن يكون هذا هو المراد بما يحصل آناً فآناً وساعةً فساعة في الليل والنهار»(١).

## النتائج المترتّبة على الوجه الثاني

يمكن ذكر نتيجتين أساسيّتين تترتّبان على هذا الوجه:

### ١. تفاضل الأئمّة فيما بينهم

من الحقائق الثابتة أنّ الأئمّة يتفاضلون فيما بينهم، كما صرّحت بذلك نصوص كثيرة في هذا المجال، ومن أوضح مصاديق ذلك أفضليّة الإمام عليّ عليه السلام على باقي الأئمّة عليهم السلام بعد الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله، وكذلك أفضليّة الحسن والحسين عليهما السلام من باقي الأئمّة.

• عن بريد بن معاوية قال: «قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرعد: ٤٣)،

---

(١) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، مصدر سابق: ج٣ ص١٩، **بحار الأنوار**: ج٢٦ ص٢١، كتاب الإمامة، باب جهات علومهم.

قال: **إيّانا عنى، وعليّ أوّلنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله»**(١).

• عن أبي وهب القصري عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: **«اعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أفضل عند الله من الأئمّة كلّهم، وله ثواب أعمالهم، وعلى قدر أعمالهم فضّلوا»**(٢).

• عن ابن علوان عن أبي جعفر الباقر عن أبيه عليهما السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **«الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة، وأبوهما خيرٌ منهما»**(٣).

• بإسناد التميمي عن الرضا عن آبائه عليهم السلام عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال: **«الحسن والحسين خير أهل الأرض بعدي وبعد أبيهما»**(٤).

لذا قال الجزائري في الأنوار النعمانية: «قد تحقّقت أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة صلوات الله عليهم قد خلقوا من نور واحد، والنبيّ صلّى الله عليه وآله له فضيلة، وأمّا سيّد الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام فقد فضّله على الأئمّة عليهم السلام، وذكروا أنّ له الفضل على الأئمّة، ووجهه ظاهر، وأمّا الحسنان صلوات الله عليهما فالذي يظهر من أخبارهم عليهم السلام أنّ لهما الفضيلة أيضاً على باقيهم»(٥).

---

(١) **أصول الكافي**: ج١ ص٢٢٩، باب أنّه لم يجمع القرآن كلّه إلاّ الأئمّة، الحديث: ٦.

(٢) **كامل الزيارات**، تأليف: الشيخ الأقدم أبي القاسم جعفر بن محمّد بن قولويه القمّي، المتوفّى سنة ٣٦٨هـ، تحقيق: نشر الفقاهة، الطبعة الأولى: ١٤١٧ : ص٨٩.

(٣) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٣٩ ص٩٠، تاريخ أمير المؤمنين، باب فضله عليه السلام على سائر الأئمّة.

(٤) المصدر السابق: ج٣٩ ص٩١، الحديث: ٣.

(٥) **الأنوار النعمانية**، تأليف: السيّد نعمة الله الموسوي الجزائري، المتوفّى سنة ١١١٢ هـ، مطبعة: شركت جاب، تبريز ـ إيران: ج١ ص١٨.

ومن الواضح أنّ هذه الأفضليّة ليست في العلم بالحلال والحرام والطاعة ونحوها، لأنّهم جميعاً سواء في هذه الأمور، كما صرّحت نصوص عديدة بذلك منها:

• عن البزنطي عن الرضا عليه السلام فيما كتب إليه قال أبو جعفر عليه السلام: «**لا يستكمل عبد الإيمان حتّى يعرف أنّه يجري لآخرهم ما يجري لأوّلهم في الحجّة والطاعة والحلال والحرام سواء، ولمحمّد صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام فضلهما**»(١).

• عن محمّد بن يحيى عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**يا أبا محمّد، كلّنا نجري في الطاعة والأمر مجرى واحداً، وبعضنا أعلم من بعض**»(٢).

• عن ابن أبي عمير عن الحسين بن زياد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قلنا: الأئمّة بعضهم أعلم من بعض؟ قال: «**نعم، وعلمهم بالحلال والحرام وتفسير القرآن واحد**»(٣).

وعلى هذا فينحصر التفاضل في خصوص المعارف الإلهيّة اللامتناهية، وهذا ما أكّده جملة من الأعلام كالطباطبائي، حيث بيّن أنّ الميزة والخصوصيّة التي يمتاز بها أصحاب الصراط المستقيم هي العلم، قال ما نصّه: «إنّ مزية أصحاب الصراط على غيرهم، وكذا صراطهم على سبيل غيرهم، إنّما هو بالعلم لا العمل، فلهم من العلم بمقام ربّهم ما ليس

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٣٩ ص٩١، تاريخ أمير المؤمنين، باب فضله على سائر الأئمّة، الحديث: ٢.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٤٠٣، باب في الأئمّة أنّ بعضهم أعلم من بعض وعلمهم بالحلال والحرام واحد، الحديث: ١٧٠٨.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٤٠٤، الحديث: ١٧١٠.

لغيرهم، إذ قد تبيّن ممّا مرّ: أنّ العمل التامّ موجود في بعض السبل التي دون صراطهم، فلا يبقى لمزيّتهم إلاّ العلم»[١].

## ٢. حقيقة استغفار النبيّ وأهل بيته

لكي تتّضح حقيقة استغفار النبيّ صلّى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، لابدّ من معرفة أنّ الذنب الذي تجب التوبة عنه، أ له درجة واحدة أم درجات متعدّدة؟ فإذا ثبت أنّ للذنب مراتب ودرجات، فإنّ التوبة والاستغفار المترتّب على ذلك سوف يكون كذلك.

**المرتبة الأولى**: الذنب القانوني والشرعي الذي يفيده الاعتبار الصحيح هو أنّ أوّل ما يتعلّق به ويحترمه المجتمع الإنساني هي الأحكام العمليّة والسنن التي تحفظ بالعمل بها والمداومة عليها مقاصده الإنسانية، وتهديه إلى سعادته في الحياة، ثمّ تضع أحكاماً جزائيّة يجازى على طبقها المتخلّف العاصي عن القوانين الاجتماعيّة ويُثاب المطيع الممتثل.

وفي هذه المرتبة لا يسمّى باسم المذنب إلاّ المتخلّف عن القوانين العمليّة، وتحاذي الذنوب ـ لا محالة ـ في عددها عدد موادّ الأحكام الاجتماعيّة.

وهذا هو المعروف والمركوز في أذهاننا معاشر المسلمين أيضاً من معنى الذنب، والألفاظ التي تقاربه في المعنى كالسيّئة والمعصية والإثم والخطيئة والفسق ونحوها.

والحاصل أنّ المرتبة الأولى من الذنب، هو الذنب المتعلّق بالأمر والنهي المولويّين، وهي المخالفة لحكم شرعيّ فرعيّ أو أصليّ، وإن عمّمت التعبير قلت: مخالفة مادّة من المواد القانونيّة دينيّة كانت أو غير دينيّة.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١ ص٣٧.

ولا شكّ أنّ التوبة التي تترتّب على هذه المرتبة من الذنب، إنّما هي بالرجوع عن المعصية، والندامة على ما مضى والعزم على عدم الإتيان فيما سيأتي.

**المرتبة الثانية:** الذنب الأخلاقي: إنّ الأحكام العمليّة إذا عمل بها وروقبت وتحفّظ عليها، ساقت المجتمع إلى أخلاق وأوصاف مناسبة لها ملائمة لمقاصد المجتمع التي هي غاية اجتماعهم. وهذه الأخلاق هي التي يسمّيها المجتمع بالفضائل الإنسانيّة ويحرص ويحرّض عليها، وتقابلها الرذائل.

وهي وإن كانت مختلفة باختلاف السنن والمقاصد في المجتمعات، إلاّ أنّ أصل إنتاج الأحكام الاجتماعيّة لها ممّا لا سبيل إلى إنكاره.

وهذه الأخلاق الفاضلة وإن كانت أوصافاً روحيّة لا ضامن لإجرائها في مقام العمل في المجتمعات، وكانت غير اختياريّة بلا واسطة، لكونها ملكات، لكنّها لكونها في تحقّقها تتبع تكرّر العمل بالأحكام والقوانين المقرّرة في المجتمع أو تكرّر التخلّف عن العمل، كانت نفس العمل بالأحكام ضامنة لإجرائها، وتعدّ اختياريّة باختياريّة مقدّمتها وهي تكرّر العمل.

وتتصوّر في مواردها أوامر عقليّة متعلّقة بالأخلاق الفاضلة كالشجاعة والعفّة والعدالة، ونواهٍ عقليّة تردع عن الأخلاق الرذيلة كالجبن والتهوّر والخمود والظلم، وكذا يتصوّر لها عقاب وثواب يسمّيان بالعقاب والثواب العقليّين كالمدح والذمّ. وبالجملة تتحقّق بذلك مرتبة من مراتب الذنب فوق المرتبة السابقة، وهي مرتبة التخلّف عن الأحكام الخُلقيّة والأوامر العقليّة المتعلّقة بها.

والحاصل أنّ هذه المرتبة من الذنب وإن كانت تتنافى مع مكارم الأخلاق، إلاّ أنّها ليست حراماً في الشريعة، وبإزاء هذه المرتبة توجد مرتبة من المغفرة كما هو واضح.

**المرتبة الثالثة**: الذنب في مجال الحبّ.

وهذه المرتبة من الذنب لا تعدّ مخالفة لحكم شرعي، كما لا تعدّ من الرذائل الأخلاقيّة، وإنّما للحبّ لوازم تقتضي أن ينقاد المحبّ لمحبوبه تمام الانقياد، فلا يلتفت إلاّ إليه ولا يغفل عنه. وهذا هو مقتضى أحكام الحبّ، فإنّ المحبّ يرى ـ إذا تاه في الغرام واستغرق في الوله ـ أدنى غفلة قلبيّة عن محبوبه ذنباً عظيماً، وإن اهتمّ بعمل الجوارح بتمام أركانه، وليس إلاّ أنّه يرى أنّ قيمة أعماله في سبيل الحبّ على قدر توجّه نفسه وانجذاب قلبه إلى محبوبه، فإذا انقطع عنه بغفلة قلبه فقد أعرض عن المحبوب وانقطع عن ذكره وأبطل طهارة قلبه بذلك.

قال الإربلي في «كشف الغمّة»: «إنّ الأنبياء لمّا كانت قلوبهم مستغرقة بذكر الله ومتعلّقة بجلال الله ومتوجّهة إلى كمال الله، وكانت أتمّ القلوب صفاءً وأكثرها ضياءً وأغرقها عرفاناً وأعرفها إذعاناً وأكملها إيقاناً، كانوا إذا انحطّوا عن تلك المرتبة العليّة ونزلوا عن تلك الدرجة الرفيعة إلى الاشتغال بالمأكل والمشرب والتناكح والصحبة مع بني نوعهم وغير ذلك من المباحات، أسرعت كدورة إليها، لكمال رقّتها وفرط نورانيّتها، فإنّ الشيء كلّما كان أرقّ وأنضر كان تأثّره بالكدورات أبين وأظهر، فعدّوا ذلك ذنباً وخطيئةً فتابوا واستغفروا»(١).

وهذه المرتبة من الذنب وإن كان لا يعدّه الفهم العرفي من مراتب

---

(١) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، مصدر سابق: ج١١ ص٣٠٨.

الذنب، إلاّ أنّه مخطئ في ذلك لا لجور منهم في الحكم والقضاء، بل لقصور فهمهم عن تعقّله وتبيّن معناه والوقوف على أحكامه واستحقاقاته.

وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما ربما يروى عنه صلّى الله عليه وآله من قوله: «**إنّه ليغان على قلبي فأستغفر الله كلّ يوم سبعين مرّة**»[1]، وعليه يمكن أن يحمل بوجه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ (المؤمن: ٥٥)، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ (النصر: ٣).

وعليه يحمل ما حكى الله تعالى عن عدّة من أنبيائه الكرام كقول نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ (نوح: ٢٨)، وقول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ (إبراهيم: ٤١)، فإنّ الأنبياء عليهم السلام مع عصمتهم لا يتأتّى أن تصدر عنهم المعصية ويقترفوا الذنب، بمعنى مخالفة مادّة من المواد الدينيّة التي هم المرسلون للدعوة إليها، والقائمون قولاً وفعلاً بالتبليغ لها، والمفترض طاعتهم من عند الله، ولا معنى لافتراض طاعة من لا يؤمن وقوع المعصية منه، تعالى الله عن ذلك.

بناءً على ما تقدّم فربّ مباح أو مستحبّ أو مكروه بالنسبة إلى من هم في المرتبة الأولى والثانية، هو واجب أو محرّم بالنسبة إلى من هو في المرتبة الثالثة، فحسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

«وبهذا يتبيّن أنّ للذنب مراتب مختلفة مترتّبة طولاً، كما أنّ للمغفرة مراتب بحذائها، تتعلّق كلّ مرتبة من المغفرة بما يحاذيها من الذنب، وليس

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص٥٠٥، كتاب الدعاء، باب الاستغفار، الحديث: ٥.

من اللازم أن يكون كلّ ذنب خطيئة متعلّقاً بأمر أو نهي مولويّ، فيعرفه ويتبيّنه الأفهام العاميّة الساذجة، ولا أن يكون كلّ مغفرة متعلّقة بهذا النوع من الذنب»[١].

من هنا قال المجلسي: «ولعلّ هذا أحد وجوه استغفارهم وتوبتهم في كلّ يوم سبعين مرّة أو أكثر، إذ عند عروجهم إلى كلّ درجة رفيعة من درجات العرفان يرون أنّهم كانوا في المرتبة السابقة في النقصان، فيستغفرون منها ويتوبون إليه تعالى»[٢].

## الخلاصة

**١ ـ** هناك العشرات من الروايات الصحيحة المتضافرة دلّت على أنّ أهل البيت عليهم السلام يزدادون علماً.

**٢ ـ** لأجل الوقوف على حقيقة العلم الذي تقع فيه الزيادة لدى أهل البيت عليهم السلام لابدّ من بيان أقسام العلوم التي توجد عندهم عليهم السلام ـ كما أشارت لذلك الروايات الشريفة ـ وهذه الأقسام هي:

أ ـ العلم الماضي: وهو العلم المتعلّق إمّا بالأمور الماضية أو الذي حصل لهم سابقاً وهو علم ما كان، وهو ما حصل لهم من طريق وراثتهم لرسول الله صلّى الله عليه وآله.

ب ـ العلم الغابر: وهو العلم الحاصل لهم عليهم السلام بعد العلم الماضي عن طريق الجفر والجامعة، وقد وصف هذا العلم بالروايات بالعلم الغابر والمزبور.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٦ ص٣٧١.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مصدر سابق: ج٢٦ ص٢١.

جـ ـ العلم الحادث: وهو العلم المتجدّد لهم، من طريق القذف في القلوب والنقر في الأسماع.

النتيجة: إنّ العلم الذي تقع فيه الزيادة هو العلم الحادث.

**٣ ـ** الأمور التي تقع فيها زيادة العلم تتصوّر على وجهين:

**الوجه الأوّل**: الأمور التي لم يقع فيها قضاء حتمي، وهذا الوجه يتوقّف على بيان المراد من البداء وما هي المساحة التي يتحقّق فيها:

• البداء في اللّغة هو الظهور المسبوق بالخفاء أو العلم بعد الجهل، ومن الواضح أنّ هذا المعنى يستحيل على الله تعالى لأنّه يستلزم الجهل إليه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، وهذا لا يقول به عاقل، فضلاً عن أهل البيت عليهم السلام الذين هم عدل القرآن، ومن هنا تضافرت النصوص الروائيّة عنهم عليهم السلام في ردّ نسبة هذا المعنى من البداء إلى الله تعالى.

أمّا البداء بالمعنى الاصطلاحي الذي ينسب إلى الله تعالى، فهو الظهور لغيره تعالى، ومن الواضح أنّ هذا المعنى من البداء لا محذور فيه، لأنّه ينسب الخفاء إلى المخلوقات لا إلى الذات الإلهيّة المقدّسة.

• إنّ البداء لا يقع في القضاء المحتوم الذي لا يطّلع عليه أحد من مخلوقاته تعالى، ولا في القضاء المحتوم الذي أخبر به تعالى أنبياءه وملائكته بحتميّة وقوعه، وإنّما يقع البداء في القضاء غير المحتوم الذي أخبر تعالى ملائكته وأنبياءه بوقوعه في الخارج لا على نحو الحتم والجزم، أي أنّ وقوعه معلّق على شرائط معيّنة.

**النتائج المترتّبة على الوجه الأوّل:**

**النتيجة الأولى**: إنّ علم أهل البيت عليهم السلام بالقضاء غير المحتوم بنحو قابل للتبديل والتغيير، فإذا تغيّرت شرائط وقوع ذلك القضاء يخبرهم

تعالى بالتغيّر والتبدّل. وهذا هو معنى الزيادة في علومهم عليهم السلام.

**النتيجة الثانية**: بناءً على النتيجة الأولى ـ وهو أنّ علمهم عليهم السلام بنحو قابل للتغيّر والتبدّل ـ يتّضح سبب عدم إخبارهم عليهم السلام بالأمور التي هي في معرض البداء ـ بنحو الجزم والحتم، وذلك لاحتمال حصول البداء فيها، كآجال الناس ومصائرهم.

**النتيجة الثالثة**: بناءً على كونهم عليهم السلام يعلمون بالأمور بالنحو القابل للتبدّل والتغيّر وحصول البداء، يتّضح عدم التنافي بين علمهم بنتائج عملهم وما هم صائرون في حياتهم وبين سلوكهم الخارجي، وذلك لأجل أنّهم عليهم السلام وإن كانوا يعلمون بمصيرهم ونتائج عملهم، إلاّ أنّ هذا العلم قد يبدو لله فيه.

**٤** ـ أشارت جملة من الروايات إلى أنّ العلم الحادث هو أفضل وأشرف أقسام علومهم عليهم السلام.

**٥** ـ إنّ العلم الحادث لأهل البيت عليهم السلام يبدأ برسول الله صلّى الله عليه وآله ثمّ يصل إلى أوصيائه عليهم السلام، وعلى هذا فإنّ الزيادة في علومهم عليهم السلام في ليلة القدر أو ليلة الجمعة، لا يلزم معها أن يكون الوصيّ أعلم من الرسول صلّى الله عليه وآله أو من الوصيّ السابق، وذلك لأنّ الزيادة في العلم تبدأ بالرسول صلّى الله عليه وآله وباقي الأوصياء إلى أن تصل إلى الإمام الذي بين ظهراني الناس.

**الوجه الثاني**: في بيان زيادة علومهم عليهم السلام وأنها الزيادة الحاصلة في معرفة الكمالات الإلهيّة اللامتناهية التي لا تقف عند حدٍّ معيّن.

ومن الواضح أنّ مثل هذه الزيادة في العلوم ليست مرتبطة بالأحكام أو تفسير القرآن أو علم ما كان وما هو كائن، لأنّهم عليهم السلام قد وقفوا على

هذه العلوم بكلّ خصائصها وحدودها، كما أشارت لذلك الروايات المستفيضة.

**النتائج المترتّبة على الوجه الثاني:**

**النتيجة الأولى:** تفاضل الأئمّة عليهم السلام فيما بينهم.

**النتيجة الثانية:** في بيان حقيقة استغفار النبيّ وأهل بيته عليهم السلام، وأنّها ليست استغفاراً لذنب ونحوه، وإنّما لأنّهم عليهم السلام عند عروجهم لمرتبة أعلى من المعرفة يرون أنفسهم في المرتبة السابقة في النقصان فيستغفرون منها ويتوبون إلى الله تعالى.

# الفصل السابع

# في علم أهل البيت بالتأويل

من المسائل الأساسيّة في هذا المجال مسألة شمول دائرة علم الإمام لتأويل القرآن الكريم، ولكي نقف على حقيقة ذلك بشكل واضح ودقيق، ينبغي بيان المراد من التأويل وبمَ يتميّز عن المتشابه، وذلك لوجود الخلط الكبير لدى جملة من المفسّرين بين التأويل والمتشابه.

من هنا سوف نحاول في هذا الفصل الوقوف على بحثين أساسيّين:

الأوّل: المراد من التأويل والتنزيل.

الثاني: الفرق بين التأويل والمتشابه.

## البحث الأوّل: المراد من التأويل والتنزيل

مقدّمة لابدّ أن نعلم أنّ مسألة التأويل تعدّ من أهم المباحث التي عُني بها الفكر الإسلامي عموماً والمعارف القرآنيّة خصوصاً.

من هنا سوف نحاول الوقوف على المعنى اللغوي للتأويل، ثمّ نعرّج على المعنى الاصطلاحي في دائرة النصّ القرآني.

### التأويل لغةً

قال ابن فارس: «أوْل: ابتداء الأمر وانتهاؤه... ومن هذا الباب تأويل الكلام، وهو عاقبته وما يؤول إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم»[1].

(1) **معجم مقاييس اللغة**، مصدر سابق: ج1 ص160.

وقال ابن منظور الأفريقي: «وأوّل الكلام وتأوّله: دبّره وقدّره، وأوّله وتأوّله: فسّره. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي لم يكن معهم علم تأويله. وقيل: معناه لم يأتهم ما يؤول إليه أمرهم في التكذيب به من العقوبة، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾»[1].

وقال الراغب الأصفهاني: «التأويل من الأَوْل أي الرجوع إلى الأصل، ومنه للموضع الذي يُرجع إليه، وذلك هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلاً»[2].

والمتحصّل من هذه الأقوال أنّ المعنى اللغوي للتأويل هو الرجوع أي ما يرجع إليه الشيء.

## معنى التأويل في النصّ القرآني

استعمل القرآن هذه المفردة في موارد متعدّدة، يمكن تصنيفها على النحو التالي:

**الصنف الأوّل**: الآيات التي تحدّثت عن وجود التأويل للقول، منها:

• قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ٧).

• وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

---

(١) **لسان العرب**، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٤.

(٢) **المفردات في غريب القرآن**، مصدر سابق: مادّة «أول»، ص٣١.

يُؤۡمِنُونَ * هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ (الأعراف: ٥٢ ـ ٥٣).

• وقوله: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يونس: ٣٨ـ٣٩).

**الصنف الثاني**: الآيات التي تحدّثت عن وجود تأويل للفعل، منها:

• قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾ (الكهف: ٧٨).

• وقوله: ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٣٥).

• وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء: ٥٩).

**الصنف الثالث**: الآيات التي تحدّثت عن وجود تأويل للرؤيا، منها:

• قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (يوسف: ٦).

• وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٢١).

• وقوله: ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ (يوسف: ٣٧).

• وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ (يوسف: ٤٤).

من هنا سجّلت البحوث القرآنيّة آراء واتّجاهات متعدّدة قديماً وحديثاً لبيان المراد من التأويل في النصوص القرآنيّة والروائيّة، إلاّ أنّ ما سنتوفّر عليه في هذه الدراسة سيقتصر على بيان اتّجاهين أساسيّين منها، تاركين التفصيل لدراسة أخرى[1].

## الاتّجاه الأوّل: التأويل من مقولة المعنى

ينضوي تحت هذا الاتّجاه قولان:

### القول الأوّل: التأويل هو التفسير

ذهب إلى هذا القول القدماء من المفسّرين، وهو أنّ التفسير يرادف التأويل، قال ابن تيميّة: «وأمّا التأويل في لفظ السلف فله معنيان: أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً.

وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي عناه مجاهد أنّ العلماء يعلمون تأويله، ومحمد بن جرير الطبري يقول في تفسيره: القول في تأويل قوله كذا، واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك، ومراده التفسير»[2].

---

(١) **أصول التفسير والتأويل**، السيّد كمال الحيدري، دار فراقد، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ: ص٢٩٩ ـ ص٣٥٥.

(٢) **التفسير الكبير**، للإمام تقيّ الدِّين ابن تيميّة، المتوفّى ٧٢٨هـ تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمان عميرة، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨: ج٢ ص١٠٨.

### مناقشة القول الأول

إنّ أقلّ ما يلزم هذا القول هو أن تكون بعض الآيات القرآنيّة لا ينال تأويلها أي تفسيرها ـ وهو المراد من مداليلها اللفظيّة ـ عامّةُ الأفهام، والحال أنّه ليس في القرآن آية غير قابلة للفهم، بل القرآن ناطق أنّ الله إنّما أنزل كتابه ليُعلم ويُفهم ويُتفقّه ويُتدبّر فيه؛ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (ص: ٢٩).

«ولا مناص لصاحب هذه النظريّة إلاّ أن يختار أنّ الآيات المتشابهة إنّما هي فواتح السور من الحروف المقطّعة حيث لا ينال معانيها عامّة الأفهام. ويرد عليه: أنّه لا دليل عليه.

ومجرّد كون التأويل مشتملاً على معنى الرجوع وكون التفسير أيضاً غير خالٍ عن معنى الرجوع، لا يوجب كون التأويل هو التفسير، كما أنّ الأمّ مرجع لأولادها وليست بتأويل لهم، والرئيس مرجع للمرؤوس وليس بتأويل له»[1].

### القول الثاني: التأويل هو المعنى المخالف لظاهر اللفظ

شاع هذا المعنى بحيث عاد لفظ التأويل حقيقة ثانية فيه عند المتأخّرين من الباحثين عموماً، وحاصله: أنّ التأويل هو حمل الكلام على خلاف الظاهر منه، فلا يوجد لكلّ الآيات تأويل، وإنّما يختصّ ذلك بالآيات المتشابهة التي لا يحيط بعلمها إلاّ الله تعالى، كالآيات الظاهرة في الجسميّة لله تعالى والاستواء والرضا والسخط وغيرها من الأوصاف المنسوبة لله تعالى، وكذلك الآيات الظاهرة في نسبة الذنوب إلى الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص٤٧.

«وهذا هو التأويل الذي يتكلّمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف، فإذا قال أحدهم هذا الحديث أو هذا النصّ مؤوّل أو هو محمول على كذا، قال الآخر هذا نوع تأويل، والتأويل يحتاج إلى دليل. وهو الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات، إذ صنّف بعضهم في إبطال التأويل أو ذمّ التأويل أو قال بعضهم آيات الصفات لا تؤول، وقال الآخر بل يجب تأويلها، وقال الثالث بل التأويل جائز يُفعل عند المصلحة ويُترك عند المصلحة، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع»[1].

## مناقشة القول الثاني

إنّ هذا القول غير تامّ أيضاً وذلك:

**أوّلاً**: أنّ لازم هذا القول أن يكون التأويل مختصّاً ببعض الآيات القرآنية كالمتشابهات مثلاً، وهذا خلاف ما صرّح به القرآن في مواضع عديدة، من أنّ التأويل شامل لجميع آياته، كما هو مقتضى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ وهي واضحة الدلالة في شمول التأويل لجميع القرآن وعدم اختصاصه ببعض الآيات.

**ثانياً**: أنّ لازم وجود آيات تخالف بظاهرها ما أريد لها من معنىً، هو وقوع الفتنة في الدِّين لمنافاته مع المحكمات القرآنية، لأنّ لازمه أنّ هناك اختلافات في بعض الآيات لا ترتفع إلاّ بصرف ظاهرها إلى معان لا يفهمها عامّة الناس. وهذا يبطل التحدّي القرآني القائم على عدم وجود اختلاف في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

(١) **التفسير الكبير** لابن تيميّة، مصدر سابق: ج٢ ص١٠٨.

قال في الميزان: «لو كان ارتفاع اختلاف آية مع آية بأن يقال: إنّه أُريد بإحداهما أو بهما معاً غير ما يدلّ عليه الظاهر، بل معنىً تأويلي باصطلاحهم لا يعلمه إلاّ الله سبحانه مثلاً، لم تنجح حجّة الآية، فإنّ انتفاء الاختلاف بالتأويل ـ باصطلاحهم ـ في مجموع من الكلام ولو كان لغير الله، أمرٌ ممكن، ولا دلالة فيه على كونه غير كلام البشر، إذ من الواضح أنّ كلّ كلام حتّى القطعي الكذب واللّغو يمكن إرجاعه إلى الصدق والحقّ بالتأويل والصَرْف عن ظاهره، فلا يدلّ ارتفاع الاختلاف بهذا المعنى ـ وهو صرف الكلام عن ظاهره ـ عن مجموع الكلام على كونه كلام مَنْ يتعالى عن اختلاف الأحوال وتناقض الآراء والسهو والنسيان والخطأ والتكامل بمرور الزمان، كما هو المراد بالاحتجاج في الآية.

فالآية بلسان احتجاجها صريحة في أنّ القرآن معرض لعامّة الأفهام ومسرح للبحث والتأمّل والتدبّر، وليس فيه آية أُريد بها معنىً يخالف ظاهر الكلام العربي»[1].

هذا مضافاً إلى أنّه يرد على هذين القولين أنّهما يفترضان أنّ التأويل من مقولة المعنى والمفهوم، وسيأتي لاحقاً أنّ تأويل الآية ليس مفهوماً من المفاهيم تدلّ عليه الآية، سواء كان موافقاً لظاهرها أو مخالفاً له، بل هو من قبيل الأمور العينيّة الخارجيّة كما سيتّضح.

## الاتّجاه الثاني: التأويل من الأمور العينيّة

يقوم هذا الاتّجاه على أساس أنّ التأويل ليس من مقولة المعاني المرادة باللفظ، بل هو الأمر العيني الذي يعتمد عليه الكلام ويرجع إليه، فإن كان

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص٤٧.

الكلام حكماً إنشائيّاً كالأمر والنهي، فتأويله تحقّق المخبر به، وإن كان الكلام خبريّاً، فإن كان إخباراً عن الحوادث الماضية كان تأويله نفس الحادثة الواقعة في ظرف الماضي كالآيات المشتملة على أخبار الأنبياء والأمم الماضية، فتأويلها نفس القضايا الواقعة في الماضي، وإن كان إخباراً عن الحوادث والأمور الحاليّة والمستقبلة، فهو على قسمين:

• فإمّا أن يكون المخبر به من الأمور التي تنالها الحواسّ أو تدركها العقول، فتأويله أيضاً ما هو في الخارج من القضية الواقعة، كقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ (الروم: ٢ـ٤).

• وإن كان من الأمور المستقبلة الغيبيّة التي لا تنالها حواسّنا الدنيويّة ولا يدرك حقيقتها عقولنا، كالأمور المرتبطة بيوم القيامة ووقت الساعة وحشر الأموات والجمع والسؤال والحساب وتطاير الكتب، أو كان ممّا هو خارج عن سنخ الزمان وإدراك العقول كحقيقة صفات الله تعالى وأفعاله، فتأويلها أيضاً نفس حقائقها الخارجيّة.

وما يمكن أن يذكر كدليل لذلك ما تقدّم بيانه في الأبحاث السابقة، من أنّ جميع الأشياء التي في عالمنا المشهود لها وجود عينيّ خاصّ بها في الخزائن الإلهيّة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ (الحجر: ٢١). ومن الواضح أنّ قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ يشمل كلّ ما يصدق عليه شيء، فيكون القرآن الذي بأيدينا مشمولاً لعموم الآية أيضاً، فيكون له وجود عينيّ خاصّ في مرتبة الخزائن الإلهيّة، وهو حقيقته الواقعيّة العينيّة التي هي في عالم الغيب والملكوت.

وهذا ما صرّحت به نصوص قرآنيّة عدّة كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ

لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف: ٤)، فهذا القرآن الذي بين أيدينا، هو تنزيل لتلك الحقيقة الواقعيّة المحفوظة في أمّ الكتاب التي هي من أهمّ خصائصها هو عدم محدوديّتها بحدٍّ معيّن ولا بقدر معلوم ولا تنالها العقول والأفهام.

وقد اقتضت العناية الإلهيّة بعباده تنزّل الحقيقة القرآنية على صورة كتاب مقروء بلباس عربيٍّ فصيح لعلّهم يعقلون ما لا تناله عقولهم في تلك المرتبة، لأنّها حقيقة خارجة عن عالم اللّفظ والمفهوم. وهذا ما أشار إليه الطباطبائي في ذيل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، بقوله: «الضمير للكتاب، و«**قرآناً عربيّاً**» أي مقرّراً باللغة العربيّة، و«**لعلّكم تعقلون**» غاية الجعْل وغرضه، وهذا يشهد بأنّه له مرحلة من الكينونة والوجود لا ينالها عقول الناس، ومن شأن العقل أن ينال كلّ أمر فكريّ وإن بلغ من اللطافة والدقّة ما بلغ.

فمفاد الآية أنّ الكتاب بحسب موطنه الذي له في نفسه أمرٌ وراء الفكر، أجنبيّ عن العقول البشريّة، وإنّما جعله الله قرآناً عربيّاً وألبسه هذا اللِّباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه»[1].

وهذا ما ذهب إليه جملة من الأعلام المعاصرين، قال صاحب تفسير المنار ما نصّه: «فتبيّن من هذه الآيات أنّ لفظ التأويل لم يرد في القرآن إلاّ بمعنى الأمر العملي الذي يقع في المآل، تصديقاً لخبر أو لرؤيا أو لعمل غامض يُقصد به شيء في المستقبل، فيجب أن تفسّر آية «**آل عمران**» بذلك، ولا يجوز أن يُحمل التأويل فيها في المعنى الذي اصطلح عليه قدماء المفسّرين، وهو جعله بمعنى التفسير كما يقول ابن جرير الطبري، وعلى ما اصطلح عليه متأخّروهم من جعل التأويل عبارة عن نقل الكلام عن

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٨ ص٨٣.

وضعه إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ»[١].

وقال في تفسير الميزان: «إنّ الحقّ في تفسير التأويل أنّه الحقيقة الواقعيّة التي تستند إليها البيانات القرآنية من حُكم أو موعظة أو حكمة، وأنّه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ، بل هو من الأمور الغيبيّة المتعالية عن أن تحيط بها شبكات الألفاظ، وإنّما قيّدها الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب، فهي كالأمثال تُضرب ليقرّب بها المقاصد وتوضّح بحسب ما يناسب فهم السامع.

وقد عرفت فيما مرّ من البيان أنّ القرآن لم يستعمل لفظ التأويل في الموارد التي استعملها إلاّ في المعنى الذي ذكرناه»[٢].

ومن أهمّ النتائج المترتّبة على هذا الاتّجاه، أنّ التأويل لا يختصّ بالآيات المتشابهة فقط، وإنّما هو شامل لجميع آيات القرآن، محكمها ومتشابهها، وهذا ما أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ (الأعراف: ٥٢ ـ ٥٣).

## الفرق بين التفسير والتأويل

ممّا تقدّم يمكن القول إنّ التفسير هو الإحاطة بعلم القرآن من خلال معرفة معاني الكلام، بخلاف التأويل فإنّه ليس من قبيل معرفة المفاهيم اللفظيّة، بل هو من الأمور الخارجيّة العينيّة. ومن الواضح أنّ هناك فرقاً بين معرفة الخبر وبين وقوع المخبر به، فمعرفة الخبر تفسير القرآن ومعرفة

---

(١) **تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار**، تأليف: الشيخ محمد رشيد رضا، وهي مجموعة الدروس التي أخذها عن أستاذه الشيخ محمّد عبده، تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب، دار إحياء التراث العربي، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ: ج٣ ص١٥٣.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص٤٩.

المخبر به ـ على النحو المناسب لذلك ـ هو تأويله.

ونكتة ذلك أنّ الخبر لمعناه صورة علميّة، وجودها في نفس العالم كذهن الإنسان مثلاً. ولذلك المعنى حقيقة ثابتة في الخارج عن العلم، واللّفظ إنّما يدلّ ابتداءً على المعنى الذهني ثمّ تتوسّط ذلك أو تدلّ على الحقيقة الخارجيّة.

فالتأويل هو الحقيقة الخارجة، وأمّا معرفة تفسيره ومعناه فهو معرفة الصورة العلميّة، وهذا هو الذي أُشير إليه في نصوص قرآنيّة كثيرة من أنّ الله إنّما أنزل القرآن ليُعلم ويُفهم ويفقه ويتدبّر ويتفقّه فيه، محكمه ومتشابهه، وإن لم يُعلم تأويله إلاّ لمن اصطفاهم كما سيأتي لاحقاً.

## العلاقة بين التأويل والتنزيل

قبل بيان العلاقة القائمة ما بين تأويل القرآن وتنزيله، لابدّ أن نستذكر ما تقدّم في مطاوي الأبحاث السابقة، من أنّ المراد من نزول القرآن الكريم هو النزول على نحو التجلّي لا التجافي، حيث قلنا إنّ من أهمّ خصائص النزول على نحو التجلّي هو أنّ الشيء إذا نزل إلى المرتبة الدانية فإنّه لا يفقد كينونته ووجوده في المرتبة العالية. على هذا فإنّ القرآن بعد نزوله إلينا في عالمنا المشهود لا يفقده وجوده في مرتبة الخزائن الإلهيّة.

من هنا قد يتساءل عن العلاقة القائمة ما بين هاتين المرتبتين من القرآن؟

والجواب عن ذلك:

• تارةً: من خلال البحث الفلسفي، وهو أن يقال: إنّ هذا الكتاب الذي جُعل بلسان عربيٍّ مبين متّحد مع ما في اللّوح المحفوظ اتّحاد الحقيقة والرقيقة، والثابت في البحث الفلسفي أنّ الرقيقة هي الحقيقة بوجود

أضعف، والحقيقة هي الرقيقة بوجود أعلى وأشرف.

• وأخرى: من خلال البيان القرآني، فإنّه بعد أن اتّضح أنّ وراء ما نقرؤه ونعقله من القرآن أمراً هو من القرآن بمنزلة الروح من الجسد، وهو الذي تعتمد وتتّكي عليه معارف القرآن المنزّل ومضامينه، وليس هو من سنخ الألفاظ المفرّقة المقطّعة ولا المعاني المدلول عليها بها، نقول:

إنّ نسبة التأويل إلى المعارف والمقاصد المبيّنة نسبة الممثّل إلى المثال، وإنّ جميع المعارف القرآنيّة أمثال مضروبة للتأويل عند الله، إلاّ أنّه لابدّ من الالتفات إلى أنّ تأويل الآية وإن كان أمراً خارجيّاً نسبته إلى مدلول الآية نسبة الممثّل إلى المثل، لكن ليس هو مدلولاً للآية بما لها من الدلالة. نعم، هو محكيّ لها محفوظ فيها نوعاً من الحكاية والحفظ، نظير قولك: «في الصيف ضيّعتِ اللبَنْ»[1] لمن أراد أمراً قد فوّت أسبابه من قبل، فإنّ المفهوم المدلول عليه بلفظ المثل ـ وهو تضييع المرأة اللّبن في الصيف ـ لا ينطبق شيء منه على المورد، وهو مع ذلك ممثّل لحال المخاطب حافظ له يصوّره في الذهن بصورة مضمّنة في الصورة التي يعطيها الكلام بمدلوله.

كذلك أمر التأويل، فالحقيقة الخارجيّة التي توجب تشريع حكم من الأحكام أو بيان أصل من أصول المعارف الإلهيّة أو وقوع حادثة هي مضمون قصّة من القصص القرآنيّة، وإن لم يكن أمراً يدلّ عليه بالمطابقة نفس الأمر والنهي أو البيان أو الواقعة الكذائيّة، إلاّ أنّ الحكم أو البيان أو الحادثة لّما كان كلٌّ منها ينتشي منها ويظهر بها فهو أثرها الحاكي لها بنحو من الحكاية والإشارة، كما أنّ قول السيّد لخادمه «اسقني» ينشأ عن اقتضاء

---

(١) **فرائد اللآل في مجمع الأمثال**، تأليف: العلاّمة الفاضل الشيخ إبراهيم الطرابلسي: الباب العشرون «في ما أوّله فاء» ج٢ ص٥٤.

الطبيعة الإنسانيّة لكمالها، فإنّ هذه الحقيقة الخارجيّة هي التي تقتضي حفظ الوجود والبقاء، وهو يقتضي بدل ما يتحلّل من البدن، وهو يقتضي الغذاء اللازم، وهو يقتضي الريّ، والريّ يقتضي الأمر بالسقي مثلاً.

فتأويل قوله: «اسقني» هو ما عليه الطبيعة الخارجيّة الإنسانيّة من اقتضاء الكمال في وجوده وبقائه، ولو تبدّلت هذه الحقيقة الخارجيّة إلى شيء آخر يباين الأوّل مثلاً لتبدّل الحكم الذي هو الأمر بالسقي إلى حكم آخر.

ولعلّ من أوضح الأمثلة لذلك ما جاء في عدّة مواضع من قصّة يوسف عليه السلام:

• ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤) حيث جاء تأويلها في قوله تعالى:

• ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ (يوسف: ١٠٠).

فرجوع ما رآه من الرؤيا إلى سجود أبويه وإخوته له وإن كان رجوعاً، لكنّه من قبيل رجوع المثال إلى الممثّل.

• وكذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣).

• فجاء تأويلها في قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف: ٤٧ ـ ٤٩).

وهذا هو التأويل الذي تعلّمه يوسف عليه السلام كما في قوله:

﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ١٠١) فقد استعمل التأويل في جميع هذه الموارد من قصّة يوسف فيما يرجع إليه الرؤيا من الحوادث، وهو الذي كان يراه النائم فيما يناسبه من الصورة والمثال، فنسبة التأويل إلى ذي التأويل نسبة المعنى إلى صورته التي يظهر بها، والحقيقة المتمثّلة إلى مثالها الذي تتمثّل به.

نعم، يبقى أن نعرف لماذا بيّنت هذه المعارف والحقائق بلسان المثل، أليس كان من الأفضل الكشف عنها صريحاً حتّى لا يقع الناس في جهالة التشبيه وضلالة التمثيل؟

والجواب: أنّ ذلك لعلّه يرجع إلى ما ذكره القرآن من أنّ هذه الحقائق ـ وهي في أُمّ الكتاب ـ أعظم ممّا يمكن للناس الوقوف عليه من خلال عقولهم وأفهامهم، لذا حاولت البيانات القرآنيّة أن تنزّل تلك المعارف منزلة قريبة من أُفق إدراكهم لينالوا ما شاء الله أن ينالوه من تأويل هذا الكتاب العزيز.

من هنا يتّضح ضرورة عدم الوقوف على الظاهر القرآني، بل لابدّ من العبور منه للوصول إلى لبّ القرآن وباطنه الذي هو تأويله.

قال الغزالي: «ومَن زعم أن لا معنى للقرآن إلاّ ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه، وهو مصيبٌ في الإخبار عن نفسه، ولكنّه مخطئ في الحكم بردّ الخلق كافّة إلى درجته التي هي حدّه ومحطّه، بل الأخبار والآثار تدلّ على أنّ في معاني القرآن متّسعاً لأرباب الفهم.

قال عليّ رضي الله عنه: **إلاّ أن يؤتي الله عبداً فَهْماً في القرآن**. فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة، فما ذلك الفهم؟

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: مَن أراد علم الأوّلين والآخرين فليتدبّر

القرآن، وذلك لا يحص٤ل بمجرّد تفسير الظاهر»[1].

ثمّ قال: «فإن قلت: هذا الكلام يشير إلى أنّ هذه العلوم لها ظواهر وأسرار، وبعضها جليّ يبدو أوّلاً، وبعضها خفيّ يتّضح بالمجاهدة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسرّ الخالي عن كلّ شيء من أشغال الدُّنيا سوى المطلوب، وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع، إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسرّ وعلن، بل الظاهر والباطن والسرّ والعلن واحد فيه؟

فاعلم أنّ انقسام هذه العلوم إلى خفيّة وجليّة لا ينكره ذو بصيرة، وإنّما ينكره القاصرون الذين تلقّفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه، فلم يكن لهم ترقٍّ إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء. وذلك ظاهر من أدلّة الشرع؛ قال صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً وحدّاً ومطلعاً**.

وقال عليّ رضي الله عنه ـ وأشار إلى صدره ـ **إنّ هاهنا علوماً جمّة لو وجدتُ لها حملة**.

وقال الله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ**﴾ (العنكبوت: ٤٣).

وقال صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **إنّ من العلوم كهيئة العلم المكنون لا يعلمه إلاّ العالمون**»[2].

ثمّ بيّن أنّ هذه الحقائق والأسرار إنّما تنكشف للراسخين في العلم بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفّر دواعيهم على التدبّر وتجرّدهم للطلب، ويكون لكلّ واحد حدّ في الترقّي إلى درجة أعلى منه. فأمّا الاستيفاء فلا مطمع فيه، ولو كان البحر مداداً والأشجار كلاماً، فأسرار

---

(١) **إحياء علوم الدّين**، مصدر سابق: ج١ ص٢٨٩.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٩٩.

كلمات الله لا نهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله عزّ وجلّ.

فمن هذا الوجه يتفاوت الخلق والفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير، وظاهر التفسير لا يغني عنه»(١).

## الأدلة على علم أهل البيت بالتأويل

من المسائل التي وقع الخلاف فيها بين علماء المسلمين، أنّ العلم بتأويل القرآن هل هو مختصّ بالله تعالى؟

من هنا لابدّ من الحديث عن الأدلّة التي استدلّ بها القائلون بأنّ غيره تعالى يعلم التأويل أيضاً، لكن ـ كما هو واضح ـ بنحو التبعيّة والإذن منه سبحانه، وما يقابل ذلك.

## الدليل الأول

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧).

اختلفت كلمة المفسِّرين في أنّ «الواو» في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ للعطف أم للاستئناف؟ على قولين:

### القول الأوّل: إنّ «الواو» للعطف

اختاره جملة من أعلام المفسّرين:

• منهم ابن عاشور التونسي حيث قال: «المراد بالراسخين في العلم: الذين تمكّنوا في علم الكتاب ومعرفة محامله، وقام عندهم من الأدلّة ما أرشدهم إلى مراد الله تعالى بحيث لا تروج عليهم الشُّبه.

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٢٩٣.

والرسوخ في كلام العرب: الثبات والتمكّن في المكان، يُقال: رسخت القدم ترسخ رسوخاً إذا ثبتت عند المشي ولم تتزلزل، واستعير الرسوخ لكمال العقل والعلم بحيث لا تضلّله الشُّبه ولا تتطرّقه الأخطاء غالباً، وشاعت هذه الاستعارة حتّى صارت كالحقيقة.

فالراسخون في العلم الثابتون فيه العارفون بدقائقه، فهم يحسنون مواقع التأويل ويعلمونه.

ولذا فقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ معطوف على اسم الجلالة، وفي هذا العطف تشريف عظيم كقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ١٨).

وإلى هذا مالَ ابن عبّاس، ومجاهد، والربيع بن سليمان، والقاسم بن محمّد، والشافعيّة، وابن فورك، والشيخ أحمد القرطبي، وابن عطيّة.

وعلى هذا فليس في القرآن آية استأثر الله بعلمها. ويؤيّد هذا أنّ الله أثبت للراسخين في العلم فضيلة ووصفهم بالرسوخ، فأذن بأنّ لهم مزيّة في فهم المتشابه، لأنّ المحكم يستوي في علمه جميع من يفهم الكلام. وحكى إمام الحرمين عن ابن عبّاس أنّه قال في هذه الآية: أنا ممّن يعلم تأويله.

وقيل: «الوقف على قوله: «إلاّ الله» وإنّ جملة ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ مستأنفة»، وهذا مرويّ عن جمهور السلف، وهو قول ابن عمر، وعائشة، وابن مسعود، وأُبيّ، ورواه أشهب عن مالك، وقال عمرو بن الزبير، والكسائي، والأخفش، والفرّاء، والحنفيّة، وإليه مالَ فخر الدِّين.

ويؤيّد الأوّل وصفهم بالرسوخ في العلم، فإنّه دليل بيّن على أنّ الحكم الذي أثبت لهذا الفريق هو حكم من معنى العلم والفهم في المعضلات وهو تأويل المتشابه. على أنّ أصل العطف هو عطف المفردات دون عطف

الجمل، فيكون (الراسخون) معطوفاً على اسم الجلالة فيدخلون في أنّهم يعلمون تأويله. ولو كان (الراسخون) مبتدأ، وجملة ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ خبراً، لكان حاصل هذا الخبر ممّا يستوي فيه سائر المسلمين الذين لا زيغَ في قلوبهم، فلا يكون لتخصيص الراسخين فائدة.

قال ابن عطيّة: تسميتهم راسخين تقتضي أنّهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أيّ شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلاّ ما يعلمه الجميع، وما الرسوخ إلاّ المعرفة بتصاريف الكلام بقريحة معدّة.

وما ذكرناه وذكره ابن عطيّة لا يعدو أن يكون ترجيحاً لأحد التفسيرين وليس إبطالاً لمقابله، إذ قد يوصف بالرسوخ من يفرّق بين ما يستقيم تأويله وما لا مطمع في تأويله»[1].

• وقال السبزواري في «مواهب الرحمن»: «المعروف بين المفسّرين وجمع من الأدباء أنّ جملة: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ مستأنفة، وأنّ الجملة الأولى مبتدأ والثانية خبر، فيكون المعنى: أنّ الراسخين في العلم يقولون آمنّا بالله عزّ وجلّ وأنّ الآيات كلّها من عند الله تعالى، في مقابل من كان في قلبه زيغٌ فيتّبع ما تشابه منها.

إلاّ أنّ هذا الوجه بعيد عن سياق الآية الشريفة.

والمنساق من الآية أنّ الجملة معطوفة على «الله» أي لا يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم. والراسخ في العلم منحصر بسيّد الأنبياء صلّى الله عليه وآله ومن استفاد منه هذا العلم، حيث قال فيه: **اللّهُمَّ علّمه التأويل**.

فالجملة ليست مستأنفة بل معطوفة على المستثنى، ويكون من قبيل

(١) **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**، مصدر سابق: ج٣ ص٢٤.

عطف البعض على الكلّ مثلاً، لأنّ هذا العلم بالنسبة إلى الله تعالى أوّلاً وبالذات، وبالنسبة إلى سيّد الأنبياء ثانياً وبالعرض، فيكون كنسبة علم المتعلِّم إلى المعلِّم.

وهذا الوجه هو الظاهر من الآية المباركة، وتدلّ عليه روايات كثيرة كما يأتي. وإنّما أتى بلفظ الجمع تعظيماً وإجلالاً وليشمل المصطفى سيّد المرسلين والمتّقين الذين هم في قمّة مقام اليقين بالنسبة إلى المعارف الربوبيّة. ولا فرق بين علمه صلّى الله عليه وآله بالتأويل وعلمه تعالى به إلاّ بالاعتبار، لفرض أنّ علمه بالتأويل من علم الله تعالى.

ولذا صار صلّى الله عليه وآله خاتماً لمن سبق وفاتحاً للعلوم والمعارف لمن لحق، وهذا في الممكنات يختصّ به، فهو الراسخ في علمي التنزيل والتأويل بحقيقة معنى الرسوخ علماً وعملاً»[١].

• وذكر الآلوسي شواهد متعدّدة لترجيح هذا القول، منها:

«أوّلاً: فلأنّه لو أُريد بيان حظ الراسخين مقابلاً لبيان حظ الزائغين، لكان المناسب أن يُقال: وأمّا الراسخون فيقولون... .

ثانياً: فلأنّه لا فائدة حينئذ في قيد الرسوخ، بل هذا هو حكم العالمين كلّهم.

ثالثاً: فلأنّه لا ينحصر حينئذ الكتاب في المحكم والمتشابه على ما هو مقتضى العبارة حيث لم يقل: ومنه متشابهات، لأنّ ما لا يكون متّضح المعنى ويهتدي العلماء إلى تأويله وردّه إلى المحكم لا يكون محكماً ولا متشابهاً بالمعنى المذكور، وهو كثير جدّاً.

---

(١) **مواهب الرحمن في تفسير القرآن**، تأليف: فقيه عصره آية الله العظمى السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدّس سرّه، مؤسّسة المنار، الطبعة الثالثة: ١٤١٨هـ: ج٥ ص٣٩.

رابعاً: فلأنّ المحكم حينئذ لا يكون أمّ الكتاب، بمعنى رجوع المتشابه إليه، إذ لا رجوع إليه فيما استأثر الله تعالى بعلمه.

خامساً: فلأنّه قد ثبت في الصحيح أنّه صلّى الله عليه [وآله] وسلّم دعا لابن عبّاس فقال: **اللّهُمَّ فقّهه في الدِّين وعلّمه التأويل**. ولو كان التأويل ممّا لا يعلمه إلاّ الله تعالى لما كان للدّعاء معنىً.

سادساً: فلأنّه سبحانه وتعالى مدح الراسخين بالتذكّر في المقام حيث قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهو يشعر بأنّ لهم الحظّ الأوفر من معرفة ذلك.

سابعاً: فلأنّه يبعد أن يخاطب الله تعالى عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته»[1].

أيّد أصحاب هذا الاتّجاه فهمهم للآية من خلال جملة من النصوص الروائيّة التي صرّحت بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام يعلمون تأويل الكتاب مستندين إلى هذا المقطع من الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾.

- عن بُريد العجلي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ قال: «**رسول الله صلّى الله عليه وآله أفضل الراسخين، قد علّمه الله جميع ما أنزل إليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزّل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه**»[2].

- عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام عن هذه

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: ج٣ ص٨٤.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**: ج١ ص٤٠١، باب في الأئمّة أنّهم الراسخون في العلم، الحديث: ٧٥٢.

الرواية: «**ما من آية إلاّ ولها ظهر وبطن، وما فيه حرف إلاّ وله حدّ ومطلع**» ما يعني بقوله: «**لها ظهر وبطن؟**».

قال: «**ظهر وبطن هو تأويلها، منه ما قد مضى ومنه ما لم يجي، يجري كما يجري الشمس والقمر، كلّما جاء فيه تأويل شيء، منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ ونحن نعلمه**»(١).

• وفي «الاحتجاج» عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنّ الله جلَّ ذكره لسعة رحمته، ورأفته بخلقه، وعلمه بما يحدثه المبدّلون من تغيير كتابه، قسّم كلامه ثلاثة أقسام؛ فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلاّ من صفا ذهنه ولطف حسّه وصحّ تميّزه ممّن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلاّ الله وأُمناؤه والراسخون في العلم.**

**وإنّما فعل ذلك لئلا يدّعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله صلّى الله عليه وآله من علم الكتاب ما لم يجعل الله لهم، وليقودهم الاضطرار إلى الايتمار لمن ولاّه أمرهم فاستكبروا عن طاعته، تعزّزاً** (أي تمنّعاً وتمرّداً) **وافتراءً على الله عزّ وجلّ، واغتراراً بكثرة مَن ظاهَرهم وعاونهم، وعاند الله عزّ وجلّ ورسوله**»(٢).

• عن بريد بن معاوية عن أحدهما عليهما السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ : «**فرسول الله صلّى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم، قد علّمه الله عزّ وجلّ ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده**

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٤٠٠، الحديث: ٧٥٠.

(٢) **الاحتجاج**، للطبرسي، مصدر سابق: ج١ ص٣٧٦.

**يعلمونه كلّه، والذين لا يعلمون تأويله إذا قال العالم فيهم بعلم، فأجابهم الله بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، والقرآن خاصّ وعامّ، ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، فالراسخون في العلم يعلمونه»**[١].

• عن محمّد بن مسلم عن جعفر الصادق عليه السلام «قال: **إنّ قدّام قيام القائم عليه السلام علامات بلوى من الله للمؤمنين**. قلت: فما هي؟

قال: **هذه الآية؛ قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ نلقيهم بالأسقام ﴿وَالْجُوعِ﴾ بغلاء أسعارهم ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ بالقحط ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ بموت ذائع ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ بعدم المطر ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ عند ذلك بخروج القائم.**

ثمّ قال: **يا محمّد هذا تأويله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ونحن الراسخون في العلم»**[٢].

### القول الثاني: الواو للاستئناف

أصحاب هذا القول يرون أنّ «الواو» للاستئناف لا العطف، بتقريب: أنّ الآية بقرينة صدرها وذيلها ليست في مقام بيان من هم العالمون بالتأويل، وإنّما هي بصدد تقسيم بيان موقف الناس بإزاء المحكمات والمتشابهات التي تنقسم إليهما الآيات القرآنية؛ قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾** (آل عمران: ٧). حيث بيّنت أنّ طائفة من الناس يميلون إلى اتّباع المتشابه بعد فصلها عن المحكمات ابتغاء

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢١٣، كتاب الحجّة، باب أنّ الراسخين في العلم هم الأئمّة، الحديث: ٢.

(٢) **ينابيع المودّة لذوي القربى**، القندوزي الحنفي، مصدر سابق: ج٣ ص٢٣٥.

الفتنة والمشاغبة وتشويش الأذهان، وذلك لزيغ ومرض في قلوبهم. وطائفة أخرى وهم الراسخون في العلم الذين ثبتوا على اتّباع المحكم والإيمان بالمتشابه يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾.

وهذا القول اختاره جملة من الأعلام منهم الطباطبائي في تفسيره، قال ما نصّه: «إنّ الآية بقرينة صدرها وذيلها وما تتلوها من الآيات إنّما هي في مقام بيان انقسام الكتاب إلى المحكم والمتشابه، وتفرّق الناس في الأخذ بها، فهم بين مائل إلى اتّباع المتشابه لزيغ في قلبه، وثابت على اتّباع المحكم والإيمان بالمتشابه لرسوخ في علمه.

وعليه فالقصد الأوّل في ذكر الراسخين في العلم، بيان حالهم وطريقتهم في الأخذ بالقرآن ومدحهم فيه، قبال ما ذكر من حال الزائغين وطريقتهم وذمّهم. والزائد على هذا القدر خارج عن القصد الأوّل، ولا دليل على تشريكهم في العلم بالتأويل مع ذلك إلاّ وجوه غير تامّة. فيبقى الحصر المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ من غير ناقض ينقضه من عطف أو استثناء وغير ذلك.

فالذي تدلّ عليه الآية هو انحصار العلم بالتأويل فيه تعالى واختصاصه به»[(١)].

واستدلّوا لذلك ـ بالإضافة إلى ما تقدّم ـ بقرينة داخليّة وشواهد خارجيّة.

أمّا القرينة الداخليّة، فهي بأنّ الظاهر أنّ جملة ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ معادلة لجملة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾ والتقدير: وأمّا الراسخون في العلم فيقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا. ولو كانت الجملة عاطفة لا مستأنفة للزم

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص٥١.

عدم وجود المعادل لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾.

قال الآلوسي: «بأنّ الآية من قبيل الجمع والتقسيم والتفريق، فالجمع في قوله سبحانه: ﴿أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والتقسيم في قوله تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾، والتفريق في قوله عزّ شأنه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ فلابدّ من مقابلة ذلك من حكم يتعلّق بالمحكم، وهو أنّ الراسخين يتبعونه ويرجعون المتشابه إليه على ما هو مضمون قوله سبحانه ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ...﴾»(١).

إلاّ أنّه قد يجاب ـ كما ذكر جملة من الأعلام ـ بأنّ كون «أمّا» للتفصيل أكثريّ لا دائميّ، ولو سلم فليس ذكر المقابل في اللفظ بلازم، بل قد يحذف لدلالة الكلام عليه، ثمّ لو سلم بأنّ الآية من قبيل الجمع والتقسيم والتفريق، فذكر المقابل على سبيل الاستئناف أو الحال أعني «يقولون آمنّا به...» كاف في ذلك.

وأمّا الشواهد الخارجيّة، فقد استندوا تارةً إلى أنّه لو كانت «الواو» للعطف للزم تشريك الراسخين في العلم بالتأويل ومنهم رسول الله صلّى الله عليه وآله، بل هو أفضلهم، وإلاّ فكيف يتصوّر أن ينزل القرآن على قلبه وهو لا يدري ما أُريد به؟

ومن دأب القرآن إذا ذكر الأمّة أو وصف جماعة بوصف معيّن وفيهم رسول الله صلّى الله عليه وآله أن يفرده بالذِّكر أوّلاً ويميّزه بالشخص تشريفاً له وتعظيماً لأمره، ثمّ يذكرهم جميعاً.

• كقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج٣ ص٨٤.

• وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ٢٦).

• وقوله: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ (التوبة: ٨٨).

• وقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (آل عمران: ٦٨).

• وقوله: ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ (التحريم: ٨).

فلو كان المراد بقوله: «والراسخون في العلم» أنّهم عالمون بالتأويل ـ ورسول الله صلّى الله عليه وآله منهم قطعاً ـ كان حقّ الكلام كما عرفت أن يقال: وما يعلم تأويله إلاّ الله ورسوله والراسخون في العلم.

إلاّ أنّ ذلك يمكن أن يجاب عنه أنّ الآية ذكرت النبيّ صلّى الله عليه وآله في صدرها حيث قالت: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فلا حاجة لذكره ثانياً.

وأخرى إلى جملة من الروايات الواردة من طرق الفريقين، منها:

• ما روي عن ابن عبّاس أنّه كان يقرأ: وما يعلم تأويله إلاّ الله ويقول الراسخون في العلم آمنّا به. وكذلك حكى الفرّاء في قراءة أُبيّ بن كعب أيضاً: ويقول الراسخون في العلم[1].

الواقع أنّ هذه القراءات وأمثالها، إن استدلّ بها لبيان عدم دلالة الآية على علم الراسخين بالتأويل، فيُجاب عن ذلك أنّها لا حجّية فيها ـ كما هو واضح ـ وإذا أُريد الاستناد إليها لحصر العلم بالتأويل بالله تعالى مطلقاً، فيقال: إنّ غاية دلالتها أنّ الآية لا تدلّ على علم الراسخين بالتأويل، وعدم دلالة الآية عليه غير دلالتها على عدمه كما هو المدّعى، فمن الممكن أن يدلّ عليه دليل آخر كما سيأتي.

• وأخرج الطبراني عن أبي مالك الأشعري أنّه سمع رسول الله صلّى الله

(١) **مجمع الزوائد**، الهيثمي، مصدر سابق: ج١ ص٣٨٨.

عليه وآله يقول: «**لا أخاف على أمّتي إلاّ ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وأن يزداد علمهم فيضيّعوه ولا يبالوا به**»(١).

وهذا النصّ على تقدير دلالته على النفي لا يدلّ إلاّ على نفيه عن مطلق المؤمن لا عن خصوص الراسخين في العلم، ولا ينفع المستدلّ إلاّ الثاني.

• عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام أنّ رجلاً قال لأمير المؤمنين عليه السلام: هل تصف لنا ربّنا فنزداد له حبّاً ومعرفة؟ فغضب وخطب الناس فقال فيما قال:

«**عليك ـ يا عبد الله ـ بما دلّك عليه القرآن من صفته، وتقدّمك فيه الرسول من معرفته فأتمّ به واستضئ بنور هدايته، فإنّما هي نعمة وحكمة أُوتيتها، فخُذ ما أُوتيت وكُن من الشاكرين، وما كلّفك الشيطان عليه ممّا ليس عليك في الكتاب فرضه، ولا في سنّة الرسول وأئمّة الهدى أثره، فكِلْ علمه إلى الله ولا تقدّر عظمة الله.**

**واعلم ـ يا عبد الله ـ أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن الاقتحام على السُّدد المضروبة دون الغيوب، إقراراً بجهل ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فقالوا: آمنّا به كلّ من عند ربّنا، وقد مدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمّى تركهم التعمّق فيما لم يكلّفهم البحث عنه رسوخاً**»(٢).

---

(١) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، مصدر سابق: ج٢ ص١٤٨.

(٢) **تفسير العيّاشي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٩٢، الحديث: ٦٤٥، **نهج البلاغة**، مصدر سابق: ص١٢٤، الخطبة: ٩١ تعرف بخطبة الأشباح.

قال الطباطبائي معلّقاً على هذا النصّ: «قوله عليه السلام: **واعلم يا عبد الله إنّ الراسخين في العلم**... إلخ، ظاهر في أنّه عليه السلام أخذ «الواو» في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾ للاستيناف دون العطف كما استظهرناه من الآية، ومقتضى ذلك أنّ ظهور الآية لا يساعد على كون الراسخين في العلم عالمين تأويله، لا أنّه يساعد على عدم إمكان علمهم به، فلا ينافي وجود بيان آخر يدلّ عليه ـ كما سيأتي ـ.

وقوله عليه السلام: «**(الذين أغناهم الله عن الاقتحام في السدد المضروبة دون الغيوب)** خبر (أنّ) والكلام ظاهر في تخضيص المخاطب وترغيبه أن يلزم طريقة الراسخين في العلم بالاعتراف بالجهل فيما جهله فيكون منهم، وهذا دليل على تفسيره عليه السلام الراسخين في العلم بمطلق من لزم ما علمه ولم يتعدّ إلى ما جهله.

والمراد بالغيوب المحجوبة بالسدد، المعاني المرادة بالمتشابهات المخفيّة عن الأفهام العامّة، ولذا أردفه بقوله ثانياً: **فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره**، ولم يقل: بجملة ما جهلوا تأويله، فافهم»[1].

## الدليل الثاني: أهل البيت يعلمون ما في أمّ الكتاب

يمكن صياغة هذا الدليل بالنحو التالي:

**المقدمة الأولى**: إنّ المطهّرين يعلمون ما في الكتاب المكنون لقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩)، حيث بيّنت أنّ المطهّرين من عباد الله يمسّون القرآن الكريم الذي في الكتاب المكنون والمحفوظ، وليس هذا المسّ ـ كما تقدّم ـ إلاّ نيل الفهم

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص٦٩.

والعلم. ومن المعلوم أنّ الكتاب المكنون هذا هو أمّ الكتاب المدلول عليه بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف: ٤).

**المقدمة الثانية**: إنّ ما في أمّ الكتاب هو تأويل الكتاب الذي هو حقيقة عينيّة محفوظة عن كلّ تغيير.

والنتيجة المترتّبة على هاتين المقدّمتين: أنّ المطهّرين يعلمون تأويل الكتاب.

ولّما ثبت في الفصل الأوّل أنّ المطهّرين هم أهل البيت عليهم السلام لقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

إذن أهل البيت عليهم السلام عالمون بتأويل الكتاب.

ويترتّب على هذا البيان أمران:

الأوّل: «إنّ المقدار الثابت بهذا الدليل أنّ المطهّرين يعلمون التأويل، ولازم تطهيرهم أن يكونوا راسخين في علومهم، لما أنّ تطهير قلوبهم منسوب إلى الله وهو تعالى سبب غير مغلوب، لا أنّ الراسخين في العلم يعلمون التأويل بما أنّهم راسخون في العلم، أي أنّ الرسوخ في العلم ليس سبباً للعلم بالتأويل، وذلك لأنّ الله وصف رجالاً من أهل الكتاب برسوخ العلم ومدحهم بذلك وشكرهم على الإيمان والعمل الصالح في قوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ (النساء: ١٦٢). ولم يثبت مع ذلك كونهم عالمين بتأويل الكتاب.

الثاني: إنّ قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ لا يثبت للمطهّرين إلاّ مسّ الكتاب في الجملة، وأمّا أنّهم يعلمون كلّ التأويل ولا يجهلون شيئاً منه ولا في وقت، فهي ساكتة عن ذلك، ولو ثبت لثبت بدليل منفصل»[1].

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص٥٥.

## الدليل الثالث: الروايات الخاصّة

دلّت جملة من الروايات على توفّر أهل البيت عليهم السلام على علمهم بتأويل الكتاب، منها:

• عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله**»(١).

• عن محمد بن مسلم قال: «سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: لمّا احتضر الحسن بن عليّ عليهما السلام قال للحسين عليه السلام: **يا أخي إنّي أوصيك بوصيّة فاحفظها، فإذا أنا متُّ فهيّئني ثمّ وجّهني إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله لأحدث به عهداً ثمّ اصرفني إلى أُمّي فاطمة عليها السلام ثمّ ردّني فادفني بالبقيع**.

وهذا ما فعله الإمام الحسين عليه السلام، فإنّه عندما أراد أن ينفّذ وصيّة أخيه الحسن عليه السلام وجّه خطابه إلى عائشة فقال: **إنّ أخي أمرني أن أقرّبه من أبيه رسول الله صلّى الله عليه وآله ليحدث به عهداً، واعلمي أنّ أخي أعلم الناس بالله ورسوله وأعلم بتأويل كتابه...**»(٢).

• عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**كنت إذا سألت رسول الله صلّى الله عليه وآله أجابني، وإن فنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت عليه آية في ليل ونهار ولا سماء ولا أرض ولا دنيا ولا آخرة ولا جنّة ولا نار ولا سهل ولا جبل ولا ضياء ولا ظلمة إلاّ أقرأنيها وأملاها عليَّ وكتبتها**

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٤٠٢، باب في الأئمّة أنّهم الراسخون في العلم، الحديث: ٧٥٣.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٣٠٢، كتاب الحجّة، باب الإشارة والنصّ على الحسين، الحديث: ٣.

**بيدي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها ومحكمها ومتشابهها وخاصّها وعامّها، وكيف نزلت وأين نزلت وفيمن أُنزلت إلى يوم القيامة، ودعا الله لي أن يعطيني فهماً وحفظاً، فما نسيت آية من كتاب الله ولا على مَن أُنزلت...»**[١].

• عن إسحاق بن عمّار قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**إنّ للقرآن تأويلاً، فمنه ما قد جاء ومنه ما لم يجي، فإذا وقع التأويل في زمان إمام من الأئمّة عرفه إمام ذلك الزمان**»[٢].

• عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: **يا عليّ أنت تعلّم الناس تأويل القرآن بما لا يعلمون**. فقال علي: ما أبلّغ رسالتك بعدك يا رسول الله؟ قال: **تخبر الناس بما أشكل عليهم من تأويل القرآن**»[٣].

## الدليل الرابع: حديث الثقلين

وتقدم الكلام عنه مفصلاً في الفصل الأول، حيث ثبت أنّهم عليهم السلام يعلمون تأويل الكتاب.

## البحث الثاني: الفرق بين التأويل والمتشابه

لكي نقف على الفرق بين التأويل والمتشابه، لابدّ من بيان المراد من المحكم والمتشابه، وهذا ما يستدعي الحديث في عدّة مطالب:

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**: ج١ ص٣٩١، باب في أنّ عليّاً علم كلّ ما أنزل على رسول الله، الحديث: ٧٤١.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٣٨٨، باب في الأئمّة أنّهم أعطوا تفسير القرآن الكريم والتأويل، الحديث: ٧٣٣.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٣٨٧، الحديث: ٧٣١.

**الأوّل: المحكم والمتشابه في اللّغة**

أمّا المحكم، قال الفيروزآبادي في القاموس: «أحكمه: أتقنه ومنعه عن الفساد»[(١)].

وقال ابن منظور في لسان العرب: «وأحكمت الشيء فاستحكم، صار محكماً، واحتكم الأمر واستحكم: وثق»[(٢)].

وقال الراغب في المفردات: «حكم: أصله منع منعاً لإصلاح»[(٣)].

وبملاحظة ما تقدّم من هذه النصوص اللغويّة يتّضح أنّ المحكم هو الإتقان والوثوق والمنع عن الفساد.

أمّا المتشابه، قال ابن منظور: «الشبْه والشَبَهُ والشبيه: المثل. والجمع أشباه، وأشبه الشيء الشيء: ماثله، وأشبهتُ فلاناً وشابهته واشتبه عليَّ وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كلّ واحد منهما صاحبه. والمشتبهات من الأمور: المشكلات، والمتشابهات المتماثلات، وشبّهه عليه: خلّط عليه الأمر حتّى اشتبه بغيره»[(٤)].

وقال الراغب: «الشِّبه والشَّبَه والشبيه، حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفيّة كاللّون والطعم وكالعدالة والظلم، والشُّبهه: هو أن لا يتميّز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنىً. والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره إمّا من حيث اللفظ أو من حيث المعنى»[(٥)].

والمتحصّل من هذين النصّين أنّ المتشابه يطلق على المثل وعلى الملتبس.

---

(١) **القاموس المحيط**، مصدر سابق: ج٤ ص٩٨.

(٢) **لسان العرب**، مصدر سابق: ج٣ ص٢٧٢، مادّة «حكم».

(٣) **المفردات في غريب القرآن**، مصدر سابق: ص١٢٦، مادّة: حكم.

(٤) **لسان العرب**: ج٧ ص٢٣ «مادّة: شبه».

(٥) **المفردات في غريب القرآن**: ص٢٥٤، مادّة: شبه.

### الثاني: المحكم والمتشابه في القرآن

يُطلق المحكم والمتشابه في القرآن بنحوين:

**النحو الأوّل**: جعل الإحكام والتشابه وصفاً للكتاب كلّه، أمّا الإحكام ففي قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)، والمراد بكون القرآن محكماً أنّه محكم ومتقن من جهة نظمه وتماسكه وانسجامه في الأفكار والمفاهيم.

وكذلك وصف القرآن كلّه بأنّه متشابه كما في قوله: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ (الزمر: ٢٣)، والمراد منه هو تماثل بعضه مع البعض الآخر في كونه ذا نسق واحد من حيث الأسلوب والهدف وجزالة النظم وبيان الحقائق والحكم والهداية إلى الحقّ وسلامته من التناقض والاختلاف.

قال الرازي في ذيل هذه الآية: «هذا التشابه يحصل في أمور:

أحدها: أنّ الكاتب البليغ إذا كتب كتاباً طويلاً فإنّه يكون بعض كلماته فصيحاً ويكون البعض غير فصيح، والقرآن يخالف ذلك فإنّه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه.

ثانيها: أنّ كلّ ما فيه من الآيات والبيانات فإنّه يقوّي بعضها بعضاً ويؤكّد بعضها بعضاً.

وثالثها: أنّ الفصيح إذا كتب كتاباً في واقعة بألفاظ فصيحة، فلو كتب كتاباً آخر في غير تلك الواقعة، كان الغالب في كلامه في الكتاب الثاني غير كلامه في الكتاب الأوّل، والله تعالى حكى قصّة موسى عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن، وكلّها متساوية متشابهة في الفصاحة.

ورابعها: أنّ هذه الأنواع الكثيرة من العلوم التي عددناها، متشابهة

متشاركة في أنّ المقصود منها بأسرها الدعوة إلى الدِّين وتقرير عظمة الله، ولذلك فإنّك لا ترى قصّة من القصص إلاّ ويكون محصّلها المقصود الذي ذكرناه، فهذا هو المراد من كونه متشابهاً»[١].

**النحو الثاني**: ما أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ** ﴾ (آل عمران: ٧)، حيث قسّم الآيات إلى محكمات ومتشابهات، ولازم ذلك أنّ الإحكام والتشابه هاهنا غير ما يتّصف به تمام الكتاب ـ كما هو واضح ـ.

وقد اختلفت كلمات المفسّرين من المتقدّمين والمتأخّرين في بيان المراد من معناهما وتشخيص مصداقهما من الآيات إلى أقوال متعدّدة[٢]. ولعلّ من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى مثل هذا الاختلاف الكبير هو الخلط بين بحث المحكم والمتشابه من جهة وبحث التأويل من جهة أخرى.

وسوف نقتصر على بيان المختار في ذلك، تاركين التفصيل إلى بحث آخر.

### الثالث: المختار في المراد من المحكم والمتشابه

ما نعتقده في معنى المحكم والمتشابه، هو أنّ المتشابه لا ينشأ من دلالة اللفظ على المعنى ـ كما هو مذهب البعض ـ وإنّما ينشأ من جهة التردّد في تحديد المصداق، بمعنى أنّ المتشابه يدلّ على مفهوم معيّن واضح، لكن يختلط علينا تحديد مصداقه الخارجي، فالآية المتشابهة تدلّ على معنى معيّن، إلاّ أنّ هذا المعنى يتعارض مع مدلول آية أخرى محكمة لا ريب في مدلولها، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (طه: ٥)، فهي واضحة الدلالة من حيث ما يتبادر من لفظ العرش، إلاّ أنّ هذا المعنى ـ وهو استواء

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، مصدر سابق: ج٢٦ ص٢٣٦.

(٢) ينظر: **أصول التفسير والتأويل**، مصدر سابق: ص٢٤٦.

الله تعالى على العرش بالمعنى المتبادر وهو التمكّن والاعتماد على المكان ـ يتعارض مع آية محكمة هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، الأمر الذي يوجب الرجوع والاحتكام إلى الآية المحكمة لتحديد المعنى المدلول من الآيات المتشابهة.

والحاصل: أنّ المتشابه في القرآن هو الذي يدلّ على مفهوم واضح ومعنى معيّن يتردّد على مصداقه الخارجي، أمّا المحكم فهو الذي يدلّ على مفهوم واضح معيّن لا يتردّد في انطباقه على مصداقه الخارجي.

ولعلّ من أوضح الشواهد الدالّة على ذلك على ما ذكره الشهيد الصدر حيث قال: «إنّ التعبير بالاتّباع في قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ لا معنى له إذا أُريد المتشابه المفهومي، إذ ذلك فرع وجود مدلول ظاهر يتعيّن فيه اللفظ، ومع التشابه المفهومي لا مدلول ليتَّبع، وهذا بخلاف ما لو أُريد التشابه المصداقي، بمعنى أنّهم يتّبعون الآيات التي مصاديقها الخارجيّة متشابهة لا تتناسب مع المصداق الواقعي الغيبي الذي ينطبق عليه مفهوم الآية، فمثلاً كلمة الصراط في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (**الحمد**: ٦)، أو العرش والكرسي في الآيات الأخرى التي مدلولها اللّغوي واضح لا تشابه فيه إلاّ أنّ مصاديقها الخارجيّة سنخ مصاديق لا تنسجم أن تكون هي المقصودة في هذه الآيات، فمَن في قلبه زيغ يتّبع مثل هذه الآيات ليطبّقها على مصاديقها الخارجيّة المتشابهة، وهذا التطبيق عبّر عنه بالتأويل ـ من الأوْل كما في تأويل الرؤيا وتطبيقها على مصداقها الواقعي ـ ابتغاء الفتنة وتشويش العقائد والأفكار»[1].

---

(١) **بحوث في علم الأصول**، مباحث الحجج والأصول العمليّة، تقريراً لأبحاث سيّدنا وأستاذنا الشهيد السعيد آية الله العظمى السيّد محمد باقر الصدر «طاب ثراه» بقلم:=

والحاصل: ظاهر الآية أنّ المراد هو التشابه المصداقي، بمعنى أنّ هناك أُناساً في قلوبهم زيغٌ، فيتّبعون الآيات التي مصاديق مداليلها المفهوميّة في الخارج لا تنسجم مع واقع مصاديقها؛ لأنّ هذه من عالم الشهادة والمادّة وتلك من عالم الغيب. فيطبّقونها على المصاديق الخارجيّة الحسّية باعتبار عدم معروفيّة تلك المصاديق الغيبيّة وعجز الذهن البشري عن إدراكها في هذه النشأة، ويحاولون بذلك إلقاء الشبهة والفتنة والبلبلة في الأذهان، وهذا مسلك عامّ حاول البعض اتّباعه في فهم وتفسير الآيات المتشابهة.

وهذا ما أكّده الطباطبائي في مواضع متعدّدة من تفسيره، فذكر أنّه: «ليس بين آيات القرآن آية واحدة ذات إغلاق وتعقيد في مفهومها بحيث يتحيّر الذهن في فهم معناها، وكيف! وهو أفصح الكلام، ومن شرط الفصاحة خلوّ الكلام عن الإغلاق والتعقيد، حتّى أنّ الآيات المعدودة من متشابه القرآن هي في غاية الوضوح من جهة المفهوم، وإنّما التشابه في المراد منها وهو ظاهر، وإنّما الاختلاف كلّ الاختلاف في المصداق الذي تنطبق عليه المفاهيم اللفظيّة من مفردها ومركّبها، وفي المدلول التصوّري والتصديقي»[1].

وقال في موضع آخر: «إنّ المراد بالتشابه كون الآية بحيث لا يتعيّن مرادها لفهم السامع بمجرّد استماعها، بل يتردّد بين معنىً ومعنىً حتّى يرجع إلى محكمات الكتاب فتعيّن هي معناها وتبيّنها بياناً، فتصير الآية المتشابهة عند ذلك محكمة بواسطة الآية المحكمة، والآية المحكمة محكمة بنفسها كما في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٣)، فإنّه يشتبه المراد منه

---

= السيّد محمود الهاشمي: ج٤ ص٢٨١.

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١ ص٩.

على السامع أوّل ما يسمعه، فإذا رجع إلى مثل قوله تعالى: ﴿**لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ**﴾ (الأنعام: ١٠٣)، علم به أنّ المراد بالنظر غير النظر بالبصر الحسّي»[١].

وإلى هذا المعنى من المحكم والمتشابه أشارت بعض النصوص الروائيّة منها:

• ما رواه العيّاشي في تفسيره: «سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن المحكم والمتشابه، فقال: **المحكم ما يُعمل به، والمتشابه ما يشبه بعضه بعضاً**»[٢].

• وعن مسعدة بن صدقة قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام: عن المحكم والمتشابه، قال: **المتشابه ما اشتبه على جاهله**»[٣].

• وفي العيون عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هُدي إلى صراط مستقيم**»[٤].

والأخبار كما ترى متقاربة في تفسير المتشابه، وهي تؤيّد ما ذكرنا في البيان السابق.

ممّا تقدّم ظهر الفرق بين التأويل والمتشابه، فإنّ التأويل هو حقيقة القرآن المحفوظة في أمّ الكتاب التي لا تدركها الأفهام ولا يمكن التعبير عنها بالألفاظ والمفاهيم، وهو من الأمور الخارجيّة العينيّة. وأمّا المتشابه، فهو ليس من جهة اللفظ حتّى يعالج من خلال الطرق المألوفة عند أهل

---

(١) المصدر السابق: ج٣ ص٢١.

(٢) **تفسير العيّاشي**، مصدر سابق: ج١ ص٨٥، الحديث: ٣٢.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٨٧، الحديث: ٣٨.

(٤) **عيون أخبار الرضا**، نقلاً عن **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص٦٨.

اللسان كإرجاع العام والمطلق إلى المخصّص والمقيّد ونحو ذلك، بل من جهة التردّد في تطبيق المفهوم على مصداقه الخارجي.

## خلاصة ما تقدّم

١ ـ إنّ التأويل ليس من مقولة المعاني المرادة بالألفاظ، وإنّما هو الأمر العيني الخارجي.

٢ ـ الفرق بين التفسير والتأويل، هو أنّ التفسير يعني الإحاطة بعلم القرآن من خلال معرفة معاني الكلام، أمّا التأويل فهو من الأمور الخارجيّة العينيّة.

٣ ـ من الأدلّة على علم أهل البيت عليهم السلام بالتأويل:

**الدليل الأوّل**: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧)، حيث عطفت الآية المباركة «الراسخون» على «الله» تعالى في العلم بالتأويل، وممّا يؤيّد ذلك هو ما أشارت إليه الروايات المتضافرة التي صرّحت بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام يعلمون بتأويل الكتاب مستندين إلى الآية المباركة.

**الدليل الثاني**: أهل البيت عليهم السلام يعلمون ما في أُمّ الكتاب.

**الدليل الثالث**: الروايات الخاصّة.

**الدليل الرابع**: حديث الثقلين.

٤ ـ تبيّن أنّ التأويل لا يختصّ بالآيات المتشابهة، بل لجميع القرآن تأويل، فللآية المحكمة تأويل، كما أنّ للمتشابهة تأويلاً.

# الفصل الثامن

# علم أهل البيت بالفعل أم بالقوّة ؟

من الأبحاث المرتبطة ببحث علم الإمام مسألة كون علمهم فعليّاً أم شأنيّاً؟ بمعنى أنّهم عندما يقولون «نعلم ما كان وما يكون وما هو كائن» فهل هذا العلم موجود عندهم بالفعل أم أنّهم بنحو إذا سُئلوا عن شيء وشاءوا أن يعلموا أعلمهم الله تعالى بذلك، فهم عليهم السلام يعلمون لكن ليس بالفعل وإنّما بالقوّة، أي إذا شاءوا علموا؟

من الجدير بالذِّكر أنّ من أهمّ الآثار المترتّبة على هذا البحث، هو أنّ ما تقدّم من إشكالات وإثارات حيال علم أهل البيت عليهم السلام بمصائرهم وما يجري عليهم، إنّما ترد فيما إذا قلنا إنّ علمهم فعليّ لا شأنيّ، إذ لو كان علمهم شأنيّاً وبالقوّة فلا ترد تلك الشبهات، لأنّه إذا لم يتوفّر الإمام بالفعل على علم بمصيره إلاّ إذا شاء ذلك، فيمكن القول إنّه عليه السلام قد لا يشاء أن يعلم بزمان استشهاده وما يجري عليه، وحينئذ لا يقع أيّ إشكال من إيقاع النفس بالتهلكة وغيره من الإشكالات المتقدّمة.

من هنا سيقع الكلام في عدّة مباحث:

## المبحث الأوّل: الاستدلال على أنّ علمهم عليهم السلام بالفعل

عند إجراء مسح ميدانيّ للروايات الواردة في علم الإمام، نجد أنّها ظاهرة بشكل واضح أنّهم يعلمون كلّ شيء بالفعل لا بالقوّة، فإنّهم عليهم السلام عندما يقولون:

• إنّهم عندهم علم الكتاب كلّه.
• وإنّهم يعلمون ما كان وما يكون وما هو كائن.
• وإنّهم ورثة علم رسول الله صلّى الله عليه وآله .
• وإنّهم يعلمون علمه صلّى الله عليه وآله .
• وإنّهم خزّان علم الله تعالى.

ونحوها من التعبيرات، فإنّها تكشف بشكل صريح أنّ علمهم عليهم السلام بالفعل، لا أنّهم لا يعلمون بالفعل، لكن إذا شاءوا علموا.

## المبحث الثاني: مناقشة الروايات الدالة على أنّ علمهم بالقوّة

هناك بعض الروايات يمكن أن يستظهر منها أنّ علمهم عليهم السلام ليس بالفعل بل هو بالقوّة، وما وقفنا عليها منها هي:

• حدّثنا سهل بن زياد، عن أيّوب بن نوح، عن صفوان بن يحيى، عن ابن مسكان، عن بدر بن الوليد، عن أبي الربيع الشامي، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الإمام إذا شاء أن يعلم علم**»[(١)].

والرواية من حيث السند، فيها سهل بن زيد وهو مختلف فيه، والمشهور تضعيفه، وبدر بن الوليد مجهول، وأبو الربيع الشامي لم يوثّق.

• علي بن محمّد وغيره، عن سهل بن زياد، عن أيّوب بن نوح، عن صفوان بن يحيى، عن ابن مسكان عن بدر بن الوليد، عن أبي الربيع الشامي عن الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الإمام إذا شاء أن يعلم علم**»[(٢)].

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص١٠٢، باب في الإمام بأنّه إذا شاء أن يعلم علم، الحديث: ١١٢٢.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥٨، باب أنّ الأئمّة إذا شاءوا أن يعلموا علموا، الحديث: ١.

والرواية فيها ما تقدّم في النصّ السابق، لذا قال المجلسي إنّها ضعيفة[١].

• حدّثنا الهيثم النهدي، عن الحسن بن الحسين اللؤلؤي، عن صفوان بن يحيى، عن ابن مسكان، عن يزيد بن فرقد النهدي، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**إنّ الإمام إذا شاء أن يعلم علم**»[٢].

والحسن بن الحسين اللؤلؤي وثّقه النجاشي، وضعّفه ابن الوليد وابن نوح والصدوق، ونقل تضعيفهم النجاشي والطوسي في التهذيب.

• حدّثنا محمّد بن عبد الجبّار، عن صفوان بن يحيى، عن ابن مسكان، عن بدر بن الوليد، عن أبي الربيع الشامي، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**العالم إذا شاء أن يعلم علم**»[٣].

وفي الكافي عن أبي علي الأشعري عن محمّد بن عبد الجبّار... إلى آخر السند[٤].

وفي السند بدر بن الوليد وهو مجهول، وأبو الربيع الشامي، وهو لم يوثّق، لذا قال المجلسي: «الحديث مجهول»[٥].

• حدّثنا عمران بن موسى، عن موسى بن جعفر، عن عمرو بن سعيد المدائني، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك**»[٦].

وفي الكافي عن محمد بن يحيى، عن عمران بن موسى، عن موسى بن

---

(١) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، مصدر سابق: ج٣ ص١١٨.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص١٠٢، الحديث: ١١٢١.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص١٠١، الحديث: ١١٢٠.

(٤) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥٨، الحديث: ٢.

(٥) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**: ج٣ ص١١٨.

(٦) **بصائر الدرجات الكبرى**: ج٢ ص١٠٢، الحديث: ١١٢٤.

جعفر، عن عمرو بن سعيد المدائني، عن أبي عبيدة المدائني، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، مثله[١].

والرواية في سندها موسى بن جعفر بن وهب البغدادي الذي يروي عنه عمران بن موسى، وهو مجهول، لذا قال المجلسي عن الحديث إنّه مجهول[٢].

## المبحث الثالث: معالجة التنافي بين الروايات

الواقع أنّ هذه الروايات التي استدلّ بها على أنّ علم أهل البيت عليهم السلام بالقوّة، لا تصلح لمعارضة الروايات الدالّة على أنّ علمهم بالفعل وذلك:

أوّلاً: إنّ جميع هذه النصوص هي ضعيفة السند ـ كما تقدّم ـ.

ثانياً: لو افترضنا أنّ تلك الروايات صحيحة السند، فهي أيضاً غير صالحة لمعارضة الروايات الدالّة على أنّ علمهم فعليّ، وذلك لأنّها روايات آحاد، فلا تقاوم ما يقابلها من روايات متضافرة بل متواترة، مضافاً إلى أنّها أوضح وأصرح وأقوى دلالة.

ثالثاً: لو سلّمنا استحكام التعارض بين الطائفتين نقول: إنّ الروايات التي استدلّ بها على أنّ علم الإمام بالقوّة لا دلالة فيها على ذلك.

ولكي يتّضح هذا الجواب بشكل جيّد لابدّ من بيان مقدّمة محقّقة في علم النفس الفلسفي، حاصلها: تنقسم حواسّ الإنسان إلى ظاهرة وباطنة.

أمّا الحواسّ الظاهرة، فقد ذهب المشهور من الفلاسفة إلى أنّها خمس

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٥٨، الحديث: ٣.

(٢) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، مصدر سابق: ج٣ ص١١٩.

بالاستقراء لا الحصر، وهي:

١ ـ حاسّة اللمس، وهي القوّة التي تدرك بها النفس الملموسات.

٢ ـ حاسّة الذوق، وهي القوّة التي تدرك بها النفس المذوقات.

٣ ـ حاسّة الشمّ، وهي القوّة التي تدرك بها النفس المشمومات.

٤ ـ حاسّة السمع، وهي القوّة التي تدرك بها النفس المسموعات.

٥ ـ حاسّة البصر، وهي القوّة التي تدرك بها النفس المبصرات.

وأمّا الحواسّ الباطنة، فلتوضيحها لابدّ من الإشارة إلى أنّ المدركات التي يدركها الإنسان على قسمين: صورة ومعنىً. وقد ميّز بينهما بأنّ الصور هي المدرَكات التي تحصل عليها النفس من خلال الحواس الظاهرة، وما يكون كذلك لا يكون إلاّ جزئيّاً، أمّا المعاني فهي المدرَكات التي تحصل عليها النفس من خلال القوى الباطنة لا الظاهرة، وعلى هذا فقد تكون كلّية لا يمتنع فرض صدقها على كثيرين، وقد تكون جزئيّة يمتنع فيها ذلك الفرض. وبهذا يتّضح أنّ المفاهيم التي تقسّم إلى كليّة وجزئيّة إنّما هي معانٍ وليست صوراً.

على هذا الأساس نقول: إنّ الحواس الباطنة تنقسم إلى قسمين أساسيّين قوى مدركة وقوى مُعينة.

والقوى المدركة على نحوين: مدركة للمعاني ومدركة للصور.

فالمدركة للصور تسمّى بالحسّ المشترك. والمدركة للمعاني تارةً تدرك المعاني الجزئيّة وتسمّى بالوهم، وأخرى تدرك المعاني الكلّية وتسمّى بالعقل.

والقوى المُعينة تنقسم إلى قسمين:

الأوّل: مُعينة بالحفظ فقط، وهي تارةً حافظة للصور فقط وتسمّى

الخيال، وأخرى حافظة للمعاني الجزئيّة وتسمّى الحافظة.

الثاني: معينة بالحفظ والتصرّف، وتسمّى بالمتصرّفة.

وعلى هذا فالحواسّ الباطنة عموماً هي:

الحسّ المشترك، الخيال، الوهم، الحافظة، العقل، المتصرّفة.

**الحسّ المشترك**: تعدّ هذه القوّة مصبّ مدركات الحواسّ الظاهرة كلّها، وهي كالجداول المتّصلة به تؤدّي إليه ما اقتنصته تلك الحواسّ من الخارج. ومن أهمّ خواصّها: أنّ الحسّ المشترك هو مظهر الاسم الإلهي «من لا يشغله شأنٌ عن شأن» فلا يشغله ما تدركه بعض الحواس عمّا تدركه بعضها الآخر، فهو يدرك الصور على تنوّعها واختلافها في عرْض واحد، وليس كذلك الحواسّ الأخرى حيث يشغلها شأن عن شأن، فلا تستطيع إدراك إلاّ ما يكون في مجال عملها، فالباصرة مثلاً لا تدرك المسموعات، والسامعة لا تدرك المشمومات، وهكذا العاقلة لا تدرك إلاّ الكلّيات، وهكذا.

**الخيال**: عُرّف الخيال بأنّه: «قوّة يحفظ بها الصورة الموجودة في الباطن» أي الصورة التي جاءت عبر الحسّ المشترك، فالخيال خزانة هذه القوّة يقي ويحفظ ما تقتنصه من صور.

وخير دليل على وجود الخيال كقوّة في النفس، هو إنّنا ربما أحسسنا صورة نتذكّر أنّها الصورة التي كنّا أحسسناها قبل ذلك بزمان، ولا يتأتّى الحكم بالعينيّة ـ أي عينيّة الصورة المتذكّرة للمحسوسة سابقاً ـ إلاّ مع انحفاظ الصورة في محلّ ثابت، وهو الخيال.

**الوهم والعقل**: ذهب المشهور إلى اعتبار الوهم قوّة مستقلّة غير العقل، بينما الحقّ أن يقال إنّه ليس كذلك، وإنّما هو عقل ساقط أو نازل أو مقيّد، فالعقل عندما يضاف إلى شخص جزئيّ يكون وهماً، وأمّا إذا تعلّق بأمر كلّي

فيكون عقلاً.

إذن فالقوّة هي القوّة لكن متعلّقها مختلف، فتارةً يكون جزئيّاً وأخرى كليّاً، ولا يصحّ الاستدلال باختلاف المتعلّقات على اختلاف ما تتعلّق به. فإذا أدركت هذه القوّة العداوة الكلّية فتسمّى عقلاً، وأمّا إذا أدركت العداوة الجزئيّة أي التي تضاف إلى جزئي كعداوة زيد فتكون وهماً أو عقلاً ساقطاً.

**الحافظة**: وهي التي تحفظ المعاني الجزئيّة المدرَكة بواسطة الوهم على رأي القوم، حيث يعتقدون بكونه قوّة مستقلّة، وأمّا على ما هو الحقّ الذي عرفته آنفاً فلا معنى لوجود مثل هذه القوّة بشكل مستقلّ أيضاً.

**المتصرّفة**: تقوم هذه الحاسّة الباطنة بدورين أساسيّين، هما الوصل والفصل، فهي تركّب من المدرَكات المختلفة صوراً ومعاني، كأن تنشئ صورة إنسان له أكثر من رأس أو يطير بجناحين مثلاً. وأمّا الفصل فما تفعله في القضايا السالبة حيث يتصوّر الربط بين محمولها وموضوعها أوّلاً ثمّ يسلب أحدهما عن الآخر ويفصله عنه ثانياً.

فإذا كانت هذه القوّة رهن استعمال العقل فهي المفكّرة، وأمّا إذا كانت كذلك بالنسبة للوهم فهي المتخيّلة[١].

قال حسن زاده الآملي: «القوّة الحافظة هي خزانة المعاني الجزئيّة تكسبها الواهمة وتخزنها فيها، كما أنّ الخيال خزانة الصورة يكسبها الحسّ المشترك وتخزنها فيه، والمتصرّفة جالسة بينهما ومتصرّفة فيهما بالتركيب والتفصيل في

---

(١) ينظر بحث القوى الظاهرة والباطنة في **بحوث في علم النفس الفلسفي**، تقريراً لدروس السيّد كمال الحيدري، بقلم: الشيخ عبدالله الأسعد، دار فراقد، ١٤٢٦هـ الطبعة الثالثة: ص٥٥.

الصور والمعاني، وكلّ ما من الحرف والصنائع والآثار العلميّة وغيرها يصدر من الإنسان، فهي أوّلاً يعمل ويصطنع في المتصرّفة، ثمّ على وزان ما صنع فيها يصدر في الخارج»(١).

## مخزن المعاني الكليّة

ذكر الحكماء في مباحث العقل والعاقل والمعقول أنّه كما توجد خزانة للصور التي في الحسّ المشترك تختزن فيها وتستحضرها النفس متى شاءت ذلك، كذلك توجد خزانة للمعاني الكلّية التي تدركها العاقلة، وقد سُمّيت هذه الخزانة في كلماتهم بالعقل الفعّال أو القوّة القدسيّة، وقد عُرّف في كلماتهم بتعاريف مختلفة، منها:

• «إنّها القوّة الإلهيّة التي يهتدي بها كلّ شيء في العالم العلوي والسفلي من الأفلاك والكواكب والجماد والحيوان غير الناطق والإنسان»(٢).

• وجاء في رسائل إخوان الصفا: «إنّ أوّل شيء اخترعه الله جلّ ثناؤه وأوجده، جوهر بسيط روحاني في غاية التمام والكمال والفضل، فيه صور جميع الأشياء يسمّى بالعقل الفعّال»(٣).

ومن أهمّ الأدلّة التي ذكروها لإثبات وجود مثل هذا الخازن، هو النسيان الذي يُصاب به الإنسان، حيث إنّ بعض المعقولات تُسترجع بعد غيبتها، فهي لا محالة في قوّة حفظتها إلى حين الحاجة إليها، وهناك

---

(١) **عيون مسائل النفس**، مصدر سابق، عين في الحواسّ الظاهرة والباطنة: ص٤٤٢.

(٢) **شرح المصطلحات الفلسفيّة**، إعداد قسم الكلام في مجمع البحوث الإسلاميّة، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ مؤسّسة الطبع والنشر في الآستانة الرضويّة المقدّسة: ص٢١٩.

(٣) **رسائل إخوان الصفا وخلاّن الوفاء**، مركز النشر، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٥هـ : ج٣ ص١٨٧.

معقولات لا تسترجع إلاّ بتعلّم جديد، فنسيان مثل هذه المعقولات يكشف عن وجود هذا الخازن.

ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ أهمّ سبب للنسيان بكلا شقّيه ـ أي نسيان المعلومات القابلة للاسترجاع، والمعلومات غير القابلة لذلك ـ هو الاشتغال بغيرها والغفلة الطويلة عنها بحيث يصعب الوصول إلى القابلة للاسترجاع، وبطبيعة الحال تزول غير القابلة فنحتاج للحصول عليها إلى مباشرة جهد جديد.

## القوّة القدسيّة هي روح القدس

إنّ ما اصطلح عليه بالقوّة القدسيّة عند الحكماء، هو ـ في الواقع ـ المصطلح عليه بروح القدس في الروايات، والشاهد على ذلك أنّنا عندما نتدبّر في هذه النصوص نجد أنّ كلّ الخصائص التي ذكرت للقوّة القدسيّة يشتمل عليها روح القدس. فمثلاً: القوّة القدسيّة كما تقدّم: جوهر بسيط روحاني، نور محض في غاية التمام والكمال والفضائل، وفيه صور جميع الأشياء، وإنّ أيّ علم لا يحصل للإنسان ـ أي إنسان ـ إلاّ بواسطته، فهو واسطة الفيض لكلّ ما هو دونه.

قال ابن سينا في المبدأ والمعاد: «لمّا كان كلّ ما يخرج من القوّة إلى الفعل يخرج بسبب مفيد له ذلك الفعل، وينتقش صورة في شمع عمّا ليس له تلك الصورة، ويفيد شيء كمالاً فوق الذي له، فيجب أن تخرج هذه القوّة إلى الفعل بشيء من العقول المفارقة المذكورة، إمّا كلّها وإمّا الأقرب إليها في المرتبة، وهو العقل الفعّال».

ثمّ بيّن أنّ وجه تسمية هذا العقل بالفعّال أنّ ذلك: «سبب فعله في أنفسنا وإخراجه إيّاها عن القوّة إلى الفعل. وقياس العقل الفعّال إلى أنفسنا

قياس الشمس إلى أبصارنا، وقياس ما يستفاد منه قياس الضوء المخرج للحسّ بالقوّة إلى الفعل والمحسوس بالقوّة إلى الفعل»[١].

وهذا ما نجده واضحاً في النصوص التي تقدّم الحديث عنها:

• أمّا أنّه أفضل ما خلق الله، فهذا ما ورد عن أبي بصير قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ قال: **خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، لم يكن مع أحد ممّن مضى غير محمّد صلّى الله عليه وآله، وهو مع الأئمّة يسدّدهم**»[٢].

• وكذلك أنّه مبدأ كلّ علم، ما ورد عن إبراهيم بن عمر قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أخبرني عن العلم الذي تعلمونه، أهو شيءٌ تعلمونه من أفواه الرجال بعضكم من بعض، أو شيء مكتوب عندكم من رسول الله صلّى الله عليه وآله؟ فقال: **الأمر أعظم من ذلك، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾؟** قال: قلت: بلى، قال: **فلمّا أعطاه الله تلك الروح علم بها، وكذلك هي إذا انتهت إلى علل علم بها العلم والفهم**»[٣].

• وعن المفضل بن عمر قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض، وهو في بيته مرخى عليه ستره.

فقال: **يا مفضّل إنّ الله تبارك وتعالى جعل للنبيّ صلّى الله عليه وآله خمسة أرواح: روح الحياة، فبه دبّ ودرج، وروح القوّة فيه نهض وجاهد، وروح**

---

(١) **المبدأ والمعاد**، للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبدالله بن سينا، باهتمام: عبد الله نوراني، الطبعة الأولى، طهران: ص٩٨.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٧٣، باب الروح التي يسدّد بها الأئمّة، الحديث: ٤.

(٣) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج٢٥ ص٦٢، كتاب الإمامة، باب الأرواح التي فيهم وأنّهم مؤيّدون بروح القدس، الحديث: ٤٠.

**الشهوة فيه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه أمر وعدل، وروح القدس فبه حمل النبوّة، فإذا قبض النبيّ صلّى الله عليه وآله انتقل روح القدس فصار إلى الإمام.**

**وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يسهو، والأربعة الأرواح تنام وتلهو وتغفل وتسهو، وروح القدس ثابت يرى به ما في شرق الأرض وغربها وبرّها وبحرها»**[(١)].

وهذا ما صرّح به جملة من الأعلام:

قال الشعراني في شرحه على أصول الكافي: «وأمّا روح القدس التي اختصّ بها الأولياء والأنبياء فيسمّى في اصطلاح المتأخّرين القوّة القدسيّة»[(٢)].

وقال المازندراني: «وروح القدس باعتبار اتّصافها بالقوّة القدسيّة التي تتجلّى فيها لوايح الغيب وأسرار الملكوت المختصّة بالأنبياء والأوصياء، وهم بسببها عرفوا الأشياء كلّها كما هي وصاروا من أهل التعليم والإرشاد»[(٣)].

## أنحاء الارتباط بالقوّة القدسيّة

يختلف الناس في أنحاء الارتباط بهذه القوّة القدسيّة، وذلك بسبب اختلاف استعداداتهم؛ قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد: ١٧)، فكلّما كان الاستعداد أقوى كان الارتباط والاتّحاد بالعقل أشدّ وأرسخ، وكلّما كان كذلك كان خروج الإنسان من القوّة إلى الفعل أسرع، فتكون شريفة بمستوى ما لها من الارتباط، إلى أن تصل إلى مرتبة تكون

---

(١) المصدر السابق: ج٢٥ ص٥٨، الحديث: ٢٥.

(٢) **شرح جامع لأصول الكافي**، مصدر سابق: ج٦ ص٦٢، الحاشية: ٢.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٦٣.

تلك القوّة القدسيّة قوّة من قوى الإنسان كما في قواه الأخرى. وهذا ما صرّحت به نصوص كثيرة بالنسبة إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة من أهل بيته عليهم السلام.

• عن ابن بكير عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ فقال أبو جعفر: «**منذ أنزل الله ذلك الروح على نبيّه صلّى الله عليه وآله ما صعد إلى السماء، وإنّه لفينا**»(١).

• عن أسباط بن سالم قال: «كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام فدخل عليه رجل من أهل هيت فقال: أصلحك الله، قول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، قال عليه السلام: **ذلك فينا منذ أهبطه الله إلى الأرض، وما يعرج إلى السماء**»(٢).

• عن محمّد الحلبي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى أحدٌ صمدٌ، والصمد الشيء الذي ليس له جوف، وإنّما الروح خلقٌ من خلقه له بصرٌ وقوّة وتأييد، يجعله الله في قلوب الرُّسل والمؤمنين**»(٣).

فهذه النصوص وغيرها كثير تشير إلى حقيقة واضحة، وهي أنّ هذه الأرواح الخمس ومنها روح القدس، ليست متعدّدة متمائزة بعضها من بعض ـ كما لعلّه قد يوهم التعبير «أنّها معهم» ـ بل هي مراتب حقيقة واحدة ممتدّة من هذه النشأة العنصريّة إلى ذروة العرش.

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج٢٥ ص٦١، كتاب الإمامة، باب الروح التي فيهم، الحديث: ٣٧.

(٢) المصدر السابق: ج٢٥ ص٦٢، الحديث: ٣٨.

(٣) المصدر السابق: ج٢٥ ص٧٠، الحديث: ٥٧.

وهذا ما أشار إليه جملة من أعلام المسلمين تصريحاً وتلويحاً:

قال الطباطبائي: «إنّ هذه الروح ـ أي روح القدس ـ ليست مغايرة للروح الإنساني بالعدد، بل إنّما هي مغايرة لها بحسب المرتبة، كما وقع نظيره في الرواية، حيث عدّ روح الحركة مغايرة لروح الشهوة، مع أنّ المغايرة بينهما إنّما هي بحسب المرتبة دون العدد»[1].

وقال الرازي: «الاستعداد يتفاوت في الناس، فربّ إنسان لو أكبّ طول عمره على تعلّم مسألة تعذّر عليه ذلك وانصرف عنه بدون مطلوبه، وربّ إنسان يكون بالعكس حتّى أنّه لو التفت ذهنه إليه أدنى لفتة حصل له ذلك. ولما رأينا أنّ الدرجات فيه متفاوتة والمراتب مختلفة بالقوّة والضعف والأقلّ والأكثر، فلا يبعد وجود نفس بالغة إلى الدرجة القصوى في القوّة وسرعة الاستعداد لإدراك الحقائق، حتّى كان ذلك الإنسان يحيط علماً بحقائق الأشياء من غير طلب منه وشوق، بل ذهنه ينساق إلى النتائج من غير مزوالة منه لذلك، ثمّ من تلك النتائج إلى غيرها حتّى يحيط بغايات المطالب الإنسانيّة ونهايات الدرجات البشريّة، وتلك القوّة تسمّى قدسيّة.

ومخالفتها ـ أي من يملك القوّة القدسيّة ـ لسائر النفوس بالكم والكيف.

أمّا الكمّ فلأنّها أكثر استحضاراً للحدود الوسطى، وأمّا الكيف فلأنّها أسرع انتقالاً من المبادئ إلى الثواني ومن المقدّمات إلى النتائج. ويخالف سائر النفوس من جهة أخرى، وهي أنّ سائر النفوس تعيّن المطالب ثمّ تطلب الحدود الوسطى المنتجة لها، وأمّا النفوس القدسيّة فيقع الحدّ الأوسط في ذهنها ويتأدّى الذهن منه إلى النتيجة المطلوبة، فيكون الشعور بالحدّ

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص٦٧٦، آخر كتاب العشرة.

الأوسط مقدّماً على الشعور بالمطلوب»[١].

بعد أن اتّضحت هذه المقدّمة ـ وإن طالت قليلاً ـ نقول: إنّه لا منافاة بين النصوص التي دلّت بشكل واضح أنّ الإمام يعلم كلّ شيء بالفعل، وبين الروايات التي قيل إنّها تدلّ على أنّ علمهم بالقوّة، وذلك لأنّ كون علمهم بالفعل بمعنى أنّهم عالمون بالفعل لا ينافي أنّهم إن شاءوا علموا، لما بيّناه أنّ هذه العلوم والمعارف جميعاً إنّما هي موجودة فيهم ومعهم، إن شاءوا استحضروا ما يعلمونه وإن لم يشاءوا لم يفعلوا، كما هو الحال في قوّة الخيال لدى الإنسان، فإنّ علمه بالشيء المعيّن موجود عنده بالفعل، فإذا أراد أن يستحضر صورة معيّنة من خزائنه فعل وإن لم يرد لم يستحضر.

وعلى هذا الأساس فلا منافاة بين أن يكون الإنسان عالماً بشيء بالفعل، ومع ذلك يمكنه أن لا يتوجّه إليه، ولو شاء أن يحضره من خزائنه فهو قادرٌ على ذلك.

فإن قيل: هناك بعض الروايات عبّرت «**أعلمه الله ذلك**» كما في رواية أبي عبيدة المدائني عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك**» وهو لا يتلاءم مع دعوى أنّ علمهم عليهم السلام بالفعل وليس بالقوّة.

قلنا: إنّ هذه الصيغة وما يشابهها ليست بصدد بيان أنّ علم الإمام ليس بالفعل، وإنّما هي في مقام بيان أنّ كلّ ما عند أهل البيت عليهم السلام من علم فهو من الله تعالى، من قبيل ما ورد في مسألة العلم بالغيب:

• عن معمّر بن خلاّد قال: سأل أبا الحسن عليه السلام رجلٌ من فارس فقال له: أتعلمون الغيب؟ فقال: «**يبسط لنا العلم فنعلم ويقبض عنّا فلا**

---

(١) **المباحث المشرقيّة في علم الإلهيّات والطبيعيّات**، مصدر سابق: ج١ ص٣٥٣.

**نعلم**»[١].

• عن عمّار الساباطي قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الإمام يعلم الغيب؟ فقال: «**لا، ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك**»[٢].

فإنّ هذه النصوص ليست بصدد نفي العلم بالغيب عنهم عليهم السلام، وإنّما هي في مقام بيان أنّهم لا يعلمون ذلك من أنفسهم بغير تعليمه تعالى بوحي أو إلهام. لذا قال الشعراني: «إنّ المراد من نفي علم الغيب عن الأئمّة والأنبياء، هو نفي العلم ذاتاً بغير تعليم من الله تعالى، ومن أثبت فمراده علمهم بالتعليم والإلهام، وهذا ثابت لجميع أفراد الإنسان، ويختلف بحسب اختلاف النفوس كمالاً ونقصاً، وقلّةً وكثرة، ووضوحاً وإبهاماً، وإجمالاً وتفصيلاً، وتصريحاً وتمثيلاً، ويقظةً ونوماً وغير ذلك. والأئمّة والأنبياء عليهم السلام كانوا يعلمون ما يعلمون بتعليم الله تعالى وإلهامه»[٣].

وأوضح المازندراني القبض والبسط في هذه النصوص بقوله: «فبسطهم عبارة عن حصول الصور الكاينة عند نفوسهم القادسة بالفعل، فهم يعلمونها، وقبضهم عبارة عن عدم حصولها لهم بالفعل وإن كانت في الخزانة بحيث يحصل لهم لمجرّد توجّه النفس، وهم يسمّون هذه الحالة عدم العلم، ويؤيّده ما ورد في النصوص الدالّة على أنّ الإمام إذا شاء أن يعلم علم»[٤].

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٥٦، باب نادر فيه ذكر الغيب، الحديث: ١.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٥٧، الحديث: ٤.

(٣) **شرح أصول الكافي**، المازندراني، مصدر سابق: ج٦ ص٢٧، تعليقة الشعراني رقم: ١.

(٤) المصدر السابق: ج٦ ص٢٨.

## خلاصة ما تقدّم

١ ـ إنّ علم أهل البيت عليهم السلام بالفعل لا بالقوّة لظهور الروايات في ذلك.

٢ ـ إنّ ما ورد في بعض الروايات «**إن شاءوا علموا**» التي استظهر منها أنّ علم الإمام بالقوّة لا بالفعل، لا دلالة فيها على ذلك؛ لما يلي:

• إنّها ضعيفة السند.

• إنّها آحاد لا تقاوم ما استفاض بل تواتر من الروايات الظاهرة في فعليّة علم الإمام بالمعنى المناسب لذلك.

• لا دلالة فيها على أنّ علم الإمام بالقوّة، إذ إنّها بصدد الإشارة إلى أنّ الإمام إذا أراد أن يعلم شيئاً، يكفيه أن يتوجّه إلى قوته القدسية من غير تجشّم كسب وتمهيد مقدّمات.

# الفصل التاسع

# بيان معنى

# أنّ في أحاديث أهل البيت صعب مستصعب

من الحقائق التي تعرضت لها مجموعة كبيرة من الروايات وأولتها عناية فائقة، ما جاء في وصف بعض أحاديث أهل البيت بالصعب المستصعب الذي لا يحتمله إلاّ مَلَكٌ مقرّب أو نبيٌّ مرسل أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان، بل في بعضها أنّه لا يحتمله لا ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا مؤمنٌ امتحن الله قلبه للإيمان. وهذه حقيقة مهمّة ينبغي تسليط الضوء عليها وبيان المراد منها، لأنّ لها ارتباطاً وثيقاً بمستوى المعارف والحقائق التي يتوفّر عليها أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

من هنا سوف نعرض لذلك من خلال المباحث التالية:

## المبحث الأوّل: أقسام المعارف التي يتوفّر عليها أهل البيت

تعرضت نصوص متعدّدة لأقسام المعارف والحقائق التي يتوفّر عليها أئمّة أهل البيت عليهم السلام، منها ما ورد عن صفوان بن يحيى عن عبد الله بن مسكان عن محمّد بن عبد الخالق عن أبي بصير قال:

«قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **يا أبا محمّد إنّ عندنا ـ والله ـ سرّاً من سرّ الله، وعلماً من علم الله، والله ما يحتمله ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، والله ما كلّف الله ذلك أحداً غيرنا ولا استعبد بذلك أحداً غيرنا. وإنّ عندنا سرّاً من سرّ الله وعلماً من علم الله، أمرنا الله بتبليغه، فبلّغنا عن الله عزّ وجلّ ما أمرنا بتبليغه، فلم نجد له موضعاً ولا أهلاً ولا حمّالة يحتملونه حتّى خلق الله لذلك أقواماً، خلقوا من طينة خُلق منها**

**محمّد وآله وذرّيته عليهم السلام، ومن نور خَلَق الله منه محمّداً وذرّيته، وصنعهم بفضل صنع رحمته التي صنع منها محمّداً وذرّيته. فبلّغنا عن الله ما أمرنا بتبليغه، فقبلوه واحتملوا ذلك، وبلغهم ذكرنا فمالت قلوبهم إلى معرفتنا وحديثنا، فلولا أنّهم خلقوا من هذا لما كانوا كذلك، لا والله ما احتملوه.**

ثمّ قال: **إنّ الله خلق أقواماً لجهنّم والنار، فأمرنا أن نبلّغهم كما بلّغناهم، واشمأزوّا من ذلك ونفرت قلوبهم وردّوه علينا ولم يحتملوه وكذّبوا به»**[1].

هذا النصّ يكشف بشكل واضح أنّ المعارف والحقائق التي يتوفّرون عليها تنقسم إلى قسمين: قسم يختصّ بهم عليهم السلام، ولذا لم يأمروا بإخراجه إلى الناس، وقسم لا يختصّ بهم بل هم مأمورون بتبليغه إلى الخلق، والناس بإزاء ذلك بين من قبِله منهم وبين من رفض ونفرَ منه.

من هنا سنحاول الوقوف على هذه الأقسام:

## القسم الأوّل: المعارف التي لا يحتملها إلاّ شيعتهم

بيّنت مجموعة من الروايات أنّ من معارفهم ومقاماتهم عند الله ما لا يحتمله إلاّ شيعتهم ومموالوهم، كما هو الحال في أنّهم عليهم السلام أوصياء رسول الله صلّى الله عليه وآله وخلفاؤه حقّاً، وأنّهم معصومون، وأنّهم منصوبون من قبل الله تعالى أئمّةً وقادةً للأمّة، وأنّ الأرض لا تخلو من حجّة لله تعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وغيرها من الأصول التي تقوم عليها مدرسة أهل البيت العقائدية.

وهذا ما صرّحت به عدد من النصوص في هذا المجال، منها:

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٤٠٢، كتاب الحجّة، باب فيما جاء أنّ حديثهم صعبٌ مستصعب، الحديث: ٥.

• عن ابن سنان أو غيره رفعه إلى أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ حديثنا صعبٌ مستصعب، لا يحتمله إلاّ صدور منيرة أو قلوب سليمة وأخلاق حسنة، إنّ الله أخذ من شيعتنا الميثاق كما أخذ على بني آدم، حيث يقول عزّ وجلّ:** ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، **فمَن وفّى لنا وفّى الله له بالجنّة، ومن أبغضنا ولم يؤدِّ إلينا حقّنا ففي النار خالداً مخلّداً**»(١).

من هنا أكّدت الروايات الواردة في أخذ الميثاق، أنّ الله تعالى أخذ على بني آدم الطاعة للأنبياء والأوصياء، منها:

عن الأصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام قال: «أتاه ابن الكوّاء فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الله تبارك وتعالى، هل كلّم أحداً من ولد آدم قبل موسى؟

فقال عليّ: **قد كلّم الله جميع خلقه برّهم وفاجرهم، وردّوا عليه الجواب.**

فثقل ذلك على ابن الكوّاء ولم يعرفه، فقال له: كيف كان ذلك يا أمير المؤمنين؟

فقال له: «**أوَ ما تقرأ كتاب الله إذ يقول لنبيّه:** ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ **فقد أسمعهم كلامه وردّوا عليه الجواب، كما تسمع في قول الله يابن الكوّاء:** ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ **فقال لهم: إنّني أنا الله لا إله إلاّ أنا، وأنا الرحمن الرحيم، فأقرّوا له بالطاعة والربوبيّة، وميّز الرّسل والأنبياء والأوصياء وأمر الخلق بطاعتهم، فأقرّوا**

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٧٠، باب في أئمّة آل محمّد وأنّ حديثهم صعبٌ مستصعب، الحديث: ١٠٤.

**بذلك في الميثاق، فقالت الملائكة عند إقرارهم بذلك، ﴿شَهِدْنَا﴾ عليكم يا بني آدم ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾»**[1].

• عن يحيى بن سالم الفرّاء قال: «كان رجل من أهل الشام يخدم أبا عبد الله الصادق عليه السلام فرجع إلى أهله، فقالوا له: كيف كنت تخدم أهل هذا البيت؟ فهل أصبت منهم علماً؟ قال: فندم الرجل، فكتب إلى أبي عبد الله عليه السلام يسأله عن علم ينتفع به.

فكتب إليه أبو عبد الله عليه السلام: **أمّا بعد، فإنّ حديثنا حديث هَيوب ذعور، فإن كنت ترى أنّك تحتمله فاكتب إلينا، والسلام**»[2].

• عن سليمان بن صالح رفعه إلى أبي جعفر عليه السلام: «**إنّ حديثنا هذا تشمئزّ منه قلوب الرجال، فمن أقرّ به فزيدوه، ومَن أنكر فذَروه، إنّه لابدّ من أن تكون فتنة يسقط فيها كلّ بطانة ووليجة، حتّى يسقط فيها من كان يشقّ الشعر بشعرتين، حتّى لا يبقى إلاّ نحن وشيعتنا**»[3].

• عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ أمرنا صعبٌ مستصعب لا يحتمله إلاّ من كتب الله في قلبه الإيمان**»[4].

## القسم الثاني: الحقائق والمعارف التي لا يحتملها إلاّ خواص شيعتهم

في مقابل القسم الأوّل من النصوص هناك طائفةٌ أخرى، تبيّن أنّ معارفهم التي أُمروا بتبليغها وإيصالها إلى الناس، ما لا يحتمله إلاّ ملكٌ مقرّب أو نبيٌّ مُرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وهذه النصوص

(١) **تفسير العيّاشي**، مصدر سابق: ج٢ ص١٧٥، الحديث: ١٦٥٩.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٦٧، الحديث: ٩٩.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٦٧، الحديث: ١٠٠.

(٤) **بصائر الدرجات**: ج١ ص٧٣، تتمّة باب أنّ أمرهم صعبٌ مستصعب، الحديث: ١٠٩.

الواردة بهذا المضمون كثيرة جدّاً نقتصر على إضمامة منها:

• عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «سمعته يقول: **إنّ حديثنا صعبٌ مستصعب، خشن مخشوش، فانبذوا إلى الناس نبذاً، فمن عرف فزيدوه، ومَن أنكر فامسكوا، لا يحتمله إلاّ ثلاث: ملكٌ مقرّب، أو نبيٌّ مرسل، أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان»**(١) .

• عن أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «سمعته يقول: **إنّ حديث آل محمّد صعبٌ مستصعب، ثقيل، مقنّع، أجرد، ذكوان، لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب أو نبيٌّ مرسل أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان، أو مدينة حصينة، فإذا قام قائمنا نطق وصدّقه القرآن»**(٢) .

• عن إبراهيم بن أبي البلاد عن سدير قال: «سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول أمير المؤمنين عليه السلام: **إنّ أمرنا صعب مستصعب لا يقرُّ به إلاّ ملك مقرّب، أو نبيٌّ مرسل، أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان.**

فقال عليه السلام: **إنّ من الملائكة مقرّبين وغير مقرّبين، ومن الأنبياء مرسلين وغير مرسلين، ومن المؤمنين ممتحَنين وغير ممتحنين، فعرض أمركم هذا على الملائكة فلم يقرّ به إلاّ المقرّبون، وعرض على الأنبياء فلم يقرّ به إلاّ المرسلون، وعرض على المؤمنين فلم يقرّ به إلاّ الممتحنون»**(٣) .

• عن أبي الربيع الشامي قال: «كنت عند أبي جعفر عليه السلام جالساً فرأيت أنّه قد قام فرفع رأسه وهو يقول: **يا أبا الربيع حديث تمضغه الشيعة**

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٦٤، الحديث: ٩٠.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٦٣، الحديث: ٨٨ .

(٣) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج٢ ص١٨٥، كتاب العلم، باب أنّ حديثهم صعب مستصعب، الحديث: ٧.

**بألسنتها لا تدري ما كنهه؟** قلت: ما هو؟ قال: **قول علي بن أبي طالب عليه السلام: إنّ أمرنا صعبٌ مستصعب لا يحتمله إلاّ ملكٌ مقرّب أو نبيٌّ مرسل أو عبدٌ مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان.**

**يا أبا الربيع ألا ترى أنّه يكون ملك ولا يكون مقرَّباً، ولا يحتمله إلاّ مقرّب، وقد يكون نبيّ وليس بمرسل، فلا يحتمله إلاّ مرسَل، وقد يكون مؤمن وليس بممتحَن، فلا يحتمله إلاّ مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان»**[(١)].

هذه النصوص واضحة الدلالة في أنّها تتكلّم عن سنخ من المعارف والحقائق تختلف عن تلك التي تحدّثت عنها الطائفة الأولى من الروايات، وهي التي لا يمكن أن يحتملها ويتقبّلها إلاّ الخواصّ من شيعة أهل البيت عليهم السلام.

والشاهد على ذلك:

**أوّلاً**: إنّ بعض النصوص تحدّثت أنّ أمثال أبي ذر لا يحتملها، فكيف بعموم أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، كالنصّ الوارد عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ذكرت التقيّة يوماً عند عليّ بن الحسين عليهما السلام، فقال: «**والله لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله، ولقد آخى رسول الله صلّى الله عليه وآله بينهما، فما ظنّكم بسائر الخلق، إنّ علم العلماء صعبٌ مستصعب، لا يحتمله إلاّ نبيّ مرسل أو مَلَكٌ مقرّب أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان»**[(٢)].

---

(١) **الخرائج والجرائح**، للفقيه المحدّث والمفسّر الكبير قطب الدِّين الراوندي، في أعلام النبيّ والأئمّة عليهم السلام، مؤسّسة الإمام المهدي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ: ج٢ ص٧٩٤، الباب السادس عشر في نوادر المعجزات.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٤٠١، باب ما جاء أنّ حديثهم صعب مستصعب، الحديث: ٢.

**ثانياً**: إنّها بيّنت أنّ هذه المعارف لا يحتملها إلاّ المؤمن الممتحن لا مطلق المؤمن، لذا قالت: «**وعرض على المؤمنين فلم يقرّ به إلاّ الممتحنون**» وسيأتي لاحقاً خصائص المؤمن الذي امتحن الله قلبه للإيمان.

**ثالثاً**: إنّها جعلت المؤمن الذي يحتمل هذه المعارف في عَرْض النبيّ المرسل والملك المقرّب، ومن الواضح أنّه لا يمكن أن يكون المراد به مطلق المؤمن الموالي لأهل البيت عليهم السلام.

## خصائص المعارف في القسم الثاني

لكي نقف على خصائص المعارف والحقائق التي ذكرت في القسم الثاني، لابدّ من التوفّر على الأوصاف التي ذكرت في هذه النصوص لها:

• **صعب مستصعب**: هذان الوصفان يشتركان في الأصل اللغوي، والمراد بالصعب لغةً: «نقيض الذلول، يقال: صعُب الشيء ـ بضمّ الثاني ـ صعوباً: صار صعباً شاقّاً»[1].

والمراد بهما هنا ما ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**أمّا الصعب: فهو الذي لم يركب بعد، وأمّا المستصعب: فهو الذي يهرب منه إذا رئي**»[2]، وهذا كناية عن صعوبة فهم وإدراك وقبول بعض معارفهم ومقاماتهم عليهم السلام.

• **خش مخشوش**: من الأوصاف الأخرى التي ذكرت لهذه المعارف أيضاً قولهم: «خش مخشوش». قال المجلسي: «الخشاش بالكسر، ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب، فالبعير الذي فعل به ذلك مخشوش. وهذا

---

(١) **مجمع البحرين**: ج٢ ص١٠٠ مادّة «صعب».

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج٢ ص١٩٤، الحديث: ٣٩.

الوصف أيضاً لبيان صعوبته بأنّه يحتاج في انقياده إلى الخشاش»(١).

• **ذكوان، أجرد، مقنّع**: وهذه أوصاف أخرى لهذه المعارف، والمراد بها كما جاء في عدد من النصوص، عن إسماعيل بن عبد العزيز قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **حديثنا صعب مستصعب**، قال قلت: فسِّر لي جعلت فداك. قال: **ذكوان ذكي أبداً**.

قلت: أجرد؟ قال: **طريّ أبداً**.

قلت: مقنّع؟ قال: **مستور**»(٢).

وعلّق المجلسي على ذلك بقوله: «الذكاء: التوقّد والالتهاب، أي: ينوّر الخلق دائماً. والأجرد: الذي لا شعر على بدنه، ومثل هذا يكون طريّاً حسناً، فاستعير للطراوة والحسن»(٣).

وفي نصّ آخر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**وأمّا الذكوان فهو ذكاء المؤمنين، وأمّا الأجرد فهو الذي لا يتعلّق به شيء من بين يديه ولا من خلفه، وهو قول الله**: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ **فأحسن الحديث حديثنا، لا يحتمل أحد من الخلائق أمره بكماله...**»(٤).

## المراد من «الاحتمال» في قولهم «لا يحتمله»

أُطلق «الاحتمال» في النصوص الواردة في هذا المجال وأُريد به معاني متعدّدة:

**الأوّل**: يُراد به التسليم والانقياد لما عليه أهل البيت من مقامات

(١) المصدر السابق: ج٢ ص١٩٣.
(٢) المصدر السابق: ج٢ ص١٩١.
(٣) المصدر السابق: ج٢ ص١٩٢.
(٤) المصدر السابق: ج٢ ص١٩٤.

ودرجات وإن لم يقفوا على حقيقتها وتفاصيلها. وهذا ما نصّت عليه عدد من الروايات، منها:

• عن ابن عيسى بإسناده إلى المفضّل قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**ما جاءكم منّا ممّا يجوز أن يكون في المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردّوه إلينا، وما جاءكم عنّا ممّا لا يجوز أن يكون في المخلوقين فاجحدوه ولا تردّوه إلينا**»(١).

• عن يحيى بن زكريا عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: «**من سرّه أن يستكمل الإيمان فليقل: القول منّي في جميع الأشياء قول آل محمّد عليهم السلام فيما أسرّوا وفيما أعلنوا وفيما بلغني وفيما لم يبلغني**»(٢).

ومن الواضح أنّ هذا المعنى غير مراد في النصوص التي تكلّمت عن أنّ من أحاديثهم ما لا يحتمله ملك مقرّب أو نبيٌّ مرسل أو مؤمن ممتحن، وذلك لأنّ جملة من النصوص ـ التي سيأتي الحديث عنها ـ بيّنت أنّ عدم التسليم والانقياد لهم قد يؤدّي إلى الخروج من ولايتهم ودينهم، وهذا ممّا لا يمكن تطبيقه على هذه الطوائف الثلاث.

**الثاني**: أن يراد به الفقه والفهم، والشاهد عليه ما ورد عن أبي الصامت قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: **إنّ حديثنا صعب مستصعب، شريف، كريم، ذكوان ذكي وعر، لا يحتمله ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا مؤمن مُمتحن**» قلت: فمن يحتمله جُعلت فداك؟ قال: **من شئنا يا أبا الصامت**»(٣).

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج٢٥ ص٣٦٤، كتاب الإمامة، باب غرائب أفعالهم وأحوالهم ووجوب التسليم لهم في جميع ذلك، الحديث: ١.

(٢) المصدر السابق: ج٢٥ ص٣٦٤، الحديث: ٢.

(٣) **بحار الأنوار**: ج٢ ص١٩٢، كتاب العلم، الحديث: ٣٤.

قال الأحسائي في شرحه لزيارة الجامعة الكبيرة: «فليس المراد بنفي الاحتمال إلاّ عدم العلم والفهم، ويؤيّده ما في قولهم عليهم السلام: **نحن نحتمله**. لأنّ المراد من احتمالهم لعلمهم فهمهم له»[1].

من هنا جاء التأكيد في نصوص كثيرة أنّ منازل شيعتهم على قدر معرفتهم.

• عن زيد الزرّاد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**يا بنيّ اعرف منازل الشيعة على قدر روايتهم ومعرفتهم، فإنّ المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدرايات للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان، إنّي نظرت في كتاب لعليّ عليه السلام، فوجدت في الكتاب: إنّ قيمة كلّ امرئ وقدره معرفته، إنّ الله تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر ما آتاهم من العقول في دار الدُّنيا**»[2].

• عن ابن أبي عمير عن إبراهيم الكرخي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**حديث تدريه خيرٌ من ألف ترويه، ولا يكون الرجل منكم فقيهاً حتّى يعرف معاريض كلامنا**»[3].

• عن المفضّل قال: «قال أبو عبد الله الصادق: **خبرٌ تدريه خيرٌ من عشرة ترويه** (وفي نسخة من ألف عشرة) **إنّ لكلّ حقيقة حقّاً ولكلّ صواب نوراً**، ثمّ قال: **إنّا والله لا نعدّ الرجل من شيعتنا فقيهاً حتّى يلحن له فيعرف اللحن**»[4].

---

(١) **شرح الزيارة الجامعة الكبيرة**، من مصنّفات الشيخ الأجلّ الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الاحسائي، الطبعة الرابعة، طبعت بمطبعة السعادة ـ كرمان: ج٣ ص٣٦.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج٢ ص١٨٤، كتاب العلم، باب أنّ حديثهم صعب مستصعب، الحديث: ٤.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص١٨٤، الحديث: ٥.

(٤) المصدر السابق: ج٢ ص٢٠٨، الحديث: ١٠١.

**الثالث**: أن يراد به الكتمان وحفظ السرّ وعدم إذاعة هذه المقامات، فيكون معنى قولهم «**لا يحتمله**» أي لا يستطيعون كتمانها وحفظها وعدم إذاعتها، ويدلّ على ذلك نصوص كثيرة في هذا المجال، منها:

• عن محمّد بن أحمد عن بعض أصحابنا، قال: «كتبت إلى أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام: جُعلت فداك ـ ما معنى قول الصادق عليه السلام: **حديثنا لا يحتمله ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان**؟ فجاء الجواب: **إنّما معنى قول الصادق عليه السلام أي لا يحتمله ملك ولا نبيّ ولا مؤمن، إنّ الملك لا يحتمله حتّى يخرجه إلى ملك غيره، والنبيّ لا يحتمله حتّى يخرجه إلى نبيٍّ غيره، والمؤمن لا يحتمله حتّى يخرجه إلى مؤمن غيره، فهذا معنى قول جدّي عليه السلام**»[1].

• عن عبد الأعلى بن أعين قال: «قال أبو عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: **إنّ احتمال أمرنا ليس هو التصديق به والقبول له فقط، إنّ من احتمال أمرنا ستره وصيانته عن غير أهله، فاقرئهم السلام ورحمة الله** ـ يعني الشيعة ـ **وقل لهم: يقول لكم: رحم الله عبداً اجترّ مودّة الناس إليَّ وإلى نفسه، يُحدّثهم بما يعرفون، ويستر عنهم ما ينكرون**»[2].

• عن حفص بن شبيب قال: «دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام أيّام قتل المعلّى بن خُنيس مولاه فقال لي: **يا حفص حدّثت المعلّى بأشياء فأذاعها فابتُلي بالحديد، إنّي قلت له: إنّ لنا حديثاً مَن حفظه علينا حفظه**

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٤٠١، كتاب الحجّة، باب فيما جاء أنّ حديثهم صعب مستصعب، الحديث: ٤.

(٢) **كتاب الغيبة**، لمؤلّفه: الشيخ الأجلّ محمّد بن إبراهيم النعماني، من أعلام القرن الرابع، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مكتبة الصدوق: الباب الأوّل، ما روي في صون سرّ آل محمّد عمّن ليس من أهله، الحديث ٥، ص٣٥.

**الله وحفظ عليه دينه ودنياه، ومَن أذاعه علينا سلبه دينه ودنياه.**

**يا معلّى إنّه من كتم الصعب من حديثنا جعله الله نوراً بين عينيه ورزقه العزّ في الناس، ومَن أذاع الصعب من حديثنا لم يمُت حتّى يعضّه السلاح...**»[1].

## خصائص المؤمن الممتحن

لكي نقف على خصائص المؤمن الممتحن الذي صرّحت الروايات أنّه يحتمل من معارفهم وعلومهم ما لا يحتمله غيره، لابدّ من الإجابة عن هذا التساؤل، أللإيمان درجة واحدة أم له درجات متفاوتة؟

في مقام الإجابة نقول: استفاضت النصوص الواردة في هذا المجال في أنّ الإيمان له درجات متعدّدة، نشير إلى بعضها:

• عن حمّاد بن عمرو النصيبي قال: «سأل رجلٌ العالم عليه السلام فقال: أيّها العالم أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال: **ما لا يقبل عمل إلاّ به.** فقال: وما ذلك؟ قال: **الإيمان بالله الذي هو أعلى الأعمال درجةً وأسناها حظّاً وأشرفها منزلةً.**

قلت: أخبرني عن الإيمان، أقولٌ وعمل أم قولٌ بلا عمل؟

قال: **الإيمان عملٌ كلّه، والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله بيّنه في كتابه، واضحٌ نوره، ثابتةٌ حجّته، يشهد به الكتاب ويدعو إليه.**

قلت: صِف لي ذلك حتّى أفهمه.

فقال: **إنّ الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التامّ المنتهي تمامه، ومنه الناقص المنتهي نقصانه، ومنه الزائد الراجح زيادته.**

---

(١) المصدر السابق: ص٣٨، الحديث: ١٢.

قلت: وإنّ الإيمان ليتمّ ويزيد وينقص؟

قال: **نعم**»[١].

• عن القاسم بن بريد قال: «حدّثنا أبو عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قلت له: إنّ للإيمان درجات ومنازل، يتفاضل المؤمنون فيها عند الله؟ قال: نعم.

قلت: صِف لي ـ رحمك الله ـ حتّى أفهمه.

قال: **إنّ الله سبّق بين المؤمنين كما يسبّق بين الخيل يوم الرِّهان، ثمّ فضّلهم على درجاتهم في السبق إليه، فجعل كلّ امرئ منهم على درجة سبقه، ولا ينقصه فيها من حقّه، ولا يتقدّم مسبوق سابقاً ولا مفضول فاضلاً، تفاضل بذلك أوائل هذه الأمّة وأواخرها، ولو لم يكن للسابق إلى الإيمان فضل على المسبوق، إذاً للحق آخر هذه الأمّة أوّلها، نعم ولتقدّموهم إذا لم يكن لمن سبق إلى الإيمان الفضل على من أبطأ عنه، ولكن بدرجات الإيمان قدّم الله السابقين، وبالإبطاء عن الإيمان أخّر الله المقصّرين**»[٢].

• عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**يا عبد العزيز إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السلّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة**»[٣].

إذا اتّضحت هذه الحقيقة نأتي إلى ما ذكرته النصوص بالنسبة إلى المؤمن الممتحن وما يشتمل عليه من درجات الإيمان:

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٨، كتاب الإيمان والكفر، باب في أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها، الحديث: ٧.

(٢) المصدر نفسه: ج٢ ص٤٠، باب السبق إلى الإيمان، الحديث: ١.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٥، كتاب الإيمان والكفر، باب آخر منه، الحديث: ٢.

• عن عمّار بن أبي الأحوص عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم، على البرّ والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثمّ قسّم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل...**»[1].

• عن سماعة بن مهران قال: «كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام وعنده جماعة من مواليه، فجرى ذكر العقل والجهل.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: **اعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده تهتدوا.**

قال سماعة: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلاّ ما عرّفتنا.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: **إنّ الله عزّ وجلّ خلق العقل، وهو أوّل خلْق من الروحانيّين عن يمين العرش من نوره، فقال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال له: أقبل فأقبل، فقال الله تبارك وتعالى: خلقتك خلْقاً عظيماً وكرّمتك على جميع خلقي.**

قال: **ثمّ خلق الجهل من البحر الأُجاج ظلمانيّاً، فقال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال له: أقبل فلم يقبل، فقال له: استكبرت فلعنه.**

**ثمّ جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً. فلمّا رأى الجهل ما أكرم الله به العقل وما أعطاه، أضمر له العداوة فقال الجهل: ياربّ هذا خلق مثلي خلقته وكرّمته وقوّيته، وأنا ضدّه ولا قوّة لي به، فأعطني من الجند مثل ما أعطيته، فقال: نعم، فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك من رحمتي، قال: قد رضيت، فأعطاه خمسة وسبعين جنداً، فكان ممّا أعطى العقل من الخمسة والسبعين الجُند: الخير وهو**

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٢، كتاب الإيمان والكفر، باب درجات الإيمان، الحديث: ١.

**وزير العقل وجعل ضدّه الشرّ وهو وزير الجهل.**

**والإيمان وضدّه الكفر، والتصديق وضدّه الجحود، والرجاء وضدّه القنوط...»**.

وهكذا يعدّ الإمام عليه السلام جنود العقل وما يضادّها من جنود الجهل، ثمّ يقول:

«**فلا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل إلاّ في نبيّ أو وصيّ نبيّ أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان. وأمّا سائر ذلك من موالينا فإنّ أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتّى يستكمل ويتّقى من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء...**»[1].

وبهذا يتّضح أنّ المؤمن لا يصل إلى مقام يصير فيه محتملاً لعلومهم الخاصّة إلاّ إذا بلغ هذه الدرجة من الإيمان التي تجتمع فيها جميع خصال الخير ويكون واجداً لكلّ هذه المراتب العلميّة والعمليّة، وهذه الدرجة هي المعبّر عنها في النصوص «**الكامل المحتمل**» أو «**المؤمن الذي امتحن الله قلبه للإيمان**» أي القلب المصفّى بنار التكاليف والرياضات الشاقّة والمحن الدنيويّة حتّى يصير كالمرآة المجلوّة المنوّرة بنور الإيمان، فإنّ الإيمان نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده بعد تطهيره وتهذيبه.

فإذا بلغ المؤمن هذه الدرجة من الإيمان، عند ذلك يكون محلاًّ للعنايات الخاصّة الربّانية، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**بينا أبي يطوف بالكعبة إذا رجلٌ معتجرٌ** (أي منتقباً ببعض العمامة) **فقطع عليه أسبوعه حتّى أدخله إلى دار جنب الصفا.**

ثمّ قال: **أخبرني عن العلم الذي ليس فيه اختلاف، مَن يعلمه؟**

---

(١) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢١، كتاب العقل والجهل، الحديث ١٤.

قال: **أمّا جملة العلم فعند الله جلّ ذكره، وأمّا ما لابدّ للعباد منه فعند الأوصياء.**

قال: **ففتح عجيرته واستوى جالساً وتهلّل وجهه، وقال: هذه أردت ولها أتيت، زعمت أنّ علم ما لا اختلاف فيه من العلم عند الأوصياء، فكيف يعلمونه؟**

قال: **كما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يعلمه، إلاّ أنّهم لا يرون ما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يرى، لأنّه كان نبيّاً وهم محدَّثون.**

ثمّ قال: أخبرني عن هذا العلم ما له لا يظهر كما كان مع رسول الله صلّى الله عليه وآله؟

قال: فضحك أبي عليه السلام وقال: **أبى الله عزّ وجلّ أن يطلع على علمه إلاّ ممتحناً للإيمان**»(١).

وبهذا اللّحاظ سُمّي المحتمل لهذه المعارف الإلهيّة والأسرار الربّانية بأنّه مدينةٌ حصينة، كما في رواية عمرو بن ربيع عن شعيب الحدّاد قال: «سمعت الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام يقول: **إنّ حديثنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب أو نبيٌّ مرسل أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان أو مدينةٌ حصينة.**

قال عمرو: فقلت لشعيب: يا أبا الحسن، وأيّ شيء المدينة الحصينة؟

فقال: سألت الصادق عليه السلام عنها فقال لي: **القلب المجتمع**»(٢).

ولعلّ المراد منه هو المؤمن الذي لا يزيغ مهما كثرت الشبهات

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٤٣، باب في شأن (إنّا أنزلناه في ليلة القدر) وتفسيرها، الحديث: ١.

(٢) **ترتيب الأمالي**، أمالي الصدوق: ج١ ص١٨٤، المجلس ١، الحديث: ٦.

والتشكيكات، فهو ثابت على الإيمان، ومآله إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحقّة من غير ميلان إلى الشكّ ونوسان بين الحقّ والباطل، وثباته على لوازم ما علمه من الحقّ من غير تمايل إلى اتّباع الهوى ونقض ميثاق العلم.

## القسم الثالث: الحقائق والمعارف التي لا يحتملها إلاّ أهل البيت

تبيّن من بعض النصوص السابقة أنّ من معارفهم ومقاماتهم ما لا يحتملها لا ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان.

• عن أبي الصامت قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **إنّ من حديثنا ما لا يحتمله ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا عبدٌ مؤمن**. قلت: فمن يحتمله؟ قال: **نحن نحتمله**»(١).

• وكذلك ما تقدّم عن محمّد بن عبد الخالق وأبي بصير قال: «قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **يا أبا محمّد إنّ عندنا والله سرّاً من سرّ الله، وعلماً من علم الله، والله ما يحتمله ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، والله ما كلّف الله ذلك أحداً غيرنا ولا استعبد بذلك أحداً غيرنا**»(٢).

قال المازندراني: «إنّ المراد بذلك بيان ما هم من شرافة الذات ونورانيّتها والكلمات الفاضلة والأخلاق الكاملة والإشراقات التي تختصّ بها عقولهم، والقدرة على ما لا يقدر عليه غيرهم من العلم بالأمور الغيبيّة

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**: ج١ ص٦٦، باب في أئمّة آل محمّد وأنّ حديثهم صعبٌ مستصعب، الحديث: ٩٧.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٤٠٢، كتاب الحجّة، باب فيما جاء أنّ حديثهم صعب مستصعب، الحديث: ٥.

والأسرار الإلهيّة والأخبار الملكوتيّة والآثار اللاهوتيّة، والأطوار الناموسيّة والأوضاع الفلكيّة والأوصاف الملكيّة، والوقايع الخالية والبدايع الآتية والحاليّة، والأحكام الغريبة والأقضية العجيبة»[1].

لكن قد يتساءل: ما هي النسبة والعلاقة بين المعارف والحقائق التي أُمروا بإبلاغها إلى الناس وبين تلك المختصّة بهم والتي لا يحتملها إلاّ هم عليهم السلام؟

والجواب: إنّ بعض النصوص بيّنت أنّ ما عندهم من المعارف والتي لا يمكن لغيرهم ـ مطلقاً ـ أن يحتملها، إنّما يراد بها معرفتها بكمالها التي هي عليها، نعم إذا صارت محدودة بحدّ مَن ألقيت إليه فهي قابلة للفهم والدرك، كلٌّ بحسبه، كما في النصّ الوارد عن المفضّل، قال: «قال أبو جعفر عليه السلام: **إنّ حديثنا صعب مستصعب، لا يحتمله ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان**. . .

إلى أن قال: **فأحسن الحديث حديثنا، لا يحتمل أحد من الخلائق أمره بكماله حتّى يحدّه، لأنّ من حدّ شيئاً فهو أكبر منه**»[2].

وأوضح الطباطبائي ذلك بقوله: «قوله عليه السلام: **لا يحتمل أحد من الخلائق أمره بكماله**؛ يدلّ على أنّ حديثهم عليهم السلام أمرٌ ذو مراتب، يمكن أن يحتمل بعض مراتبه بواسطة التحديد، ويشهد له تعبيره عن الحديث في رواية أبي الصامت بقوله: **إنّ من حديثنا**، فيكون حينئذ مورد هذه الرواية مع الرواية مع النصوص التي قالت: **لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب**

---

(١) **شرح الأصول والروضة من الكافي**، مصدر سابق: ج٧ ص٢.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**: ج١ ص٦٨، باب في أئمّة آل محمّد وأنّ حديثهم صعبٌ مستصعب، الحديث: ١٠٠.

**أو نبيٌّ مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان** مورداً واحداً لكونه مشكّكاً ذا مراتب.

هذا، وتحديد كلّ واحد من الخلائق حديثهم عليهم السلام، لكون ظرفه الذي به يحتمل ما يحتمل، وهو ذاته محدود، فيصير به ما يحتمله محدوداً، وهو السبب في عدم إمكان الاحتمال بكماله، فهو أمرٌ غير محدود، وعليه يكون خارجاً عن حدود الإمكان، لأنّه مقامهم من الله سبحانه حيث لا يحدّه حدٌّ، وهو الولاية المطلقة»(١).

وهذا يكشف عن أنّ حقيقة واحدة يمكن أن تكون لها مراتب متعدّدة:

• مرتبة منها، وهي الحقيقة على ما هي عليها بكمالها، لا يحتملها إلاّ هم عليهم السلام.

• مرتبة منها، لا تعطى إلاّ لمن شاءوا كما في حديث عثمان بن جبلة عن أبي الصامت قال: «قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **إنّ حديثنا صعبٌ مستصعب، شريف، كريم، ذكوان، ذكي وعر، لا يحتمله ملك مقرّب ولا نبيٌّ مرسل ولا مؤمن ممتحن.**

قلت: فمن يحتمله جعلت فداك؟

قال: **من شئنا يا أبا الصامت**»(٢).

وهذا قسم خاصّ من معارفهم، لا يصل إلى فهمها والإقرار بها إلاّ من تلطّفوا عليه بتنوير قلبه كي يحتمل حديثهم، كسلمان المحمّدي وأويس القرني وكميل بن زياد النخعي وميثم التمّار ورشيد الهجري وجابر الجعفي

---

(١) **رسالة الولاية**، العلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائي، تحقيق الشيخ صباح الربيعي، الشيخ علي الأسدي، مكتبة فدك، الطبعة الأولى: ١٤٢٦، الفصل الأوّل: ص ٢١٠.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٢ ص١٩٢، كتاب العلم، الباب ١٢٦، الحديث: ٣٤.

الذين هم من أصحاب الأسرار.

• ومرتبة منها، لا يحتملها إلاّ ملكٌ مقرّب أو نبيٌّ مرسل أو مؤمن ممتحن.

• ومرتبة منها، هي للمؤمنين جميعاً الذين خلقوا من فاضل طينتهم، كما في النصّ الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**خلقنا الله من نور عظمته، ثمّ صوّر خلقنا من طينة مخزونة مكنونة من تحت العرش، فأسكن ذلك النور فيه، فكنّا نحن خلقاً وبشراً نورانيّين لم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا منه نصيباً، وخلق شيعتنا من طينتنا، وأبدانهم من طينة مخزونة مكنونة أسفل من تلك الطينة**»[(١)].

ولذا قال الصادق عليه السلام: «**فلولا أنّهم خلقوا من هذه لما كانوا كذلك، لا والله ما احتملوه**»[(٢)].

وهذه هي المرتبة التي عبّرت عنها النصوص المستفيضة أنّهم أُمروا بتبليغها للناس عموماً، فقبلتها وأقرّت بها طائفة ونفرت واشمأزّت منها أخرى، كما قال الصادق عليه السلام: «**فأمرنا أن نبلّغهم كما بلّغناهم ـ أي شيعتنا ـ واشمأزّوا من ذلك ونفرت قلوبهم وردّوه علينا ولم يحتملوه وكذّبوا به**»[(٢)].

إذا اتّضح ذلك نقول: إنّ كلّ مرتبة أعلائيّة منها لا يمكن للداني أن يقف عليها كما هي عند من فوقه، وإلاّ لكان الداني محيطاً بالعالي، وهو غير

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص٦١، باب في خلق أبدان الأئمّة وفي خلق أرواحهم وشيعتهم، الحديث: ٨٥.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٤٠٢، كتاب الحجّة، باب فيما جاء أنّ حديثهم صعبٌ مستصعب، الحديث: ٥.

معقول ـ كما هو ثابت في مظانّه ـ لذا قال المجلسي: «إنّ من أحاط بكنه علم رجل وجميع كمالاته، فلا محالة يكون متّصفاً بجميع ذلك على وجه الكمال، إذ ظاهر أنّ من لم يتّصف بكماله على وجه الكمال، لا يمكنه معرفة ذلك الكمال على هذا الوجه، ولابدّ في الاطّلاع على كنه أحوال الغير من مزيّة كما يحكم به الوجدان، فلا استبعاد في قصور الملائكة وسائر الأنبياء الذين هم دونهم في الكمال عن الإحاطة بكنه كمالاتهم...»[1].

## شاهد قرآنيّ

الواقع أنّ هناك شاهداً قرآنيّاً لإثبات مضمون النصوص التي وردت في القسم الثالث، وهو أنّ من أحاديثهم ما لا يحتمله لا ملكٌ مقرّب ولا نبيٌّ مرسل فضلاً عن المؤمن الممتحن.

■ أمّا الأوّل، وهو عدم احتمال الملك المقرّب، فهو ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠ـ٣٣).

فإنّ هذه الآيات ـ بشكل عامّ ـ تبيّن حقيقة لا مجال للشكّ فيها، وهي أنّ الإنسان هو الأحقّ بالخلافة من الملائكة أجمعين، ومن الواضح أنّ هذه

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٢ ص١٩٤، كتاب العلم، الباب ٢٦، ذيل الحديث: ٣٩.

الخلافة ليست هي الخلافة السياسيّة في الأمّة، وإنّما المراد منها الخلافة عنه تعالى لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، والخلافة هي قيام شيء مقام آخر. وحيث إنّه تعالى متّصف بجميع الصفات الجماليّة والجلاليّة ومنزّه عن كلّ نقص، ومقدّس في فعله عن كلّ خلل، جلّت عظمته وحكمته، إذن لابدّ أن يكون خليفته حاكياً للمستخلف في جميع شؤونه الوجوديّة وآثاره وأحكامه وتدابيره بما هو مستخلف، ولذا قالت الآية ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ وهو يفيد العموم لأنّه محلّى باللام ومؤكّد بقوله: «كلّها».

ثمّ إنّ هذه الآيات تشير إلى أنّ هذا الخليفة الأرضي تعلّم من الله مباشرةً وبلا واسطة، وصار معلّماً لجميع الملائكة بما فيهم المقرّبون؛ لقوله: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (الحجر: ٣٠)؛ وهذا يكشف بوضوح أعلميّة وأفضليّة الإنسان الكامل على جميع الملائكة.

قال الآلوسي معقّباً على هذه الآية: «فكأنّه قال جلّ شأنه: أريد الظهور بأسمائي وصفاتي، ولم يكمل ذلك بخلقكم (أي الملائكة) فإنّي أعلم ما لا تعلمونه؛ لقصور استعدادكم ونقصان قابليّتكم، فلا تصلحون لظهور جميع الأسماء والصفات فيكم؛ فلا تتمّ بكم معرفتي ولا يظهر عليكم كنزي، فلابدّ من إظهار مَن تمّ استعداده وكمُلت قابليّته ليكون مجلى لي ومرآةً لأسمائي وصفاتي، ومظهراً للمتقابلات فيَّ ومظهراً لما خفي عندي، وبي يسمع وبي يُبصر وبي وبي»[(١)].

وقال في موضع آخر: «ولم تزل تلك الخلافة في الإنسان الكامل إلى قيام الساعة وساعة القيام، بل متى فارق هذا الإنسان العالم مات العالم، لأنّه الروح الذي به قوامه، فهو العماد المعنوي للسماء، والدار الدُّنيا جارحة من

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج١ ص٢٢٣.

جوارح جسد العالم الذي الإنسان روحه، ولمّا كان هذا الاسم الجامع قابلاً للحضرتين ـ بمعنى أنّ له جهتي تجرّد وتعلّق ليستفيض من جهة ويفيض بأخرى ـ صحّت له الخلافة وتدبير العالم، والله سبحانه الفعّال لما يريد، ولا فاعل على الحقيقة سواه، وفي المقام ضيق، والمنكرون كثيرون، ولا مستعان إلاّ بالله عزّ وجلّ»(١).

ثمّ قال: إنّ هذا الخليفة «ظهر الحقّ ـ جلّ وعلا ـ فيه، منزّهاً عن الحلول والاتّحاد والتشبيه ـ بجميع أسمائه وصفاته المتقابلة، حسب استعداده الجامع بحيث علم وجه الحقّ في تلك الأشياء، وعلم ما انطوت عليه وفهم ما أشارت إليه، فلم يخف عليه منها خافية ولم يبق من أسرارها باقية، فيالله هذا الجرم الصغير كيف حوى هذا العلم الغزير»(٢).

وهذا ما أكّده الطباطبائي ببيان آخر، حيث قال: «إنّ هذه الآيات تشير إلى «أنّ هناك أمراً لا يقدر الملائكة على حمله ولا تتحمّله، ويتحمّله هذا الخليفة الأرضي، فإنّه يحكي عن الله سبحانه أمراً ويتحمّل منه سرّاً ليس في وسع الملائكة».

وبهذا يتّضح السبب في أنّه تعالى «بدّل قوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ثانياً بقوله: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، والمراد بهذا الغيب هو الأسماء لا علم آدم بها، فإنّ الملائكة ما كانت تعلم أنّ هناك أسماءً لا يعلمونها، لا أنّهم كانوا يعلمون وجود أسماء كذلك ويجهلون من آدم أنّه يعلمها، وإلاّ لما كان لسؤاله تعالى إيّاهم عن الأسماء وجه، وهو ظاهر، بل كان حقّ المقام أن يقتصر بقوله: «**قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم**» حتّى

(١) المصدر السابق: ج١ ص٢٢١.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٢٤.

يتبيّن لهم أنّ آدم يعلمها، لا أن يُسأل الملائكة عن ذلك، فإنّ هذا السياق يعطي أنّهم ادّعوا الخلافة وأذعنوا بانتفائها عن آدم، وكان اللازم أن يعلم الخليفة بالأسماء، فسألهم عن الأسماء فجهلوها وعلمها آدم.

فثبت بذلك لياقته لها وانتفاؤها عنهم، وقد ذيّل سبحانه السؤال بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهو مشعر بأنّهم كانوا ادّعوا شيئاً كان لازمه العلم بالأسماء»[١].

من هنا جاءت النصوص لتؤكّد هذا المعنى، وهو أنّ هذا الخليفة الأرضي له من المقام والمنزلة ما ليس للملائكة أجمعين؛ قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله تبارك وتعالى علّم آدم عليه السلام أسماء حجج الله كلّها، ثمّ عرضهم ـ وهم أرواح ـ على الملائكة، فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، بأنّكم أحقّ بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم فـ ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾. قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ وقفوا على عظم منزلتهم عند الله عزّ ذكره، فعلموا أنّهم أحقّ بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريّته، ثمّ غيّبهم عن أبصارهم واستعبدهم بولايتهم ومحبّتهم وقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾**»[٢].

▪ وأمّا الثاني: فهو ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١ ص١١٦.

(٢) **البرهان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١ ص١٦٤.

بِهِۦخُبْرًا﴾ (الكهف: ٦٥ ـ ٦٨).

ومن الواضح أنّ موسى الذي ذكر في القصّة هو ابن عمران أحد أُولي العزم من الرُّسل على ما وردت به الرواية من طرق الفريقين، والعالم الذي لقيه موسى ووصفه الله وصفاً جميلاً بقوله: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ولم يسمّه، إلاّ أنّه ورد في الروايات أنّ اسمه الخضر. وكان نبيّاً من الأنبياء معاصراً لموسى عليه السلام، وفي بعضها أنّ الله رزقه طول الحياة فهو حيّ لم يمت. قال الآلوسي: «الجمهور على أنّه الخضر، وهو الحقّ الذي تشهد له الأخبار الصحيحة»(١).

والآيات تحكي قصّة طلب موسى عليه السلام التعلّم من ذلك العبد الصالح.

من هنا استُشكل أنّه كيف يطلب موسى عليه السلام ذلك، والمفروض أن يكون أعلم أهل زمانه، لأنّه نبيّ من الأنبياء أُولي العزم الذين هم سادات الأنبياء والمرسلين.

وأجاب الآلوسي عن ذلك: «إنّ اللازم في الرسول أن يكون أعلم في العقائد وما يتعلّق بشريعته لا مطلقاً، فلا يضرّ في منصبه أن يتعلّم علوماً غيبيّة وأسراراً خفيّة لا تعلّق لها بذلك من غيره، سيما إذا كان ذلك الغير نبيّاً أو رسولاً أيضاً كما قيل في الخضر عليه السلام»(٢).

وهذا ما أشارت إليه نصوص متعدّدة من طرق الفريقين، منها:

• في تفسير القمّي عن محمّد بن علي بن بلال عن يونس «في كتاب كتبوه إلى الرضا عليه السلام يسألونه عن العالم الذي أتاه موسى، أيّهما كان أعلم؟

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج١٥ ص٣١٩.

(٢) المصدر السابق: ج١٥ ص٣٣١.

وهل يجوز أن يكون على موسى حجّة في وقته؟

فكتب في الجواب: **أتى موسى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر... فسلّم عليه موسى، قال: مَن أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران.**

**قال: أنت موسى بن عمران الذي كلّمه الله تكليماً؟ قال: نعم.**

**قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلّمني ممّا عُلّمت رشداً.**

**قال: إنّي وكّلت بأمر لا تطيقه، ووكلّت بأمر لا أطيقه»**[1].

• ما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث ابن عبّاس قال: «حدّثني ابن كعب قال: قال رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: **موسى رسول الله عليه السلام، قال: ذكّر الناس يوماً حتّى إذا فاضت العيون ورقّت القلوب ولّى، فأدركه رجلٌ فقال: أي رسول الله، هل في الأرض أحدٌ أعلم منك؟ قال: لا، فعتب عليه إذ لم يردّ العلم إلى الله، قيل: بلى، قال: أي ربِّ فأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال: أي ربّ اجعل لي علماً أعلم ذلك به.**

إلى أن تقول الرواية: **فسلّم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضي من سلام، مَن أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟**

**قال: جئت لتعلّمني ممّا عُلّمت رشداً.**

**قال: ما يكفيك أنّ التوراة بيديك، وأنّ الوحي يأتيك؟ يا موسى إنّ لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإنّ لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه...»**[2].

---

(١) **تفسير القمّي**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٨.

(٢) **صحيح البخاري**، مصدر سابق: ص٩١١، كتاب التفسير، سورة الكهف، باب «فلمّا بلغ مجمع بينهما»، الحديث ٤٧٢٦.

وأوضح الآلوسي هذين النحوين من العلم بقوله: «ينبغي أن يُراد من العلم الذي ذكر الخضر أنّه يعلمه هو ولا يعلمه موسى عليهما السلام بعض علم الحقيقة، ومن العلم الذي ذكر أنّه يعلمه موسى ولا يعلمه هو عليهما السلام بعض علم الشريعة، فلكلّ من موسى والخضر عليهما السلام علمٌ بالشريعة والحقيقة، إلاّ أنّ موسى عليه السلام أزيد بعلم الشريعة، والخضر عليه السلام أزيد بعلم الحقيقة».

ولازم ذلك أن يكون كلّ منهما أعلم من الآخر من وجه، وهذا جار في جميع الأنبياء والمرسلين إلاّ خاتمهم محمّد صلّى الله عليه وآله، كما قال الآلوسي فإنّه: «ما جمعت الحقيقة والشريعة إلاّ لنبيّنا محمّد صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ولم يكن للأنبياء إلاّ أحدهما على معنى أنّها ما جُمعت على الوجه الأكمل إلاّ له صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، ولم يكن للأنبياء عليهم السلام ـ على ذلك الوجه ـ إلاّ أحدهما، والحمل على أنّهما لم يجمعا على وجه الأمر بالتبليغ إلاّ لنبيّنا صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، فإنّه عليه الصلاة والسلام مأمور بتبليغ الحقيقة كما هو مأمور بتبليغ الشريعة، لكن للمستعدّين لذلك».

ثمّ نقل الآلوسي عن السيوطي حقيقة في غاية الأهمّية وهي: «أنّ الأولياء قد يكون لأحدهم من علوم الولاية ما هو أكثر من علوم ولاية أُولي العزم من الرسل الذين هم أعلى منهم»، وعلّق على ذلك بقوله: «وأنا أرى أنّ ما يحصل لهم من علم الحقيقة ـ بناءً على القول بأنّه من علوم الولاية ـ أكثر ممّا يحصل للأولياء الذين ليسوا بأنبياء»[1].

وهذا ما دلّلنا عليه في الفصل الثاني، حيث أثبتنا أعلميّة وأفضليّة ورثة النبيّ صلّى الله عليه وآله وأوصيائه من باقي الأنبياء والمرسلين بما فيهم أولو

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني**، مصدر سابق: ج١٥ ص٣٣٢.

العزم من الرسل.

وهنا لابدّ أن أشير إلى أنّ هذه المعاني التي استفدناها من الشواهد القرآنيّة، هي التي أشارت إليها بعض النصوص؛ منها ما عن مسعدة بن صدقة عن صالح بن ميثم عن أبيه عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**أوَكلّ علم يحتمله عالم؟ إنّ الله تعالى قال لملائكته:** ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ **فهل رأيت الملائكة احتملوا العلم؟**

**وإنّ موسى عليه السلام أنزل الله عزّ وجلّ عليه التوراة، فظنّ أن لا أحد أعلم منه، فأخبره الله عزّ وجلّ أنّ في خلقي من هو أعلمُ منك، وذاك إذ خاف على نبيّه العجب، قال: فدعا ربّه أن يرشده إلى العالم، قال: فجمع الله بينه وبين الخضر فخرق السفينة فلم يحتمل ذاك موسى، وقتل الغلام فلم يحتمله، وأقام الجدار فلم يحتمله...**»[1].

وبهذا يثبت دليل آخر على أعلميّة وأفضليّة أئمّة أهل البيت عليهم السلام من جميع الأنبياء والمرسلين فضلاً عن الملائكة المقرّبين، وهذا ما صرّحت به نصوص كثيرة وقفنا عندها سابقاً، منها ما عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **ما خلق الله خلقاً أفضل منّي ولا أكرم عليه منّي.**

قال عليّ عليه السلام: فقلت: يا رسول الله فأنت أفضل أم جبرئيل عليه السلام؟

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج٢ ص٢١٠، كتاب العلم، باب: ٢٦، الحديث: ١٠٦.

فقال: **يا عليّ إنّ الله تبارك وتعالى فضّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقرّبين، وفضّلني على جميع النبيّين والمرسلين، والفضل بعدي لك يا عليّ وللأئمّة من بعدك، وإنّ الملائكة لخدّامنا وخدّام محبّينا.... .**

**يا عليّ، وكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى التوحيد ومعرفة ربّنا عزّ وجلّ وتسبيحه وتقديسه وتهليله، لأنّ أوّل من خلق الله أرواحنا فأنطقنا بتوحيده وتمجيده»**[1].

والحاصل كما ذكره بعض الأعلام من العرفاء أنّ «جهة الولاية هي جهة الحقّانيّة الإلهيّة والوحدة، وجهة الرسالة والنبوّة جهة الإمكانيّة والخلْقيّة والكثرة، فظهر أنّ جهة الولاية أشرف وأفضل من جهة النبوّة والخلافة إذا اجتمعت في شخص واحد أو لوحظت الجهات، لا أنّ الوليّ أفضل وأكمل من النبيّ والرسول وأُولي العزم، لوجدانهم الولاية الشديدة التامّة على حسب مراتبهم.

وإذا تأمّلت فيما ذكرته حقّ التأمّل من أنّ منشأ التقدّم والشرافة هو خصوصيّات الولاية والكمال وشدّتها وقوّتها، لا تشكّ أنّ تقدّم النبيّ والرسول على الوليّ ليس على إطلاقه وعمومه، بل على الوليّ الذي يكون من أوصيائه وخلفائه وتوابعه وورثته، لا من وليّ رسول آخر ووصيّه وخليفته وورثته وتابعه، بل قد يكون ذلك الولي الذي يكون وصيّاً وخليفة وتابعاً لرسول آخر، مرتبة ولايته ومقام قربه وكماله أعلى وأقوى وأشدّ من ذلك النبيّ والرسول، وعلى هذا يكون ذلك الوليّ والوصيّ أقدم وأشرف وأكمل من ذلك النبيّ والرسول بدرجة أو درجات كثيرة.

---

(١) **عيون أخبار الرضا**: ج١ ص٢٣٧، الباب: ٢٦، ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار النادرة في فنون شتّى، الحديث: ٢٢.

فطلع من أفق ذلك البيان شمس سرّ تقدّم الأوصياء المحمّدية على الأنبياء السابقين من أُولي العزم وغيرهم بدرجات كثيرة، بل تقدّم علماء الأمّة المحمّدية على السابقين أو كونهم على درجتهم ومقامهم»(١).

## المبحث الثاني: السبب في اشتمال أحاديثهم على الصعب المستصعب

لكي يتّضح السبب في اشتمال أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام على الصعب المستصعب، لابدّ من الإشارة إلى مقدّمتين أساسيّتين في المقام:

### المقدمة الأولى: وجود المحكم والمتشابه في أحاديثهم

من الخصائص التي امتازت بها أحاديث أهل البيت عليهم السلام اشتمالها على المحكم والمتشابه، كما هو الحال في آيات القرآن الكريم، وقد أشارت نصوص عدّة لذلك، منها:

• عن حيّون مولى الرضا عن علي بن موسى الرضا عليه السلام «قال: **من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هُدي إلى صراط مستقيم.**

ثمّ قال عليه السلام: **إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن، ومحكماً كمحكم القرآن، فردّوا متشابهها إلى محكمها، ولا تتّبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا**»(٢).

### السبب في وجود المحكم والمتشابه في أحاديثهم عليه السلام

من هنا قد يتساءل عن السبب في وجود المتشابه في أحاديثهم، ألم يكن بالإمكان أن تجعل أحاديثهم وكلماتهم بنحو تكون خالية ونقيّة عن

---

(١) **مصباح الأنس**، لمحمّد بن حمزة الفناري، صحّحه وقدّم له: محمّد خواجوي، انتشارات مولى، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ: حاشية الأشكوري رقم: ١، ص٢٥ الفاتحة.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج٢ ص١٨٥، كتاب العلم، الباب: ٢٦، الحديث: ٩.

المتشابهات، حتّى لا يقع الناس في الحيرة والاشتباه، بل هو الأقرب إلى الغرض العامّ الذي من أجله ألقيت هذه الأحاديث، وهي هداية الناس إلى الحقّ؟

والجواب عن ذلك ـ كما أوضحناه في أصول التفسير[1] ـ أنّ وجود المتشابه في القرآن إنّما هو من اللوازم التي لا تنفكّ عن وجود التأويل، وأنّ له مراتب طوليّة متعدّدة، ظاهريّة وباطنيّة، وأنّ للباطن باطناً إلى سبعة بواطن أو أكثر، ولازم ذلك أنّ الله سبحانه لم يجعل الآيات بنحو تنقسم إلى محكمة ومتشابهة، بحيث كان بالإمكان التحرّز عن ذلك، حتّى يرد الاعتراض المتقدّم.

فإذا ثبت أنّ أحاديثهم أيضاً لها ظاهر وباطن وسرّ وعلن، كما نصّت على ذلك روايات متعدّدة، منها:

• عن جابر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ أمرنا سرّ في سرّ، وسرٌّ مستسر، وسرّ لا يفيد إلاّ سرّ، وسرّ على سرّ، وسرّ مقنّع بسرّ**»[2].

• عن مرازم قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إنّ أمرنا هو الحقّ، وحقّ الحقّ، وهو الظاهر، وباطن الظاهر، وباطن الباطن، وهو السرّ، وسرّ السرّ، وسرّ المستسرّ، وسرّ مقنّع بالسرّ**»[3].

ولازم ذلك أن يكون لكلامهم محكم ومتشابه على حدّ محكم القرآن ومتشابهه.

فمعنى ذلك أنّه كما أنّ للقرآن مرتبة لا يمكن الوقوف عليها من خلال

---

(١) **أصول التفسير والتأويل**: السيد كمال الحيدري، مصدر سابق: ص٤٨٠.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**: ج١ ص٧٦، باب في أنّ علم آل محمّد سرّ مستسرّ، الحديث: ١١٧.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٧٧، الحديث: ١٢٠.

الاستدلالات العقليّة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤)، كذلك المعارف والبيانات التي ألقاها أهل البيت عليهم السلام للناس، لها مرتبة من الوجود وراء العقول التي تسير بالبرهان والجدل والخطابة، أي أنّ لها مرتبة فوق مرتبة البيان اللفظي، بحيث لو نزلت إلى هذه المرتبة لدفعتها بعض العقول العادية التي لا تحتملها، إمّا لكونها خلاف الضرورة عند هؤلاء، أو لكونها منافية للبيان الذي بيّنت لهم به وقبلته عقولهم.

وبهذا يظهر أنّ نحو إدراك هذه المعارف بحقائقها التي هي عليها، غير نحو إدراك العقول لها، وهو الإدراك الفكري. وهذا ما يفسّر لنا السبب في أنّ هذه المعارف والحقائق ـ كما هي عليها ـ لا تدرك ولا تحتمل إلاّ من ملك مقرّب أو نبيٍّ مرسل أو مؤمن ممتحن ـ كما تقدّم ـ .

من هنا حاول القرآن أن يوصل تلك المعارف من خلال الأمثال؛ قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣). قال الطباطبائي: «وهذه طريقة القرآن الكريم في تكليمه للناس، فهو يصرّح أنّ الأمر أعظم ممّا يتوهّمه الناس أو يخيّل إليهم، غير أنّه شيء لا تسعه حواصلهم وحقائق لا تحيط بها أفهامهم، ولذلك نزّل منزلة قريبة من أفق إدراكهم لينالوا ما شاء الله أن ينالوه من تأويل هذا الكتاب العزيز»[(١)].

وهذا هو السبب ـ كما سيأتي ـ في أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلِّم الناس على قدر عقولهم**»[(٢)]، وليس المراد من

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٢ ص١٧٦.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٣، كتاب العقل والجهل، الحديث: ١٥.

العقل هنا هو المعنى الاصطلاحي البرهاني بالضرورة، بل قد يُراد منه ما هو الأعمّ الذي يشمل العقل العرفي العادي أيضاً ـ كما سيتّضح ـ .

**المقدمة الثانية: تفاوت الناس في استعداداتهم**

من الواضح أنّ عقول الناس واستعداداتهم ليست على درجة واحدة من حيث الإدراك والفهم، وهذا ما نصّت عليه الآيات والروايات.

▪ أمّا الآيات فمنها قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ١٧)، فإنّها تشير إلى أنّ «الوجود النازل من عنده تعالى على الموجودات الذي هو بمنزلة الرحمة السماويّة والمطر النازل من السحاب على ساحة الأرض، خالٍ في نفسه عن الصور والأقدار وإنّما يتقدّر من ناحية الأشياء أنفسها كماء المطر الذي يحتمل من القدر والصورة ما يطرأ عليه من ناحية قوالب الأودية المختلفة في الأقدار والصور، فإنّما تنال الأشياء من العطيّة الإلهيّة بقدر قابليّتها واستعداداتها وتختلف باختلاف الاستعدادات والظروف والأوعية»[1].

▪ وأمّا الروايات، فمنها:

• ما عن إسحاق قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: الرجل آتيه أُكلّمه ببعض كلامي فيعرف كلّه، ومنهم من آتيه فأكلّمه بالكلام فيستوفي كلامي كلّه ثمّ يردّه عليَّ كما كلّمته، ومنهم من آتيه فأكلّمه فيقول: أعدْ عليَّ.

فقال: **يا إسحاق أوَ ما تدري لِمَ هذا؟** قلت: لا.

قال: **الذي تكلّمه ببعض كلامك فيعرف كلّه، فذاك من عجنت نطفته**

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١١ ص٣٣٨.

**بعقله، وأمّا الذي تكلّمه فيستوفي كلامك ثمّ يجيبك على كلامك، فذاك الذي ركّب عقله في بطن أُمّه، وأمّا الذي تكلّمه بالكلام، فيقول: أعد عليَّ، فذاك الذي ركّب فيه بعدما كبر، فهو يقول: أعد عليَّ»**(١).

• وكذلك ما ورد عن يحيى بن أبان عن شهاب قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **لو علم الناس كيف خلق الله تبارك وتعالى هذا الخلق، لم يلم أحدٌ أحداً.**

فقلت: أصلحك الله فكيف ذاك؟

**فقال: إنّ الله تبارك وتعالى خلق أجزاء بلغ بها تسعة وأربعين جزءاً، ثمّ جعل الأجزاء أعشاراً، فجعل الجزء عشرة أعشار، ثمّ قسّمه بين الخلق:**

**فجعل في رجل عُشر جزء، وفي آخر عُشري جزء، حتّى بلغ جزءاً تامّاً، وفي آخر جزءاً وعُشر جزء، وآخر جزءاً وعُشري جزء، وآخر جزءاً وثلاثة أعشار جزء، حتّى بلغ جزئين تامّين، ثمّ بحساب ذلك حتّى بلغ بأرفعهم تسعة وتسعين جزءاً.**

**فمن لم يجعل فيه إلاّ عُشر جزء لم يقدر على أن يكون مثل صاحب العُشرَين، وكذلك صاحب العُشرين لا يكون مثل صاحب الثلاثة الأعشار، وكذلك من تمَّ له جزءٌ لا يقدر على أن يكون مثل صاحب الجزئين، ولو علم الناس أنّ الله عزّ وجلّ خلق هذا الخلق على هذا لم يلم أحدٌ أحداً»**(٢).

والنتيجة المترتّبة على هاتين المقدّمتين أنّ من أحاديثهم ما هو صعبٌ مستصعب، ثقيل، ونحوها من الأوصاف التي وقفنا عليها سابقاً، إلاّ أنّه

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: ج١ ص٩٧، كتاب العقل والجهل، باب: ٢، حقيقة العقل وكيفيّته وبدو خلقه، الحديث: ١٠.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٤، كتاب الإيمان والكفر، باب آخر منه، الحديث: ١.

لابدّ من الإشارة إلى أنّ حيثيّة الصعوبة وعدم الاحتمال في بعض أحاديثهم ينشأ من جهات عدّة:

**الجهة الأولى**: قد يكون ناشئاً من عدم إدراك الحقائق العقليّة، لعدم استعداد البعض لفهمها لدقّتها وعمقها؛ من هنا جاء النهي لهؤلاء عن التعرّض لما لا يفهمون، وكذلك نُهي الخواصّ عن إلقاء مثل هذه المعارف إليهم كما ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام حيث قال ليونس: «**يا يونس ارفق بهم، فإنّ كلامك يدقّ عليهم**»[1]. فمثلاً يعسر على غير المتدرّبين في العقليّات أن يفرّقوا بين الحدوث الزماني والحدوث الذاتي، والفاعل بالاختيار والعلّة التامّة، وكذلك يعسر عليهم التفرقة بين المحال العادي والمحال العقلي، وبين النادر الوقوع والمحال العادي وهكذا.

**الجهة الثانية**: وقد يكون بسبب قوّة الواهمة ومعارضتها لما قام عليه البرهان العقلي؛ قال الشعراني: «وسرّ ذلك أنّه ما من مسألة من المسائل العقليّة والأصوليّة إلاّ وللوهم فيها معارضة ومكافحة، يجب التمرّن لدفع وسوسته حتّى يؤمن العقل من إبداء الأدلّة ويخضع النفس له، ولابدّ أن يكون الناظر في الأدلّة متمرّناً في تفكيك مدركات الوهم عن مدركات العقل ويرتاض حتّى يعتاد، ولا يحصل ذلك بسهولة لكلّ أحد، والمثال المعروف أنّ العقل يركّب قياساً من مقدّمات بيّنة، فيقول: الميّت جماد، والجماد لا يخاف منه، فينتج: الميّت لا يخاف منه، فيعترف العقل بهذه النتيجة ولا يعترف الوهم. وكذلك الإيمان بالله يعارضه الوهم بأنّ كلّ موجود محسوس، والله تعالى ليس بمحسوس، فهو ـ نعوذ بالله ـ ليس بموجود، والإيمان بالوحي والنبوّة يعارضه الوهم بأنّ ليس للإنسان قوّة إدراكيّة غير

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٢ ص٦٦، كتاب العلم، الباب: ٢٦، الحديث: ٦.

هذه الحواس الظاهرة والباطنة.

فكيف يدرك النبيّ أو الوليّ الوقائع الماضية والآتية والأمور الحاليّة الحادثة في الأماكن البعيدة مع وجود الحائل؟ وكيف يسمع الصوت من عالم آخر لا يسمعه غيره؟ ويرى الملك والموجودات الغيبيّة، وليس لأحد قوّة مدركة لذلك. وكذلك كلّ شيء معارض بشبهة، ولا يتخلّص عنها إلاّ من ارتاض وتمرّن بتمييز وساوس الأوهام من مدركات العقول.

والوهم متقيّد بالعادات وانحصار الحقيقة في حدود خاصّة استأنسها، فإذا فاجأها غير المأنوس أنكره واستوحش منه، وعدّ قائله سفيهاً أو نسبه إلى الضلال والكفر»[1].

من هنا جاءت الروايات مبيّنة هذه الحقيقة، وأنّ الناس ليسوا على درجة واحدة من الفهم والإدراك والتحمّل لمثل هذه الحقائق والمعارف.

• فمثلاً في بيان حقيقة التوحيد، تارةً يقولون إنّ التوحيد هو ما عليه الناس، كما في النصّ الوارد عن سعد بن سعد قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن التوحيد، فقال: «**هو الذي أنتم عليه**»[2].

• وأخرى يبيّنونه بنحو عميق ودقيق لا يحتمله إلاّ الأوحدي من خواصّ تلامذتهم، كما في النصّ الوارد عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم قال: «دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقال لي: **أتنعت الله؟** فقلت: نعم. قال: **هات**، فقلت: هو السميع البصير. قال: **هذه صفة يشترك فيها المخلوقون**. قلت: فكيف تنعته؟

فقال عليه السلام: **هو نورٌ لا ظلمة فيه، وحياةٌ لا موت فيه، وعلمٌ لا جهلَ**

---

(١) **شرح الأصول والروضة**: تعليقة الشعراني، مصدر سابق، ج٧ ص٢.

(٢) **التوحيد**، للصدوق: ص٤٧، باب التوحيد ونفي التشبيه، الحديث: ٦.

**فيه، وحقٌّ لا باطلَ فيه.**

فخرجت من عنده وأنا أعلم الناس بالتوحيد»(١).

• وكذلك النصّ الوارد عن هشام بن الحكم، قال في حديث الزنديق الذي سأل أبا عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال له: أتقول إنّه سميعٌ بصير؟

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**هو سميعٌ بصير، سميع بغير جارحة، بصير بغير آلة، بل يسمع بنفسه، ويبصر بنفسه، وليس قولي: إنّه يسمع بنفسه أنّه شيء والنفس شيءٌ آخر، ولكنّي أردت عبارة عن نفسي إذ كنت مسؤولاً، وإفهاماً لك إذ كنت سائلاً.**

**فأقول: يسمع بكلّه، لا أنّ كلّه له بعض، ولكنّي أردت إفهامك والتعبير عن نفسي، وليس مرجعي في ذلك إلاّ إلى أنّه السميع البصير العالم الخبير بلا اختلاف الذات ولا اختلاف المعنى**»(٢).

من هنا نجد أنّ بعض الناس عندما سمعوا ما بيّنه بعض خواصّ تلامذتهم لم يحتملوه وأنكروه.

• عن محمّد بن عيسى بن عبيد عن أخيه جعفر بن عيسى قال: «كنّا عند أبي الحسن الرضا عليه السلام وعنده يونس بن عبد الرحمن، إذ استأذن عليه قومٌ من أهل البصرة، فأومأ أبو الحسن عليه السلام إلى يونس: **ادخل البيت، فإذا بيت مسبل عليه ستر، وإيّاك أن تتحرّك حتّى يؤذن لك.**

فدخل البصريّون وأكثروا من الوقيعة والقول في يونس، وأبو الحسن عليه السلام مُطرق، حتّى لمّا أكثروا أكثروا فودّعوا وخرجوا.

---

(١) المصدر السابق: ص١٤١، باب صفات الذات وصفات الأفعال، الحديث: ١٤.

(٢) المصدر السابق: ص١٤٠، الحديث: ١٠.

فأذِنَ ليونس بالخروج، فخرج باكياً، فقال: جعلني الله فداك إنّي أُحامي عن هذه المقالة، وهذه حالي عند أصحابي.

فقال له أبو الحسن عليه السلام: **يا يونس وما عليك ممّا يقولون إذا كان إمامك عنك راضياً. يا يونس حدِّث الناس بما يعرفون، واتركهم ممّا لا يعرفون. يا يونس وما عليك أن لو كان في يدك اليمنى درّة، ثمّ قال الناس بعرة، أو بعرة وقال الناس درّة، هل ينفعك ذلك شيئاً؟** فقلت: لا.

فقال: **كذا أنت يا يونس، إذ كنت على الصواب وكان إمامك عنك راضياً، لم يضرّك ما قال الناس**»[١].

• وهذا ما ورد في نصّ آخر عن محمّد بن عيسى بن عبيد عن يونس بن عبد الرحمن، قال: «قال العبد الصالح موسى بن جعفر عليهما السلام: **يا يونس ارفق بهم، فإنّ كلامك يدقّ عليهم.**

قلت: إنّهم يقولون لي زنديق.

قال لي: **وما يضرّك أن يكون في يدك لؤلؤة يقول الناس هي حصاة، وما ينفعك أن يكون في يدك حصاة فيقول الناس لؤلؤة**»[٢].

**الجهة الثالثة**: وقد يكون بسبب أنّ هذه المعارف لكي تدرك على ما هي عليها تحتاج إلى نحو آخر من الإدراك يختلف عن الإدراك الفكري والعقلي. قال الطباطبائي في ذيل قوله صلّى الله عليه وآله: «**أُمرنا أن نكلِّم الناس على قدر عقولهم**»: «إنّ هذا التعبير إنّما يحسن إذا كان هناك من الأمور ما لا يبلغه فهم السامعين من الناس.

---

(١) **اختيار معرفة الرجال، المعروف برجال الكشي**، تصحيح وتعليق: المعلّم الثالث مير داماد الاسترآبادي، تحقيق: السيّد مهدي الرجائي، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث: يونس بن عبد الرحمن، الرقم ٩٢٤ ج٢ ص٧٨١.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٧٨٢، الرقم: ٩٢٨.

وقوله صلّى الله عليه وآله «نكلّم» ولم يقل: نقول أو نبيّن أو نذكر ونحو ذلك، يدلّ على أنّ المعارف التي يبيّنها الأنبياء عليهم السلام إنّما وقع بيانها على قدر عقول أُممهم، ميلاً من الصعب إلى السهل، لا أنّه اقتصر بهذا المقدار من المعارف الكثيرة، إرفاقاً بالعقول، اقتصاراً من المجموع بالبعض.

وبعبارة أخرى: التعبير ناظر إلى الكيف دون الكمّ، فيدلّ على أنّ هذه المعارف حقيقتها التي هي عليها، وراء هذه العقول التي تسير في المعارف بالبرهان والجدل والخطابة، وقد بيّنها الأنبياء بجميع طرق العقول من البرهان والجدل والوعظ كلّ البيان، وقطعوا في شرحها كلّ طريق ممكن.

ومن هنا يعلم أنّ لها مرتبة فوق مرتبة البيان اللّفظي، لو نزّلت إلى مرتبة البيان اللفظي دفعتها العقول العاديّة، وهذا معناه أنّ نحو إدراك هذه المعارف بحقائقها غير إدراك العقول، وهو الإدراك الفكري، فافهم ذلك»[1].

من هنا جاءت الروايات لتبيّن درجات خواصّ أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله وتلامذة أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

• ما ورد عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لسلمان: **يا سلمان لو عرض علمك على المقداد لكفر**»[2].

• عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: ذكرت التقيّة يوماً عند عليّ بن الحسين عليهما السلام فقال: «**والله لو علم أبو**

(١) **رسالة الولاية**، تتمّة الفصل الأوّل: ص٢٠٨.

(٢) **الاختصاص**، تأليف: فخر الشيعة محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي الملقّب بالشيخ المفيد، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، رتّب فهارسه: السيّد محمود الزرندي، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة بقم: ص١١.

**ذرّ ما في قلب سلمان لقتله، ولقد آخى رسول الله صلّى الله عليه وآله بينهما، فما ظنّكم بسائر الخلق، إنّ علم العلماء صعبٌ مستصعبُ، لا يحتمله إلاّ نبيٌّ مرسل أو ملكٌ مقرّب أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان.** فقال: **إنّما صار سلمان من العلماء لأنّه امروٌ منّا أهل البيت، فلذلك نسبته إلى العلماء»**(١).

ومن المعلوم أنّ تفوّق سلمان إنّما كان لأجل ما يحتمله من المعارف الإلهيّة الخاصّة، وإلاّ فإنّ أبا ذر هو الذي ورد فيه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**ما أظلّت الخضراء وما أقلّت الغبراء أصدق لهجةً من أبي ذرّ**»(٢).

وكذلك المقداد فإنّه جاء فيه عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**ما بقي أحدٌ بعدما قبض رسول الله صلّى الله عليه وآله إلاّ وقد جال جولة إلاّ المقداد فإنّ قلبه كان مثل زبر الحديد**»(٣). فهم جميعاً وغيرهم كعمّار وأويس القرني وكميل بن زياد وميثم التمّار ورُشيد الهجري من خواصّ خاصّة النبيّ صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، إلاّ أنّ سلمان له فضله الخاصّ فهو أفضلهم وأعلمهم جميعاً.

• عن عيسى بن حمزة قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام، الحديث الذي جاء في الأربعة؟ قال: **وما هو؟** قلت: الأربعة التي اشتاقت إليهم الجنّة. قال: **نعم منهم سلمان وأبو ذر والمقداد وعمّار.** قلت: فأيّهم أفضل؟ قال: **سلمان**»(٤).

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٤٠١، كتاب الحجّة، فيما جاء أنّ حديثهم صعبٌ مستصعب، الحديث: ٢.

(٢) المصدر السابق: ص١٣.

(٣) المصدر السابق: ص١١.

(٤) المصدر السابق: ص١٢.

• عن ابن بكير عن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**أدرك سلمان العلمَ الأوّل والعلم الآخر، وهو بحرٌ لا ينزح، وهو منّا أهل البيت**»[(١)].

قال المحدّث النوري معلّقاً على هذه الأحاديث: «إنّ المقصود من تلك الأخبار واضح بعدما عرفت أنّ للإيمان ـ ونعني به هنا التصديق التامّ الخالص بالله وبرسوله والأئمّة الأطهار عليهم صلوات الله الملك الجبّار ـ ولمعرفتهم مراتب ودرجات، ولكلّ مرتبة ودرجة أحكام وحدود مختصّة بها ما دام صاحبها فيها ولم يترقّ إلى ما فوقها، فإذا أخذ بالحظّ الوافر والنصيب المتكاثر انقلب أحكامه وتكاليفه، كما انشرح صدره الذي كان ضيّقاً بنور معرفة الله وأوليائه، والعلم بحقائق الأشياء كما هي، فيرى حينئذ أنّ ما كان عليه قبل ذلك كفر، لإحاطته بقصور المقام ونقصانه بالنسبة إلى ما هو عليه من المرتبة والكمال، كما أنّه وهو في تلك الحالة لو كشف له ما لم يصل إليه يراه كفراً، لعجزه عن دركه ومخالفته لما بنى عليه أمره.

ومن هنا كانوا عليهم السلام يمسكون عن أشياء كان علمها مختصاً بذوي الهمم العالية والقلوب الصافية، وذلك واضح بعد التتبّع في تراجم الرواة وأصحاب الأئمّة الهُداة»[(٢)].

وهذا ما نجده واضحاً في ذريح المحاربي كما روى الصدوق بسند صحيح عن عبد الله بن سنان، قال: «أتيت أبا عبد الله الصادق عليه السلام فقلت له: جُعلت فداك ما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ ؟

(١) **اختيار معرفة الرجال**: ج١ ص٥٢، الرقم: ٢٥.

(٢) **نفَس الرحمان في فضائل سلمان**: ميرزا حسين النوري الطبرسي، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، الطبعة الأولى ١٤١١، مؤسّسة الآفاق، ص٢٢٣.

قال عليه السلام: **أخذ الشارب وقصّ الأظافير وما أشبه ذلك.**

قال قلت له: جعلت فداك فإنّ ذريحاً المحاربي حدّثني عنك، أنّك قلت: **ليقضوا تفثهم: لقاء الإمام. وليوفوا نذورهم: تلك المناسك؟**

قال عليه السلام: **صدق ذريح وصدقت، إنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ومن يحتمل ما يحتمل ذريح؟!»**[1].

ولذا نجد أنّ سفيان بن سعيد الثوري عندما يطلب من الإمام الصادق عليه السلام ويقول: يابن رسول الله بيِّن لي أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان، وعلّمني ممّا علّمك الله؟

يقول عليه السلام: «**يابن سعيد، لولا أنّك أهلٌ للجواب ما أجبتك، فنون مَلَك يؤدّي إلى القلم وهو مَلَك، والقلم يؤدّي إلى اللّوح وهو مَلَك، واللّوح يؤدّي إلى إسرافيل، وإسرافيل يؤدّي إلى ميكائيل، وميكائيل يؤدّي إلى جبرئيل، وجبرئيل يؤدّي إلى الأنبياء والرُّسل صلوات الله عليهم.**

قال: ثمّ قال: **قم يا سفيان، فلا نأمن عليك»**[2].

وبهذا يتّضح أنّ أصحاب الأئمّة لم يكونوا على درجة واحدة، ولذا اختلفت إجابات الأئمّة عليهم السلام في المسألة الواحدة باختلاف درجات ومقامات السائلين.

---

(١) **من لا يحضره الفقيه**، رئيس المحدّثين أبو جعفر الصدوق محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، المتوفّى: ٣٨١هـ دار صعب، دار التعارف، بيروت: ١٤٠١هـ، حقّقه وعلّق عليه سيّدنا الحجّة السيّد حسن الموسوي الخرسان: باب قضاء التفث: ١٩٦، الحديث: ١٤٣٧، ج٢ ص٢٩٠.

(٢) **البرهان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٨ ص٨٤.

## المبحث الثالث: التكليف إزاء الأحاديث الصعبة المستصعبة

بنحو عامّ فإنّ الأصل الأوّلي الذي ورد في كلمات النبيّ صلّى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، هو بيان معارفهم ونشرها بين الناس، والنصوص التي تحدّثت عن ذلك كثيرة، منها:

• ما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **اللّهُمَّ ارحم خلفائي** ثلاث مرّات. قيل: يا نبيّ الله، ومَن خلفاؤك؟ قال صلّى الله عليه وآله: **الذين يأتون من بعدي ويروون أحاديثي، ويعلّمونها الناس من بعدي**»(١).

• قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**من الصدقة أن يتعلّم الرجل العلم ويعلّمه الناس**»(٢).

• وقال صلّى الله عليه وآله: «**زكاة العلم تعليمه من لا يعلمه**»(٣).

• وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**لكلّ شيء زكاة، وزكاة العلم أن يعلّمه أهله**»(٤).

• وقال صلّى الله عليه وآله: «**ما تصدّق الناس بصدقة مثل علم ينشر**»(٥).

• وقال صلّى الله عليه وآله: «**ما أهدى المرء المسلم على أخيه هديّة أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى ويردّه عن ردى**»(٦).

---

(١) **صحيفة الإمام الرضا**، تحقيق: محمّد مهدي نجف، المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، سنة الطبع ١٤٠٦: الحديث رقم ٧٣، ص٥٦.

(٢) **بحار الأنوار**: ج٢ ص٢٤، كتاب العلم، الباب: ٨، الحديث: ٧٩.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٢٥، الحديث: ٨٠ .

(٤) المصدر السابق: ج٢ ص٢٥، الحديث: ٨١ .

(٥) المصدر السابق: ج٢ ص٢٥، الحديث: ٨٧ .

(٦) المصدر السابق: ج٢ ص٢٥، الحديث: ٨٨ .

عن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: «سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: **رحم الله عبداً أحيا أمرنا**، فقلت له: وكيف يُحيي أمركم؟ قال: **يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا**»(١).

وقد بيّن القرآن الكريم الطرق التي لابدّ من اتّباعها لبيان المعارف والحقائق من خلال قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

والتأمّل في موارد استعمال هذه الاصطلاحات «يعطي أنّ المراد بالحكمة ـ والله أعلم ـ الحجّة التي تنتج الحقّ الذي لا مرية فيه ولا وهن ولا إبهام. والموعظة هو البيان الذي تلين به النفس ويرقّ له القلب، لما فيه من صلاح حال السامع من العِبر وجميل الثناء ومحمود الأثر ونحو ذلك. والجدال هو الحجّة التي تستعمل لفتل الخصم عمّا يصرّ عليه وينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحقّ بالمؤاخذة عليه من طريق ما يتسلّمه هو والناس أو يتسلّمه هو وحده في قوله أو حجّته.

فينطبق ما ذكر في الآية من الحكمة والموعظة والجدال بالترتيب على ما اصطلحوا عليه في فنّ الميزان بالبرهان والخطابة والجدل»(٢).

ولعلّ ذكر هذه الطرق بهذا النحو للإشارة إلى أنّها مترتّبة حيث ترتّب أفهام الناس في استعدادها لقبول الحقّ، فمن الناس خواصّ وهم أصحاب نفوس قويّة الاستعداد لإدراك المعاني، قويّة الانجذاب إلى المبادئ العالية،

---

(١) **عيون أخبار الرضا**: ج١ ص٢٧٥، الباب ٢٨ فيما جاء عن الإمام علي بن موسى من الأخبار المتفرّقة، الحديث: ٩٦.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج١٢ ص٣٧١.

مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه، وهؤلاء يُدعون بالحكمة، وهي البرهان. ومنهم عوامّ، وهم أصحاب نفوس كدرة، ضعيفة الاستعداد، شديدة الألفة بالمحسوسات، قويّة التعلّق بالرسوم والعادات، قاصرة عن درجة البرهان، لكن لا عناد عندهم، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة. ومنهم أصحاب العناد واللجاج الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحقّ، ويكابرون ليطفئوا نور الله بأفواههم، رسخت في نفوسهم الآراء الباطلة، وغلب عليهم تقليد أسلافهم في مذاهبهم، لا تنفعهم المواعظ والعبر، ولا يهديهم سائق البراهين، وهؤلاء هم الذين أُمر بمجادلتهم بالتي هي أحسن.

لكن ما ينبغي الالتفات إليه أنّ هناك مجموعة من القواعد والضوابط لابدّ من مراعاتها في هذا المجال، ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

## القسم الأوّل: قواعد تتعلّق بالمتكلّم

١ ـ من القواعد الأساسيّة التي ينبغي التوفّر عليها لكلّ من يريد تبيين هذه المعارف والحقائق التي وصفت بأنّها «صعبة مستصعبة» القاعدة التي وردت على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين حيث قال: «**إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم**»[1]؛ أي على قدر ما تدركه عقولهم من المعارف والحقائق.

قال المازندراني: «لأنّ الحكيم يراعي في تعليم العقول المتحيّرة في تيه الضلالة والنفوس المنكدرة برين الغواية، وتأديبها بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق والفضائل وتخليصها عن غواشي الأوهام، ما يناسبها ويبلغ إليه فهمها وينتهي إليه دركها، وقد يُلبس المطالب بكسوة الأمثال

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٣، كتاب العقل والجهل، الحديث: ١٥.

لعلّهم يفهمون، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٢٥)»[١].

ويعود السبب في ذلك إلى ما أشرنا إليه من اختلاف درجات الناس في قابليّاتهم واستعداداتهم لتحمّل هذه المعارف والحقائق، فلا يصحّ التعامل مع الجميع على نحو واحد، لذا ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**إنّما يداقُّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدُّنيا**»[٢].

من هنا جاء التوجيه العامّ أنّه ينبغي التعامل مع كلّ درجة من الدرجات بحسب تلك الدرجة، وأنّه لا ينبغي أن نبرأ ممّن هو دوننا في المعرفة، وأن لا نُسقط من هو أسفل منّا في درجات الإيمان.

• عن ابن مسكان عن سدير قال: قال لي أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**إنّ المؤمنين على منازل، منهم على واحدة، ومنهم على اثنتين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ستّ، ومنهم على سبع. فلو ذهبتَ تحمّل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقوَ، وعلى صاحب الثنتين ثلاثاً لم يقو، وعلى صاحب الثلاث أربعاً لم يقو، وعلى صاحب الأربع خمساً لم يقو، وعلى صاحب الخمس ستّاً لم يقو، وعلى صاحب الستّ سبعاً لم يقو، وعلى هذه الدرجات**»[٣].

• عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**يا عبد العزيز إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السُلَّم يُصعد منه مرقاة بعد**

---

(١) **شرح الأصول والروضة من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٣٧٩.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص١١، كتاب العقل والجهل، الحديث: ٧.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٥، كتاب الإيمان والكفر، باب آخر منه، الحديث: ٣.

**مرقاة، فلا يقولنّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء، حتّى ينتهي إلى العاشر، فلا تُسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منه بدرجة فارفعه إليك برفق، ولا تحملنّ عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنّ من كسر مؤمناً فعليه جبره»**[١].

• عن يعقوب بن الضحّاك، عن رجل من أصحابنا سرّاج وكان خادماً لأبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «بعثني أبو عبد الله عليه السلام في حاجة ـ وهو بالحيرة ـ أنا وجماعة من مواليه. قال: فانطلقنا فيها ثمّ رجعنا مغتمّين.قال: وكان فراشي في الحائر الذي كنّا فيه نزولاً، فجئت وأنا بحال، فرميت بنفسي، فبينا أنا ذلك إذا أنا بأبي عبد الله عليه السلام قد أقبل فقال: **قد أتيناك** أو قال: **جئناك**. فاستويت جالساً وجلس على صدر فراشي، فسألني عمّا بعثني له، فأخبرته.

فحمد الله، ثمّ جرى ذكر قوم فقلت: جُعلت فداك إنّا نبرأ منهم، إنّهم لا يقولون ما نقول.

قال فقال: **يتولّونا ولا يقولون ما تقولون، تبرؤون منهم؟** قال قلت: نعم، قال: **فهو ذا عندنا ما ليس عندكم، فينبغي لنا أن نبرأ منكم؟** قال قلت: لا ـ جعلت فداك ـ.

قال: **وهو ذا عند الله ما ليس عندنا، أفتراه اطرحنا؟** قال قلت: لا والله، جعلت فداك ما نفعل؟ قال: **فتولّوهم ولا تبرؤوا منهم، إنّ من المسلمين من له سهم، ومنهم من له سهمان، ومنهم من له ثلاثة أسهم، ومنهم من له أربعة أسهم، ومنهم من له خمسة أسهم، ومنهم من له ستّة أسهم، ومنهم من له سبعة أسهم، فليس ينبغي أن يحمل صاحب السهم على ما عليه صاحب**

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٤٤، الحديث: ٢.

**السهمين»**[1] وهكذا إلى الآخر.

لذا ورد عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «**حدّثوا الناس بما يعرفون ولا تحمّلوهم ما لا يطيقون**»[2].

٢ ـ ومن القواعد الأخرى التي أشارت إليها النصوص، والتي تندرج ضمن القاعدة السابقة بشكل أو بآخر، أنّ من الحقائق والمعارف ما لا ينبغي بيانها لبعض الناس، بل لابدّ من صونها عن غير أهلها.

• عن حميد الطويل قال: سمعت أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «**لا تحدّثوا الناس بما لا يعرفون، أتحبّون أن يُكذَّب الله ورسوله**»[3].

• عن معروف بن خربود، عن أبي الطفيل عامر بن وائلة، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أتحبّون أن يُكذَّب الله ورسوله؟ حدِّثوا الناس بما يعرفون، وأمسكوا عمّا ينكرون**»[4].

• عن عبد الأعلى بن أعين قال: قال أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام: «**رحم الله عبداً استجرّ مودّة الناس إلى نفسه وإلينا، بأن يُظهر لهم ما يعرفون، ويكفّ عنهم ما ينكرون**»[5].

• عن إسحاق بن عمّار الصيرفي عن عبد الأعلى بن أعين، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «**ليس هذا الأمر معرفته وولايته فقط، حتّى**

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٤٣، باب درجات الإيمان، الحديث: ٢.

(٢) **كتاب الغيبة**، النعماني: ص٣٥، الباب الأوّل، ما روي في صون سرّ آل محمّد، الحديث: ٤.

(٣) المصدر السابق: ص٣٤، الحديث: ٢.

(٤) المصدر السابق: ص٣٣، الحديث: ١.

(٥) المصدر السابق: ص٣٤، الحديث: ٣.

**تستره عمّن ليس من أهله، وبحسبكم أن تقولوا ما قلنا وتصمتوا عمّا صمتنا، فإنّكم إذا قلتم ما نقول وسلّمتم لنا فيما سكتنا عنه، فقد آمنتم بمثل ما آمنّا به، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾»**(١).

• عن أبي بصير ومحمّد بن مسلم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**خالطوا الناس بما يعرفون، ودعوهم عمّا ينكرون، ولا تحملوهم على أنفسكم وعلينا، إنّ أمرنا صعبٌ مستصعب**»(٢).

من هنا نجد أنّ الفلاسفة والعرفاء أكّدوا هذه الحقيقة، وأنّه لا ينبغي بيان هذه المعارف الدقيقة والعميقة إلاّ لأهلها؛ قال ابن سينا في آخر «الإشارات»: «فإن وجدت من تثق بنقاء سريرته واستقامة سيرته وبتوقّفه عمّا يسرّع إليه الوسواس وبنظره إلى الحقّ بعين الرِّضا والصدق، فأته ما يسألك منه مدرّجاً مجزّءاً مفرّقاً، تستفرس ممّا تسلفه لما تستقبله، وعاهده الله بأيمان لا مخارج لها، ليجري فيما يأتيه مجراك متأسّياً بك، فإن أذعت هذا العلم أو أضعته فالله بيني وبينك وكفى بالله وكيلاً»(٣).

وقال الشيرازي: «اللّهُمَّ اجعل قبور هذه الأسرار صدور الأحرار، واحرسها عن استراق أسماع الأشرار المطرودة عن عالم الأنوار، ربِّ اجعل هذه الكلمات في روضة من رياض الجنّة، ولا تجعلها في حفرة من حفر النيران»(٤).

---

(١) المصدر السابق: ص٣٥، الحديث: ٤.

(٢) **الخرائج والجرائح**: ج٢ ص٧٩٤، الباب السادس عشر، في نوادر المعجزات.

(٣) **الإشارات والتنبيهات**، للشيخ أبي علي حسين بن عبد الله بن سينا، الطبعة الثانية: ١٤٠٣، في علم ما قبل علم الطبيعة: ج٣ ص٤١٩.

(٤) **الشواهد الربوبيّة في المناهج السلوكيّة**، تأليف: محمّد بن إبراهيم صدر الدِّين الشيرازي، مع حواشي الحكيم ملاّ هادي السبزواري، تعليق وتصحيح ومقدّمة: سيّد =

وهذا ما أوصى به النبيّ عيسى بن مريم أصحابه كما ورد عن يونس بن عبد الرحمن عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قام عيسى بن مريم عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تحدّثوا الجهّال بالحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم**»[١].

لذا علّق المازندراني على هذا الكلام بقوله: «إذا تأمّلت بمضمون هذا الكلام علمت أنّ أكثر الناس حريّ بكتمان الحكمة عنه، وكذلك كتَمَها جميعُ الأئمّة والأنبياء عليهم السلام، كما يظهر لمن تفكّر في آثارهم، وقال بعض الأكابر ـ ونِعْمَ ما قال ـ: صدور الأبرار قبور الأسرار.

ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أنّ العقول متفاوتة تفاوتاً فاحشاً في الضياء واستعداد العلوم وقبولها؛ فبعضها لا يكون له نور واستعداد للعلوم أصلاً، وبعضها له استعداد لبعض العلوم دون بعض، وبعضها له استعداد إلى حدّ لا إلى ما فوقه من اللطايف والدقايق، وبعضها له استعداد لجميع العلوم وما فيه من الدقّة والغموض.

والمعلّم الحكيم ينبغي أن يراعي حال العقول وتفاوت مراتبها، ويمنع العلم من يستحقّ المنع، ويعلّمه من يستحقّ التعليم، ويضع كلّ عقل في موضعه ولا يتجاوز عنه لئلاّ يورده مورد الهلكة»[٢].

لذا قال ابن مسعود: «ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلاّ كان لبعضهم فتنة»[٣].

---

= جلال الدِّين اشتياني: ص٣.

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٤٢، كتاب فضل العلم، باب بذل العلم، الحديث: ٤.

(٢) **شرح الأصول والروضة**، المازندراني: ج١ ص١٣٨.

(٣) **صحيح مسلم**: ص٢٣، مقدّمة مسلم، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذّابين.

وهذا ما نجده واضحاً في التحذير من بيان ما لا ينبغي بيانه لغير أهله في نصوص كثيرة، منها:

• عن الحسن بن السرّي قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إنّي لأحدّث الرجل الحديث، فينطلق فيُحدّث به عنّي كما سمعه، فأستحلّ به لعنه والبراءة منه**».

قال النعماني: يريد عليه السلام بذلك أن يحدّث من لا يحتمله ولا يصلح له أن يسمعه(١).

• وعن المفضّل قال: «أخذ أبو عبد الله الصادق عليه السلام بيدي وقال لي: **يا مفضّل إنّ هذا الأمر ليس بالقول فقط، لا والله حتّى يصونه كما صانه الله ويشرّفه كما شرّفه الله ويؤدّي حقّه كما أمر الله**»(٢).

## القسم الثاني: ما يتعلّق بالمتلقّي والسامع

بعد أن تبيّن أنّ المتكلّم لابدّ أن يراعي بعض القواعد حين الحديث عن هذه المعارف الدقيقة والعميقة، نحاول الوقوف على القواعد والضوابط التي لابدّ للسامع والمتلقّي حين يُلقى إليه مثل هذه الأحاديث الصعبة المستصعبة.

وقد بيّن القرآن الكريم ـ بشكل عامّ ـ القاعدة الأساسيّة في هذا المجال، كما جاء في النصّ الوارد عن يونس عن أبي يعقوب إسحاق بن عبد الله عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله حصّن عباده بآيتين من كتابه: أن لا يقولوا حتّى يعلموا، ولا يردّوا ما لم يعلموا، إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول:**

---

(١) **كتاب الغيبة**: ص٣٦، باب ما روي في صون سرّ آل محمّد، الحديث: ٧.

(٢) المصدر السابق: ص٣٧، الحديث: ١١.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ (الأعراف: ١٦٩)، **وقال: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾** (يونس: ٣٩)»[١]. فإنّه عليه السلام يريد إثبات هذه الحقيقة، وهي أنّه لا ينبغي أن يردّ الإنسان ما لم يحط بعلمه، لاحتمال أن يكون حقّاً.

من هنا جاءت الروايات لبيان قاعدة وضابطة مهمّة في كيفيّة التعامل مع بعض الأحاديث التي لا يمكن أن تحتملها بعض العقول، حاصلها: أنّه لا يجوز ردّ الحديث الوارد عنهم عليهم السلام إلاّ إذا كان ممّا يقع في دائرة الممتنعات العقليّة، أمّا الحديث الذي يتضمّن ما هو ممكن عقلاً فلا يجوز تكذيبه وردّه وإن لم يمكن فهمه وإدراكه للسامع. فمثلاً إذا وردت أحاديث فيها إعطاء صفة من الصفات المختصّة بالله تعالى كصفة الغنى بالذات أو اللاتناهي للنبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، فمثل هذه النصوص لابدّ من عدم قبولها وردّها.

أمّا إذا كانت الصفة التي وصفوا بها عليهم السلام من الصفات التي يمكن وصف المخلوقين بها، فلا يجوز تكذيبها وجحدها، وإنّما يجب ردّ علمها إلى أهلها. وقد أشارت إلى هذا المعنى عدّة من الروايات، منها:

• عن سفيان بن السمط قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: جعلت فداك! إنّ الرجل ليأتينا من قبلك فيخبرنا عنك بالعظيم من الأمر فيضيق بذلك صدورنا حتّى نكذّبه. قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: **أليس عنّي يحدّثكم؟** قال قلت: بلى. قال: **فيقول للّيل أنّه نهار أو للنهار أنّه ليل؟** قال: فقلت له: لا. قال فقال: **ردّه إلينا، فإنّك إن كذّبت فإنّما**

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**: ج٢ ص٥١٩، باب ما جاء فيمن لا يعرف الحديث فردّ، الحديث: ١٨٩٨.

**تكذّبنا»**[١]. أي ما دام احتمال الصدق وارداً فلا ينبغي الردّ.

• عن المفضّل بن عمر قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**ما جاءكم منّا ممّا يجوز أن يكون في المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردّوه إلينا، وما جاءكم عنّا ممّا لا يجوز أن يكون في المخلوقين فاجحدوه ولا تردّوه إلينا**»[٢].

وهذا هو المراد من التسليم إزاء مثل هذه الأحاديث، كما ورد في نصوص كثيرة، منها:

• قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**من ردّ حديثاً بَلَغه عنّي فأنا مخاصمه يوم القيامة، فإذا بَلَغكم عنّي حديث لم تعرفوا فقولوا: الله أعلم**»[٣].

• قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا سمعتم من حديثنا ما لا تعرفون فردّوه إلينا وقِفوا عنده، وسلّموا حتّى يتبيّن لكم الحقّ**»[٤].

• قال الرضا عليه السلام: «**إنّ العبادة على سبعين وجهاً، فتسعة وستّون منها في الرضا والتسليم لله عزّ وجلّ ولرسوله ولأُولي الأمر صلّى الله عليهم**»[٥].

من هنا بيّنت النصوص الكثيرة أنّ من ردّ حديثاً لم يفهمه ولم يدركه، فإنّه قد يؤدّي إلى تكذيب الله ورسوله صلّى الله عليه وآله والأئمّة من أهل بيته عليهم السلام.

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٥١٩، الحديث: ١٨٩٩.

(٢) **بحار الأنوار**: ج٢٥، ص٣٦٤؛ باب غرائب افعالهم، الحديث: ١.

(٣) **بحار الأنوار**: ج٢ ص٢١٢، كتاب العلم، الباب: ٢٦، الحديث: ١١٤.

(٤) المصدر السابق: ج٢ ص١٨٩، الحديث: ٢٠.

(٥) المصدر السابق: ج٢ ص٢١٢، الحديث: ١١٢.

• عن أبي بصير، عن أبي جعفر الباقر أو أبي عبد الله الصادق عليهما السلام قال: «**لا تكذّبوا بحديث أتاكم من أحد، فإنّكم لا تدرون لعلّه من الحقّ، فتكذّبوا الله فوق عرشه**»(١).

• عن أبي عبيدة الحذّاء عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: سمعته يقول: «**إنّ أحبّ أصحابي إليَّ: أفقههم وأورعهم وأكتمهم لحديثنا، وإنّ أسوأهم عندي حالاً وأمقتهم إليَّ: الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنّا، فلم يحتمله قلبه واشمأزّ منه، جحده وأكفر من دان به، ولا يدري لعلّ الحديث من عندنا خرج وإلينا أُسند، فيكون بذلك خارجاً من ولايتنا**»(٢).

• عن جابر قال: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ حديث آل محمّد صعبٌ مستصعب، لا يؤمن به إلاّ ملك مقرّب أو نبيٌّ مرسل أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان.**

**فما ورد عليكم من حديث آل محمّد فلانت له قلوبكم وعرفتموه فاقبلوه، وما اشمأزّت منه قلوبكم وأنكرتموه، فردّوه إلى الله وإلى الرسول وإلى العالم من آل محمّد عليهم السلام، وإنّما الهالك أن يُحدّث أحدكم بشيء منه لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا شيئاً، والإنكار هو الكفر**»(٣).

• عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنّ حديثنا صعبٌ مستصعب، أجرد ذكوان، وعرٌ شريف كريم، فإذا سمعتم منه شيئاً ولانت له قلوبكم فاحتملتموه فاحمدوا الله عليه، وإن لم تحتملوه ولم**

(١) المصدر السابق: ج٢ ص١٨٦، الحديث: ١٠.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص١٨٦، الحديث: ١٢.

(٣) **بصائر الدرجات الكبرى**: ج١ ص٦٢، باب في أئمّة آل محمّد وأنّ حديثهم صعبٌ مستصعب، الحديث: ٨٦ .

**تطيقوه فردّوه إلى الإمام العالم من آل محمّد عليهم السلام، فإنّما الشقيّ الهالك الذي يقول: والله ما كان هذا.**

ثمّ قال: **يا جابر إنّ الإنكار هو الكفر بالله العظيم**»(١).

وليس المراد بالكفر هنا هو المعنى المصطلح الذي يُخرج صاحبه عن الإسلام، وإنّما المراد كفران النِّعم، كما ورد في جملة من النصوص، منها:

• عن عبد الغفّار الجازي قال: «حدّثني من سأله ـ يعني الصادق عليه السلام ـ هل يكون كفر لا يبلغ الشرك؟ قال: **إنّ الكفر هو الشرك**، ثمّ قام فدخل المسجد فالتفت إليَّ وقال: **نعم، الرجل يحمل الحديث إلى صاحبه فلا يعرفه فيردّه عليه، فهي نعمة كفّرها ولم يبلغ الشرك**»(٢).

والحاصل: أنّ الروايات تؤكّد بشكل مكثّف أنّه لا ينبغي ردّ ما لا يفهمه ولا يحتمله الإنسان، لعلّ فيه حقّاً، وهذا ما ورد في خواصّ تلامذتهم وأصحابهم فكيف بغيرهم؟

• عن الحسن بن موسى عن زرارة قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فسألني: **ما عندك من أحاديث الشيعة؟** قلت: إنّ عندي منها شيئاً كثيراً قد هممت أن أوقد لها ناراً ثمّ أحرقها. قال: **ولِمَ؟ هات ما أنكرت منها**، فخطر على بالي بعض الأمور.

فقال لي: «**ما كان علم الملائكة حيث قالت: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾**».

علّق المجلسي على هذا النصّ بقوله: «لعلّ زرارة كان ينكر أحاديث من فضائلهم لا يحتملها عقله، فنبّهه عليه السلام بذكر قصّة الملائكة وإنكارهم

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٦٥، الحديث: ٩٥.

(٢) **بحار الأنوار**: ج٢ ص١٨٨، كتاب العلم، الباب: ٢٦، الحديث: ١٧.

فضل آدم عليه السلام وعدم بلوغهم إلى معرفة فضله، على أنّ نفي هذه الأمور من قلّة المعرفة، ولا ينبغي أن يكذّب المرء ما لم يحط به علمه، بل لابدّ أن يكون في مقام التسليم، فمع قصور الملائكة مع علوّ شأنهم عن معرفة آدم لا يبعد عجزك عن معرفة الأئمّة عليهم السلام»[١].

## الخلاصة

١ ـ إنّ المعارف التي توفّر عليها أهل البيت على أقسام:

القسم الأوّل: المعارف التي لا يتحمّلها إلاّ شيعتهم.

القسم الثاني: المعارف التي لا يتحمّلها إلاّ خواصّ شيعتهم.

القسم الثالث: المعارف التي لا يتحمّلها إلاّ هم عليهم السلام.

٢ ـ السبب في اشتمال أحاديث أهل البيت عليهم السلام على الصعب المستصعب، وتتوقّف معرفة سبب ذلك على بيان مقدّمتين:

المقدّمة الأولى: وجود المحكم والمتشابه في أحاديثهم عليهم السلام، والسبب في وجود المحكم والمتشابه في أحاديثهم عليهم السلام هو أنّ في أحاديثهم عليهم السلام ظاهراً وباطناً وسرّاً وعلناً، وهي لوازم لا تنفكّ عن كلامهم عليهم السلام، كما نصّت على ذلك روايات متضافرة، بمعنى أنّ المعارف التي يلقيها أهل البيت عليهم السلام إلى الناس لها مراتب متعدّدة، بعضها لا تتحمّلها العقول العادية.

المقدّمة الثانية: تفاوت الناس في استعداداتهم في الفهم والإدراك للمعارف التي يلقيها أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) المصدر السابق: ج٢٥ ص٢٨٢، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة، الحديث: ٢٨.

ومن هنا نجد توفّر أحاديثهم على صعب مستصعب، لعلوّ معارفهم، وعدم إمكان إدراكها من قبل الآخرين.

**٣ ـ التكليف إزاء الأحاديث الصعبة المستصعبة:**

إنّ الأصل الأوّلي الذي أشارت إليه رواياتهم عليهم السلام هو بيان معارفهم ونشرها بين الناس، إلاّ أنّه يجب مراعاة عدد من الضوابط، بعضها خاصّة بالمتكلِّم من قبيل تكليم الناس على حسب عقولهم، وأخرى خاصّة بالسامع، وهو عدم ردّ الإنسان للأحاديث التي لا يحيط بها علماً لاحتمال كونها حقّاً.

# الفصل العاشر

# الغلوّ

# حقيقته وأقسامه

## تمهيد

من الأبحاث المهمّة التي تتعلّق بمقامات النبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام بحث الغلوّ، ومن المعلوم أنّ هذا البحث غير منحصر ببحث علم الإمام فقط، وإنّما هو شامل لعموم الفضائل والمقامات التي حاز عليها أهل البيت عليهم السلام، سواء ما يتعلّق بسعة دائرة علمهم عليهم السلام الشاملة لعلم الغيب، أو ما يتعلّق بمقاماتهم عليهم السلام ودرجاتهم الرفيعة عند الله تعالى، حيث نشأ عند البعض التباس حيال هذه المقامات والدرجات وأنّها من الغلوّ.

قال المجلسي: «أفرط بعض المتكلّمين والمحدِّثين في الغلوّ لقصورهم عن معرفة الأئمّة عليهم السلام وعجزهم عن إدراك غرائب أحوالهم وعجائب شؤونهم، فقدحوا في كثير من الرّواة الثقات، لنقلهم بعض غرائب المعجزات، حتّى قال بعضهم: من الغلوّ نفي السهو عنهم، أو القول بأنّهم يعلمون ما كان وما يكون وغير ذلك.

فلابدّ للمؤمن المتديّن أن لا يبادر بردّ ما ورد عنهم من فضائلهم ومعجزاتهم ومعالي أمورهم، إلاّ إذا ثبت خلافه بضرورة الدِّين أو بقواطع البراهين بالآيات المحكمة أو بالأخبار المتواترة كما مرّ في باب التسليم وغيره»[1].

---

(١) **بحار الأنوار**: ج٢٥ ص٣٤٧، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة، فذلكة.

من هنا سوف ينصبّ البحث في هذا الفصل لدرء ومعالجة هذه الشبهة، ضمن المباحث التالية:

## المبحث الأوّل: الغلوّ في اللّغة والاستعمال الشرعي

أمّا الغلوّ في اللغة، قال ابن منظور: «وغلا في الدِّين والأمر يغلو غُلُوّاً: جاوز حدّه. وقال بعضهم: غلوت في الأمر غُلوّاً إذا جاوزت فيه الحدّ وأفرطت فيه. وفي الحديث: إيّاكم والغلوّ في الدِّين أي التشدّد فيه ومجاوزة الحدّ»(١).

وقال الطريحي: «غلا في الدِّين غُلُوّاً من باب قعد: تصلّب وتشدّد حتّى تجاوز الحدّ والمقدار»(٢).

وقال الراغب: «الغلوّ: تجاوز الحدّ، يُقال ذلك إذا كان في السعر غلاء»(٣).

وبهذا يتّضح أنّ المعنى اللغوي للغلوّ، هو مجاوزة الحدّ للشيء، سواء كان في المعتقدات الدينيّة أو غيرها.

أمّا الغلوّ في النصّ الديني فينبغي بيان موارد استعماله في القرآن والروايات وكلمات الأعلام:

### الغلوّ في القرآن

ورد لفظ الغلوّ في القرآن في موضعين:

• قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى

---

(١) **لسان العرب**، مصدر سابق: ج١٠ ص١١٢، مادّة غلا.

(٢) **مجمع البحرين**، مصدر سابق: ج١ ص٣١٨، مادّة: غلا.

(٣) **المفردات في غريب القرآن**، مصدر سابق: ص٣٦٤، مادّة: غلا.

ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ (النساء: ١٧١).

• وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٧٧).

والآيتان في مقام نهي النصارى عن الغلوّ في عيسى عليه السلام حيث رفعوه عن درجة النبوّة إلى أن اتّخذوه إلهاً كما يحكي ذلك القرآن ذيل الآية الأولى حيث قال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ (النساء: ١٧١)، إشارة إلى نظريّة التثليث التي ادّعاها النصارى، وكذا في الآية التي بعدها حيث قال: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾ (النساء: ١٧٢).

ولم يكن هذا النحو من الغلوّ مقتصراً على النصارى، بل كان موجوداً في اليهود أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠).

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١).

ممّا تقدّم يظهر أنّ الغلوّ في القرآن استُعمل في معنى مجاوزة الحدّ المفترض للمخلوق، والارتفاع به إلى مقام الألوهيّة. قال ابن عاشور: «والغلوّ: تجاوز الحدّ المألوف، مشتقّ من غَلْوة السهم، وهي منتهى اندفاعه، واستعير للزيادة على المطلوب من المعقول أو المشروع في المعتقدات والإدراكات والأفعال. والغلوّ في الدين: أن يُظهر المتديّن ما يفوت الحدّ الذي حدّد له الدِّين»[1].

## الغلوّ في أحاديث أهل البيت

ورد الغلوّ في كلمات أئمّة أهل البيت عليهم السلام في عدد وافر من النصوص الروائيّة التي نهت وحذّرت من الغلوّ والمغالاة فيهم عليهم السلام والارتفاع بهم إلى مقام الألوهيّة والربوبيّة، نشير إلى بعضها:

• عن الفضيل بن عثمان قال: «سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **اتّقوا الله وعظّموا الله، وعظّموا رسول الله صلّى الله عليه وآله. ولا تُفضّلوا على رسول الله صلّى الله عليه وآله أحداً، فإنّ الله تبارك وتعالى فضّله، وأحبّوا أهل بيت نبيّكم حبّاً مقتصداً ولا تغلوا ولا تفرّقوا، ولا تقولوا ما لا نقول، فإنّكم إن قلتم وقلنا ومتّم ومتنا، ثمّ بعثكم الله وبعثنا، فكنّا حيث يشاء الله وكنتم**»[2].

• عن الحسن بن الجهم قال: «حضرت مجلس المأمون يوماً وعنده عليّ بن موسى الرضا عليه السلام وقد اجتمع الفقهاء وأهل الكلام من الفرق

---

(١) **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور التونسي**، مصدر سابق: ج٤ ص٣٣٠.

(٢) **قرب الإسناد**، تأليف: الشيخ الجليل أبي العبّاس عبد الله بن جعفر الحميري (من أعلام القرن الثالث الهجري) تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ: الحديث ٤٥٢، ص١٢٩.

المختلفة، فقال له المأمون: يا أبا الحسن بلغني أنّ قوماً يغلون فيكم ويتجاوزون فيكم الحدّ.

فقال الرضا عليه السلام: حدّثني أبي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمّد عن أبيه محمّد بن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **لا ترفعوني فوق حقّي، فإنّ الله تبارك وتعالى اتّخذني عبداً قبل أن يتّخذني نبيّاً، قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾** (آل عمران: ٧٩ ـ ٨٠).

قال عليّ عليه السلام: **يهلك فيَّ اثنان ولا ذنب لي، محبٌّ مفرط ومبغضٌ مفرط وأنا أبرأُ إلى الله تبارك وتعالى ممّن يغلو فينا ويرفعنا فوق حدّنا كبراءة عيسى بن مريم عليه السلام من النصارى. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾** (المائدة: ١١٦ ـ ١١٧).

ثمّ قال: **فمن ادّعى للأنبياء ربوبيّة، وادّعى للأئمّة ربوبيّة أو نبوّة، أو لغير الأئمّة إمامة، فنحن منه براء في الدّنيا والآخرة»**[1].

---

(١) **عيون أخبار الرضا**: ج٢ ص٢١٧، الباب: ٤٦، ما جاء عن الرضا في وجه دلائل الأئمّة والردّ على الغلاة والمفوّضة، الحديث: ١.

• عن جعفر بن بشير الخزّاز عن إسماعيل بن عبد العزيز قال:

«قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **يا إسماعيل ضع لي في المتوضّأ ماء.** قال: فقمت فوضعت له، قال: فدخل، قال: فقلت في نفسي: أنا أقول فيه كذا وكذا ويدخل المتوضّأ يتوضّأ.

قال: فلم يلبث أن خرج فقال: **يا إسماعيل لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم، اجعلونا مخلوقين وقولوا فينا ما شئتم فلن تبلغوا.** فقال إسماعيل: وكنت أقول إنّه وأقول وأقول»[(١)].

• قال صالح بن سهل: «كنت أقول في الصادق عليه السلام ما تقول الغلاة، فنظر إليَّ وقال: **ويحك يا صالح إنّا والله عبيدٌ مخلوقون، لنا ربٌّ نعبده، وإن لم نعبده عذّبنا**»[(٢)].

وغير ذلك من الروايات التي تأتي الإشارة إليها، حيث يتّضح من مجموعها أنّ المراد من الغلوّ عند أهل البيت عليهم السلام هو مجاوزة الحدّ والارتفاع بهم إلى مقام الألوهيّة، كما يظهر من الروايات التي تنهى عن تأليههم أو رفعهم عن مقام العبوديّة لله تعالى، أو تفويض أمر الخلق إليهم، أو القول بأنّهم أنبياء ونحوها من التعبيرات التي يظهر منها تجاوز حدود مقاماتهم التي ثبتت لهم عليهم السلام.

## الغلوّ في كلمات أعلام المسلمين

ورد تعريف الغلوّ في عدد من كلمات علماء الفريقين، منها:

١ ـ الشيخ المفيد؛ قال: «الغلوّ هو التجاوز عن الحدّ، والخروج عن

---

(١) **بحار الأنوار**: ج٢٥ ص٢٧٩، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ، الحديث: ٢٢.

(٢) **مناقب آل أبي طالب**، محمّد بن علي بن شهرآشوب السروي المازندراني، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، سنة ١٣٧٦، المطبعة الحيدريّة، النجف: ج٣ص٣٤٧.

القصد، والإفراط في حقّ الأنبياء والأئمّة عليهم السلام»[1].

وقال في ذيل قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾: «إنّ الله تعالى نهى عن تجاوز الحدّ في المسيح، وحذّر من الخروج عن القصد وجعل ما ادّعته النصارى فيه غلوّاً لتعدّيه الحدّ»[2].

٢ ـ الشهيد الصدر، قال: «إنّ الغلوّ تارةً يكون بلحاظ مرتبة الألوهيّة، وأخرى بلحاظ مرتبة النبوّة، وثالثة بلحاظ شؤون أخرى من الشؤون الأخرى المتّصلة بصفات الخالق وأفعاله.

أمّا الغلوّ بلحاظ مرتبة الألوهيّة فيتمثّل تارةً في اعتقاد الشخص بأنّ من غلا في حقّه هو الله تعالى، وأخرى في اعتقاده بأنّه غير الله الواجب الوجود إلاّ أنّه شريكه في الألوهيّة واستحقاق العبادة إمّا بنحو عَرْضي أو طولي، وثالثة في اعتقاده بحلول الله واتّحاده مع ذلك الغير.

وكلّ ذلك كفر، أمّا الأوّل فلأنّه إنكار لله، وأمّا الثاني فلأنه إنكار لتوحيده، وأمّا الثالث فلأنّ الحلول والاتّحاد مرجعهما إلى دعوى ألوهيّة غير الله.

وأمّا الغلو بلحاظ مرتبة النبوّة فيتمثّل في اعتقاد المغالي بأنّ من غلا في حقّه أفضل من النبيّ وأنّه همزة الوصل بين النبيّ صلّى الله عليه وآله والله تعالى، أو أنّه مساوٍ له على نحو لا تكون رسالة النبيّ بين الله والعباد شاملة له، وكلّ ذلك يوجب الكفر؛ لمنافاته للشهادة الثانية بمدلولها الارتكازي في

---

(١) **تصحيح اعتقادات الإماميّة**، تأليف: أبي عبد الله محمّد بن محمّد النعمان العكبري البغدادي المفيد، تحقيق: حسين درگاهي، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان: ص١٠٩.

(٢) **أوائل المقالات**، الشيخ أبي عبد الله محمّد بن محمّد النعمان البغدادي المفيد، طبعة إيران، تبريز، ١٣٧٠هـ : ص٢٣٨.

ذهن المتشرّعة، المشتمل على التسليم بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله رسول الله إلى جميع المكلّفين من دون استثناء.

وأمّا الغلوّ بلحاظ الصفات والأفعال بمعنى نسبة صفة أو فعل لشخص ليس على مستواهما، فإن كان اختصاص تلك الصفة أو الفعل بالله تعالى من ضروريّات الدِّين، دخل في إنكار الضروريّ»[1].

٣ ـ الشهرستاني، قال في الملل والنحل: «الغالية، هؤلاء هم الذين غلوا في حقّ أئمّتهم حتّى أخرجوهم من حدود الخليقيّة وحكموا فيهم بأحكام الإلهيّة، فربما شبّهوا واحداً من الأئمّة بالإله، وربما شبّهوا الإله بالخلق، وهم على طرفي الغلوّ والتقصير، وإنّما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلوليّة ومذاهب التناسخيّة ومذاهب اليهود والنصارى، إذ اليهود شبّهت الخالق بالخلق، والنصارى شبّهت الخلق بالخالق، فسرت هذه الشبهات في أذهان الشيعة الغلاة حتّى حكمت بأحكام الإلهيّة في حقّ بعض الأئمّة»[2].

## المبحث الثاني: مناشئ وخلفيّات ظاهرة الغلوّ

لأجل تفسير ظاهرة الغلوّ يمكن القول بوجود عدد من العوامل والمناشئ لهذه الظاهرة.

### المنشأ الأوّل: الأغراض السياسيّة

لعلّنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إنّ العامل الأساس في نشوء ظاهرة الغلوّ، هو الأغراض والأهداف السياسيّة والتسلّط على رقاب الناس،

(١) **بحوث في شرح العروة الوثقى**: ج٣ ص٣٨٤.

(٢) **الملل والنحل**، تأليف: أبي الفتح محمّد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ)، تحقيق: محمّد سيد گيلاني، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٢هـ: ج١ ص١٧٣.

حيث دفع هذا العامل الكثير من الحكّام إلى السعي للحطّ من مكانة أهل البيت عليهم السلام عند الناس ومحاولة إلصاق التّهم بهم، من قبيل القول بتأليههم ووصفهم ببعض الصفات الإلهيّة ونحوها من النعوت الخارجة عن حدّ البشريّة، كلّ ذلك لأجل التقليل من شأنهم ومكانتهم وتكفيرهم، بغية تفريق الناس من حولهم، لأنّ التفاف الناس حول أهل البيت عليهم السلام يهدّد عرش الحكّام المتسلّطين على رقاب الناس من الانبهار كما هو واضح.

وكان من أبرز أساليب الحكّام في نشر ظاهرة الغلوّ، إدخال بعض المغالين ودسّهم في صفوف المسلمين.

يقول الشيخ أسد حيدر في هذا الصدد: «إنّ أعظم شيء على الشيعة هو حمل فرق الغلاة عليهم وإضافتها إليهم، وأستطيع أن أثبت بأنّ تلك الفرق الضالّة آزرتهم السياسة وسهّلت لهم الطرق ليصلوا إلى غايات في نفوسهم من الوقيعة في الشيعة، والحطّ من كرامة أهل البيت، إذ كانوا لا يستطيعون أن ينالوا من عقائدهم أو ينقصوهم بشيء، والأمر واضح كلّ الوضوح، فإنّ مذهب أهل البيت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتعاليمهم هي المحور الذي يدور عليها نظام الإسلام، فكان دخول الغلاة في صفوف الشيعة حركة سياسيّة، أوجدتها عوامل من جهة، والفتك بالإسلام من جهة أخرى»[1].

• وقد كشف الإمام الرضا عليه السلام عن هذه الظاهرة بقوله: «**إنّ مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلوّ، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس**

---

(١) **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة**، مصدر سابق: ج١ ص٢٣٤.

**الغلوّ فينا كفّروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيّتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله عزّ وجلّ:** ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨)»[١].

• وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّا أهل بيت صدِّيقون لا نخلو من كذّاب يكذب علينا، فيسقط صدقنا بكذبه عند الناس**»[٢].

• وقال الإمام الصادق عليه السلام يوماً لأصحابه: «**لعن الله المغيرة بن سعيد، ولعن الله يهوديّة كان يختلف إليها يتعلّم منها السحر والشعبذة والمخاريق، إنّ المغيرة كذب على أبي عليه السلام فسلبه الله الإيمان، وإنّ قوماً كذبوا عليَّ، ما لهم أذاقهم الله حرّ الحديد.**

**فوالله ما نحن إلاّ عبيد الذي خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضرٍّ ولا نفع، وإن رحمنا فبرحمته، وإن عذّبنا فبذنوبنا، والله ما لنا على الله من حجّة، ولا معنا من الله براءة، وإنّا لميّتون ومقبرون ومنشرون...**»[٣].

## المنشأ الثاني: الأطماع الشخصيّة

ومن أبرز نماذج هذا المنشأ: «محمّد بن نصير الفهري» و«حسن بن محمّد القمّي» وقد فضحهما الإمام العسكري عليه السلام كما في قوله: «**أبرأُ إلى الله من الفهري والحسن بن محمّد بن بابا القمّي، فابرأ منهما، فإنّي محذّرك وجميع**

---

(١) **عيون أخبار الرضا**: ج١ ص٢٧٢، الباب: ٢٨، فيما جاء عن الإمام موسى بن جعفر من الأخبار المتفرّقة، الحديث: ٦٣.

(٢) **بحار الأنوار**: ج٢٥ ص٢٨٧، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة، الحديث: ٤٢.

(٣) المصدر السابق: ج٢٥ ص٢٨٩، الحديث: ٤٦.

**مواليّ، وإنّي ألعنهما عليهما لعنة الله، مستأكلين يأكلان بنا الناس، فتّانين مؤذيين، آذاهما الله وأركسهما في الفتنة ركساً.**

**يزعم ابن بابا أنّي بعثته نبيّاً وأنّه باب، عليه لعنة الله، سخر منه الشيطان فأغواه، فلعن الله من قبل منه ذلك، يا محمّد إن قدرت أن تشدخ رأسه بالحجر فافعل، فإنّه قد آذاني آذاه الله في الدُّنيا والآخرة»**[1].

وذلك أنّهما كانا من كبار الغلاة، وقد ادعى «محمّد بن نصير الفهري» أنّه نبيّ رسول، وأنّ عليّ بن محمّد العسكري أرسله، وكان يقول بالتناسخ والغلوّ في أبي الحسن عليه السلام[1].

## المنشأ الثالث: الانحطاط الفكري

إنّ عدم الوعي وفقدان القدرة على عدم فهم حقيقة العبوديّة، والانبهار بكرامات الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وعدم التمييز والتمحيص للأحاديث الموضوعة التي وضعها المدلّسون، كان من العوامل وراء نشأة ظاهرة الغلوّ، وهذا ما بيّنه الإمام الرضا عليه السلام في جواب من قال: يابن رسول الله إنّهم يزعمون أنّ عليّاً لمّا أظهر من نفسه المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله، دلّ على أنّه إله، ولمّا ظهر لهم بصفات المحدثين العاجزين لبّس عليهم وامتحنهم ليعرفوه وليكون إيمانهم به اختياراً من أنفسهم.

فقال عليه السلام: «**إنّ هؤلاء الضلاّل الكفرة ما أتوا إلاّ من قبل جهلهم بمقدار أنفسهم حتّى اشتدّ إعجابهم وكثر تعظيمهم لما يكون منها، فاستبدّوا بآرائهم الفاسدة واقتصروا على عقولهم المسلوك بها غير سبيل الواجب حتّى استصغروا قدر الله واحتقروا أمره وتهاونوا بعظيم شأنه، إذ لم يعلموا أنّه القادر**

---

(١) **اختيار معرفة الرجال**، المعروف برجال الكشّي، مصدر سابق: ج٢ ص٨٠٥.

**بنفسه الغنيّ بذاته الذي ليست قدرته مستعارة ولا غناه مستفاداً، والذي من أشاء أفقره ومَن أشاء أغناه، ومن أشاء أعجزه بعد القدرة وأفقره بعد الغنى»**[(١)].

وغير ذلك من الأساليب التي أدّت إلى نشوء ظاهرة الغلوّ.

## المبحث الثالث: مقولات الغلاة في أهل البيت

تنوّعت ادّعاءات ومقولات الغلاة بحقّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام بين الادّعاء لهم بالألوهيّة والنبوّة والتفويض والقول بتناسخ أرواحهم أو الحلول ونحوها من المقولات.

من هنا نحاول الوقوف على أهمّ هذه المقولات ومناقشتها.

### المقولة الأولى: ادّعاء الألوهيّة للنبيّ والإمام

من المقولات المشهورة بين الغلاة ادّعاء الألوهيّة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام خصوصاً والأئمّة من ذرّيته عليهم السلام عموماً.

قال أبو الحسن الأشعري: «من أصناف الغالية يزعمون أنّ عليّاً هو الله، ويكذّبون النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ويشتمونه ويقولون إنّ عليّاً وجّه به ليبيّن أمره، فادّعى الأمر لنفسه»[(٢)].

ومنهم كأبي الخطّاب زعم: «أنّ الأئمّة كانوا أنبياء، ثمّ زعم أنّهم آلهة، وأنّ أولاد الحسن والحسين كانوا أبناء الله وأحبّاءه»[(٣)].

---

(١) **بحار الأنوار**: ج٢٥ ص٢٧٦، الحديث: ٢٠.

(٢) **مقالات الإسلاميّين واختلاف المُصلّين**، تأليف: الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (المتوفي ٣٢٤هـ)، عنى بتصحيحه: هلموت ريتر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ: ص١٤.

(٣) **بحوث في الملل والنحل**، تأليف: العلاّمة الفقيه الشيخ جعفر السبحاني، مؤسّسة الإمام الصادق، إيران ـ قم، الطبعة الأولى ١٤١٦: ج٧ ص١٦.

وقد قرّر الشيخ المفيد هذا الادّعاء بقوله: «والغلاة من المتظاهرين بالإسلام الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمّة من ذرّيته عليهم السلام إلى الألوهيّة، ووصفوهم من الفضل في الدِّين والدُّنيا إلى ما تجاوز فيه الحدّ وخرجوا عن القصد»[١].

وأخرج أحمد بن حنبل عن ربيعة بن ناجد عن عليّ رضي الله عنه قال: **«قال لي النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: فيك مَثَل من عيسى، أبغضته اليهود حتّى بهتوا أُمّه، وأحبّته النصارى حتّى أنزلوه بالمنزلة التي ليس به؛ ثمّ قال: يهلك فيَّ رجلان؛ محبٌّ مطري يفرطني بما ليس فيَّ، ومبغضٌ مفتر يحمله شنآني على أن يبهتني»**[٢].

وقال الحاكم في المستدرك: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»[٣].

وعن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **«يا عليّ مثلك في أُمّتي مثل المسيح عيسى بن مريم، افترق قومه ثلاث فرق: فرقة مؤمنون وهم الحواريّون، وفرقة عادوه وهم اليهود، وفرقة غلوا فيه فخرجوا عن الإيمان، وإنّ أمّتي ستفترق فيك ثلاث فرق؛ ففرقة شيعتك وهم المؤمنون، وفرقة عدوّك وهم الشاكّون، وفرقة تغلو فيك وهم الجاحدون»**[٤].

من هنا تصدّى أئمّة أهل البيت عليهم السلام بشدّة لإبطال ودحض هذه المقولة، بالتأكيد أنّهم عبيد مربوبون، في نصوص كثيرة، منها:

---

(١) **تصحيح اعتقادات الإماميّة**، مصدر سابق: ص١٣١.

(٢) **مسند أحمد بن حنبل**، مصدر سابق: ج١ ص١٦٠.

(٣) **المستدرك على الصحيحين**، مصدر سابق: ج٣ ص١٢٣.

(٤) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٢٥ ص٢٦٤، الحديث: ٤.

• قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إيّاكم والغلوّ فينا، قولوا إنّا عبيد مربوبون، وقولوا في فضلنا ما شئتم**»[١].

• وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ لنا ربّاً يكلأنا بالليل والنهار نعبده، يا مالك ويا خالد قولوا فينا ما شئتم واجعلونا مخلوقين**»[٢].

• عن حنان بن سدير عن أبيه قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: إنّ قوماً يزعمون أنّكم آلهة. قال: **يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء، برئ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ودين آبائي، والله لا يجمعني وإيّاهم يوم القيامة إلاّ وهو عليهم ساخط.**

قال قلت: فما أنتم جعلت فداك؟

قال: **خزّان علم الله وتراجمة وحي الله ونحن قومٌ معصومون، أمر الله بطاعتنا ونهى عن معصيتنا، نحن الحجّة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض**»[٣].

• وقال الإمام الصادق عليه السلام في حقّ صالح بن سهل الذي ادّعى الربوبيّة للإمام عليه السلام: «**ويحك يا صالح إنّا والله عبيدٌ مخلوقون، لنا ربٌّ نعبده، وإن لم نعبده عذّبنا**»[٤].

• عن أبان بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «**لعن الله عبد الله بن سبأ إنّه ادّعى الربوبيّة في أمير المؤمنين عليه السلام، وكان والله أمير المؤمنين عليه السلام عبداً لله طائعاً. الويل لمن كذب علينا، وإنّ قوماً يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، نبرأ إلى الله منهم، نبرأ إلى الله منهم**»[٥].

---

(١) المصدر السابق: ج٢٥ ص٢٧٠، الحديث: ١٥.
(٢) المصدر السابق: ج٢٥ ص٢٨٩، الحديث: ٤٥.
(٣) المصدر السابق: ج٢٥ ص٢٩٨، الحديث: ٦٢.
(٤) **مناقب آل أبي طالب**، مصدر سابق: ج٣ ص٣٤٧.
(٥) **اختيار معرفة الرجال** (رجال الكشي)، مصدر سابق: ج١ ص٣٢٤، الحديث: ١٧٢.

• عن أبي حمزة الثمالي قال: قال عليّ بن الحسين عليهما السلام: «**لعن الله من كذب علينا، إنّي ذكرت عبد الله بن سبأ فقامت كلّ شعرة في جسدي، لقد ادّعى أمراً عظيماً، ما له لعنه الله، كان عليّ عليه السلام والله عبداً لله صالحاً، أخو رسول الله، ما نال الكرامة من الله إلاّ بطاعته لله ولرسوله، وما نال رسول الله صلّى الله عليه وآله الكرامة من الله إلاّ بطاعته**»[1].

• عن ابن مسكان عمّن حدّثه من أصحابنا عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: «**لعن الله المغيرة بن سعيد إنّه كان يكذب على أبي، فأذاقه الله حرّ الحديد، لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزال عنّا العبوديّة لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا**»[2].

• بل نجد أنّ أهل البيت عليهم السلام استدلّوا لنفي دعوى الألوهيّة لهم، كما في النصّ الوارد عن الإمام الرضا عليه السلام فإنّه بعد أن قال له رجل: بأبي أنت وأُمّي يا ابن رسول الله فإنّ معي من ينتحل موالاتكم يزعم أنّ عليّاً عليه السلام هو الله ربّ العالمين.

«فلمّا سمعها الرضا عليه السلام ارتعدت فرائصه وتصبّب عرقاً، وقال: **سبحان الله، سبحان الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً، أوليس كان عليّ عليه السلام آكلاً في الآكلين، وشارباً في الشاربين، وناكحاً في الناكحين، ومحدثاً في المحدثين، وكان مع ذلك مصلّياً خاضعاً بين يدي الله ذليلاً، وإليه أوّاهاً منيباً، أفمن كان هذا صفته يكون إلهاً؟ فإن كان هذا إلهاً، فليس منكم أحدٌ إلاّ وهو إله، لمشاركته له في هذه الصفات الدالاّت على حدث كلّ موصوف بها.**

فقال الرجل: يا ابن رسول الله إنّهم يزعمون أنّ عليّاً لمّا أظهر من نفسه

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص٣٢٤، الحديث: ١٧٣.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٤٨٩، الحديث: ٤٠٠.

المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله، دلَّ على أنّه إله، ولمّا ظهر لهم بصفات المحدثين العاجزين لبّس ذلك عليهم وامتحنهم ليعرفوه، وليكون إيمانهم اختباراً من أنفسهم.

فقال الرضا عليه السلام: **أوّل ما هاهنا أنّهم لا ينفصلون ممّن قَلَب هذا عليهم فقال: لّما ظهر منه الفقر والفاقة، دلَّ على أنّ مَن هذه صفاته وشاركه فيها الضعفاء المحتاجون لا تكون المعجزات فعله، فعلم بهذا أنّ الذي أظهره من المعجزات إنّما كانت فعل القادر الذي لا يشبه المخلوقين، لا فعل المحدَث المشارك للضعفاء في صفات الضعف»**[1].

وهنا لابد أن يشار إلى أنّ قولهم عليهم السلام: «**وقولوا فينا ما شئتم**» ليس المراد منه أن يقال فيهم كلّ شيء وإن لم ينسجم مع القواعد العقليّة والنصوص القطعيّة والحقائق الطبيعيّة، وإنّما المراد منه أنّ كمالاتهم ومقاماتهم فوق حدّ الإحصاء، بل بعضها فوق ما تحتمله عقولنا وإدراكاتنا كما تقدّم. لذا جاء في بعض النصوص «ولن تبلغوا».

• قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا تتجاوزوا بنا العبوديّة، ثمّ قولوا ما شئتم ولن تبلغوا**»[2].

• وقال أيضاً معرّفاً نفسه لأبي ذر: «**يا أبا ذر أنا عبد الله عزّ وجلّ وخليفته على عباده، لا تجعلونا أرباباً وقولوا في فضلنا ما شئتم فإنّكم لا تبلغون كنه ما فينا ولا نهايته، فإنّ الله عزّ وجلّ قد أعطانا أكبر وأعظم ممّا يصفه واصفكم أو يخطر على قلب أحدكم، فإذا عرفتمونا هكذا فأنتم المؤمنون**»[3].

---

(١) **الاحتجاج**، مصدر سابق: ج٢ ص٢٣٤.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٢٣٣.

(٣) المصدر السابق: ج٢٦ ص٢، كتاب الإمامة، باب نادر في معرفتهم، الحديث: ١.

• لذا ورد عن كامل التمّار قال: «كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لي: **يا كامل اجعل لنا ربّاً نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم**.

قال قلت: نجعل لكم ربّاً تؤوبون إليه ونقول فيكم ما شئنا؟ قال: فاستوى جالساً، ثمّ قال: **وعسى أن نقول: ما خرج إليكم من علمنا إلاّ ألفاً غير معطوفة**»(١).

وعلّق المجلسي على قوله عليه السلام: «**ألفاً غير معطوفة**» أي نصف حرف، كناية عن نهاية القلّة، فإنّ الألف بالخطّ الكوفي نصفه مستقيم، ونصفه معطوف، هكذا «ـا»(٢).

• وهذا يفسّر لنا ما ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال لعليّ عليه السلام: «**لولا أنّي أخاف أن يُقال فيك ما قالت النصارى في المسيح لقلت اليوم فيك مقالةً لا تمرّ بملأ من المسلمين إلاّ أخذوا تراب نعليك وفضل وضوئك يستشفون به، ولكن حسبك أن تكون منّي وأنا منك ترثني وأرثك**»(٣).

ممّا تقدّم يتّضح بطلان دعوى من يدّعي حلول الله أو اتّحاده مع الأئمّة عليهم السلام، وذلك لأنّ الحلول والاتّحاد مرجعهما إلى دعوى الألوهيّة لغير الله أيضاً، وذلك «لأنّهما بالنظر العرفي واسطتان في الثبوت، فينافي مع عقد المستثنى منه بحسب المدلول العرفي لشهادة «**أن لا إله إلاّ الله**» بل ينافي مع

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٤٥٩، باب النوادر في الأئمّة، الحديث: ١٨٠٩.

(٢) **بحار الأنوار**: ج٢٥ ص٢٨٣، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة.

(٣) المصدر السابق: ج٢٥ ص٢٨٤، الحديث: ٣٥.

عقد المستثنى أيضاً؛ لأنّ كلمة «الله» في عقد المستثنى بحسب مدلولها الارتكازي تشتمل على كثير من الصفات المنافية لأحوال من غلا في حقّه، كالمشي في الأسواق والأكل والشرب»[١].

**المقولة الثانية: ادّعاء النبوّة للأئمّة**

ادّعت فئة أخرى من الغلاة النبوّة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام، كما في النصّ الوارد عن سدير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: عندنا قومٌ يزعمون أنّكم رسل، يقرؤون علينا بذلك قرآناً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ (المؤمنون: ٥١)»[٢].

من هنا تصدّى أهل البيت عليهم السلام لهذه المقولة أيضاً بكلّ حزم وصلابة، فلعنوهم وأعلنوا البراءة منهم.

• ما ورد في ذيل النصّ السابق عن سدير حيث قال الصادق عليه السلام: «**يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء، وبرئ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإيّاهم يوم القيامة إلاّ وهو ساخطٌ عليهم**»[٣].

• وكذلك ما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام حيث قال: «**من ادّعى للأنبياء ربوبيّة، وادّعى للأئمّة ربوبيّة أو نبوّة، أو لغير الأئمّة إمامة، فنحن براءٌ منه في الدُّنيا والآخرة**»[٤].

---

(١) **بحوث في شرح العروة الوثقى**، مصدر سابق: ج٣ ص٣٨٥.

(٢) **الأصول من الكافي**، مصدر سابق: ج١ ص٢٦٩، كتاب الحجّة، باب في أنّ الأئمّة بمن يشبّهون ممّن مضى وكراهيّة القول فيهم بالنبوّة، الحديث: ٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) **عيون أخبار الرضا**، مصدر سابق: ج٢ ص٢١٧، الباب ٤٦، الحديث: ١.

• عن أبي العبّاس البقباق قال: «تذاكر ابن أبي يعفور ومعلّى بن خنيس، فقال ابن أبي يعفور: الأوصياء علماء أبرار أتقياء، وقال ابن خنيس: الأوصياء أنبياء. قال: فدخلا على أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: فلمّا استقرّ مجلسهما قال: فبدأهما أبو عبد الله عليه السلام فقال: **يا عبد الله أبرأ ممّن قال إنّا أنبياء**»(١).

• عن الحسن الوشاء عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**من قال إنّا أنبياء فعليه لعنة الله، ومن شكّ في ذلك فعليه لعنة الله**»(٢).

• عن أبي بصير قال: «قال لي أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **يا أبا محمّد ابرأ ممّن يزعم أنّا أرباب**. قلت: برئ الله منه، **قال: ابرأ ممّن يزعم أنّا أنبياء**. قلت: برئ الله منه»(٣).

• عن بريد بن معاوية عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام قال: «قلت له: ما منزلتكم، ومَن تشبهون ممّن مضى؟ قال: **صاحب موسى وذو القرنين، كانا عالمين ولم يكونا نبيّين**»(٤).

## المقولة الثالثة: ادّعاء علم الغيب لأهل البيت دون إلهام أو تعليم إلهي

من جملة مقالات الغلاة في أهل البيت عليهم السلام دعوى علمهم بالغيب بنحو الاستقلال من دون إلهام أو تعليم إلهي.

---

(١) **اختيار معرفة البشر، المعروف برجال الكشّي**: ج٢ ص٥١٥، الحديث: ٤٥٦.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٥٩٠، الحديث: ٥٤٠.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٥٨٧، الحديث: ٥٢٩.

(٤) **أصول الكافي**، مصدر سابق: ج١ص٢٦٩، باب في أنّ الأئمّة بمن يشبهون ممّن مضى، الحديث: ٥.

إلاّ أنّ بطلان هذه الدعوى أصبح من الواضحات كما تقدّم في الأبحاث السابقة، حيث تبيّن أنّ الاستقلال بعلم الغيب مختصّ بالله تعالى ولا يمكن لأيّ مخلوق مهما بلغت درجته وقربه من الله تعالى، أن يعلم الغيب مستقلاًّ وبنفسه، وتبيّن أيضاً أنّ كلّ ما عند الأنبياء والأئمّة من العلوم والمعارف إنّما هو بتعليم وبإذن الله تعالى، ومن المحال أن يعلموا شيئاً من دون إفاضة منه تعالى.

• جاء في التوقيع الصادر من الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف ردّاً على الغلاة جواباً لكتاب كتب إليه على يدي محمّد بن علي بن هلال الكرخي: **«يا محمّد بن علي، تعالى الله عزّ وجلّ عمّا يصفون سبحانه وبحمده، ليس نحن شركاءه في علمه ولا في قدرته، بل لا يعلم الغيب غيره، كما قال في محكم كتابه تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥)، وأنا وجميع آبائي من الأوّلين آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من النبيّين، ومن الآخرين محمّد رسول الله وعليّ بن أبي طالب والحسن والحسين وغيرهم ممّن مضى من الأئمّة صلوات الله عليهم أجمعين إلى مبلغ أيّامي ومنتهى عصري، عبيد الله عزّ وجلّ.**

**وأُشهد الله الذي لا إله إلاّ هو وكفى به شهيداً، ومحمّداً رسوله وملائكته وأنبياءه وأولياءه، وأُشهدك وأُشهد كلّ من سمع كتابي هذا، أنّي بريءٌ إلى الله وإلى رسوله ممّن يقول إنّا نعلم الغيب أو نشارك الله في ملكه أو يحلّنا محلاًّ سوى المحلّ الذي نصبه الله لنا وخلقنا له، أو يتعدّى بنا عمّا قد فسّرته لك وبيّنته في صدر كتابي، وأُشهدكم أنّ كلّ من نتبرّأ منه فإنّ الله يبرأ منه وملائكته ورسله وأولياؤه.**

**وجعلت هذا التوقيع الذي في هذا الكتاب أمانة في عنقك وعنق من سمعه**

**أن لا يكتمه من أحد من مواليّ وشيعتي حتّى يظهر على هذا التوقيع الكلّ من الموالي، لعلّ الله عزّ وجلّ يتلافاهم فيرجعوا إلى دين الحقّ وينتهوا عمّا لا يعلمون منتهى أمره ولا يبلغ منتهاه، فكلّ من فهم كتابي ولم يرجع إلى ما قد أمرته ونهيته، فلقد حلّت عليه اللعنة من الله وممّن ذكرت من عباده الصالحين»**(١).

• عن ابن أبي عمير عن ابن المغيرة قال: «كنت أنا ويحيى بن عبد الله بن الحسن عند أبي الحسن عليه السلام فقال له يحيى: جعلت فداك إنّهم يزعمون أنّك تعلم الغيب؟

فقال: **سبحان الله، ضع يدك على رأسي، فوالله ما بقيت شعرة فيه وفي جسدي إلاّ قامت.**

ثمّ قال: **لا والله، ما هي إلاّ وراثة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله»** (٢).

لذا قال الشيخ المفيد: «إطلاق القول على الأئمّة بأنّهم يعلمون الغيب، فهو منكر الفساد، لأنّ الوصف بذلك إنّما يستحقّه من علم الأشياء بنفسه لا بعلم مستفاد، وهذا لا يكون إلاّ لله عزّ وجلّ، وعلى قولي هذا جماعةُ أهل الإمامة، إلاّ من شذَّ عنهم من المفوّضة ومن انتمى إليهم من الغلاة»(٣).

وقال الآلوسي في ذيل قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ (النمل: ٦٥) «الحقّ أن يقال: إنّ علم الغيب المنفيّ عن غيره جلّ وعلا هو ما كان للشخص لذاته أي بلا واسطة في ثبوته له، وهذا ممّا لا يعقل لأحد من أهل السماوات والأرض، لمكان الإمكان فيهم ذاتاً وصفةً، وهو ـ أي الإمكان ـ يأبى ثبوت شيء لهم بلا واسطة.

---

(١) **الاحتجاج**، توقيعات الناحية المقدّسة: ج٢ ص٢٨٨.

(٢) **ترتيب الأمالي**: ج٣ ص٩٤، أمالي المفيد، المجلس: ٣، الحديث: ٥.

(٣) **أوائل المقالات**، مصدر سابق: ص٧٧.

وما وقع للخواصّ ليس من هذا العلم المنفيّ في شيء، ضرورة أنّه من الواجب عزّ وجلّ أفاضه عليهم بوجه من وجوه الإفاضة. فلا يقال إنّهم علموا الغيب بذلك المعنى، ومن قال كفر قطعاً، وإنّما يقال إنّهم أُظهروا أو أُطلعوا ـ بالبناء للمفعول ـ على الغيب أو نحو ذلك ممّا يفهم الواسطة في ثبوت العلم لهم. ويؤيّد ما ذكر أنّه لم يجئ في القرآن الكريم نسبة علم الغيب إلى غيره تعالى أصلاً، وجاء الإظهار على الغيب لمن ارتضى سبحانه من رسول»(١).

**المقولة الرابعة: القول بتناسخ أرواح الأئمّة**

التناسخ: انتقال النفس الناطقة بعد الموت من بدن إلى بدن إنسان آخر في هذه النشأة، كما يعتقده أهل التناسخ المنكرون للمعاد الجسماني(٢). وهذه الفرقة من الغلاة زعمت أنّ أرواح الأئمّة عليهم السلام تتناسخ فيما بينها.

وهذه الدعوى أيضاً باطلة عقلاً ونقلاً.

أمّا الأوّل، فلما ثبت في مباحث المعاد أنّ أصل القول بتناسخ الأرواح محال، لأنّه يستلزم أزليّة النفس الإنسانيّة، مضافاً إلى استلزامه عدم تناهي الأجسام المتناسخة بالعدد.

قال المحقّق الداماد: «إنّ القول بالتناسخ إنّما يستطب لو قيل بأزليّة النفس المدبّرة للأجساد المتعاقبة على التناقل والتناسخ، وبلا تناهي تلك الأجساد المتناسخة بالعدد في جهة الأزل، كما هو المشهور من مذهب

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: ج٢٠ ص١١.

(٢) **موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، للباحث العلاّمة محمّد علي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: الدكتور رفيق العجم، مكتبة لبنان ـ ناشرون، الطبعة الأولى ١٩٩٦: لفظة: التناسخ، ج١ ص٥١٢.

الذاهبين إليه، والبراهين الناهضة على استحالة اللانهاية العدديّة بالفعل، مع تحقّق الترتّب والاجتماع في الوجود قائمة هناك بالقسط بحسب متن الواقع المعبّر عنه بوعاء الزمان، أعني الدهر، وإن لم يتصحّح إلاّ الحصول التعاقبي بحسب ظرف السيلان والتدريج والفوت واللحوق، أعني الزمان.

فإذن لا محيص لسلسلة الأجساد المترتّبة من مبدأ متعيّن هو الجسد الأوّل في جهة الأزل، يستحقّ باستعداده المزاجي أن تتعلّق به نفس مجرّدة تعلّق التدبير والتصرّف، فيكون ذلك مناط حدوث فيضانها عن وجود المفيض الفيّاض الحقّ جلّ سلطانه.

وإذا انكشف ذلك فقد انصرح أنّ كلّ جسد هيولائي بخصوصيّة مزاجه الجسماني واستحقاقه الاستعدادي، يكون مستحقّاً لجوهر مجرّد بخصوصه يدبّره ويتعلّق به ويتصرّف فيه ويتسلّط عليه»[1].

وأمّا الثاني، فقد تصدّى أهل البيت عليهم السلام لإبطال هذه المقولة:

• عن الحسن بن الجهم قال: «قال المأمون للرضا عليه السلام: يا أبا الحسن ما تقول في القائلين بالتناسخ؟ فقال الرضا عليه السلام: **من قال بالتناسخ فهو كافر بالله العظيم، يكذّب بالجنّة والنار**»[2].

• عن الحسين بن خالد الصيرفي قال: «قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «**من قال بالتناسخ فهو كافر**»[3].

---

(١) نقلاً عن **بحار الأنوار**: ج٤ ص٣٢١، كتاب التوحيد، باب: ٥، إبطال التناسخ، ذيل الحديث الرابع.

(٢) **عيون أخبار الرضا**، مصدر سابق: ج٢ ص٢١٨، الباب: ٤٦، الحديث: ١.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٢١٨، الحديث: ٢.

## المقولة الخامسة: دعوى التفويض الاستقلالي

من مقولات الغلاة قولهم بأنّ الله تعالى فوّض إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام أمر الخلق من الإحياء والإماتة والرزق والإعطاء والمنع ونحوها، وكذلك فوّض تعالى أمر التشريع للنبيّ والأئمّة عليهم السلام، فهم يدبّرون أمر الخلق سواء كان في عالم التكوين أم في عالم التشريع استقلالاً.

قال الأشعري: «والصنف الخامس عشر من أصناف الغالية يزعمون أنّ الله عزّ وجلّ وكّل الأمور وفوّضها إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وأنّه أقدر على خلق الدُّنيا فخلقها ودبّرها، وأنّ الله سبحانه لم يخلق من ذلك شيئاً، ويقول ذلك كثير منهم في عليّ، ويزعمون أنّ الأئمّة ينسخون الشرائع»[(١)].

وقال الخوئي في التنقيح: «ومن الغلاة من ينسب إليه الاعتراف بألوهيّته سبحانه إلاّ أنّه يعتقد أنّ الأمور الراجعة إلى التشريع والتكوين كلّها بيد أمير المؤمنين عليه السلام أو أحد الأئمّة عليهم السلام، فيرى أنّه المُحيي والمميت وأنّه الخالق والرازق.

وهذه هي عقيدة التفويض، لأنّ معناها أنّ الله سبحانه كبعض السلاطين والملوك قد عزل نفسه عمّا يرجع إلى تدبير مملكته، وفوّض الأمور الراجعة إليها إلى أحد وزرائه»[(٢)].

ولكي تتّضح مناقشة هذه المقولة بشكل دقيق ينبغي تقديم مقدّمة

---

(١) **مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين**: ص١٦.

(٢) **التنقيح في شرح العروة الوثقى**، تقريراً لبحث آية الله العظمى السيّد أبو القاسم الموسوي الخوئي، تأليف: الحجّة الميرزا علي الغروي التبريزي، مؤسّسة آل البيت للطباعة والنشر، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، الطبعة الثانية: ج٣ ص٧٤.

تساهم في الوصول إلى المطلوب وتحُول دون الوقوع في الالتباس، حاصلها أنّ التفويض تارةً في عالم التكوين، وأخرى في عالم التشريع.

## التفويض في عالم التكوين

ينقسم التفويض في عالم التكوين إلى قسمين:

الأوّل: التفويض بنحو الاستقلال: والمقصود منه ـ كما أشرنا ـ أنّ الله تعالى فوّض للنبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام أمر الخلق، وأعطاهم السلطنة المطلقة في التصرّف على نحو الاستقلال والأصالة، فهم يفعلون ما يشاءون ويعملون ما يريدون.

وهذا المعنى من التفويض هو مدّعى الغلاة في هذا المجال.

الثاني: التفويض بنحو الإذن الإلهي: والمقصود منه هو أنّ الله تعالى أعطى للنبيّ صلّى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام الولاية والقدرة على التصرّف في الأمور التكوينيّة، لكن بإذنه تعالى، فهم لا يفعلون شيئاً إلاّ بإقداره تعالى، فهم يخلقون ويحيون ويُميتون لكن لا بنحو الاستقلال وإنّما بإذن الله تعالى.

إذا اتّضحت هذه المقدّمة نقول: إنّ التفويض بنحو الاستقلال باطل جزماً بل مستحيل، وقد قامت الأدلّة العقليّة والنقليّة على بطلانه، لأنّ تفويض البشر في التصرّف في الكون بنحو الاستقلال عن إقدار الله تعالى، يعني الخروج عن سلطان الله وقدرته، ولازمه إثبات الشريك له سبحانه.

وقد توافرت النصوص القرآنيّة والروائيّة على بطلان هذا السنخ من التفويض بشكل واضح وصريح، مؤكّدة في الوقت ذاته أنّ كلّ ممكن فهو محتاج إلى الله تعالى في كلّ آن آن ـ أي حدوثاً وبقاءً ـ ولا يمكن الخروج والاستقلال عن قدرة الله الواحد القهّار.

وممّا ينبغي الالتفات إليه هو أنّ ما يدّعيه الغلاة من التفويض الاستقلالي، هو عين ما ذهبت إليه المعتزلة في بحث القضاء والقدر[١]. وهو أنّ الإنسان وإن كان محتاجاً إلى الله سبحانه في أصل وجوده وقدرته، أمّا استخدام هذه القدرة في الفعل والترك فهو مستقلّ فيه تماماً. حتّى أنّه نسب إلى أصحاب هذا الاتّجاه أنّه لو عُدم الواجب بعد إيجاد الإنسان لما ضرّ ذلك وجوده شيئاً؛ لحاجته إلى المبدأ في أصل وجوده لا في إعمال قدرته فعلاً أو تركاً.

وهذا هو المعروف بالتفويض الاعتزالي، وهو أمرٌ مرفوض لدى مدرسة أهل البيت عليهم السلام القائلين بنظريّة الأمر بين الأمرين، كما أوضحناه في محلّه.

ولعلّ خير ما يميّز بين هذين النحوين من التفويض، ما جاء في بعض بيانات الإمام علي عليه السلام:

• عن عليّ بن يقطين عن أبي إبراهيم عليه السلام قال:

«مرَّ أمير المؤمنين عليه السلام بجماعة بالكوفة وهم يختصمون في القدر، فقال لمتكلّمهم: أبالله تستطيع أم مع الله أم من دون الله تستطيع؟

فلم يدْرِ ما يردّ عليه.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **إنّك إن زعمت أنّك بالله تستطيع، فليس لك من الأمر شيء، وإن زعمت أنّك مع الله تستطيع فقد زعمت أنّك شريك معه في ملكه، وإن زعمت أنّك من دون الله تستطيع فقد ادّعيت الربوبيّة من دون الله عزّ وجلّ.**

فقال: يا أمير المؤمنين لا بل بالله أستطيع.

---

(١) ينظر: **التوحيد**، السيّد كمال الحيدري، مصدر سابق: ج٢ ص٣٨.

فقال عليه السلام: **أما أنّك لو قلت غير هذا لضربت عنقك»**[١].

• سأل عباية بن ربعي الأسدي الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الاستطاعة، فردَّ عليه عليه السلام: **إنّك سألت عن الاستطاعة، فهل تملكها من دون الله أو مع الله؟** فسكت عباية ولم يُجِر جواباً، لأنّه لو قال: أملكها من دون الله، فهذا هو التفويض الباطل، ولو قال: أملكها مع الله، فهو الشرك.

وبين المحذورين لم يجد عباية مخرجاً إلاّ أن يلوذ بالصمت، فما كان من الإمام عليّ عليه السلام إلاّ أن أعاد عليه الكرّة مجدّداً، وهو يقول: **قُل يا عباية،** قال: وما أقول يا أمير المؤمنين؟ فهنا قال عليه السلام: تقول: «**تملكها بالله الذي يملكها دونك، فإن ملككها كان ذلك من عطائه، وإن سلبكها كان ذلك من بلائه، وهو المالك لما ملكّك والقادر على ما عليه أقدرك»**[٢].

يتّضح من هذه البيانات أنّ ملكيّة الإنسان لشيء إنّما هي بالله، كما أنّ كلّ ما يقدر عليه فهو بإقدار الله، وعندئذ لا يخرج ما عند الإنسان عن قدرة الله وسلطانه ومشيئته، وفي ذلك ردٌّ صريح ومباشر على نظرية التفويض الاستقلالي، وأنّه إذا كان هناك نحو من التفويض فهو بإقدار الله وتمليكه، وهذا هو معنى الإذن الإلهي الذي ورد في عدد من النصوص القرآنيّة.

## شواهد قرآنيّة

تحدّثت مجموعة من الآيات القرآنيّة عن أنّه تعالى أعطى لبعض عباده من الأنبياء وغيرهم الولاية والقدرة على التصرّف في الأمور التكوينيّة، وإليك بعضها:

(١) **التوحيد**، للصدوق : ص٣٤٣، باب الاستطاعة: ٥٦، الحديث: ٢٣.

(٢) **تحف العقول عن آل الرسول**، حكم ومواعظ أمير المؤمنين: ص٢١٣.

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٤٩)، فهي تشير إلى أنّ هذه الآيات المعجزة ـ وهي من أنحاء التصرّف في نظام التكوين ـ صدرت عنه صدوراً خارجيّاً، لا أنّه كان مسوقاً لمجرّد الاحتجاج والتحدّي، ولو كان كذلك لكان من حقّ الكلام أن يقيّد بقيد يفيد ذلك كقولنا: إن سألتم أو أردتم ونحوه.

ثمّ نجد أنّ هناك تأكيداً وإصراراً من عيسى عليه السلام على أنّ كلّ ذلك إنّما هو بإذن الله تعالى، للإشارة إلى أنّه مستند إلى الله تعالى من غير أن يستقلّ بشيء من ذلك «وإنّما كرّر تكراراً يشعر بالإصرار لما كان من المترقّب أن يضلّ فيه الناس فيعتقدوا بألوهيّته استدلالاً بالآيات المعجزة الصادرة عنه عليه السلام، ولذا كان يقيّد كلّ آية يخبر بها عن نفسه ممّا يمكن أن يضلّوا به كالخلق وإحياء الموتى بإذن الله»[(1)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وهي صريحة أنّ هذا الإحياء الذي للطيور المتقطّعة الميّتة إنّما كان بدعوة إبراهيم عليه السلام لقوله: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ولم يكن بسبب طلب إبراهيم منه تعالى أن يعيد فيها الحياة كما ذكره البعض.

قال في الميزان: «قوله: فخذ، فصرهن، ثمّ اجعل، بصيغة الأمر، ثمّ

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٣ ص١٩٩.

قوله: ثمّ ادعهن يأتينك، فإنّه تعالى جعل إتيانهنّ سعياً ـ وهو الحياة ـ مرتبطاً متفرّعاً على الدعوة، فهذه الدعوة هي السبب الذي يفيض عنه حياة ما أُريد إحيائه ـ وإن كان لا إحياء إلاّ بأمر الله وإذنه ـ .

فدعوة إبراهيم عليه السلام إيّاهنّ بأمر الله، قد كانت متّصلة نحو اتّصال بأمر الله الذي منه تترشّح حياة الأحياء، وعند ذلك شاهده إبراهيم ورأى كيفيّة فيضان الأمر بالحياة، ولو كانت دعوة إبراهيم إيّاهن غير متّصلة بأمر الله الذي هو أن يقول لشيء أراده: كُن فيكون، كمثل أقوالنا غير المتّصلة إلاّ بالتخيّل كان هو أيضاً كمثلنا إذا قلنا لشيء كن فلا يكون، فلا تأثير جزافي في الوجود»(١).

والحاصل أنّ الآية صريحة في أنّ الله تعالى أقدر إبراهيم الخليل عليه السلام على إحياء الموتى بأمر الله وإذنه.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص: ٣٦ ـ ٣٩).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ (سبأ: ١٠).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ (طه: ٧٧).

فهذه النصوص ونظائرها كثير في القرآن، كلّها تبيّن حقيقة في غاية الوضوح، وهي أنّ الله أقدر بعض عباده على التصرّف في نظام التكوين بإذنه وأمره، وهذا هو الذي نريده من التفويض بنحو الإذن الإلهي.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق: ج٢ ص٣٧٥.

ولم يقتصر ذلك على الأنبياء فقط، بل هناك شواهد أخرى من القرآن أثبتت التصرّف في نظام التكوين ـ بنحو لا تقتضيها السنن الطبيعيّة المادّية ـ لغير الأنبياء أيضاً، جنّاً كانوا أم أنساً.

٦ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل: ٣٩).

٧ ـ وقال أيضاً: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠).

٨ ـ وقال حكايةً عن ذي القرنين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ (الكهف: ٨٣ـ٨٤).

وهناك ـ بالإضافة إلى ما تقدّم ـ شواهد من الروايات تثبت هذه الحقيقة أيضاً، منها:

• ما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام في حديثه مع الجاثليق قال: «**إنّ اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى، مشى على الماء وأحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص**» وكذلك «**صنع حزقيل النبيّ عليه السلام مثل ما صنع عيسى بن مريم عليه السلام فأحيى خمسة وثلاثين ألف رجل من بعد موتهم بستّين سنة**»[1].

• عن حارث بن حبيب قال: أتى رجلٌ عليّاً عليه السلام فقال له: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن ذي القرنين، فقال له: «**سُخّر له السحاب، وقُرّبت له الأسباب، وبُسط له النور**»[2].

---

(١) **التوحيد**، للصدوق، مصدر سابق: ص٤١٠، باب ذكر مجلس الرضا: ٦٥.

(٢) **تفسير العيّاشي**، مصدر سابق: ج٣ ص١١٢، الحديث: ٢٧٠٢.

• عن ابن هشام عن أبيه عمّن حدّثه عن بعض آل محمّد صلّى الله عليه وآله قال: «**إنّ ذا القرنين كان رجلاً صالحاً طُويت له الأسباب، ومُكِّن له في البلاد...**»(١).

• وفي إرشاد القلوب، روي أنّ الله تعالى يقول: «**يا ابن آدم، أنا حيّ لا أموت، أطعني فيما أمرتك حتّى أجعلك حيّاً لا تموت، يا ابن آدم، أنا أقول للشيء كُن فيكون، أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كُن فيكون**»(٢).

## الولاية التكوينيّة وأهل البيت

صرّحت جملة من النصوص الروائيّة، أنّ الله سبحانه أقدر أهل البيت عليهم السلام على التصرّف في نظام التكوين، وراثةً عن جدّهم رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأنّهم كانوا يقدرون على جميع ما أقدر الله عليه الأنبياء والأوصياء السابقين. نحاول الوقوف عند بعض تلك النصوص، منها:

• عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال: «قلت له: جعلت فداك أخبرني عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ورث النبيّين كلّهم؟ قال: نعم، قلت: من لدن آدم حتّى انتهى إلى نفسه؟ قال: **ما بعث الله نبيّاً إلاّ ومحمّد صلّى الله عليه وآله أعلم منه**. قال: قلت: إنّ عيسى بن مريم كان يُحيي الموتى بإذن الله، قال: **صدقت، وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقدر على هذه المنازل...**».

إلى أن قال عليه السلام لإثبات أنّهم ورثوا جميع منازل الأنبياء السابقين

---

(١) المصدر السابق: الحديث: ٢٧٠١ ج٣ ص١١١.

(٢) نقلاً عن **مستدرك الوسائل**، مصدر سابق: ج١١ ص٢٥٨، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، باب: ١٨، وجوب طاعة الله، الحديث: ١٢٩٢٨.

وزيادة ـ كما تقدّم ـ:

«**إنّ الله يقول في كتابه:** ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (الرعد: ٣٠)، **وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تُسيّر به الجبال وتقطع به البلدان، وتحيى به الموتى.... وإنّ في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمرٌ إلاّ يأذن الله به مع ما قد يأذن ممّا كتبه الماضون، جعله الله لنا في أمّ الكتاب، إنّ الله يقول:** ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل: ٧٧)، **ثمّ قال:** ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر: ٣٢)، **فنحن الذين اصطفانا الله عزّ وجلّ وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كلّ شيء**»[1].

وهذا العلم الذي أشير إليه في هذا النصّ ـ كما في غيره من النصوص الكثيرة ـ ليس هو من سنخ العلوم الحصوليّة الفكريّة التي تقبل الاكتساب والتعلّم، وإنّما هو نحو آخر من العلم هو الذي أشير إليه في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ حيث أفادت أنّ هذا العلم كان له مدخليّة فيما صدر من وصيّ سليمان، وذلك استناداً إلى قاعدة «إنّ تعليق الحكم على الوصف يشعر بالعلّية» وعليه فإذا لم يكن ثمَّ مدخليّة لهذا العلم من الكتاب لكان ذكره لغواً لا ضرورة له.

وهذا النحو من العلم هو الذي أكّدت النصوص أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ورثه من الأنبياء السابقين، وأنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام ورثوا علم الخاتم صلّى الله عليه وآله.

• عن مثنّى الحنّاط عن أبي بصير قال: «دخلت على أبي جعفر الباقر عليه السلام فقلت: أنتم ورثة رسول الله صلّى الله عليه وآله؟ قال: نعم، قلت:

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٢٦، كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمّة ورثوا علم النبيّ وجميع الأنبياء والأوصياء الذين من قبلهم، الحديث: ٧.

فرسول الله وارث الأنبياء، عَلِم ما كانوا علِموا؟ فقال لي: نعم، فقلت: أنتم تقدرون على أن تحيوا الموتى وتبرئوا الأكمه والأبرص؟ فقال لي: نعم بإذن الله.

ثمّ قال عليه السلام: **أُدن منّي يا أبا محمّد**، فمسح يده على عيني ووجهي، فأبصرتُ الشمس والسماء والأرض والبيوت وكلّ شيء في الدار.

قال: فقال: **أتحبّ أن تكون هكذا ولك ما للناس وعليك ما عليهم يوم القيامة أو تعود كما كنت ولك الجنّة خالصاً**؟ قلت: أعود كما كنت. قال: فمسح على عيني فعدتُ كما كنت.

قال: فحدّثت به ابن أبي عمير، فقال: أشهدُ أنّ هذا حقّ كما أنّ النهار حقّ»[1].

• عن أبي حمزة الثمالي عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: «قلت له: الأئمّة يحيون الموتى ويبرئون الأكمه والأبرص ويمشون على الماء؟ قال: **ما أعطى الله نبيّاً شيئاً قطّ إلاّ وقد أعطاه الله محمّداً صلّى الله عليه وآله، وأعطاه ما لم يكن عندهم.**

قلت: وكلّ ما كان عند رسول الله صلّى الله عليه وآله فقد أعطاه أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال: **نعم، ثمّ الحسن والحسين عليهما السلام بعدُ، ثمّ كلّ إمام إلى يوم القيامة، مع الزيادة التي تحدث في كلّ سنة وفي كلّ شهر، إي والله في كلّ ساعة»**[2].

• عن محمّد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي عبد الله الصادق عليه

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**: ج٢ ص١٥، باب في الأئمّة أنّهم يحيون الموتى ويبرئون الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى، الحديث: ٩٦٦.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص١٧، الحديث: ٩٦٨.

السلام قال: سمعته يقول: **ألواح موسى عليه السلام عندنا، وعصا موسى عندنا، ونحن ورثة الأنبياء**»[(١)].

• عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «سمعته يقول: **أتدري ما كان قميص يوسف عليه السلام؟** قال قلت: لا، قال: **إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا أُوقدت له النار أتاه جبرئيل عليه السلام بثوب من ثياب الجنّة فألبسه إيّاه، فلم يضرّه معه حرٌّ ولا برد، فلمّا حضر إبراهيم الموت جعله في تميمة** (الحرزة التي تعلّق على الإنسان) **وعلّقه على إسحاق، وعلّقه إسحاق على يعقوب، فلمّا ولد يوسف عليه السلام علّقه عليه، فكان في عضده حتّى كان من أمره ما كان، فلمّا أخرجه بمصر من التميمة، وجد يعقوب ريحه وهو قوله تعالى:** ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ (يوسف: ٩٤). **فهو ذلك القميص الذي أنزله الله من الجنّة.**

قلت ـ جعلت فداك ـ فإلى من صار ذلك القميص؟

قال: **إلى أهله**، ثمّ قال: **كلّ نبيّ ورث علماً أو غيره فقد انتهى إلى آل محمّد صلّى الله عليه وآله**»[(٢)].

فظهر ممّا تقدّم أنّه إذا ثبت ـ وهو ثابت ـ أنّ الله سبحانه فوّض للنبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام أمر الخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحوها، وجعلهم وسائط فيضه تعالى ـ كما ورد ذلك في نصوص فوق حدّ الإحصاء ـ كالنصّ الوارد في أمالي الصدوق عن الصادق جعفر بن محمّد عن أبيه محمّد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عليهم السلام قال: «**نحن الذين**

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٣١، كتاب الحجّة، باب ما عند الأئمّة من آيات الأنبياء، الحديث: ٢.

(٢) المصدر السابق: ج١ ص٢٣٢، الحديث: ٥.

**بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبنا يُمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وبنا ينشر الرحمة، ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منّا لساخت الأرض بأهلها»**[١]، إلاّ أنّ ذلك لا يعدّ من التفويض الذي ثبت بطلانه بل استحالته، لأنّ كلّ ذلك بإقدار الله تعالى وإذنه وأمره.

قال الخوئي في التنقيح: «ومنهم من لا يعتقد بربوبيّة أمير المؤمنين عليه السلام ولا بتفويض الأمور إليه، وإنّما يعتقد أنّه عليه السلام وغيره من الأئمّة الطاهرين ولاة الأمر وأنّهم عاملون لله سبحانه وأنّهم أكرم المخلوقين عنده، فينسب إليهم الرزق والخلق ونحوهما ـ لا بمعنى إسنادها إليهم عليهم السلام ـ حقيقةً، لأنّه يعتقد أنّ العامل فيها حقيقة هو الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، بل كإسناد الموت إلى ملك الموت والمطر إلى ملك المطر والإحياء إلى عيسى عليه السلام كما ورد في الكتاب العزيز ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٤٩)، وغيره ممّا هو إسناد فعل من أفعال الله سبحانه إلى العاملين له بضرب من الإسناد. ومثل هذا الاعتقاد غير مستتبع للكفر، ولا هو إنكار للضروريّ، فعدّ هذا القسم من أقسام الغلوّ ممّا لا محذور فيه، بل لا مناص عن الالتزام به في الجملة»[٢].

## التفويض في عالم التشريع

من القواعد الثابتة أنّ أصل التشريع منحصر بالله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (يوسف: ٤٠)، إلاّ أنّ بعض الغلاة ذهبوا إلى أنّ الله سبحانه فوّض ولاية التشريع للنبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة

---

(١) **ترتيب الأمالي**، الصدوق، مصدر سابق: ج٣ ص٨، الحديث: ١٠٧٨، المجلس: ٣٤، الحديث: ٥.

(٢) **التنقيح في شرح العروة الوثقى**، مصدر سابق: ج٣ ص٧٤.

عليهم السلام فيشرّعون ما يشاءون وما يريدون بصورة مستقلّة عن إرادة الله ومشيئته من دون وحي وإلهام.

ولا ريب في وضوح بطلان هذا النحو من التفويض في التشريع، لأنّ من اعتقد بأنّ لغيره سبحانه حقّ التقنين وأنّ بيده زمام التحليل والتحريم، فإنّه اتّخذ سوى الله ربّاً ونسب ما هو فعل مختصّ به إلى غيره، وتجاوز حدّ التوحيد بتعميم هذا الحقّ إلى غيره سبحانه، وكان بذلك مشركاً.

لكن ما نعتقده في هذا المجال، أنّ الله سبحانه بعدما بيّن كثيراً من أحكام الوقائع، وقام النبيّ صلّى الله عليه وآله بإبلاغ بعضها إلى الناس عموماً والبعض الآخر للأئمّة عليهم السلام، وقاموا هم عليهم السلام ببيانها للناس، إلاّ أنّ هناك بعض الموضوعات والحوادث أذِنَ الله لنبيّه صلّى الله عليه وآله أن يضع الحكم فيها من غير أن يوحى إليه فيه وحي.

فالنبيّ صلّى الله عليه وآله يقوم بوضع بعض التشريعات بإذن منه تعالى في ضوء ما أدّبه سبحانه، وهكذا الأمر بالنسبة إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام، فإنّهم يشرّعون بعض التشريعات التي لم يشرّعها الله تعالى ولا نبيّه صلّى الله عليه وآله، على أساس ما أدّبهم الله تعالى، بحيث لا يشرّعون شيئاً ولا يقولون إلاّ كان مطابقاً لما أراده الله سبحانه.

وهذا المعنى من التفويض في التشريع أمرٌ معقول في نفسه ولا يلزم منه أيّ محذور، لو دلّت الأدلّة على ثبوته لأحد، كما سيتّضح.

قال المجلسي: «إنّ التفويض في أمر الدِّين يُحتمل فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون الله تعالى فوّض إلى النبيّ والأئمّة عليهم السلام عموماً أن يحلّوا ما شاءوا ويحرّموا ما شاءوا من غير وحيٍ وإلهام، أو أن يغيّروا ما أُوحي إليهم بآرائهم. وهذا باطل لا يقول به عاقل، فإنّ النبيّ صلّى

الله عليه وآله كان ينتظر الوحي أيّاماً كثيرة لجواب سائل ولا يجيب من عنده، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣ ـ ٤).

وثانيهما: أنّه تعالى لمّا أكمل نبيّه صلّى الله عليه وآله بحيث لم يكن يختار من الأمور شيئاً إلاّ ما يوافق الحقّ والصواب ولا يحلّ بباله ما يخالف مشيئته تعالى في كلّ باب، فوّض إليه تعيين بعض الأمور كالزيادة في الصلاة وتعيين النوافل في الصلاة والصوم وطعمة الجدّ وغير ذلك ممّا مضى وسيأتي، إظهاراً لشرفه وكرامته عنده، ولم يكن أصل التعيين إلاّ بالوحي، ولم يكن الاختيار إلاّ بإلهام، ثمّ كان يؤكّد ما اختاره صلّى الله عليه وآله بالوحي، ولا فساد في ذلك عقلاً»[(١)].

وقد دلّت على ذلك طائفة وافرة من النصوص الروائيّة، منها:

• عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**إنّ الله خلق محمّداً صلّى الله عليه وآله عبداً، فأدّبه حتّى إذا بلغ أربعين سنة أوحى إليه وفوّض إليه الأشياء، فقال:** ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)»[(٢)].

• عن زرارة أنّه «سمع أبا عبد الله الصادق أو أبا جعفر الباقر عليهما السلام يقول: **إنّ الله فوّض إلى نبيّه أمر خلقه، لينظر كيف طاعتهم،** ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾»[(٣)].

وقد ذكرت جملة من النصوص عدداً من التشريعات التي شرّعها النبيّ صلّى الله عليه وآله من غير أن يكون فيها شيءٌ من الوحي، ثمّ أمضاها الله

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٢٥ ص٣٤٨، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة، فذلكة.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج٢ ص٢٢٨، باب التفويض إلى رسول الله، الحديث: ١٣٤٥.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٢٢٨، الحديث: ١٣٤٦.

سبحانه وأجازها:

• عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**وضع رسول الله صلّى الله عليه وآله دية العين ودية النفس ودية الأنف وحرّم النبيذ وكلّ مسكر**.

فقال له رجل: فوضع هذا رسول الله صلّى الله عليه وآله من غير أن يكون جاء فيه شيء؟ قال عليه السلام: **نعم ليعلم من يطع الرسول ممّن يعصيه**»[1].

• عن ابن سنان عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله أدّب نبيّه صلّى الله عليه وآله على أدبه، فلمّا انتهى به إلى ما أراد قال له:** ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، **ففوّض إليه أمر دينه فقال:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

**وإنّ الله فرض في القرآن ولم يقسّم للجدّ شيئاً، وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله حرّم كلّ مسكر، فأجاز الله له ذلك، وذلك قول الله:** ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص: ٣٩)»[2].

• عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّ الله أدّب نبيّه حتّى إذا أقامه على ما أراد، قال له:** ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، **فلمّا فعل ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله زكّاه فقال:** ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ **فلمّا زكّاه فوّض إليه دينه فقال:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ **فحرّم الله الخمر، وحرّم رسول الله صلّى الله عليه وآله كلّ مسكر، فأجاز الله ذلك كلّه، وإنّ الله أنزل الصلاة، وأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وقّت أوقاتها، فأجاز الله ذلك له**»[3].

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٣٤، الحديث: ١٣٥٨.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٢٢٩، الحديث: ١٣٤٨.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٢٢٩، الحديث: ١٣٤٩.

• عن إسماعيل بن عبد العزيز قال: «قال لي جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: **إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان مفوّضاً إليه، إنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى سليمان عليه السلام ملكه فقال:** ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ **وإنّ الله فوّض إلى محمّد صلّى الله عليه وآله دينه فقال:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾.

فقال رجل: إنّما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله مفوّضاً إليه في الزرع والضرع؟

قال: فلوّى جعفر عليه السلام عنه عنقه مغضباً فقال: **في كلّ شيء، والله في كلّ شيء**»[1].

• عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قلت له: كيف كان يصنع أمير المؤمنين عليه السلام بشارب الخمر؟ قال: كان يحدّه. قلت: فإن عاد؟ قال: كان يحدّه، قلت: فإن عاد؟ قال: كان يحدّه ثلاث مرّات فإن عاد كان يقتله.

قلت: فكيف يصنع بشارب المسكر؟ قال: كان يحدّه، قلت: فإن عاد؟ قال: كان يحدّه، قلت: فإن عاد؟ قال: كان يحدّه، قلت: فإن عاد؟ قال: كان يقتله.

قلت: فمن شرب الخمر كمن شرب المسكر؟ قال: سواء. فاستعظمت ذلك. فقال عليه السلام: «**لا تستعظم ذلك، إنّ الله لمّا أدّب نبيّه صلّى الله عليه وآله ائتدب، ففوّض إليه، وإنّ الله حرّم مكّة، وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله حرّم المدينة، فأجاز الله له ذلك، وإنّ الله حرّم الخمر، وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله حرّم كلّ مسكر، فأجاز الله ذلك كلّه له، وإنّ الله فرض فرائض من**

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٣١، الحديث: ١٣٥٣.

**الصلب، وإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أطعم الجدّ، فأجاز الله ذلك له.**

ثمّ قال عليه السلام: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾»[1].

• وفي العلل بإسناده عن إسحاق بن عمّار قال: «سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام، كيف صارت الصلاة ركعة وسجدتين؟ وكيف إذا صارت سجدتين لم تكن ركعتين؟

فقال عليه السلام: **إذا سألت عن شيء ففرّغ قلبك لتفهم.**

**إنّ أوّل صلاة صلاّها رسول الله صلّى الله عليه وآله إنّما صلاّها في السماء بين يدي الله تبارك وتعالى قدّام عرشه جلّ جلاله. وذلك أنّه لمّا أُسري به وصار عند عرشه تبارك وتعالى قال: يا محمّد ادن من صاد فاغسل مساجدك وطهّرها وصلِّ لربِّك، فدنا رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى حيث أمره الله تبارك وتعالى، فتوضّأ فأسبغ وضوءه، ثمّ استقبل الجبّار تبارك وتعالى قائماً، فأمره بافتتاح الصلاة ففعل.**

**فقال: يا محمّد اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين... إلى آخرها، ففعل ذلك، ثمّ أمره أن يقرأ نسبة ربّه تبارك وتعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ثمّ أمسك عن القول، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فقال: قل: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ * وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾. فأمسك عن القول، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله، كذلك الله ربّي، كذلك الله ربّي.**

**فلمّا قال ذلك قال: اركع يا محمّد لربّك، فركع رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقال له وهو راكع: قل سبحان ربّي العظيم وبحمده، ففعل ذلك ثلاثاً، ثمّ قال: ارفع رأسك يا محمّد، ففعل ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله فقام**

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٣٣، الحديث: ١٣٥٧.

منتصباً بين يدي الله فقال: اسجد يا محمّد لربّك، فخرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ساجداً فقال: قل: سبحان ربّي الأعلى وبحمده، ففعل ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله ثلاثاً، فقال: استوِ جالساً يا محمّد. ففعل، فلمّا استوى جالساً ذكر جلال ربّه جلّ جلاله، فخرَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ساجداً من تلقاء نفسه، لا لأمر ربّه عزّ وجلّ، فسبّح أيضاً ثلاثاً فقال: انتصب قائماً، ففعل، فلم يرَ ما كان رأى من عظمة ربّه جلّ جلاله.

فقال له: اقرأ يا محمّد وافعل كما فعلت في الركعة الأولى، ففعل ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ سجد سجدة واحدة، فلمّا رفع رأسه ذكر جلال ربّه تبارك وتعالى، فخرَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ساجداً من تلقاء نفسه، لا لأمر أمره ربّه عزّ وجلّ، فسبّح أيضاً، ثمّ قال له: ارفع رأسك ثبّتك الله، واشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وأنّ الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنّ الله يبعثُ مَن في القبور، اللّهُمَّ صلِّ على محمّد وآل محمّد كما صلّيت وباركت وترحّمت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد، اللّهُمَّ تقبّل شفاعته في أُمّته وارفع درجته، ففعل.

فقال: يا محمّد، واستقبل رسول الله صلّى الله عليه وآله ربّه تبارك وتعالى مطرقاً فقال: السلام عليك، فأجابه الجبّار جلّ جلاله فقال: وعليك السلام يا محمّد، بنعمتي قوّيتك على طاعتي، وبعصمتي اتّخذتك نبيّاً وحبيباً.

ثمّ قال أبو الحسن عليه السلام: وإنّما كان الصلاة التي أُمر بها ركعتين وسجدتين، وهو صلّى الله عليه وآله إنّما سجد سجدتين في كلّ ركعة كما أخبرتك من تذكّره لعظمة ربّه تبارك وتعالى، فجعله الله عزّ وجلّ فرضاً.

قلت: جُعلت فداك، وما صاد الذي أمر أن يغتسل منه؟ فقال: عين تنفجر من ركن من أركان العرش يُقال له: ماء الحياة، وهو ما قال الله عزّ

**وجلّ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ إنّما أمر أن يتوضّأ ويقرأ ويصلّي»**(١).

فهذا النصّ ـ ونظائره كثيرة ـ يبيّن بشكل واضح، أنّ هذه الصلاة التي نصلّيها مكوّنة من أجزاء أمر الله بها مباشرةً، وأُخر أضافها رسول الله صلّى الله عليه وآله، فجعلها الله فرضاً على أُمّته. من هنا جاءت النصوص لتميّز في أجزاء الصلاة بين ما هو فرْض الله تعالى وما هو سنّة نبيّه صلّى الله عليه وآله، منها:

• عن عمر بن أذينة عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: **«عشر ركعات، ركعتان من الظهر وركعتان من العصر وركعتا الصبح وركعتا المغرب وركعتا العشاء الآخرة، لا يجوز الوهم فيهنّ، ومن وهَم في شيء استقبل الصلاة استقبالاً، وهي الصلاة التي فرضها الله عزّ وجلّ على المؤمنين في القرآن.**

**وفوّض إلى محمّد صلّى الله عليه وآله فزاد النبيّ صلّى الله عليه وآله في الصلاة سبع ركعات، وهي سنّة ليس فيها قراءة، إنّما هي تسبيح وتهليل وتكبير ودعاء، فالوهم إنّما يكون فيهنّ، فزاد رسول الله صلّى الله عليه وآله في صلاة المقيم غير المسافر ركعتين في الظهر والعصر والعشاء الآخرة وركعة في المغرب للمقيم والمسافر»**(٢).

• عن عبد الله بن سليمان العامري عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:

---

(١) **علل الشرائع**، الشيخ الصدوق، تحقيق: السيد محمد باقر بحر العلوم، منشورات الحيدرية ـ النجف الأشرف: ج٢، ص٢٣٥، باب العلة التي جازت فيها الصلاة ركعتين وأربع سجدات، الحديث: ١.

(٢) **الفروع من الكافي**، تأليف: ثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني الرازي، دار صعب، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ : ج٣ ص٢٧٣، كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة، الحديث: ٧.

**«لمّا عرج برسول الله صلّى الله عليه وآله نزل بالصلاة عشر ركعات، ركعتين ركعتين، فلمّا ولد الحسن والحسين زاد رسول الله صلّى الله عليه وآله سبع ركعات شكراً، فأجاز الله له ذلك وترك الفجر لم يزد فيها لضيق وقتها، لأنّه تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، فلمّا أمره الله بالتقصير في السفر وضع عن أُمّته ستّ ركعات وترك المغرب لم ينقص منها شيئاً، وإنّما يجب السهو فيما زاد رسول الله صلّى الله عليه وآله، فمن شكّ في أصل الفرْض في الركعتين الأولتين استقبل صلاته»**(١).

• عن فضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **«إنّ الله عزّ وجلّ فرض الصلاة ركعتين ركعتين، عشر ركعات، فأضاف رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى الركعتين ركعتين، وإلى المغرب ركعة، فصارت عديل الفريضة، لا يجوز تركهنّ إلاّ في سفر، وأفرد الركعة في المغرب، فتركها قائمة في السفر والحضر، فأجاز الله له ذلك، فصارت الفريضة سبع عشرة ركعة...»** .

إلى أن قال: **«ولم يرخّص رسول الله صلّى الله عليه وآله لأحد تقصير الركعتين اللتين ضمّهما إلى ما فرض الله عزّ وجلّ، بل ألزمهم ذلك إلزاماً واجباً، ولم يرخّص لأحد في شيء من ذلك إلاّ للمسافر، وليس لأحد أن يرخّص ما لم يرخّصه رسول الله صلّى الله عليه وآله، فوافق أمرُ رسول الله أمرَ الله، ونهيه نهيه، ووجب على العباد التسليم له كالتسليم لله»**(٢).

ثمّ إنّه قد استفاضت النصوص الروائيّة أنّ كلّ ما فوّض إلى رسول الله

---

(١) **الفروع من الكافي**: ج٣ ص٤٨٧، كتاب الصلاة، باب النوادر، الحديث: ٢.

(٢) **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**: ج٤ ص٤٥، كتاب الصلاة، الباب: ١٣، عدد الفرائض اليوميّة ونوافلها، الحديث: ٤٤٧٤.

صلّى الله عليه وآله فقد فوّض إلى أهل بيته عليهم السلام.

• عن محمّد بن الحسن الميثمي عن أبيه عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: «**إنّ الله أدّب رسوله صلّى الله عليه وآله حتّى قوّمه على ما أراد، ثمّ فوّض إليه فقال:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ **فما فوّض الله إلى رسوله فقد فوّضه إلينا**»(1).

• عن عبد الله بن سنان قال:

«قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **لا والله ما فوّض الله إلى أحد من خلقه إلاّ إلى رسول الله وإلى الأئمّة عليه وعليهم السلام، فقال:** ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥)، **وهي جارية في الأوصياء**»(2).

قال المجلسي: «وظاهر الخبر أنّه عليه السلام فسّر الإراءة بالإلهام وما يلقي الله في قلوبهم من الأحكام، لتدلّ على التفويض ببعض معانيه»(3).

• عن أبي إسحاق النحوي قال: «دخلت على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فسمعته يقول: **إنّ الله عزّ وجلّ أدّب نبيّه على محبّته فقال:** ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ (القلم: ٤)، **ثمّ فوّض إليه فقال عزّ وجلّ:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ (الحشر: ٧)، **وقال عزّ وجلّ:** ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠).

---

(١) **بصائر الدرجات الكبرى**: ج٢ ص٢٣٧، باب في أنّ ما فوّض إلى رسول الله فقد فوّض إلى الأئمّة، الحديث: ١٣٦٤.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٢٤٢، الحديث: ١٣٧٥.

(٣) **بحار الأنوار**: ج٢٥ ص٣٣٤، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة، ذيل الحديث: ١١.

قال ثمّ قال: **إنّ نبيّ الله فوّض إلى عليّ وائتمنه، فسلّمتم وجحد الناس، فوالله لنحبّكم أن تقولوا إذا قلنا وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله عزّ وجلّ، ما جعل الله لأحد خيراً في خلاف أمرنا»**[(١)].

فإن قيل: إنّ هذه الزيادات التي فوّض فيها الأمر إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام، إن كانت بغير أمر الله وإذنه تكون منافية لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** ﴾ وإن كانت بأمر الله تعالى وإرادته، فلا فرق بينها وبين ما شرّعه الله وفرضه.

قلنا: إنّنا نختار الشقّ الثاني، وأنّ كلّ هذه التشريعات الصادرة منهم عليهم السلام إنّما صدرت منهم بعد إذنه تعالى لهم بالتشريع وتفويض الأمر إليهم، والفرق بينها واضح، باعتبار أنّ ما فرضه الله سبحانه وشرّعه مباشرةً مأمور به حتماً، وأمّا الزيادات فهي مفوّضة إلى النبيّ والأئمّة عليه وعليهم السلام، فلهم أن يزيدوها وأن لا يزيدوها، فلمّا اختاروا الزيادة، جعلها الله فرضاً على الأمّة، ووجب على العباد التسليم لها كالتسليم لله سبحانه ـ كما تقدّم ـ.

## قلوبهم أوعية لمشيئة الله

هنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ كلّ هذه التشريعات التي صدرت من النبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام، وإن لم يصدر بها أمرٌ مباشر من الله تعالى، إلاّ أنّها جميعاً موافقة لأمر الله ونهيه، وهذا ما صرّح به نصوص متعدّدة، منها:

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٦٥، كتاب الحجّة، باب التفويض إلى رسول الله والأئمّة في أمر الدّين، الحديث: ١.

• عن أبي نعيم محمّد بن أحمد الأنصاري قال: «وجّه قوم من المفوّضة والمقصّرة كامل بن إبراهيم المدني إلى أبي محمّد العسكري عليه السلام؛ قال كامل: فقلت في نفسي: أسأله لا يدخل الجنّة إلاّ من عرف معرفتي وقال بمقالتي؟

قال: فلمّا دخلت على سيّدي أبي محمّد عليه السلام نظرت إلى ثياب بياض ناعمة عليه، فقلت في نفسي: وليّ الله وحجّته يلبس الناعم من الثياب ويأمرنا نحن بمواساة الإخوان وينهانا عن لبس مثله.

فقال متبسّماً: **يا كامل** وحسر ذراعيه، فإذا مسح أسود خشن على جلده فقال: **هذا لله وهذا لكم.** فسلّمت وجلست إلى باب عليه ستر مرخى، فجاءت الريح فكشفت طرفه، فإذا أنا بفتى كأنّه فلقة قمر من أبناء أربع سنين أو مثلها، فقال لي: **يا كامل بن إبراهيم،** فأقشعررت من ذلك وألهمت أن قلت: لبّيك يا سيّدي.

فقال: **جئت إلى وليّ الله تسأله عن مقالة المفوّضة، كذبوا، بل قلوبنا أوعية لمشيئة الله، فإذا شاء شئنا، والله يقول:** ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الدهر: ٣٠)، ثمّ رجع الستر إلى حالته»[١].

• عن محمّد بن سنان قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام فذكرت اختلاف الشيعة فقال: «**إنّ الله لم يزل فرداً متفرّداً في الوحدانيّة، ثمّ خلق محمّداً وعليّاً وفاطمة عليهم السلام، فمكثوا ألف دهر، ثمّ خلق الأشياء وأشهدهم خلقها وأجرى عليها طاعتهم، وفوّض أمورها إليهم، فهم يحلّون ما يشاءون ويحرّمون ما يشاءون، ولن يشاءوا إلاّ أن يشاء الله تبارك وتعالى.**

---

(١) **بحار الأنوار**: ج٢٥ ص٣٣٦، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة، الحديث: ١٦.

**فهذه الديانة التي من تقدّمها غرق في بحر الإفراط، ومن نقصهم عن هذه المراتب التي رتّبهم الله فيها زهق في برّ التفريط ولم يوفّ آل محمّد حقّهم فيما يجب على المؤمن من معرفتهم.**

ثمّ قال: **خذها يا محمّد فإنّها من مخزون العلم ومكنونه»**[(١)].

ممّا تقدّم يتبيّن أنّه لا تنافي بين أنّه صلّى الله عليه وآله قد فُوّض إليه أمر التشريع، وبين قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران: ١٢٨)؛ وذلك لما ورد عن جابر الجعفي قال: «قرأت عند أبي جعفر الباقر عليه السلام قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

قال: **بلى والله إنّ له من الأمر شيئاً وشيئاً وشيئاً. وليس حيثُ ذهبت، ولكنّي أخبرك أنّ الله تبارك وتعالى لمّا أمر نبيّه صلّى الله عليه وآله أن يُظهر ولاية عليّ عليه السلام، فكّر في عداوة قومه ومعرفته بهم، وذلك للذي فضّله به عليهم في جميع خصاله، كان أوّل من آمن برسول الله صلّى الله عليه وآله وبمن أرسله، وكان أنصر الناس لله ولرسوله صلّى الله عليه وآله، وأقتلَهم لعدوّهما، وأشدّهم بغضاً لمن خالفهما، وفضل علمه الذي لم يساوه أحدٌ، ومناقبه التي لا تُحصى شرفاً.**

**فلمّا فكّر النبيّ صلّى الله عليه وآله في عداوة قومه له في هذه الخصال وحَسَدهم له عليها، ضاق عن ذلك، فأخبر الله أنّه ليس له من هذا الأمر شيء، إنّما الأمر فيه إلى الله أن يُصيّر عليّاً عليه السلام وصيّه ووليّ الأمر بعده، فهذا عنى الله تعالى.**

**وكيف لا يكون له من الأمر شيء، وقد فوّض الله إليه أن جعل ما أحلّ**

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٤٤١، كتاب الحجّة، باب مولد النبيّ صلّى الله عليه وآله، الحديث: ٥.

**فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، قوله:** ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾»[1].

وكيف كان، فالمتحصّل من جميع ما تقدّم أنّ ما فوّض إليهم عليهم أفضل الصلاة والسلام من أمر التشريع ليس بمعنى أن يحلّوا ما شاءوا ويحرّموا ما شاءوا بإرادتهم من غير وحي أو إلهام، لأنّه باطل بالضرورة العقليّة والنقليّة. وإنّما المراد به ما يكون بإذن الله ومشيئته، بمعنى أنّ الله تعالى لمّا أكمل عقولهم وأدّبهم بحيث لا يختارون ولا يشاءون إلاّ ما يوافق الحقّ ولا يخالف مشيّته، فوّض إليهم تعيين بعض التشريعات، إظهاراً لمقاماتهم ودرجاتهم عند الله تعالى.

وفي الختام لابدّ من الإشارة إلى أنّ هذا المبنى في تفويض التشريع للنبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام يختلف عن النظرية التي يذهب إليها البعض من أنّ الأئمّة محض رواة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله، وليس لهم دورٌ في التشريع إلاّ بهذا القدر.

ومن الواضح أنّه بناءً على نظريّة هؤلاء فلا معنى للولاية التشريعيّة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام.

## مصاديق أخرى للتفويض

ذكر العلاّمة المجلسي أنّ للتفويض استعمالات ومصاديق أخرى في النصوص الروائيّة، وهي كما يلي:

**الأوّل:** «تفويض أمور الخلق إليهم من سياستهم وتأديبهم وتكميلهم وتعليمهم، وأمر الخلق بطاعتهم فيما أحبّوا وكرهوا، وفيما علموا جهة

---

(١) **تفسير العيّاشي:** ج١ ص٣٣٧، الحديث: ٧٧٨.

المصلحة فيه وما لا يعلموا».

وهذا حقّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وغير ذلك من الآيات والأخبار.

• عن جابر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**إنّ الله لمّا خلق السماوات والأرض دعاهنّ فأجبنه، فعرض عليهنّ نبوّتي وولاية عليّ بن أبي طالب فقبلتاهما، ثمّ خلق الخلق وفوّض إلينا أمر الدِّين، فالسعيد من سعد بنا، والشقيّ من شقي بنا، نحن المحلّون لحلاله والمحرّمون لحرامه**»[1].

**الثاني**: «تفويض بيان العلوم والأحكام بما رأوا المصلحة فيها، بسبب اختلاف عقولهم أو بسبب التقيّة، فيفتون بعض الناس بالواقع من الأحكام وبعضهم بالتقيّة، ويبيّنون تفسير الآيات وتأويلها، وبيان المعارف بحسب ما يحتمل عقل كلّ سائل، ولهم أن يبيّنوا ولهم أن يسكتوا كما ورد في أخبار كثيرة»[1].

• عن صفوان بن يحيى عن محمّد بن حكيم قال: «سألت أبا الحسن عليه السلام: عن الإمام هل يُسأل عن شيء من الحلال والحرام والذي يحتاج إليه الناس ولا يكون عنده فيه شيء؟

قال: **لا، ولكن يكون عنده ولا يُجيب، ذاك إليه إن شاء أجاب وإن شاء لم يجب**»[2].

• عن عبد الله بن سنان عن موسى بن أشيم قال: «دخلت على أبي عبد

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٢٥ ص٣٣٩، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة، الحديث: ٢٠.

(٢) **بصائر الدرجات الكبرى**، مصدر سابق: ج١ ص١٠٥، باب في الأئمّة يكون عندهم الحلال والحرام في الأحوال كلّها ولكن لا يجيبون، الحديث: ١٨٩.

الله الصادق عليه السلام، فسألته عن مسألة فأجابني، فبينا أنا جالس إذ جاءه رجل فسأله عنها بعينها فأجابه بخلاف ما أجابني، ثمّ جاء آخر فسأله عنها بعينها فأجابه بخلاف ما أجابني وأجاب صاحبي، ففزعت من ذلك وعظم عليَّ، فلمّا خرج القوم نظر إليَّ، فقال: **يا ابن أشيم، كأنّك جزعت؟** قلت: جعلني الله فداك! إنّما جزعت من ثلاث أقاويل في مسألة واحدة. فقال: **يا ابن أشيم إنّ الله فوّض إلى سليمان بن داود عليه السلام أمر ملكه، فقال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾** (ص: ٣٩)، **وفوّض إلى محمّد صلّى الله عليه وآله أمر دينه فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ فإنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى الأئمّة وإلينا ما فوّض إلى محمّد صلّى الله عليه وآله فلا تجزع**»[1].

• عن عبد الله بن سليمان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «سألته عن الإمام فوّض إليه كما فوّض إلى سليمان؟ فقال: **نعم، وذلك أنّ رجلاً سأله عن مسألة فأجابه فيها، وسأله رجلٌ آخر عن تلك المسألة فأجابه بغير جواب الأوّل، ثمّ سأله آخر عن تلك المسألة فأجابه بغير جواب الأوّلين، ثمّ قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾**.

قال قلت: أصلحك الله! فحين أجابهم بهذا الجواب يعرفهم الإمام؟

فقال عليه السلام: **سبحان الله، أما تسمع الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾** (الحجر: ٧٥) **وهم الأئمّة ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾** (الحجر: ٧٦) **لا يخرج منها أبداً.**

ثمّ قال: **نعم إنّ الإمام إذا نظر إلى رجل عرفه وعرف لونه، وإن سمع**

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٣٧، باب في أنّ ما فوّض إلى رسول الله فقد فوّض إلى الأئمّة، الحديث: ١٣٦٥.

**كلامه من خلف حائط عرفه وعرف ما هو، إنّ الله يقول:** ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢)، **فهم العلماء، وليس يسمع شيئاً من الإنس ينطق إلاّ عرفه، ناج أو هالك، فلذلك يجيبهم بالذي يجيبهم به»**[١].

• عن ابن مسكان عن عبد الأعلى بن أعين، قال: «دخلت أنا وعليّ بن حنظلة على أبي عبد الله الصادق عليه السلام، فسأله عليّ بن حنظلة عن مسألة فأجاب فيها، فقال له عليّ: فإن كان كذا وكذا؟ فأجابه فيها بوجه آخر، فإن كان كذا وكذا فأجابه بوجه آخر، حتّى أجابه فيها بأربعة وجوه، فالتفت إليّ عليّ بن حنظلة فقال: يا أبا محمّد قد أحكمناه، فسمعه أبو عبد الله عليه السلام فقال له:

**لا تقل هكذا يا أبا الحسن، فإنّك رجلٌ ورع، إنّ من الأشياء أشياء ضيّقة وليس تجري إلاّ على وجه واحد، منها وقت الجمعة ليس لوقتها إلاّ وقت واحد حين تزول الشمس، ومن الأشياء أشياء موسّعة تجري على وجوه كثيرة وهذا منها»**[٢].

وهذا ما يفسّر تلك النصوص الكثيرة التي تحدّثت عن أنّ كلامهم له وجوهٌ كثيرة.

• عن محمّد بن حمران عن محمّد بن مسلم عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**إنّا لنتكلّم بالكلمة لها سبعون وجهاً، لنا من كلّها المخرج**»[٣].

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٤١، الحديث ١٣٧٤.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص١٢٤، باب في الأئمّة أنّهم يتكلّمون على سبعين وجهاً، الحديث: ١١٧٩.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص١٢٦، الحديث: ١١٨١.

• عن علي بن أبي حمزة قال: «دخلت أنا وأبو بصير على أبي عبد الله الصادق عليه السلام، فبينا نحن قعود إذ تكلّم أبو عبد الله عليه السلام بحرف، فقلت أنا في نفسي: هذا ممّا أحمله إلى الشيعة، هذا والله حديثٌ لم أسمع مثله قط. فنظر في وجهي ثمّ قال: **إنّي لأتكلّم بالحرف الواحد، لي فيه سبعون وجهاً، إن شئت أخذت كذا وإن شئت أخذت كذا**»[(١)].

• عن الحسن بن محبوب عن الأحول عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**أنتم أفقه الناس ما عرفتم معاني كلامنا، إنّ كلامنا لينصرف على سبعين وجهاً**»[(٢)].

**الثالث**: «التفويض في العطاء، فإنّ الله تعالى خلق لهم الأرض وما فيها، وجعل لهم الأنفال والخمس والصفايا وغيرها، فلهم أن يعطوا ما شاءوا أو يمنعوا ما شاءوا».

• عن أبي بكر الحضرمي عن رفيد مولى ابن هبيرة قال: «قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إذا رأيت القائم قد أعطى رجلاً مائة ألف درهم وأعطاك درهماً، فلا يكبرن ذلك في صدرك، فإنّ الأمر مفوّضٌ إليه**»[(٣)].

وفي الختام نقول كما يقول المجلسي: «وإذا أحطت خُبراً بما ذكرنا من معاني التفويض، سهل عليك فهم الأخبار الواردة فيه، وعرفت ضعف من نفى التفويض مطلقاً، ولم يُحط بمعانيه»[(٤)].

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص١٢٥، الحديث: ١١٨٠.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص١٢٦، الحديث: ١١٨٣.

(٣) **الاختصاص**، مصدر سابق: ص٣٣٢، أنّهم مفوّض إليهم.

(٤) **بحار الأنوار**، مصدر سابق: ج٢٥ ص٣٤٩، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة، فذلكة.

## المبحث الرابع: موقف أهل البيت من الغُلاة

الواقع إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام اتّخذوا موقفاً صارماً من ظاهرة الغلوّ والمغالين، قد لا نجد ما يناظره في مسائل أخرى، فإنّهم واجهوا ذلك بكلّ حزم وقوّة، وقد تنوّعت أساليبهم في ذلك وتصدّيهم لهذه المشكلة الخطيرة التي واجهت الفكر الديني عموماً، ومدرسة أهل البيت عليهم السلام خصوصاً، وذلك لما أشرنا إليه سابقاً أنّ السلطات الحاكمة كانت تحاول إلحاق الغلاة بالشيعة لغاية الحطّ من كرامة عقائدهم، وليظهروهم للملأ بأبشع المظاهر وأشنعها، ويعلنوا للعالم أنّ الشيعة يعتقدون في الأئمّة الألوهيّة، فلا يصلح عدّهم من المسلمين، فتُراق بذلك دماؤهم وتُنهب أموالهم، وكم حدَّثنا التاريخ عن تلك الفظايع السود.

ولعلّ في تاريخنا المعاصر وما نشهده من فتاوى تصدر هنا وهناك ضدّ أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام خيرُ شاهد على ما نقول.

وهذا ما يفسّر الأسباب التي دعت أئمّة أهل البيت عليهم السلام إلى إعلان البراءة من الغلاة وجاهروا بلعنهم والحكم بكفرهم، وكشفوا نواياهم المغرضة، وحذّروا أتباعهم من الجلوس معهم والاستماع إليهم وقطع الارتباط بهم.

وتلقّى الشيعة ـ على مرّ تاريخهم ـ تلك الأوامر الشريفة بالقبول والامتثال، فأعلنوا البراءة وملأوا كتبهم من التبرّي منهم، وإليك إضمامة من الروايات التي تكشف مدى شدّة وحزم أهل البيت عليهم السلام في مواجهة هذه الظاهرة ورموزها، وهي على أصناف:

## الصنف الأوّل: الغلاة شرّ خلق الله

• في أمالي الطوسي عن فضيل بن يسار قال: «قال الصادق عليه السلام: **احذروا على شبابكم الغُلاة لا يفسدونهم، فإنّ الغلاة شرّ خلق الله، يصغّرون الله ويدّعون الربوبيّة لعباد الله، والله إنّ الغلاة شرٌّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا.**

ثمّ قال عليه السلام: **إلينا يرجع الغالي فلا نقبله، وبنا يلحق المقصّر فنقبله.**

فقيل له: كيف ذلك يا ابن رسول الله؟

قال: **لأنّ الغالي قد اعتاد ترك الصلاة والزكاة والصيام والحجّ، فلا يقدر على ترك عادته وعلى الرجوع إلى طاعة الله عزّ وجلّ أبداً، وإنّ المقصّر إذا عرف عَمِل وأطاع**»(١).

• عن سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**اللّهُمَّ إنّي بريءٌ من الغُلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصارى، اللّهُمَّ اخذلهم أبداً، ولا تنصر منهم أحداً**»(٢).

• عن عبد الرحمن بن كثير قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام يوماً لأصحابه ـ في حديث طويل ـ: «**فوالله ما نحن إلاّ عبيد الذي خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضرٍّ ولا نفع، وإن رحمنا فبرحمته، وإن عذّبنا فبذنوبنا، والله ما لنا على الله من حجّة ولا معنا من الله براءة، وإنّا لميّتون ومقبورون ومنشرون...**».

إلى أن قال عليه السلام: «**ويلهم ـ** أي الغلاة ـ **ما لهم لعنهم الله! لقد آذوا الله وآذوا رسوله صلّى الله عليه وآله في قبره وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن**

---

(١) **ترتيب الأمالي**: ج٣ ص٥٧، الحديث: ١١٠٧، **أمالي الطوسي**: مجلس ٣٣، الحديث: ١٢.

(٢) المصدر السابق: ج٣ص٥٨ الحديث١١٠٨، **أمالي الطوسي**: المجلس٣٣، الحديث١٣.

**والحسين وعليّ بن الحسين ومحمّد بن عليّ صلوات الله عليهم، وها أنا ذا بين أظهركم لحم رسول الله وجلد رسول الله صلّى الله عليه وآله، أبيت على فراشي خائفاً وجِلاً...».**

ثمّ قال: «**والله لو ابتلوا بنا وأمرناهم بذلك، لكان الواجب أن لا يقبلوه، فكيف وهم يروني خائفاً وجِلاً أستعدي الله عليهم وأتبرّأ إلى الله منهم، أُشهدكم أنّي امرؤ ولدني رسول الله صلّى الله عليه وآله، وما معي براءة من الله، إن أطعته رحمني وإن عصيته عذّبني...**»[1].

من هنا ورد أنّهم لا تنالهم الشفاعة يوم القيامة:

• عن مسعدة بن صدقة قال: حدّثني جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**صنفان لا تنالهما شفاعتي، سلطانٌ غشوم عسوف، وغالٍ في الدِّين مارق منه غير تائب ولا نازع**»[2].

### الصنف الثاني: البراءة من رموز الغُلاة

تظافرت النصوص الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام في ذمّ رموز الغلاة والمغالين والبراءة منهم. للوقوف أمام تأثير هذه المقولات الفاسدة، نشير إلى بعضها:

• عن ابن مسكان عمّن حدّثه من أصحابنا عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «سمعته يقول: **لعن الله المغيرة بن سعيد، إنّه كان يكذب على أبي فأذاقه الله حرّ الحديد، لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبوديّة لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا**»[3].

---

(١) **اختيار معرفة الرجال، المعروف برجال الكشّي**: ج٢ ص٤٩١، الحديث: ٤٠٣.

(٢) **قرب الإسناد**، مصدر سابق: ص٦٤، الحديث: ٢٠٤.

(٣) **اختيار معرفة الرجال**، المعروف برجال الكشّي: ج٢ ص٥٩٠، الحديث: ٥٤٢.

• عن أبي يحيى الواسطي قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «**كان بنان يكذب على عليّ بن الحسين عليه السلام فأذاقه الله حرّ الحديد، وكان المغيرة بن سعيد يكذب على أبي جعفر عليه السلام فأذاقه حرّ الحديد، وكان محمّد بن بشير يكذب على أبي الحسن موسى عليه السلام فأذاقه الله حرّ الحديد، والذي يكذب عليَّ محمّد بن فرات**»(١).

• عن ابن سنان قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إنّا أهل بيت صادقون لا نخلو من كذّاب يكذب علينا، فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس.**

**كان رسول الله صلّى الله عليه وآله أصدق البريّة لهجة، وكان مسيلمة يكذب عليه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام أصدق من برأ من بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، وكان الذي يكذب عليه ويعمل في تكذيب صدقه بما يفتري عليه من الكذب عبد الله بن سبأ لعنه الله. وكان أبو عبد الله الحسين بن عليّ عليه السلام قد ابتلي بالمختار.**

ثمّ ذكر أبو عبد الله، الحارث الشامي وبنان، فقال: **كانا يكذبان على عليّ بن الحسين عليه السلام.** ثمّ ذكر المغيرة بن سعيد وبزيعاً والسري وأبا الخطّاب ومعمّراً وبشّار الأشعري وحمزة الزبيدي وصائد النهدي، فقال: **لعنهم الله إنّا لا نخلو من كذّاب يكذب علينا أو عاجز الرأي، كفانا مؤونة كلّ كذّاب وأذاقهم حرّ الحديد**»(٢).

• عن يونس قال: «قال لي أبو الحسن الرضا عليه السلام: **يا يونس أما ترى إلى محمّد بن الفرات وما يكذب عليَّ؟** فقلت: أبعده الله وأسحقه

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٥٩١،الحديث: ٥٤٤.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٥٩٣، الحديث: ٥٤٩.

وأشقاه، فقال: **قد فعل الله ذلك به، أذاقه الله حرَّ الحديد كما أذاق من كان قبله ممّن كذب علينا.**

**يا يونس إنّما قلت ذلك لتحذّر عنه أصحابي وتأمرهم بلعنه والبراءة منه، فإنّ الله بريءٌ منه»**[1].

• عن حنان بن سدير قال: «كنت جالساً عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام وميسر عنده، ونحن في سنة ثمان وثلاثين ومائة، فقال ميسر بياع الزطي: جعلت فداك! عجبت لقوم كانوا يأتون معنا إلى هذا الموضع، فانقطعت آثارهم وفنيت آجالهم، قال: **ومَن هم؟** قلت: أبو الخطّاب وأصحابه.

وكان متّكئاً فجلس فرفع إصبعه إلى السماء، ثمّ قال: **على أبي الخطّاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فأشهدُ بالله أنّه كافر فاسق مشرك، وأنّه يُحشر مع فرعون في أشدّ العذاب غدواً وعشيّاً»**[2].

### الصنف الثالث: مقاطعة الغلاة وعدم مجالستهم

• عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «**من قال بالتشبيه والجبر فهو كافر مشرك، ونحن منه براء في الدُّنيا والآخرة.**

**يا ابن خالد إنّما وضع الأخبار عنّا في التشبيه والجبر الغلاة الذين صغّروا عظمة الله تعالى، فمن أحبّهم فقد أبغضنا ومَن أبغضهم فقد أحبّنا، ومن والاهم فقد عادانا ومن عاداهم فقد والانا، ومَنْ وصلهم فقد قطعنا ومن قطعهم فقد وصلنا، ومن جفاهم فقد برّنا ومن برّهم فقد جفانا، ومن أكرمهم**

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٨٢٩، الحديث: ١٠٤٧.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٥٨٤، الحديث: ٥٢٤.

**فقد أهاننا ومن أهانهم فقد أكرمنا، ومن قبلهم فقد ردّنا ومن ردّهم فقد قبلنا، ومن أحسن إليهم فقد أساء إلينا ومن أساء إليهم فقد أحسن إلينا، ومن صدّقهم فقد كذّبنا ومن كذّبهم فقد صدّقنا، ومن أعطاهم فقد حرمنا ومن حرمهم فقد أعطانا.**

**يا ابن خالد من كان من شيعتنا فلا يتّخذن منهم وليّاً ولا نصيراً»**(١).

• عن الحسين بن خالد الصيرفي قال: «قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: **من قال بالتناسخ فهو كافر،** ثمّ قال عليه السلام: **لعن الله الغلاة ألا كانوا يهوداً، أو كانوا مجوساً، ألا كانوا نصارى، ألا كانوا قدريّة، ألا كانوا مرجئة، ألا كانوا صروريّة.**

ثمّ قال عليه السلام: **لا تقاعدوهم ولا تصادقوهم، وابرءوا منهم برئ الله منهم»**(٢).

• عن أبي هاشم الجعفري قال: «سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الغلاة والمفوّضة. فقال: **الغلاة كفّار والمفوّضة مشركون، من جالسهم أو خالطهم أو آكلهم أو شاربهم أو واصلهم أو زوّجهم أو تزوّج منهم أو آمنهم أو ائتمنهم على أمانة، أو صدّق حديثهم أو أعانهم بشطر كلمة، خرج من ولاية الله عزّ وجلّ وولاية رسول الله صلّى الله عليه وآله وولايتنا أهل البيت»**(٣).

---

(١) **عيون أخبار الرضا:** ج١ ص١٣٠، الباب: ١١ ما جاء عن الرضا من الأخبار في التوحيد، الحديث: ٤٥.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٢١٨، الباب: ٤٦، ما جاء عن الرضا في وجه دلائل الأئمّة والردّ على الغلاة والمفوّضة، الحديث: ٢.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٢١٩، الحديث: ٤ .

• عن علي بن سالم عن أبيه قال: قال أبو عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام: «**أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يجلس إلى غال فيستمع إلى حديثه ويصدّقه على قوله. إنّ أبي حدّثني عن أبيه عن جدّه عليهم السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: صنفان من أمّتي لا نصيب لهما في الإسلام: الغلاة والقدريّة**»[1].

• عن ابن أبي عمير عن المفضّل بن مزيد قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام، وذكر أصحاب أبي الخطّاب والغلاة، فقال لي: «**يا مفضّل لا تقاعدوهم ولا تواكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ولا تؤاثروهم**»[2].

### الصنف الرابع: موقف أهل البيت العملي من الغلاة

• عن عبد الله بن شريك عن أبيه قال: بينا عليّ عليه السلام عند امرأة من عنزة وهي أُمّ عمرو إذ أتاه قنبر فقال: إنّ عشرة نفر بالباب يزعمون أنّك ربّهم؟ قال: **أدخلهم**، قال: فدخلوا عليه.

فقال: **ما تقولون؟** فقالوا: إنّك ربّنا وأنت الذي خلقتنا وأنت الذي ترزقنا، فقال لهم: **ويلكم لا تفعلوا، إنّما أنا مخلوق مثلكم**. فأبوا أن يقلعوا، فقال لهم: **ويلكم ربّي وربكم الله، ويلكم توبوا وارجعوا**. فقالوا: لا نرجع عن مقالتنا، أنت ربّنا ترزقنا وأنت خلقتنا.

فقال: **يا قنبر آتني بالفعلة**، فخرج قنبر فأتاه بعشرة رجال مع الزبل والمرور، فأمرهم أن يحفروا لهم في الأرض، فلمّا حفروا خدّاً أمرنا بالحطب

(١) **الخصال**، للصدوق: ج١ ص٧٢، باب الاثنين، صنفان لا نصيب لهما في الإسلام، الحديث: ١٠٩.

(٢) **اختيار معرفة الرجال، المعروف برجال الكشّي**: ج٢ ص٥٨٦، الحديث: ٥٢٥.

والنار فطرح فيه حتّى صار ناراً تتوقّد، قال لهم: **ويلكم توبوا وارجعوا!** فأبوا وقالوا: لا نرجع.

فقذف عليّ عليه السلام بعضهم، ثمّ قذف بقيّتهم في النار، ثمّ قال عليه السلام:

**إنّي إذا أبصرت شيئاً منكراً أوقدت ناري ودعوت قنبرا**(١)

• عن علي بن حديد المدائني قال: «سمعت من يسأل أبا الحسن الأوّل عليه السلام فقال: إنّي سمعت محمّد بن بشير يقول: إنّك لست موسى بن جعفر الذي أنت إمامنا وحجّتنا فيما بيننا وبين الله تعالى.

قال فقال: **لعنه الله ثلاثاً، أذاقه الله حرّ الحديد، قتله الله أخبث ما يكون من قتلة.**

فقلت له: جعلت فداك إذا أنا سمعت ذلك منه أوَليس حلال لي دمه مباح كما أُبيح دم السابّ لرسول الله صلّى الله عليه وآله وللإمام؟

فقال: **نعم، حلَّ والله دمه، حلّ والله دمه وأباحه لك، ولمن سمع ذلك منه.**

قلت: أوَليس ذلك بسابّ لك؟

فقال: **هذا سابّ الله وسابّ لرسول الله وساب لآبائي وسابّي، وأيّ سبٍّ ليس يقصر عن هذا ولا يفوقه هذا القول؟**»(٢).

وخير ما نختم به هذا البحث هو الدّعاء الذي ورد عن الإمام الرضا عليه السلام فإنّه كان يقول: «**اللّهُمَّ إنّي بريءٌ من الحول والقوّة، ولا حول ولا قوّة إلاّ بك، اللّهُمَّ إنّي أعوذُ بك وأبرأُ إليك من الذين ادّعوا لنا ما ليس لنا بحقّ، اللّهُمَّ إنّي أبرأُ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا، اللّهُمَّ لك**

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٥٩٦، الحديث: ٥٥٦.

(٢) **بحار الأنوار**: ج٢٥ ص٣١٢، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ و.. الحديث:٧٧.

**الخلق ومنك الرزق وإيّاك نعبد وإيّاك نستعين، اللّهُمَّ أنت خالقنا وخالق آبائنا الأوّلين وآبائنا الآخرين، اللّهُمَّ لا تليق الربوبيّة إلاّ بك ولا تصلح الإلهيّة إلاّ لك، فالعن النصارى الذين صغّروا عظمتك والعن المضاهئين لقولهم من بريّتك. اللّهُمَّ إنّا عبيدك وأبناء عبيدك لا نملكُ لأنفسنا نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، اللّهُمَّ مَن زعم أنّا أرباب فنحن منه براء، ومن زعم أنّ إلينا الخلق وعلينا الرزق فنحن براءٌ منه كبراءة عيسى بن مريم عليه السلام من النصارى، اللّهُمَّ إنّا لم ندعهم إلى ما يزعمون، فلا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما يدّعون، ولا تدَع على الأرض منهم ديّاراً، ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾»[1].**

## موقف أعلام الشيعة من الغُلاة

في نفس المسار والنهج الذي سار عليه أئمّة أهل البيت عليهم السلام، جاءت كلمات وفتاوى أعلام الشيعة أيضاً، حيث حكموا بتكفيرهم والبراءة منهم، وإليك بعضها:

١ ـ الشيخ المفيد، قال: «والغلاة من المتظاهرين بالإسلام، هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمّة من ذرّيته عليهم السلام إلى الألوهيّة والنبوّة، ووصفوهم من الفضل في الدِّين والدُّنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحدّ وخرجوا عن القصد، وهم ضلاّل كفّار حكم فيهم أمير المؤمنين عليه السلام بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمّة عليهم السلام عليهم بالإكفار والخروج عن الإسلام»[2].

---

(١) المصدر السابق: ج٢٥ ص٣٤٣، الحديث: ٢٥.

(٢) **تصحيح اعتقادات الإماميّة**، مصدر سابق: ص١٣١.

٢ ـ العلاّمة المجلسي، قال: «اعلم أنّ الغلوّ في النبيّ صلّى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام إنّما يكون بالقول بألوهيّتهم أو بكونهم شركاء لله تعالى في المعبوديّة أو في الخلق أو الرزق، أو أنّ الله تعالى حلَّ فيهم أو اتّحد بهم، أو أنّهم يعلمون الغيب بغير وحي أو إلهام من الله تعالى، أو بالقول في الأئمّة عليهم السلام أنّهم كانوا أنبياء، أو القول بتناسخ أرواح بعضهم إلى بعض، أو القول بأنّ معرفتهم تُغني عن جميع الطاعات ولا تكليف معها بترك المعاصي.

والقول بكلٍّ منها إلحاد وكفر وخروج عن الدِّين، كما دلّت عليه الأدلّة العقليّة والآيات والأخبار السالفة وغيرها. وقد عرفت أنّ الأئمّة عليهم السلام تبرّؤوا منهم وحكموا بكفرهم وأمروا بقتلهم، وإن قرع سمعك شيء من الأخبار الموهمة لشيء من ذلك، فهي إمّا مؤوّلة أو هي من مفتريات الغلاة»[1].

• الشيخ الصدوق، قال: «اعتقادنا في الغلاة والمفوّضة أنّها كفّار بالله تعالى، وأنّهم أشرّ من اليهود والنصارى والمجوس والقدريّة والحروريّة ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلّة، وأنّه ما صغّر الله جلّ جلاله تصغيرهم شيء»[2].

• الشيخ كاشف الغطاء قال في معرض حديثه عن الغلاة ومقالاتهم: «وأمّا الشيعة الإماميّة وأئمّتهم عليهم السلام فيبرءون من تلك الفرق براءة التحريم... ويبرءون من تلك المقالات ويعدّونها من أشنع الكفر والضلالات، وليس دينهم إلاّ التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كلّ

---

(١) **بحار الأنوار**: ج٢٥ ص٣٤٦، كتاب الإمامة، باب نفي الغلوّ في النبيّ والأئمّة، فذلكة.

(٢) **الاعتقادات في دين الإماميّة**، تحقيق: علاء آل جعفر، مؤسسة الإمام علي عليه السلام: ص٩٧.

مشابهة للمخلوق»[١].

• السيّد الخوئي، قال في التنقيح: «الغلاة على طوائف؛ فمنهم من يعتقد الربوبيّة لأمير المؤمنين أو أحد الأئمّة الطاهرين عليهم السلام، فيعتقد بأنّه الربّ الجليل وأنّه الإله المجسّم الذي نزل إلى الأرض، وهذه النسبة ـ لو صحّت ـ وثبت اعتقادهم بذلك، فلا إشكال في نجاستهم وكفرهم، لأنّه إنكار لألوهيّته سبحانه؛ لبداهة أنّه لا فرق في إنكارها بين دعوى ثبوتها لزيد أو للأصنام، وبين دعوى ثبوتها لأمير المؤمنين عليه السلام لاشتراكهما في إنكار ألوهيّته تعالى، وهو من أحد الأسباب الموجبة للكفر»[٢].

وغير ذلك من كلمات أعلام مدرسة أهل البيت عليهم السلام الذين حكموا بكفر الغلاة وخروجهم عن دائرة الإسلام.

## مقامات أهل البيت خارجة عن دائرة الغلوّ

بعدما تبيّن أنّ دائرة ونطاق الغلوّ هو تجاوز حدود البشريّة وإضفاء صفة من الصفات الإلهيّة على المخلوق المغالى فيه، يتّضح أنّ ما حظي به أهل البيت عليهم السلام من مقامات رفيعة ومنزلة وكرامة عند الله تعالى، من قبيل عصمتهم وعلمهم بالغيب والولاية لهم ونحوها من المقامات التي أفاضها تعالى عليهم، خارجة عن دائرة الغلوّ؛ لأنّ مثل هذه المقامات ليست تجاوزاً لحدود البشريّة إلى حدود الألوهيّة؛ لأنّ جميع ما عندهم هو من نِعَم الله عليهم، فلا يملكون لأنفسهم شيئاً قباله تعالى ـ كما تقدّم ـ فهم لا يعلمون شيئاً إلاّ بإذن الله، ولا يتصرّفون في شيء إلاّ بمشيئة الله، فهم

(١) **أصل الشيعة وأصولها**، كاشف الغطاء: ص١٧٤ ـ ص١٧٥، تحقيق: علاء آل جعفر، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، مؤسسة الإمام علي عليه السلام.

(٢) **التنقيح في شرح العروة الوثقى**: ج٣ ص٧٣.

عبادٌ مكرمون لا يقدرون إلاّ ما أقدرهم الله عليه.

نعم، إنّ مثل هذه المقامات الرفيعة لأهل البيت عليهم السلام وأنّهم وسائط الفيض بين الله وبين خلقه، قد تبدو غريبة لكثير من الناس، لكن هذه الغرابة تزول بعد التوجّه إلى عجز الخلق عن معرفتهم كنههم وحقيقتهم، لذا قال الإمام الرضا عليه السلام: «**هل يعرفون قدر الإمامة ومحلّها من الأمّة فيجوز فيها اختيارهم، إنّ الإمامة أجلّ قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم أو يقيموا إماماً باختيارهم...**»(١).

لذا ورد في جملة من الروايات المتقدّمة «**اجعلوا لنا ربّاً نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا**».

وعلى هذا الأساس ينبغي للمؤمن أن لا يتعجّل في ردّ ما ورد عنهم من فضائلهم ومقاماتهم ودرجاتهم، إلاّ إذا كان ما نسب إليهم واقعاً في نطاق المستحيلات العقليّة أو كونه خلاف ضرورة الدِّين وإنّما عليه التسليم، لذا ورد عن الحسين بن علوان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

«**إنّ الله فضّل أُولي العزم من الرسل بالعلم على الأنبياء، وورّثنا علمهم، وفضّلنا عليهم في فضلهم، وعلّم رسول الله صلّى الله عليه وآله ما لا يعلمون، وعلّمنا علم رسول الله صلّى الله عليه وآله، فروينا لشيعتنا، فمن قبله منهم فهو أفضلهم، أينما نكون فشيعتنا معنا**»(٢).

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص١٩٩، كتاب الحجّة، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته، الحديث: ١.

(٢) **الخرائج والجرائح**، قطب الدِّين الراوندي، الباب السادس عشر في نوادر المعجزات، الحديث: ٦: ج٢ ص٧٩٦.

## الخلاصة

١ ـ التقت معاجم اللغة والاستعمال القرآني والروائي وكلمات أعلام الفريقين على تحديد ضابطة الغلوّ، حاصلها أنّ الغلوّ يعني الخروج عن حدّ الشيء الذي هو عليه.

٢ ـ تنوّعت مناشئ الغلوّ بين الأغراض السياسيّة والأطماع الشخصيّة والانحطاط الفكري.

٣ ـ من مقولات الغلاة ادّعاء الألوهيّة للنبيّ والأئمّة عليه وعليهم السلام وادّعاء علم الغيب لهم بنحو الاستقلال، والقول بتناسخ أرواحهم، ونحوها من المقولات التي تخرجهم عن دائرة بشريّتهم وكونهم عباداً مخلوقين لله تعالى.

٤ ـ شدّد أهل البيت عليهم السلام في روايات متضافرة على إنكار مثل هذه المقولات، وحكموا على من يدّعيها بالكفر والبراءة منهم ولعنهم.

٥ ـ وهذا ما سار عليه أعلام مدرسة أهل البيت، حيث ذهبوا إلى تكفيرهم وخروجهم عن الإسلام.

٦ ـ إنّ ما توفّر عليه أهل البيت عليهم السلام من مقامات من قبيل علم الغيب أو التفويض إليهم في عالم التكوين والتشريع ونحوها من المقامات، كلّها خارجة عن دائرة الغلوّ، لأنّها جميعاً هبة منحها الله تعالى لهم وبإذنه، وإلاّ فهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً. نعم، قد يعسر على البعض إدراك تلك المقامات واستيعابها.